روائع

من كتابات

الشيخ العلامة

عبد المجيد البيانوني

جمع وإعداد

عُمَر بن عبد المجيد البَيَانُونِي

حقُّ الطبعِ مباحٌ لكلِّ مَنْ أراد بشرط المحافظة على الأصل

جزى اللهُ خيراً كلَّ مَنْ أعان على نشر هذا الكتاب وتوزيعه

للتواصل مع عمر البيانوني

البريد الالكتروني:

xOMAR88x@gmail.com

بالفيس بوك:

facebook.com/OMARBIANONY

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الإهداء

إلى النُّفُوسِ السَّامِيَة، والأرواحِ المُشْرِقَة.. التي جَعَلت الدُّنيَا خيرَ مَزرعةٍ للآخرة..

إلى السائرينَ في طريقِ الحقِّ، والحريصينَ على الثَّبَاتِ عليه، والثَّائِرينَ على البَّاطِلِ والظُّلْمِ والطُّغْيَان..

إلى الذينَ يريدونَ أنْ يجعلوا مِنْ بُيُوتِهم وأُسَرِهم مدرسةً لإعدادِ الكفاءاتِ المُتَمَيِّزة الرَّاقية التي تُسَاهِمُ في نهضةِ الأُمَّةِ وتَقَدُّمِهَا..

عمر البيانوني

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمدُ للهِ حمداً طيباً مباركاً فيه كما يليق بجلال وجهِهِ وعظيمِ سلطانِه، والصلاةُ والسلامُ على سيِّدِنَا محمدٍ أشرفِ الخلق مُفَسِّرِ كلامِ اللهِ بسيرتِهِ وبَيَانِه، وعلى آله وصحبه المقتفين أثَرَه والظامئين إلى رحمة الله وإحسانِه، أما بعد:

فأكثر العلماء الذين استفدتُ منهم ولا أزال أستفيد هو والدي فضيلة الدكتور الشيخ العلامة عبد المجيد بن أسعد البيانوني ـ حفظه الله ونفع به وزاده توفيقاً وسداداً ـ

وقد حرصتُ من خلال قراءتي لكتاباته على جمعِ الكثيرِ منها، فأحببتُ أنْ أنتقي منها ما يمكن لكثير من الناس قراءته، لِيعمَّ نفعُها والاستفادةُ بها، عسى أنْ تكونَ تَبصِرةً وذِكْرَى.

وقد رتَّبتُ هذه الروائع على سبعة أقسام، ووضعتُ تحت كل قسم عناوين فرعية جعلتُها بين (قوسين)، وما كان بدون (قوسين) فهو من عناوينه. وبعض الخواطر لم أجعل لها عنواناً لأنها مرتبطة بما قبلها.

١ـ في الإيمان والرَّقَائق.

٢ـ في الأخلاقِ والسُّلُوك.

٣ـ عَظَمَةُ الإسلامِ وجَمَالُه.

٤ـ بَينَ الحَقِّ والبَاطِل.. مُفَارَقَاتٌ ومُقَارَبَات!

٥ـ مَعَالم في المنهجِ العِلْمِيِّ وأدبِ الخلاف.

٦ـ نَصَائح ذهبيَّة في الحيَاة الزَّوْجِيَّة.

٧ـ إضَاءَاتٌ تَربَوِيَّة.

سائلاً من الله الإخلاصَ والتوفيقَ والسدادَ لي ولجميع المسلمين، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

وبما أنَّ الشيءَ بالشيء يُذكر، فقد قلتُ أبياتاً قبل أسابيع عن أمي وأبي، أعبِّر فيها عن نزرٍ يسيرٍ من محبتي لهما، وإنْ كنتُ عاجزاً عن التعبير بالكلام عن عُمْق تلك المحبة، إلا أنَّ ما لا يُدرَك كُلُّه، لا يُترَك قُلُّه (١)..

أمي وأبي

شَمْسَانِ قد سطَعَا، فعيشي مُشْرِقٌ ... قَمَرَانِ قد لَمَعَا بكل مكانِ

قَلْبِي وأُنْسِي، قد سَمَوْتُ بحبهم ... أوَهَلْ يَعِيشُ المرءُ دُونَ جَنَانِ؟

عَيْنَانِ في وجهي، تُنِيرُ مَسِيرَتِي ... هُمْ فَرْحَتِي دَوْماً بأيِّ زمانِ

طابتْ حيَاتِي في مَحَبَّتِكُمْ سَمَتْ ... وعَلَتْ مآذِنُ فضلِكُمْ بِبَيَانِ

١٠/ ٨/ ١٤٣٥هـ

عمر بن عبد المجيد البيانوني

---

(١) ـ في لسان العرب: (والقُلُّ خلاف الكُثْر).

وفيه: (والقُلُّ: القِلَّة، مثل الذُّلِّ والذِّلَّة، يقال: الحمد لله على القُلِّ والكُثْر والقِلِّ والكِثْر).

ولعلَّ هذا التعبير الذي يفضِّله البعض: (ما لا يُدرَك كُلُّه، لا يُترَك قُلُّه)، أبلغُ من قول بعضهم: (ما لا يُدرَك كُلُّه، لا يُترَك جُلُّه)؛ لأنه إذا كان لا يُترك قُلُّه فمن باب أولى أن لا يترك جُلُّه.

أما إذا قيل: (لا يُترَك جُلُّه) فقد يعني أنه يترك قُلَّه، وهذا خلاف المقصود.

في الإيمان والرقائق

(كَلِمَةُ (الله) هِيَ سِرُّ الوُجُودِ كُلِّه)

كلمة (الله) مفردة واحدة، ولكنَّها تجمع معجم الحياةِ كلِّها.. وهي سرُّ الوجود كلِّه.. فلا تقف في وجهها السموات والأرض وما بينهما.. فما يكون مَنْ يجهلها؟ وما يكون مَنْ يكرهها؟ وما يكون مَنْ يحاربها؟ وما يكون مَنْ يفتري عليها؟ وما يكون مَنْ يزوِّر حقيقتها؟ وما يكون مَنْ يُعَادي أهلها؟ وما أعظمَ مَنْ يكون مِنْ أهلها؟ ﴿قُلِ (اللهُ) ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ الأنعام: ٩١..

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(مَا أجْمَلَ هَذِهِ اللذات)

لذَّات ما أجملَها، وما أمتعَها؟! لذَّةُ العمل لله.. لذَّةُ ساعة في سبيل الله.. لذَّةُ الشعور أنَّك في قلب العمل لنُصرة دين الله.. لذَّةُ الخروج عن حظوظ النفس وأهوائها.. لذَّةُ الخروج عن مباهج الدنيا وعلائقها وعوائقها..

ما أجملَها مِنْ لذَّات، وما أمتعَها؟! وأيُّ لذَّةٍ تضارعها أو تقف أمامها؟! جرِّب هذه اللذَّات بنفسك، وأصغ لحكم قلبك، وصحِّح مسار حياتك..

فيا ربنا لك الحمد بما حبَّبت إلينا الإيمان وزيَّنته في قلوبنا، وحبَّبتَ إلينا العمل لإعلاء دينك، وابتغاء مرضاتك، فأتم علينا نعمتك، وأحسن ختامنا بفضلك..

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(مَقَامُ العُبُودِيَّة أو النِّدِّيَّة)

أمامك أحد مقامين لا ثالث لهما: مقام العبوديَّة، أو مقام النِّدِّيَّة.. مقام العبوديَّة نزل فيه أبوك آدم عليه السلام، فقال عندما زلَّ به القدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ الأعراف: ٢٣، فكان الجواب الإلهيُّ: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ البقرة: ٣٧.

ومقام النِّدِّيَّة نزل فيه عدوُّه إبليس، فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ ص: ٧٦، وقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ص: ٨٢، فكان الجواب الإلهيُّ: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ. وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ الحجر: ٣٤ـ ٣٥، فاختر لنفسك أحد المقامين.. واعلم أنَّ الأمر خطير.. أمر سعادة أبديَّة، أو شقاء أبديّ!

* * * * *

(عَيْنُ البَصِيرَةِ تَتَجَاوَزُ الحُجُبَ الكَثِيفَةَ)

عين البصيرة تخترقُ جُدُراً غليظة، وترى الحقائق بنور الله ..

تَخترقُ جدارَ الأهواء.. وجدار الحسابات الجدليَّة العقيمة، تحت مسمَّى العقل والحكمة.. ومسمَّيات شتَّى..

وتَخترقُ جدارَ الفهم المغرض للنصوص الشرعيَّة، وتوظيفها بما يهدر الحكمة العليا للدين، ومقاصد التشريع..

وتَخترقُ جدارَ الباطل، الذي يلبس لبوس الحقِّ، ويجنِّد المنافقين من كلِّ لون، ليشوِّه صورة الحقِّ، ويطمس معالمها..

وتَخترقُ أخيراً جدارَ الصمت، الذي يحيل الناس إلى أموات في صورة أحياء، لا يسمعون، ولا يبصرون، ولا يتَّعظون.. يتحرِّكون كالأشباح، ولا يعيشون كرامة الإنسان، ولا يعرفون مشاعر الإنسان ..

* * * * *

(السُّقُوطُ فِي العَلانِيَةِ لا يَكُونُ إلا بَعدَ السُّقُوطِ سِرّاً)

لا يسقط أحد في حمأة الباطل علانية، إلا بعد أن يكون قد سقط سرّاً.. وما بين سقوط السرِّ، وسقوط العلانية فرصة للاستدراك والأوبة والتغيير.

ولكنَّ وقائع الحياة تقول: إن الساقطين من شاهق، وعن تعمُّد وتبرير قلَّما يستطيعون الوقوف عند حدٍّ، حتَّى يصلوا قاع المستنقع..

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(المَسَافَةُ الأخرويَّة تُقطَعُ بِالقُلُوب)

المسافةُ الأخرويَّة تقطع بالقلوب لا بالأبدان، وبالأرواح لا بطول الأعمار والأزمان..

فهلَّا أعددنا الهمم الصادقة، والقلوب لتكون المطايا السابقة، والأرواح لتكون النسور المحلِّقة؟!

آه من طول المسير، وقلَّة النصير، وضعف التأثير!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(النِّيَّـةُ هِيَ الرُّوحُ لِكُلِّ عَمَلٍ)

النية لها أهمِّيَّتها المتميِّزة المتجدِّدة، لاعتبارات كثيرة، أهمُّهَا: أَنَّ النيَّة تفرض نوع السلوك الذي يتلاءم معها، وعلى حسب قوَّتها أو ضعفها يكون اندفاع الإنسان في اتِّجاه السلوك الذي تمليه، أو فتوره.

وهي كالروح لكلِّ عمل، تدخل كلَّ عملٍ، وتتجدَّد معه: فهي تسبق العمل وتتقدَّم عليه، ثمَّ تواكبه وتصاحبه، ثمَّ تتبعه وتحافظ عليه، ثمَّ تهيِّئ النفس لمثله، أو لأفضل منه وأحسن..

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(التَّأثِيرُ العَظِيمُ للنيَّة)

كم من ميِّت على فراشه، معدود عند الله في المجاهدين الشهداء!

وكم من نائم هو في القائمين المتهجِّدين!

وكم من مُقِلٍّ لا يجدُ قوت يومه، وهو عند الله في الأسخياء المنفقين في سبيل الله!

ورُبَّ أشعثَ أغْبرَ، ذي طمرين، لا يؤبه له مدفوعٍ بالأبوابِ، لو أقسمَ على الله لأبرَّه..

إنَّما المعوَّل عند الله تعالى على ما في القلوب من صدق النيَّة، وصدق الإرادة، فلا تغرَّنكم المظاهر عن الحقائق، ولا تحجبنَّكم الرسوم عن الدوافع الخفيَّة، التي لا يطَّلع عليها إلا مَنْ يعلم السرَّ وأخفى سبحانه، ولا يحيط بها إلا القائل جلَّ جلاله: ﴿وَأَسِرُّوا قَولَكُم أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ الملك: ١٣.

وقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ). رواه مسلم.

* * * * *

(بِنَاءُ الإنسَانِ)

بناء الإنسان هو حجر الزاوية في كلِّ نهضة.. وبناء الإنسان لا يقف عند حد؛ لأنَّ أجيال الناس تتواصل وتتداخل، والحياة تمور بالمتغيرات، التي تتطلب رؤى متجددة، ومواقف جديدة، وتطويراً في الأساليب والوسائل يتناسب مع شرف الغاية وسمو الأهداف..

* * * * *

(الإنسَانُ حَيثُ يَجعَلُ نَفْسَهُ)

إنَّ رفيع الهمة في سياحة أبداً، إنه حُرٌّ يعتزُّ بحريته، على قدر ما يسمو بعبوديته، ينتفع بكل الرجال، ولا تقف به همَّتُه عند حال، ولا يقصر نظره على أحد منهم مهما عظم.. حتى يكون بين يدي المعصوم صلى الله عليه وسلم، يأخذ عنه، ويصدر عن إشارته..

فهو مرآةُ القرآنِ الكريم، ومعدن أسراره وأنواره.. يقف أمام القرآن متدبراً، ليجد فيه جواب كل مسألة، وحل كل معضلة..

* * * * *

(جِئتُكَ مُعَزِّياً)!

افترى رجل على رجل من أهل الصلاح والفضل، وخبَّ في البهتان عليه وأوضع.. فجاءه زائراً على غير ميعاد، فعندما فوجئ به قال له:

معذرة منك إن كان الوقت غير مناسب، ولكنَّ الواجب يقتضي منِّي أن أبادر بعزائك باثنين يعزُّ عليَّ أن أعزِّيك فيهما.. ففغر الرجل فاه متعجِّباً!

فقال له: «جئتك معزِّياً بدينك وعقلك» ثمَّ انصرف..

* * * * *

(الغيبةُ عَلامَةٌ عَلَى ضعفِ الشَّخصِيَّة)

الغيبةُ والنميمة مع ما هو معلوم من تحريمها شرعاً، فهي دليل ضعف شخصيَّة الإنسان وجبنه، ومرض نفسه، وعدم ثقته بأفكاره وآرائه.. وإلا فلمَ لا يواجه من يغتابهم بالنصح والحوار؟!

فما وقع الناس في المحرَّمات إلا لتفريطهم بالواجبات، وما تمادوا في المباحات إلا وجرَّتهم إلى التفريط بالواجبات.. فما أعظمَ شريعةَ اللهِ وما أحكمَهَا!

* * * * *

فَضْلاً أعِد النَّظَرَ! ولو كُنتَ نَاجحاً متميِّزاً..

أعد النظر في علاقاتك.. مع الله ربِّك أوَّلاً.. ثمَّ مع والديك.. ومع القريب والبعد، والعدوِّ والصَّديق، والصغيرِ والكبير.. ولو كانت علاقاتك في نظرك ناجحة متميِّزة.. فهناك ما هو أفضل منها وأرقى، وما هو أحسن منها وأنجح..

وانظر إلى نفسك وعَلاقاتِكَ بعيونِ الآخرين، ولو كانوا أعداءك فرُبَّما انتَفعتَ بكلامهم أكثر ممَّا تنتفع من كلام أصدقائك المقرَّبين..

وحذارِ أن تلتمس المعاذير لنفسك، فالمعاذير مقتلة التغيير..

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(ضَعِ المَوْتَ نُصْبَ عَينَيْك، واعمَلْ مَا شِئتَ فِي دُنيَاك)

يمرُّ الموت ببعضنا كسحابة صيف عابرة، تظلُّه لحظات أو ساعات، فيخاف وينقبض قليلاً، ورُبَّما أصلح شيئاً من عمله، ثمَّ يعود إلى ما كان عليه، من غفلة وتسيُّب، وجفوة عن الحقِّ، وبعد عن الله.. ولا يصلح حال الإنسان إلا إذا كان الموت حاضراً في قلبه، لا يغيب عن فكره، دون أن يجنح به إلى سلبيَّة، تعطِّله عن العمل وتقعده..

وقد قال بعض الناصحين لمن طلب منه موعظة: (ضَعِ المَوْتَ نُصْبَ عَينَيْك، واعمَلْ مَا شِئتَ فِي دُنيَاك)..

إنَّ ذكر الموت وما بعده من الأهوال ميزان حقٍّ للمؤمن يحمله على الاستعداد للقائه، والاستقامة على دين الله، والحرص على العمل الصالح.. فأين اليقظون الجادُّون؟

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(مَا أكرَمَ الحياةَ عِنْدَمَا تَسمُو الغَايَةُ)

ما أشبه الإنسان الذي يدور حول شهوات نفسه وأهوائها، من مأكل ومشرب، وملبس ومنكح، والسعي وراء الجاه والشهرة، ودعاوى العجب والغرور، التي لا تعدُّ ولا تحدُّ..

ما أشبه حياة هؤلاء بحياة الحيوان الأعجم، يعيش أحدهم تافهاً، يقضي حياته يجهد وينصب في توافه الأمور وسفسافها، ودنايا المآرب وصغارها، ويموت صغيراً تافهاً..

وإنَّ بين هؤلاء وبين المكارم التي يعيش لها أولو الهمم العالية، ويعتزُّ بها ذوو المعادن النفيسة لقطيعة تامَّة، وبوناً بعيداً شاسعاً، وفي مثل هؤلاء يقول الشاعر:

دَعِ المكَارِمَ لا تَرحَلْ لِبُغيَتِهَا ... واقعُدْ فَإنَّكَ أنتَ الطَّاعِمُ الكَاسِي

ألا ما أكرم الحياة وأسعدها عندما تسمو الغاية، وتكبر الأهداف، وتثقل بالمعاني النبيلة، التي تحقِّق للإنسان كرامته وسيادته، وترخص في سبيلها الدماء والأرواح..

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(هِجرَةُ القُلُوب)

أعظم الهجرة هجرة القلوب إلى الله.. ألم يقل النبيُّ المصطفى صلَّى الله عليه وسلَّم: (وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ)؟

وأوَّل ثمراتها: هجر الذنوب والنفرة منها، وإذا غفل الإنسان وزلَّ سارع إلى باب ربِّه، واعتذر واستغفر، ولسان حاله دائماً يقول: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ طه: ٨٤، (لَكَ العُتْبَى حَتَّى تَرضَى)..

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(الهِجرَةُ هِيَ انعتَاقٌ مِنَ البَاطِلِ والظُّلْم)

إنَّ إخراج الناس من الظلمات إلى النور، الذي هو أهمُّ مهمَّات بعثة الرسل الكرام، وإنزال الكتب، يعني فيما يعني تحرير الإنسان من تسلّط الإنسان وقهره، الذي يفقده حرِّيَّة اختياره، ويكرهه على ما لا يريد، بكلِّ أساليب الإكراه الناعمة الفاتنة، أو الخشنة الباغية..

وهل كانت الهجرة إلا نوعاً من الانعتاق من ربقة الباطل، والظلم والتسلُّط؟! فانظر ماذا يُقدَّم في سبيل الحرِّيَّة من ثمن كبير..

* * * * *

(أنتَ مَدَارُ العِزِّ أو الهَوَانِ لِنَفْسِكَ)

سبحان الله وبحمده.. ما أقربَ السعادةَ من الإنسان وما أبعدها عنه؟! بينه وبينها، حجاب النفس، وقيود الهوى..

يظنُّ أنَّه يدافع عن نفسه وهو يكبِّلها بأوهامها، ويوثِّق عليها أغلالها، ويقتل آمالها، ثمَّ يلتفت إلى أقرب الناس إليه فيتَّهمهم بما يعانيه، ويلقي عليهم علله، ويحمِّلهم سلبيَّاته.. فأنَّى لمثله أن تداوى علله، وترقأ جروحه؟!

أيُّها العاقل! كن وفياً مع نفسك..لا تبرِّئ نفسك؛ تكن نفسك أمَّارة بالسوء.. واصدق معها في تعريفها بعللها تكن نفساً لوّامة.. وجاهدها على اتّباع الحقّ بصدق تكن نفساً أوّابة مطمئنّة..

فأنت مدارُ العزِّ لنفسك أو الهوان، والربح أو الخسران.. فعلام الهروب من حقائق الحقِّ إلى ترَّهات الأباطيل؟!

* * * * *

(اخترْ لِنَفْسِكَ)

يُعذَرُ العامَّة بما لا يُعذَرُ به الخاصَّة، ويُعذَرُ الخاصَّة، بما لا يُعذَرُ به خاصَّة الخَاصَّة، فاختر لنفسك من أيِّ الأصناف أنت؟!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(العَوْنُ والتَّوْفِيقُ عَلَى قَدْرِ الهِمَّةِ والإرَادَة)

من دار في فلك نفسه جاءه من العون على قدر همَّته، ومن حمل همَّ أمَّته أمدَّه الله بمدد، يحقِّق له ما هو أكبر من همِّه وهمَّتِه.

وتلك سنَّةٌ من سنن الله، وحكمته في خلقه وقدره: ﴿كُلّاً نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ الإسراء: ٢٠. و (إِنَّ المعُونَةَ تَأْتِي مِنَ اللهِ لِلْعَبْدِ عَلَى قَدْرِ المَؤُونَة، وَإِنَّ الصَّبْرَ يَأْتِي مِنَ اللهِ عَلَى قَدْرِ المُصِيبَةِ).. رواه البزار عن أبي هريرة مرفوعاً. و (يَا ابنَ آدَمَ أَنْفِقْ أُنفِقْ عَلَيْكَ). حديث قدسي، متفق عليه.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(النَّاجِحُونَ مُتَفَائِلُونَ)

كلُّ الناجحين يملأ التفاؤلُ قلوبهم، ولا شيء يشلُّ طاقة الإنسان، ويعطِّل قواه مثل التشاؤم، والنظرة السوداويَّة للأمور..

لقد علَّمنا القرآن الكريم أن لا نيأس.. فعندما يبلغ البلاء مداه يأتي الفرج من الله.. ومن حيث لا يحتسب أولياؤه وأعداؤه.. وتلك سنَّة الله.. والله غالب على أمره ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون..

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(مَا أعجَبَ النَّفْسَ)!

تأمَّلت في حركة النفس البشريَّة.. وتقلُّباتها المختلفة، وأحوالها المتناقضة: بين الحبِّ والكره، والسخط والرضا، والرغبة والرهبة، والفعل وردَّة الفعل، واتِّباع الهوى والاحتكام إلى العقل.. وتغيُّر حالها بين الحين والآخر من الشيء إلى أقصى نقيضه..

فقلت: جلَّت عظمة الخالق، ما أعجب التركيب النفسيَّ لهذا الإنسان! فسبحان القائل: ﴿وَفِي أنفُسِكُمْ أفَلا تُبصِرُونَ﴾ الذاريات: ٢١؟!، والقائل جلَّ في علاه: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى. الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى. وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ الأعلى١ـ٣، ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ الشمس: ٧ـ١٠.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(وَقَفَاتٌ وأشْجَان مَعَ انقِضَاءِ الأعوَام ورَحِيلِ الأحبَاب)

عام شمسيٌّ تكاد تُطوَى صحائفُه.. كما طُوِيتْ صحائفُ أعوام قبله..

أشياء كثيرة متشابهة.. وأشياء مختلفة.. وأشياء مستجدَّة.. وأشياء طواها عالم الإهمال والنسيان..

وأفراح وأحزان.. وأشخاص قد رحلوا عن هذه الدار.. وأشخاص دخلوا إليها..

ويبقى الجديدان: الليل والنهار، يدوران بالأعمار، كما يدور الرحى، يطحن الحَبَّ، ويعمل ولا يكلُّ.. ولا يتوقَّف إلا أن يأذن صاحبه..

وتجري بهذا الكون سنن الله تعالى وأقداره بعلمه وحكمته، بالتجديد والتغيير، الذي ركَّب الله تعالى هذه الدنيا عليه، حتَّى يرث الله الأرض ومن عليها..

والمهمُّ في حياتك أيُّها الإنسان العاقل أن لا تجعل نفسك بمرور عام، ودخول عام جديد، كالطلل البالي، تتآكل من داخلك حتَّى تفنى.. تقف عليه متأسِّفاً متحسِّراً.. تندب حظَّك، وتبكي أيَّامك، وتجدِّد أحزانك، على أيَّام مضت ولن تعود، وشباب يتوارى خلف زحف المشيب، وعافية تتناقص يوماً بعد يوم.. فما جدواك من ذلك؟!

دخول عام، ورحيل عام.. لا معنى له إلا بك أيُّها الإنسان، أنت الذي يصنع الفعل الذي يخلِّده بين الأعوام.. ويصنع من نفسه ما تسعد به الأيَّام والأجيال..

وكما يرحلُ العام.. سنرحلُ نحن عن هذه الدنيا بما جمعنا من الأعمال..

فانظر أيُّها الإنسان! بم ترحل؟ وماذا تترك وراءك؟ للعام

فَخُذْ لكَ زادينِ: من سيرة ... ومن عملٍ صالحٍ يُدَّخَرْ

وكن في الطريقِ عفيفَ الخُطا ... شريفَ السَّماعِ كريمَ النَّظَرْ

ولا تَخْلُ من عملٍ نافعٍ ... تَعِشْ غيرَ عَبْدٍ، ولا مُحتَقَرْ

وكن رجلاً إن أتوا بعده ... يقولون: مَرَّ، وهذا الأثَرْ

ألقِ أيُّها الإنسانُ عن همَّتك حُجُبَ الكلام، وأغلالَ الأوهام، ورُكامَ الآثام، وانهض برسالة وجودك، وغاية حياتك، واسعَ إلى سرِّ سعادتك بالإقبال على ربِّك، قبل أن يفجأك الأجل، وتتحسَّر على العمل، فيوم الرحيل قريب:

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ. فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ. فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً. وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً. وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ. فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً. وَيَصْلَى سَعِيراً. إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً. إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ. بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً﴾ الانشقاق: ٦ـ١٥.

* * * * *

نودِّع كلَّ عام ببكائيَّات مكرورة، وكلمات ندم آسفة.. ونعلن حزننا وأسفنا على فراقه.. ونعلم أنَّه لا بدَّ مفارقنا.. فعلامَ الحزنُ والأسف؟!

ونستقبل العام الجديد بفرح لا طعم له ولا لون ولا رائحة.. وتفاؤل وأحلام.. وليس هذا الوداع والاستقبال ممَّا يتقرَّب به إلى ربِّ العالمين.. وإنَّما هو بوح النفوس الأمَّارة بالسوء أو اللوَّامة عن مكنون تفريطها وعجزها..

وتمضي السنون هكذا.. وكأنَّ كلَّ وداعٍ واستقبال إن هما إلا حبوب مهدِّئة أو مخدِّرة عن مصيرنا المحتوم.. عن أعمار تمضي، وصحف تطوى، وجنائز نغدو بها ونروح.. نودِّع بها الأقارب والأصحاب.. وكلٌّ منَّا ينتظر يومه وقدره.. وما من متَّعظ أو معتبر.. إلا من رحم ربِّي.. فطوبى للعاملين المخلصين.. ثمَّ طوبى للعاملين المخلصين.. وكلُّ عام وأنتم إلى الله أقربُ وأحبُّ..

* * * * *

(مَا أعجَبَ الزَّمَن)!

الزمان خلق من خلق الله عجيب.. اختلف في حقيقته العلماء والفلاسِفة والحكماء.. وتتجلَّى العبرة فيه في جميع آنائه:

فما مضى منه لا يستَحضر الإنسان منه إلا ساعة أو سويعة.. فكيف لا يستطيع استحضار سنة أو سنوات إلا بهذه اللحظات؟!

وما حضر من الزمان يقيسه بالساعة المعرُوفة، التي هي أداة محسوسة، ومعيار ظاهر للناس جميعاً.. ولكنَّ إحساس الناس بها مختلف..

وما هو آت غامض مجهول.. وهو في علم الله مخزون، الله أعلم بما يكون فيه..

والعبرة والعجب في أمر الزمان أنَّ شهودَه النفسيَّ الحاضرَ يختلف بين إنسان وآخر:

فالمصاب الحزين تطول ساعات يومه وكأنَّه عام..

والفرِحُ المسرور تمرُّ به الشهور فلا يحسُّ بها، وكأنَّها أيَّام..

والغافل اللاهي لا يشهد الزمان ولا يحسُّ به..

أيعود الأمر يا ترى إلى الرتابة والاعتياد على تقلُّب الليل والنهار؟!

أم إلى تداخل حالة الإنسان النفسيَّة الشعوريَّة وتماهيها مع العالم الخارج عنه؟!

أم إلى سرٍّ من أسرار الله في الخلق، لم يكشف لنا كنهه بعد؟!

ويبقى تقلُّبُ الليل والنهار، ومرُّ الزمان بالإنسان كمرِّ السحاب عبرةً لأولي الألباب: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الألْبَابِ﴾ آل عمران: ١٩٠، ﴿يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ﴾ النور: ٤٤.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(ذِكْرَى المِيلاد)

في ذكرى الميلاد (٢٩/٨/١٩٥١) فرح به الأقربون، ولم يشعر بفرحتهم، ولم يشاركهم بها.. كانت الولادة الأولى للجسد الحيوانيِّ.. الذي عرف ربَّه بالفطرة والاضطرار، ولم يذق طعم معرفة العقل والاختيار..

وتوالت الذكرى عاماً بعد عام.. رتيبة متشابهة، لم يحسّ بها في أكثر الأعوام..

ثمَّ كانت الولادة الثانية يوم عرفَتِ الروحُ ربَّها، وعرفت طريقها إليه بعد شرودها، فغمرها بفضله ونعمائه، ومَنَّ عليها بما لا يحصى من ألطافه وآلائه، وخصَّها بما يعجز العقل عن وصفه، ويعيى اللسان عن النطق به..

ميلاد الجسد لم يكُن إلا مَرَّة، وميلاد الروح يتجدَّد كلَّ لحظة.. والجسد يشبُّ ويهرم، والروح تسمو وتتألَّق.. والتنازع بين سموِّ الروح وتثاقل الجسد قصَّة طويلة طويلة.. والحديث عنها ذو شجون وشجون.. ولكنَّها منظومة في أسرار ألطافه الخفيَّة..

وتَقلَّبَ القلبُ في هذه النعماء عاماً بعد عام.. في ابتلاءات شتَّى تعلو به وتنزل، ويبعد بها ويدنو.. ومن وراء ذلك كلِّه كان يرى يد العناية الإلهيَّة تعطيه إذ تعطيه وتعطيه، وتعطيه إذ تمنعه، وتمنعه القليل لتعطيه الكثير..

ومن منتصف المسير إلى هذه اللحظة الحاضرة كان كلّ يوم ينتظر ميلاداً جديداً، يطرب له ويفرح، ويرجو من ربِّه أن يكون له فرحة كبرى.. بعدها ما هو أكبر.. ولو حمل لغيره من الأحزان ما حمل..

ففي كلِّ خطوة تتناقص خطوات المسير، وتستشعر الروح حُجُب الغيب القادم تشفُّ وترقُّ، وحجب الحاضر الغابر يغلظ سمكها، ويخبو زخرفها، ويصدأ بريقها..

فماذا بعدها؟! أيفرح بذكرى ميلاد الجسد أم بميلاد الروح؟ وأيُّ فرح يسعده ويرضيه؟

إلهي كما مننت بسابق الإحسان دون علم ولا دعاء فأتمم الفضل بحسن الختام، وأسبل الستر والغفران على ما قدَّرت من الأخطاء والآثام.. فرحمتك وسعت كلَّ شيء.. وأنا شيء..

* * * * *

وقفةٌ مَعَ النَّفْس!

مع غروب شمس الثامن والعشرين من شهر آب، لهذا العام / ٢٠١٢/ م، دخل يوم ميلاد له جديد، تجاوز فيه سنة بعد إكمال العقد السادس من العمر، قضى منه أكثر من النصف بعيداً عن بلده..

وغمرته عناية الله ورعايته، وفضل اختياره له، ولطفه به، ونعمه الحسِّيَّة والمعنويَّة بكلِّ أنواعها وأطيافها، وحسنها وألطافها.. فهو لم ير من بؤس الحياة وضرِّها ما يستحقُّ أن يذكر، أو يسطر..

فيطرق قلبه على أعتاب العبوديَّة خَجِلاً وَجِلاً، ويستشعر سؤال الربِّ جلَّ جلاله وعتابه: «عبدي! ألم أعطِكَ؟! ألم أحبُكَ؟! ألم أكفِكَ؟! ألم أغنِكَ؟! ألم.. ألم.. ألم؟!» أفلا يكون عبداً شكوراً؟!

ومنذ ما كان في منتصف العمر، وهو يرقب الموت بين الخطوة والأخرى، ويمنِّي النفس أن يستعدَّ للقائه، كما يستعدُّ العروس لعروسه..

وتلفُّه الغفلة، فيسوِّف ما يسوِّف.. وتهزُّه الفواجع، فيصحو ويتذكَّر.. ثمَّ يغفو، ويغفل..

ألا ما أعظمَ نعمةَ اللهِ ومنَّته بما قدَّر من العمر، فما كان يحسب أن سيبلغ نصفه، أو ثلثيه.. بلهَ أن يتجاوز عقد الستِّين..

وكان عندما يُسأَل، وهو في عقد الأربعين عن عمره يقول مازحاً: «هو ماضٍ نحو السبعين أو الثمانين أو التسعين»، على حسب مقتضى الحال.. وربَّما أخذ السامع الأمر على ظاهره، وبنى عليه كثيراً من القول، فكان الموقف طريفاً..

ويرنو إلى عدَّاد الأشهر والسنين، يمشي ولا يتوقَّف، يمرُّ مرَّ السحاب، ويأخذ معه بعض الأحبَّة والأصحاب.. ويتَّعظ قليلاً بفقد الأحبَّة، وذكريات الراحلين، وعبر الأحداث والسنين.. وهو في سكرة الهوى، وداء التسويف.. يعظ ولا يتَّعظ، ويذكِّر ولا يتذكَّر.. وبين لسانه وعمله بعد كبير، وخلف مرير..

ومع إحساس النفس بدنوِّ الأجل، تجدُّ في العمل، ويخفُّ تعلُّقها بكثير ممَّا حولها، ويقوى نظرها إلى ما تستقبل من أمرها، وتستشعر التفريط فيما سبق من أيَّامها، ويلهج لسان حالها وقالها في كثير من المواقف: (لو استقبلت من أمري ما استدبرت..)..

وتحاول أن تستدرك ما تستطيع.. ولكن هيهات هيهات! فأنَّى لواجب الوقت أن يسمح لغيره بمزاحمته، أو يعطيه شيئاً من حقِّه؟! وحَسْبُهُ التوبةُ والندمُ على ما فرَّط، والعملُ الجادُّ فيما هو فيه..

ثمَّ يغفو ويغفو.. وقد نصب له الشيطان والنفس الأمَّارة الشرَك بعد الشرَك.. لقد كان يحسب أنَّ صراعه معهما سينتهي بجولة فاصلة، وضربة قاضية، وما كان يحسب أنَّه كُلَّما تقدَّم خطوات على الطريق دهمه إعصار فيه نار، فزلزل أعطافه، وأحرق أطرافه، وصدَّه عن سبيله، وردَّه عن غايته..

ولكنَّه لن ييأس أو يستسلم، وله إقرار بخطيئته، وحُجَّة من فطرته، وأسوة بأبيه آدم في زلَّتِه وأوبتِه، ورجاء بفضل الله ورحمتِه..

فيا ربّ مغفرتك أوسع من ذنوبي، ورحمتك أرجى عندي من عملي..

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

هَكَذَا هِيَ الدُّنيَا! فاحزِمْ أمرَكَ للرحِيل..

كما تتناثر أوراق الخريف تتناثر أوراق التقويم هنا وهناك، تحمل معها خلايا العمر، وكلمات الأفكار، ومشاعر الإنسان..

يوماً من الأيَّام كانت تنمو وتكبر، كانت تحلم وتطمح، كانت تعيش اللذَّة، وتعاني الألم.. كانت تعيش الرغبة، وتقتحم ميادين العمل..

واليوم وقفت عند حدِّها، توقَّفت أحلامها، تَبدَّد طموحها.. بل تحوَّل من هنا الصغيرة الضيِّقة.. إلى هناك الواسعة الفسيحة.. إلى الفضاء الرحب.. إلى عالم الغيب..

ما أكثر الذين يتحسَّرون على الشباب، ويندبون أيَّامه؟! ولكنَّني بحمد الله عشت لذَّة الشباب، بقوَّته وأحلامه، وطموحه وآلامه، وجدِّه ما استطعت واجتهاده.. وأعيش اليوم بحمد الله لذَّة الشيخوخة بنضجها ومشاعرها، وما اجتمع لها من خبرة الحياة وتجارب الأيَّام..

ويتملَّكني شعور عارم أنَّ نعمة الشيخوخة في طاعة الله مع ما فيها من الضعف والعلل، لا تقلُّ عن نعمة الشباب في طاعة الله.. ففيمَ تشتدُّ حسرة كثير من الناس على الشباب الذاهب، وتباكيهم على أيَّامه الخوالي؟!

ولست مع أبي العتاهية في قوله:

أيا مَنْ يؤمِّلُ طولَ البقاء ... وطول البقاء عليه ضَرَرْ

إذا ما كبرتَ وفاتَ الشَّبَاب ... فلا خيرَ في العيشِ بَعدَ الكِبَرْ

إنَّه منطق دنيويٌّ ماديٌّ، يؤسِّس للسلبيَّة ويدمِّر النفس، فخيركم من طال عمره وحسن عمله، كما جاء في الحديث الشريف، وللحياة في الكبر متعة ومباهج لا يعرفها الشباب..

إنَّ المشكلة دائماً في الإنسان ومشاعره.. إنَّه يشكو ويتذمَّر دائماً من حاضره، ويهرب من يومه لأمسه، ومن غده لأمسه.. فمتى يعيش لحظته الحاضرة بالعمل والأمل، والنظر الإيجابيِّ إلى المستقبل..

تناثر أوراق التقويم يحمل معه ذكريات جميلة، وأخرى مؤلمة.. فهل نستطيع تحويل الذكريات كلِّها إلى ذكريات جميلة؟

نعم! نستطيع ذلك إذا وضعنا في حياتنا «معادل الاحتساب الإيماني».. العمل لله.. الصبر لله.. التعلُّق بالله.. ابتغاء الأجر من الله.. الاستعداد للآخرة..

مشاعر الرحيل مؤلمة! محزنة.. موحشة.. يخفق لها القلب، وتدمع لها العين.. ولكنَّها عندما تكون من آلام وأحزان.. من سجن ضيِّق.. من حرمان طال أمده.. إلى حبيب طال الشوق إليه.. إلى عالم فسيح، حيث لا ظلم ولا ضرر، ولا همّ ولا كدر..

عندما يعلم الإنسان أنَّه على طريق الراحلين.. عندها يكون الرحيل حبيباً.. عندها يقول الراحل: عجّلوني.. عجّلوني.. يقول: وا طرباه! غداً ألقى الأحبَّة.. محمَّداً وصحبه..

ما بين الطفولة والشيخوخة محطَّات ومحطَّات، ومطبَّات في الحياة ومنزلقات، وفتن حالكات، والسعيد من حفَّته من الله العناية، وأحاطت به أسوار الرعاية، وأكرمه الله بيقظة القلب والبصيرة، فأوقد العزيمة، وجدَّ المسيرة..

ما بين الطفولة والشيخوخة تتنامى مشاعر الرحيل وتتقاصر، وتغيب وتحضر، وتتباين المشاعر منها والمواقف.. وأكثرها مشاعر المقت والنفور! ويفتن الناس بالناس، وتختلط الأوراق، وتضيع المبادئ.. وكلُّ الناس يغدو ويروح، «فبائعٌ نفسَه، فمُعتِقُها أو مُوبِقُها»، كما يقول نبيُّنا المصطفى صلوات الله وسلامه عليه..

ورُبَّما في لحظات استثنائيَّة خطيرة، من نزول البلاء والضيق أن يتمنَّى الإنسان الرحيل، لا حُباً به، ولكن كرهاً بواقعه، أو يقدم عليه بنفسه واختياره، ولا يعلم أنَّه يحلُّ مشكلته بما هو أكبر منها وأخطر، ولكنَّ الهدي النبويَّ يقول له: (لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ فَإِنْ كَانَ لا بُدَّ مُتَمَنِّياً فَلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الحَيَاةُ خَيْراً لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الوَفَاةُ خَيْراً لِي). متفق عليه.

مشاعر مع كلِّ رحيل! ما بالك أيُّها الإنسان كُلَّما اقتربت خطاك من النهاية على هذه الأرض ازداد تشبُّثك بالحياة؟! وكلُّ عضو فيك يقول لك: «لقد انتهى مفعولي، أو كاد!».. حقاً كما قال ربُّنا: ﴿وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ آل عمران: ١٨٥..

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ﴾ الانشقاق: ٦.. ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ النجم: ٤٢.. ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ الذاريات: ٥٠..

أيُّها الإنسان! أما علمت أنَّ من أحبَّ لقاء الله أحبَّ الله لقاءه.. فلماذا تبغض الرحيل وتأباه.. وتهرب منه وهو لاقيك؟! وأنت تعلم أنَّ رحلة البداية لها نهاية، وأنَّ إحدى رجليك في

الدنيا، والأخرى في القبر، وأنَّ حياتَك كلَّها منحةٌ من الله وابتلاء.. وأن ليس بعد هذه الدار إلا الجنَّة أو النار..

شتَّان بين راحل وراحل: راحل يساق إلى ربِّه كما يساق المجرمون: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ﴾ الرحمن: ٤١.. وراحل يُزَفُّ كما تُزَفُّ العروس، بالحُبِّ والتكريم، وبشريات النعيم: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَن لا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فصلت: ٣٠..

أيُّها الإنسان! أنت سيِّد المخلوقات في هذا الوجود.. الكون كلُّه يغبطك على مكانتك، إلا الشيطان، فإنَّه عدوُّك الأوَّل الأخطر.. فلا تجعله يستحوذ عليك ويخزيك.. ولا تجعل للشيطان عليك سبيلاً، فترحل معه إلى الجحيم..

تحرَّر أيُّها الإنسان من عالم الطين وأثقاله، تحرَّر من وحشة الأرض.. وأحسن ظنَّك بالله.. وانظر هناك إلى عالم الغيب.. فالرحمة الكبرى تنتظرك، فأقبل إلى مولاك ولا تتردَّد..

أنِّب نفسك على توالي الغفلات، وتراكم الزلات، وابرأ من حولك وطولك وقوَّتك، واعلم أن لا ملجأ لك من الله إلا إليه، فاطَّرح ببابه، وتذلَّل بين يديه، واذرف في خلواتك دمع الخوف والندم، والحبِّ والشوق..

واعلم أنَّ ذلك كلَّه مفتاحُ التوفيقِ والرضا، وباب القبول عند عالم السرِّ والنجوى..

يا ربّ! حنَّت الطيور إلى أوكارها، وحنَّ كلُّ حبيب إلى حبيبه، فيا ربّ لا تقطع حبِّي وحنيني حتَّى ألقاك وأنت راضٍ عنِّي.. ليس لي من بضاعة أقدم بها عليك سوى ذلِّي وافتقاري، وحبِّي وحنيني.. اللهمَّ اجعل الموت خير غائب ننتظره، والقبر خير بيت نسكنه.. وحبِّب إلينا لقاءك، وأكرمنا بلذَّة مناجاتك، واصطفِ قلوبنا مع قلوب من أحببت من عبادك.. اللهمّ إنَّ مغفرتك أوسع من ذنوبنا، ورحمتك أرجى عندنا من عملنا، فاغفر لنا وارحمنا، وتقبَّل منَّا صالح ما أعطيتنا، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقلّ من ذلك..

﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾ الكهف: ١٠..

* * * * *

غَيِّرْ نفسَكَ تُسعِدْ حَياتَكَ!

وهل يستطيع الإنسان أن يغيِّرَ نفسَه، ويُسعِدَ حياته؟! فأينَ قدرُ الله إذن؟! وأين ما يتحدَّث الناسُ عنه من الحظوظ، التي هي في نظرهم أشبهُ بالمنايا، تخبط فيهم خبط عشواء؟! إنَّها إشكاليَّة تثار في الأذهانِ وعلى الألسنة، كُلَّما دُعيَ الإنسان إلى التغيير، وإلى بذل الجهد وتحمُّل المسؤوليَّة..

ومن ثَمَّ فقد أردت أن أقطع الطريق عليها بهذا العنوانِ المستوحى من الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ الرعد: ١١.

وتوضيحاً لهذا الأمر بما لا يدع مجالاً للريب، فإنَّ الإنسان يستطيعُ في هذه الحياة أن يصنعَ مستقبله الزاهرَ، ويشيد برجَ سعادته بيديه مستمداً عون ربِّه وتوفيقه قبل كلِّ شيء.. وذلك منطقُ التكليف الذي تقوم عليه حياة العباد في هذه الدنيا، وهو سرُّ وجودهم فيها..

وإذا كان علماء النفس والاجتماع يختلفون، ويشتدُّ الجدل العقيم بينهم، والتنازعُ بغير جدوى: أيّ الأمرين أشدُّ تأثيراً في حياة الإنسان وأعمقُ نفوذاً: الوراثةُ أم البيئة؟!

فإنَّ ممَّا ينبغي أن لا يختلفَ عليه اثنان: أنَّ الإنسان أعطي الإرادة والهمَّة والعزيمة، ليكون له قوَّة التغيير لما يكون عليه بفطرته، وما يرثه من بيئته، وليكون في نهاية المطاف مسؤولاً عن عمله، مجزياً بسعيه..

فإن لَـمْ ينل بسعيه ما تصبو إليه نفسه، وتسمو إليه همَّتُه فحسبه أن ينال الأجر على نيَّتِه الصادقة، وافياً غير منقوص..

فقد يكون الإنسان ذكياً بفطرته، أو متوسِّط الذكاء أو غبياً.. وقد يكون هادئَ الطبع، أو حادَّ المزاج عصبياً.. وقد ينشأ في بيئة متقدِّمة، أو متخلِّفة، فقيرة أو غنيَّة.. وقد يعتاد عاداتٍ حسنةً، أو سيِّئة.. ولكنَّه يستطيع في ذلك كلِّه أن لا يكونَ كأمثاله سلباً أو إيجاباً.. وواقع الحياة يشهد بهذه الحقيقة، ويقدِّم عليها ما لا يحصى من الأمثلة..

ـ يستطيع حادُّ الذكاء أن يوظِّفَ ذكاءه في عمل جادٍّ مثمر، فيكون ذكاؤه خيراً عليه، وعلى مجتمعه وأمَّته، كما يستطيع أن يوظِّف ذكاءه في الشرِّ والمكر والفساد، فيكون مجرماً عاتياً، ويكون ذكاؤه شراً عليه، وعلى مجتمعه وأمَّته..

ـ ويستطيعُ محدود الذكاء أن يبذلَ جهداً أكبر ويجتهدَ، فيسبق من هو أذْكى منه، وأوفرُ حظاً في المال، ورقيِّ البيئة..

ـ ويستطيع الناشئ في بيئة فقيرة متخلِّفة أن يسبق أولي الجدِّ والغنى، ومَنْ توفَّرت لهم كلُّ أسباب الرقيِّ والتقدُّم..

وكم رأينا في الناسِ نماذج من ذلك: فكم من فقير معدِمٍ أصبح من أثرياء العالم؟! وكم من وارثٍ لمجدٍ مؤثّل، وغنىً لا يحيط به نظر أو فكر.. آل أمره إلى فقر مُدقِعٍ، وعُدمٍ موجع؟! ومقدِّمات ذلك ظاهرة لمن نظر وتدبَّر، وبحث عن الأسباب، ووضع يده على العلل..

ومَنْ ظنَّ الأمر ضرباً من الحظِّ الأعمى، لا معنى له ولا تبرير، فقد ركب مركب الشطط الأحمق، وتمادى في سوء الظنِّ بربِّه، والجهل بحكمته وعدله، ولم يفقه سنن الحياة، ولم ينتفع بعبرها.. ولا يظلِمُ ربُّك أحداً..

وإنَّ العظماء بحقٍّ هم الذين نهضوا ببيئتهم، وسموا بأحسابهم وأنسابهم، ولم يركنوا إلى تراث موهوم، ولا مجد مزعوم..

ولعلَّ هذه المقدِّمة كافية بين يدي خطوط عامَّة لمنهج، يحقِّق لِـمَنْ يأخذ به التغييرَ الإيجابيَّ، ويُسْعِدُ حَياتَه بإذن الله:

١ـ وأوَّل هذه الخطوط العامَّة: الإيمان الصادق بالله تعالى، وما يقتضيه من حقائق إيجابيَّة، كالتوكُّل على الله، وتعلُّق القلب بالله، وتَفويض الأمر إليه، والاعتقاد الصادق أنَّه سبحانه مالك الملك، وأنَّه النافع الضارُّ وحده، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع.. وهي حقائق تشمل حياة الإنسان من أوَّلها إلى آخرها، وكلُّ ما أذكره بعدها داخلٌ فيها بوجه أو بآخر..

٢ـ وإنَّ من حكمة الله الظاهرة ظهور الشمس في رابعة النهار أنَّ الله تعالى ربط الأسبابَ بالمسبَّبات، والنتائج بالمقدِّمات، ففقه سنن الله تعالى، والعمل وفقها، والأخذ بالأسباب التي

أقامها لا بدَّ له من ثمرة بإذن الله، فكيف يتسرَّب اليأس والقنوط إلى نفس من يحمل هذه العقيدة، ويُقعِدُ همَّتَه، ويقتل طموحه؟!

وما أكثرَ الذين يهملون الأخذَ بالأسباب، وينتظرون أنْ يبتسمَ لهم الحظُّ، ويبحثون عنه هنا وهناك، حتَّى من أبواب الحرام؟! ويضيِّعون أعمارهم بمثل هذا العبث!

٣ـ والتصوُّر الصحيح للمثل الأعلى من أهمِّ ما يعين الإنسان على التغيير في نفسه، وإسعاد حياته، وهو يحمل عدَّة معانٍ أهمُّها:

أ ـ أنَّه القيم العليا التي يؤمن بها الإنسان، ويقيم حياته عليها، ولا يرضى أن يتنازل عنها أمام أيِّ ضغطٍ من الضغوط..

والإيمان بأسماء الله تعالى وصفاته، وما يليق به جلَّ وعلا من صفات الكمال يضع للإنسان القيم العليا التي يجب أن يؤمن بها، ويتطلَّع إلى تحقيقها..

ب ـ وهو بمعنى آخر: (الإنسان الكامل) الذي يكون الأسوة الحسنة للإنسان في كلِّ شأنٍ، وليس من أحدٍ كذلك إلا النبيُّ المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، فقد أمر الله العباد بذلك، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً﴾ الأحزاب: ٢١.

وهذا الأمر يقتضي أن يدرس المؤمن سيرة النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم دراسة المُحِبِّ الصادق، الحريص على التأسِّي والاتِّباع، وأن يعرف سننه الكريمة، وشمائله العظيمة في كلِّ شأن من شؤون الحياة.

ولا يتمُّ للإنسان هذا الأمر إلا بالتلقِّي عن العلماء العاملين، ومجالستهم، ودراسة سير الصالحين وتراجم حياتهم، وتدبُّر كلامهم، وقد كان لهم أوفرُ الحظِّ من ميراث النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وهديه في العلم والعمل، فلا عجب أن كانوا منارات الهدى للناس في كلِّ عصر..

والتلقِّي عن العلماء العاملين لا يعني الرجوع إليهم في كل شأنٍ فحسب، بل ينبغي أن يكونَ الإنسان قريباً من العلماء قربَ المشْورة الدائمة، وطلب النصح في كلِّ خصوصيَّاته، وذلك ما يجعل الإنسان على بيِّنة وهدىً في جميع أموره..

٤ـ ومن الخطوط العامَّة لمنهج التغيير الإيجابيِّ: علوُّ الهمَّة، والثقة بالنفس، من غير عجب بها ولا غرور، (فما ترك من الجهل شيئاً من رضي عن نفسه)، وعلوُّ الهمَّة من الإيمان، وهو يدلُّ على شرف النفس وسُمُوِّها، وتطلُّبِها لمعالي الأمور، ونفرتها من الدنايا، وأي شيء يدعو دنيَّ الهمَّة إلى التغيير؟! وإنَّ الله تعالى يحبُّ معالي الأمور، ويكره سفسافها، وما أحسنَ قولَ الشاعر:

وَإذَا كَانَتِ النُّفُوسُ كِبَاراً ... تَعِبَتْ فِي مُرَادِهَا الأجسَامُ

ويقترن علوُّ الهمَّة بالثقة بالنفس، فلابدَّ لعالي الهمَّة من أن يكون واثقاً بنفسه، ثقة تعينه على العمل بهمَّة، وتذلِّل له العقبات، ولكنَّ آفة الثقة بالنفس في كثير من الناس أنَّها تبلغ حدَّ العجب بالنفس والغرور، فبينهما حجابٌ رقيق، لا يدركه كثير من الناس، ولا يميِّزونه.. والعجب بالنفس والغرور هو من ضيق عَطَن الإنسان، وقلَّة خبرته بالحياة، ومعرفة ما عند الآخرين من طاقات وإبداعٍ..

٥ـ ومن الخطوط العامَّة لمنهج التغيير الإيجابيِّ: قطعُ العوائق، والتخفُّفُ من الملهيات والعلائق، فالعوائق تقتل الطموح، وتصدُّ عن تحقيق الأماني، وكثرة الاشتغال بالملهيات والعلائق يُضيِّع العمر في توافه الأمور، ويجعل الإنسان يدور في فلك ضيِّق، لا يحقِّق هدفاً، ولا يبني شرفاً..

والاعتدالُ أصلٌ في حياة المسلم لا معدى عنه.. وما أكثرَ ما تَضيع الأعمارُ بالملهيات، وتُقتَل بتوافه الأشياء! فلا يصحو الإنسان على نفسه إلا بعد ضياع الشباب والصحَّة والفراغ..

٦ـ ومن الخطوط العامّة لمنهج التغيير الإيجابيِّ: الحذرُ كلّ الحذر من غلبة اليأس من النفس، وسوء الظنِّ بالآخَرين، فما من شيء يقعد الإنسان عن العمل، ويقتل فيه روحَ الجدِّ والطموح مثلُ اليأس من إصلاح النفس، ومن قدرتها على تغيير واقعها.. وما اصطاد الشيطان الإنسان في شَرَك لا فكاك له منه ـ إلا أن يشاء الله ـ مثل ما اصطاده في شرك اليأس وَالقُنوط من رحمة الله، ومبدأ ذلك اليأس من إصلاح النفس.. وهو وسوء الظنِّ بالآخَرين أخوان متلازمان، وصنوان لا يفترقان..

فاليأس من إصلاح النفس، يعطِّل طاقات الإنسان، ويجعله يتآكل ويضمحلُّ، وسوء الظنِّ بالآخَرين.. يمنع من رؤية محاسنهم، والانتفاع بهم، فيتأكَّد في نفسه اليأس من التغيير.. وتلك مهلكة الإنسان ومقتله..

٧ـ ومن الخطوط العامَّة لمنهج التغيير الإيجابيِّ: الحرص على الاستخارة والاستشارة في الأمور كلِّها، فالاستخارة من علامات قوَّة الإيمان بالله تعالى، وما خاب من استخار، ولا ندم من استشار، ومن استشار جمع إلى عقله عقل الناس، وإلى علمه علم غيره وخبرته..

وإذا كان الإنسان أمام اختيارات عديدة في كلِّ مرحلة من مراحل حياته، فالاستخارة والاستشارة يمكن أن تحدِّدَ له الاختيار الأفضل لمسيرة حياته، وحسن مآله..

وينبغي أن يستشار في كلِّ شأن أهل الخبرة فيه والاختصاص، وأن يُحسِن الإنسانُ اختيار من يستشيره، فما كلُّ مَنْ كان قريباً من الإنسان تحسن استشارته، والأخذ برأيه، وأوَّل شرط في المستشار أن يكون من أهل العقل والحكمة، والدين والأمانة، والخبرة في الحياة، المشهود لهم بحسن الفهم والنظر في العواقب..

وبعد؛ فما أسهلَ الكلامَ وأصعبَ العملَ! وما أحسنَ البيانَ إذا تُرجِمَ إلى عمل! بل ما أحسنَ البيانَ العمليَّ، الذي يتَّصل بالقلب، ويحرِّك المشاعر! أفتطمعُ أيُّها المربِّي والداعية! في تغييرِ مَنْ حولك، وما حولك، وتلومُ مَنْ يُقصِّرُ في ذلك، وأنت تعجزُ عن تغييرِ نفسِك، ولا تلومها على ذلك؟!

وقد يظنُّ بعض من يقرأ هذا المقالَ أنَّه ملْتزمٌ بهذه الحقائق لا يخرجُ عنها، ولو دقَّق النظر في حياته وسلوكه لرأى أنَّه إذا أخذ ببعض هذه الحقائق، فإنَّه لا يلتزم بهَا كلِّها، وإذا التزم بها في بعض الأمور، فإنَّه لا يلتزم بها كلِّ شأن.. ورُبَّما كانت ضرورتُه إليها فيما لا يلتزم به فيها أشدَّ وأكبرَ.. وإنَّما ينبغي أن تكون هذه الحقائق هدي سيرة ومنهج حياة، لِتُؤتي ثمراتها الطيِّبة في تقويم السلوك، وسداد المواقف، والله الموفِّق والهادي إلى سواء السبيل!

* * * * *

غَيِّرْ نفسَك أغيِّرْ لكَ العالَـم!

التغيير المطلوب لما بالنفس يقوم على ثلاثة أركان:

١ـ أولويَّة إصلاح النفس وتطويرها، والنظر إليها بعين النقد والشكِّ والمحاسبة، وعدم النظر إليها بعين الرضا والتبرئة. ويترتَّب على ذلك الحرص على التطوير والتغيير..

٢ـ وضوح الغاية، والأهداف المرحليَّة والنهائيَّة، والعمل المخلص الجادُّ على تحقيقها، وعدم الاشتغال بما يشغل عنها أو يناقضها.

٣ـ الأخذ بالأسباب المعنويَّة إلى أبعد حدٍّ، وبالأسباب المادِّيَّة على حسب القدرة والاستطاعة..

وأهمُّ الأسباب المعنويَّة: صدق الالتجاء إلى الله تعالى والتوكُّل عليه ، واجتماع القلوب والكلمة على الحقِّ، ونبذ الفرقة والخلاف.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

الشَّبَابُ والمَشِيبُ!

الإسلام ينظر إلى الدنيا نظرة إيجابيَّة بنَّاءة، من خلال حقائق الإيمان بالله واليوم الآخر، وتكليف الإنسان ومسؤوليَّته، وأمر الله لعباده بعمارة الأرض وفق منهجه، الذي ارتضاه لهم..

ولكنَّ الأمَّة في مسيرتها الحضاريَّة الطويلة عرفت كثيراً المواقف المتطرِّفة، والاستنتاجات السلبيَّة، المجافية لمنهج النبوَّة، الذي هو القدوة والميزان..

وترى أصحابها يدعون إليها، ويرغِّبون بها، ويظنُّون أنَّها المثاليَّة الشرعيَّة المطلوبة، ويستشهد الآخرون بأقوالهم، مستحسنين لها، مرغِّبين بها..

نقرأ نموذجاً من ذلك قول أبي العتاهية في التزهيد بالدنيا:

هيَ الدارُ دارُ الأذى والقذَى ... ودارُ الفناءِ ودارُ الغِيَرْ

ولو نلتَها بحَذافِيرها ... لمتَّ ولم تقضِ منها الوَطَرْ

أيا مَن يُؤمِّلُ طُولَ البقا ... وطُولُ الخُلُودِ عَليهِ ضَرَرْ

إذا ما كَبِرتَ وفاتَ الشبابُ ... فلا خيرَ في العَيشِ بعدَ الكِبَرْ

فالبيتان الأوَّل والثاني وصف لطبيعة الدنيا، وأنَّ الإنسان راحل عنها مهما عُمِّر، وأنَّه لن يقضي منها كلَّ أوطاره، مهما مُتِّع بها..

وفي البيت الثالث حصر الشاعر عاقبة رغبة الإنسان بطول البقاء بالضرر، الذي يعانيه الإنسان في شيخوخته من العلل والأمراض، وفي ذلك من التشاؤم وضيق النظر ما فيه..

وتمادى الشاعر في البيت الأخير في نظرته المتشائمة، فلم يُوَفَّق، ولم يُسَدَّد، إذ نظر للأمور من زاوية ضيِّقة؛ جعلته يندب فوات الشباب، ويزري بحال الكبر والمشيب..

وما علم أنَّ في الكِبَرَ خيراً عظيماً: من بُعْدِ النَّظَر، وحسن التقدير للمواقف، ونضج التجرِبة وغَنائها، وسداد الرأي واتِّزانه، وقطف ثمار العمل الجادِّ في مرحلة الشباب.. وهو ما يفتقده الشباب في أكثر الأحوال.. وأعظمُ من ذلك كلِّه: التزوُّدُ للآخرة بالعمل الصالح، فخيركم من طال عمره، وحسن عمله..

وقد رصد ذلك الإمامُ الربَّانيُّ ابنُ الجوزيِّ رحمه الله، فأحسن عرضه وتصويره، إذ يقول في كتابه الماتع (صيد الخاطر):

(دعوت يوماً فقلت: اللهمَّ بلِّغني آمالي من العلم والعمل، وأطل عمري لأبلغ ما أحبُّ من ذلك، فعارضني وسواس من إبليس فقال: ثمَّ ماذا؟ أليس الموت؟ فما الذي ينفع طول الحياة؟

فقلت له: يا أبله: لو فهمت ما تحت سؤالي علمت أنَّه ليس بعبث، أليس في كلِّ يوم يزيد علمي ومعرفتي، فتكثر ثمار غرسي فأشكر يوم حصادي؟ أفيسرُّني أنَّني متُّ منذ عشرين سنة؟ لا والله لأنِّي ما كنت أعرف الله تعالى عشر معرفتي به اليوم.

كلُّ ذلك ثمرة الحياة التي فيها اجتنيت أدلَّة الوحدانية، وارتقيت عن حضيض التقليد إلى يفاع البصيرة، واطَّلعت على علوم زاد بها قدري، وتجوهرت بها نفسي، ثمَّ زاد غرسي لآخرتي، وقويت تجارتي.. وقد قال الله لسيِّد المرسلين: ﴿وَقُل رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ طه: ١١٤.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قال: (لا يَزِيدُ المؤمنَ عُمرُه إلا خَيراً).

وفي حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنَّ مِنَ السعادةِ أنْ يَطُولَ عمرُ العبدِ، ويرزقه الله عزَّ وجلَّ الإنابة)، فيا ليتني قدرت على عمر نوح، فإنَّ العلم كثير، وكُلَّما حصل منه حاصل رفع ونفع).

فالشباب من أجلِّ نعم الله على العبد، وقليل من يقدِّر هذه النعمة، ويحسن استثمارها، والمشيب نعمة ومنحة، ليحسن العبد العمل، ويستدرك قبل حلول الأجل.. فالحمد لله الذي مَنَّ بنعمة الشباب، وأتمَّ النعمة بحكمة المشيب، ومتَّع بالعافية، ونسأله سبحانه حسن الختام والعاقبة..

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

سَبِيلُ الهِدَايَة

مثل الإنسان في هذه الحياة كمثل سائر في طريق شديد الظلمة، لا يدري شيئاً من معالمه، وما يمكن أن يعرض له فيه، فهو أحوج ما يكون إلى نور يضيء له طريقه، كما هو أحوج ما يكون إلى دوام هذا النور وعدم انقطاعه، لأنَّ في انقطاعه هلكته..

وتلك حقيقة الهداية التي يطلبها المؤمن دائماً، ويسألها ربّه..

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

بُورِكْتَ أيُّها القَدَر!

ما بال أكثر الناس كلَّما ذكر القدر استحضروا الأقدار المكروهة، واقترن في أذهانهم بصور شتَّى من الابتلاءات؟! ونحن نعلم ونوقن أنَّ أقدار النعم والعطاء، والخير والعافية تشكِّل ما يزيد عن تسعين في المئة من حياة الإنسان وتقلُّباتها..

لا جرم أنَّ ذلك مؤشِّر واضح على ضعف الإنسان وغفلته، وظلمه وجحوده، ونظرته القاصرة للأمور، واستغراق همِّه وهمَّتِه في اللحظة الابتلاء الحاضرة، عن ماضيه ومستقبله..

وعندما يُفهَم القَدَر على ضوء حال المؤمن ومآله فلا شكَّ أنَّه لا يكون إلا خيراً محضاً، لأنَّ المحنة تكون منحة، والابتلاء بالشرِّ ظاهراً يكون سبيل الرقيِّ والاجتباء.. كما كان ليوسف الصديق؛ من البئر إلى القصر، ثمَّ من السجن إلى الملك.. والسرُّ في كلِّ ذلك: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يوسف: ٩٠..

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

(مَا أعظَمَ هذه الصَّفقَةَ: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى﴾)

على البائع الوفيِّ أن يُسلِّمَ البضاعةَ، بلا نقص ولا تأخير..

ومن حقِّ المشتري الكريم أن يَتسلَّم البضاعة على حسب العقد بينهما..

ولكنَّه ترك أكثر البضاعة، وتسلَّم أقلَّ من القليل، وقدَّم للبائع الوفيِّ جوائز لا تخطر له على بال جزاء أمانته ووفائه.. وما ادَّخر له من الكرامة لا يدخل تحت تصوُّر أو وصف..

فما أحسن هذه الصفقة، وما أجملها؟!

﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم، بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ، وَعْداً عَلَيْهِ حَقاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالقُرْآنِ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ، فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ التوبة: ١١١.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

رُوحُ المبَادِئِ وحَيَاتها!

إنَّ مبادئَ الحقِّ والخير ممَّا تواطأت الأديان السماويَّة على تقريرها وإثباتها، وهي معروفة عند الناس، ومركوزة في فطرتهم، ولا يسع عاقلاً أن ينكرها أو يتنكَّر لها، ولكنَّها عندما تنقطع عن دين الله تعالى، تنقطع عن الروح التي تمنحها القوَّة والتأثير، ولا بدَّ عندئذٍ أن تمتزج بأهواء الناس، التي تفسد طبيعتها، وتعكِّر صفاءها.. فتفقد حقيقتها ومعناها، وتصبح أشبه بالجسد الذي لا روح فيه..

ورُبَّما طغت عليها الأهواء، وامتزجت بها حتَّى أحالتها إلى شيء آخر أبعد ما يكون عن مبادئ الحقِّ والخير، ولا حظَّ لها منها إلا التسميات، والشعارات الجوفاء..

فلا يغرَّنَّكم أيُّها الناس! إطلاق المبادئ والشعارات، والتغنِّي بها، ولكن انظروا حقيقتها ودخائلها، ومن وراءها وما وراءها!

إنَّ أكثر الناس يتاجرون بها، ويزايدون على أهلها المخلصين الصادقين، ويصطادون بها الدنيا، ومغانمها العاجلة..

ولا حظَّ لهؤلاء من هذه المبادئ إلا كحظِّ أولئك المنافقين، الذين ضرب الله لهم مثلاً في كتابه، فقال سبحانه: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ﴾ البقرة: ١٧.

* * * * *

(مِنْ عَظَمَةِ النَّبِيِّ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ)

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما يثني على أحد أصحابه يهتزُّ كيان صاحبه من وقع هذا الثناء العظيم، وهو صلى الله عليه وسلم بشر.. وصاحبه يعلم أنَّه بشر..

فأمَّا هو؛ فيتلقَّى هذه الكلمة من الله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ القلم: ٤، وهو يعلم مَنْ هُوَ الله.. ويعلم منه ما لا يعلمه سواه..

ويبقى بَعدها ثابتاً راسخاً مُطمئناً، لا يتكبَّر على العباد، ولا يتعاظم، وهو الذي سمعَ ما سمع من العليِّ الكبير..

* * * * *

(عَظَمَةُ النَّبِيِّ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ مِنْ عَظَمَةِ الرِّسَالَة)

إنَّ حقيقة هذه النفس المحمدية من حقيقة هذه الرسالة، وإنَّ عظمة هذه النفس من عظمة هذه الرسالة..

وإنَّ الحقيقة المحمَّديَّة كالحقيقة الإسلاميَّة لأبعد من مدى أيِّ مجهر يَملِكُه بشر، وقصارى ما يملكه راصد لعظمة هذه الحقيقة المزدوجة أن يراها ولا يحدِّد مَداها، وأن يشير إلى مسارها الكونيِّ دون أن يحيط بآفاق هذا المسار..

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(الدَّعْوَةُ إلى الله سُلُوكٌ أخلاقِيٌّ)

الدعوة إلى الله تعالى سلوك أخلاقيٌّ قبلَ كلِّ شيء، ينبع من أدب النفس وسجاياها الخيِّرة، التي تَحمل الدين منهجاً عملياً للحياة في جميع جوانبها، فتتمثلُ بِهِ النفس في ذاتها بصدق وتجرُّد عَن حظوظهَا..

ثمَّ ترشح إلى علاقاتها مَعَ الآخرين على اختلاف تَوجُّهاتهم ومشارِبِهم..

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

فِي رِحَابِ التَّنَاصُح..

أيُّها الداعية المتألِّق! احذر، ثمَّ احذر أن يخدعك الناس عن نفسك، فيتسلَّل الغرور والادِّعاء إلى قلبك، ويُمحَى التواضع ومحاسبة النفس، وتقعد همَّتُك عن العمل، فيصبح قلبك خراباً.. وتكون كمن يبني قصراً، ويهدم مصراً.. ﴿بَلِ الإنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ، وَلَوْ ألقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ القيامة: ١٤-١٥، و (ما ترك مِنَ الجهل شيئاً مَنْ رضي عن نفسه).

تسمع مدح الناس وثناءهم أوَّلاً، فينفر قلبك، وتستذكر تقصيرَك، وفضل ربِّك عليك..

ثمَّ تسمعه ثانياً وثالثاً، فترتاح نفسك في غفلة من قلبك، ثمَّ تتطلَّبه نفسك، وترتاح إلى مجالسة من

يغدق عليك به بغير حساب.. وتنفر من مجالسة من يخلص لك النصيحة، ويحرص على صلاح أمرك، ولو جالسته لكنت مجاملاً، مغلق القلب عنه.. وتقف في حياتك عجلة التطوير والتغيير..

وخلال تلك المطبَّات المتتالية، ينزع عنك ثوب التواضع شيئاً بعد شيء، ويخبو في قلبك نور الإخلاص لله، وتخمد حرارة التأثير فيمن حولك، وبعد أن كنت ساعياً في مرضاة ربِّك أصبحت ساعياً في حظِّ نفسك.. وبون شاسع بين المطلبين..

والحلُّ أنْ تُحَاسِبَ نفسَك بصدق، وبغير هوادة.. وأن تقف لها بالمرصاد، وتلزمها باب العبوديَّة والضراعة لله، والتواضع لجلاله وعظمته، وتحرص على أن تكون سَرِيرتُك خَيْراً مِنْ عَلاَنِيَتِك.. وتلك وصيَّة نبويَّة، الدعاة إلى الله أحوج الناس إليها، فقد قال عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه: عَلَّمَنِي رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقَالَ: (قُلْ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ سَرِيرَتِي خَيْراً مِنْ عَلاَنِيَتِي، وَاجْعَلْ عَلاَنِيَتِي صَالِحَةً). رواه الترمذي.

وقال يزيد بن الحارث رحمه الله: «إذا استوَت سريرةُ العبد وعلانيتُه فذلكَ النَّصَفُ، ـ أي الإنصافُ والعدلُ ـ وإن كانت سريرتُه أفضلَ من علانيته فذلكَ الفضلُ، وإن كانت علانيتُه أفضلَ من سريرته فذلكَ الجورُ».

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

مَا أسعَدَ الكَوْنَ بالإسلام

الله أكبر ما أسعد الكون بالإسلام! تأمَّلت قول الله تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ الإسراء: ٧٨، فتصوَّرت الملائكة تتنزَّل عند كلِّ فجر، تزدحم بأنوارها عند كلِّ مسجد، تظلِّله بأجنحتها، وتنشر عليه الأمن والطمأنينة، والرحمة السكينة، وتكتب خطوات القادمين إلى المسجد، وتسكب عليهم طاقة من النور، يروحون بها كأكرم وجبة روحيَّة، يفتتحون بها يومهم، فتجعل أعمالَهم كلَّها مكسوَّة بهذا النور الربَّانيِّ..

تخيَّلت هؤلاء الغادين إلى المسجد كخيوط من النور تصدر عنه، فكأنَّ المسجد في كلِّ بقعة من الأرض بؤرة نور مشعَّة، فتخيَّل أخي القارئ مدينة فيها مئات المساجد، كيف يكون مظهرها، وهي تتجاور فيها بؤر النور وتتقارب، وتصل بينها الإشعاعات وتتداخل؟!

إنَّها صورة بديعة رائعة، فما بالك بحقيقتها التي تعرج بالمؤمنين في معارج روحيَّة، تجلُّ عن الوصف!

وإذا كانت هذه صورة من سعادة الإنسان بالإسلام، أفلا يحقُّ لنا أن نقول: ما أسعد الحياة والكون بالإسلام!

فيا أيُّها النائم عن صلاة الفجر مع الجماعة، أترضى أن تكون من المحرومين؟! ألا تستشعر عظيم الغبن والخسارة بما يفوتك من الغنائم.. هلمَّ.. هلمَّ.. فَلَيْلُ الغفلةِ لا منتهى له إلا عالم القبور.. ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ النور: ٤٠.

* * * * *

(حِينَ تَلْتَقِي الدُّمُوعُ بِلَذَّةِ الْمُنَاجَاة)

مع شدَّة اللأواء ووطأة الألم، وعندما لا تجد الروح من تفزع إليه وتناجيه إلا خالقها.. تلتقي الدموع بلذَّة المناجاة، ويصرخ القلب مع هدير نبضه: (إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلا أُبَالِي، وَلَكِنَّ عَافِيَتَكَ هي أَوْسَعُ لِي).

فيا لله! كيف تتناغم دموع الضراعة مع لذَّة الآلام؟! وكيف يمتزج البلاء مع صفاء المناجاة؟! وكيف تتنزَّل السكينة مع مشاعر البلوى؟! إنَّه سرٌّ من إعجاز الخالق في صنع النفس الإنسانيَّة: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ الشمس: ٧.

* * * * *

(لا تَأخُذِ النَّاسَ بِمَظَاهِرِهِمْ)

إيَّاك ثمَّ إيَّاك أن تأخذَ الناس بمظاهرهم، فتكشِّر في وجوههم، وتعبِّس وتقطِّب جبهتك، لما تراهم عليه من بعض المعاصي الظاهرة، فَمَا أقربَ الفطرة إلى بارئها، وما يدريك بما في القلوب؟

فرُبَّما كان من يجلس إليك أقرب إلى الله تعالى منك، بل هكذا يجب أن يكونَ ظنُّك بالناس، وظنُّك بنفسك..

لقد وضعت نفسك أخي طالب العلم في موضع الطبيب لقلوب الناس ونفوسهم، فما أقبح العلَّة في الأطبَّاء!

وما أقبح الطبيب حين يكون منفِّراً للمرضى من نفسه، صاداً لهم عن أن يفتحوا له قلوبهم، ويقبلوا عليه بكلِّ حبٍّ ورغبة!

* * * * *

استَحضِرْ صُورَةَ الشَّيطَانِ

وعظ أحد الدعاة رجلاً مسرفاً بالمعاصي على نفسه، فقال له: لو رأيت صورة الشيطان لأبغضَّته أشدَّ البغض، ونفرت منه..

ولو أبغضته ونفرت منه ما أطعته، ولو أطعته ورأيت صورته، وهو يفرح بطاعتك له، ويشمت بك لحزنت أشدَّ الحزن على نفسك..

ولو عصيته ورأيت صورته حزيناً من معصيتك له، لزدت من معصيتك له ومجانبة طاعته، فقبل أن تعصي ربَّك استحضر صورة الشيطان عند كلِّ معصية يدعوك إليها..

* * * * *

وقْفَةٌ أمَامَ حُجُراتِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم

دُون عظمةِ هذه الحُجُراتِ الشريفة المباركة.. وقف على مرِّ القرون والأجيال العظماء والملوك، والأغنياء والكُبراء، والعلماء والحكماء، كما وقف العابِدون الأتقياء..

كلٌّ وقف متأمِّلاً معتبراً، متواضعاً خاشعاً، يتملَّى هذا الموضع المبارك من الأرض، الذي علَّم الدنيا كيف تكون العظمة الحقَّة، وكيف تتسامى مجرَّدة عن زخرف الدنيا وزينتها، ولكنَّها تملك من زينة الحقِّ ما يجعلها نفحة من نفحات الخلود الزكيَّة..

تمنح الحياةَ سرَّ وجودِها، وروح غايتها، ومتعةَ أنسها، وتربط الدنيا بالآخرة، في اتِّصال وثيق تنمحي به عوامل القطيعة والتنافر.. ويحسُّ من يعيشه انجذاباً نحو الآخرة، وكأنَّ الانتقال إليها رحلة سياحيَّة ممتعة إلى متنزَّه من متنزَّهات هذه الدنيا، التي طالما تطلَّعت إليها النفوس، وتمنَّت لو تحظى منها بوصلٍ أو تفوز..

إنَّها تعلِّم الناسَ سرَّ العظمةِ الحقيقيَّة، التي تتجرَّد عن زينة الدنيا وسلطانها، ولكنَّها تملك زينةَ الحقِّ وسلطانه، وهيبتَه وتأثيرَه.. فلا يقف أمامها شيء، ولا تَغلبها قوَّة..

هذه الحُجُراتُ تلألأت في جنباتها أنوارُ الوحي صباح مساء، وحطَّت على تربتها المباركة أجنحة جبرائيل والملائكة الكرام عليهم السلام آناء الليل وأطراف النهار، ورفرفت حولها، زائرة لساكنها مسلِّمة مباركة.. واشرأبَّت إليها قلوب الصفوَة من الرجال، وتعلَّقت بها الأبصارُ.. ووقف على بابها العظماء، يتنافسون في نيل بركاتها، ويلتمسون الحظوة بشرف الخدمة لسيِّد الرسل والأنبياء صلَّى الله عليه وسلَّم..

هذه الحُجُراتُ شهدت قيامَ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم من الليل حتَّى تفطَّرت قدماه، وشهدت خلوتَه بالليل مع ربِّه.. ومناجاته لربِّه ودعاءه، وشهدت حبَّه وأشواقه، وتضرُّعَه وبكاءه، وشهدت استقبالَه لأصحابه رجالاً ونساءً، وتذكيرَهم ووعظَهم، ومجالستَه إيَّاهم ومؤانَستَهم، وحلَّه لُمشكلاتهم في أدقِّ شؤون حياتهم، وشهدَت مجالس شورَاه مع خيارِ الصحب الكرام.. كما شهدت استقبالَ الوفودِ ودعوتهم إلى الله تعالى، بالحكمةِ والموعظة الحسنةِ، ومجادلتهم بالتي هي أحسن..

هذه الحُجُراتُ شهدت حياةَ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم الخاصَّة، الزاهدة المتواضعة مع نسائه.. يخدم نفسه ويخدم أهله.. ويطوي على الجوع أيّاماً، ويطوين معه راضيات قانعات، يمرُّ عليهم الهلال والهلال والهلال، ولا توقد في بيوتهنَّ نارٌ.. ليس لهم من طَعام إلا الأسودان التمر والماء..

هذه الحُجُراتُ شهدت أخلاق النبيِّ عليه الصلاة والسلام الكريمة مع نسائه.. يقدِّر مشاعرهنَّ، ويرحم ضعفهنَّ، ويتلطَّف بهنَّ، ويداعبهنَّ ويطيِّب خاطرهنَّ، ويُحسِنُ معاملتهنَّ، ويعدل بينهنَّ، ويرين ما هُو عليه من الهَدي في كلِّ شأن، فيقتدين به، ويعلِّمن الناس، وينقلن ما يشهدن إليهم..

هذه الحُجُراتُ بلسمٌ لقلوب الفقراء، ووخزةُ ضميرٍ لقلوبِ الأغنياء.. لا يزالُ يجد فيها الأوَّلون عزاءهم عن شظف الحياة، فيصبرون على لأوائها، ويتجلَّدون على شدائدها، ويرونها بينهُم وبين نبيِّهم المصطفى عليه الصلاة والسلام حبلاً موصولاً، ونسبةً وثيقةً، تمسح جِراحَهم، وتسكب الطمأنينةَ والرضا في قلوبهم.. ولا يزالُ يجد فيها الآخرون ما يشعرُهم بضعف نفوسهم، ودُنُوِّ مطالبهم، وما يحثُّهم على السموِّ عن حطام الدنيا الزائف الزائل، وأنَّها ليست في موازين السماء بشيء، ولو كان في حيازتها وجمعها ما يرفع الإنسان عند الله أو يعزُّه لكان أولى الناس بذلك رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وآل بيته الأطهار، وصحابته الكرام..

هذه الحُجُراتُ تُباهي بأهلِ الأرضِ أهلَ السماءِ، وتجعلُ الملائكة الأطهار تغبطُ المحبِّين الأصفياء.. فأين أنت أيُّها الواقف أمام هذه الحُجُراتِ من تلك الأمنيات؟!

أخي المسلم! أخي المحب! إذا وقفت عند هذه الحُجُراتِ، فتذكَّر ما قدَّمته هذه الحُجُراتُ البعيدة عن زخرف الدنيا وزينتها للإنسانيَّة مِن خيرٍ وهدى، وما ضمَّه ثراها الطيِّب المبارك، مِن جسدِ أطهر مخلوق عرف الله تعالى حقَّ المعرفة، وعبده أخلص العبادة، وبلَّغ رسالةَ ربِّه، واجتهد في نصح أمَّته، وجاهَد في الله أعظم الجهاد حتَّى أتاه اليقين..

ضمَّ ثراها هذا الجسد المبارك، فلا عجب أن كان أشرفَ بقعةٍ في الوجودِ وأكرمَها، وأسناها وأزكاها..

تذكَّر ذلك أخي المسلم! واعقد بها صلتك الصادقة المخلَصة، لتكون على مثل عهد الجنديِّ مع قائده، وحماسة المحبِّ لحبيبه، ووفاء العبد لسيِّده، ولتكن خفقات قلبك صفاءً للودِّ وتأجيجاً، وتجديداً للعهد وتأبيداً: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ الفتح: ١٠.

غُضَّ طرفك، وأسبِلْ دمعةَ حسرَةٍ وندم، وحبٍّ وحنينٍ من عَينيك، وعِش بقلبِكَ تلك الذكريات، فكَمْ قرَّبَ الحبُّ والشوق، وكانَ نِعمَ العزاء، لِـمَنْ فاته وردُ الصفَاءِ وكريم اللقاء..

* * * * *

نَظْرَةٌ تَحْلِيلِيَّة فِي الأمرَاضِ النَّفْسِيَّةِ والاجتِمَاعِيَّة وَأَسبَابها

إنَّ جميع الأمراض الاجتماعيَّة إنما هي آثار ونتائج للأمراض النفسيَّة تبرز وتتجلَّى في الواقع الاجتماعيِّ، وتتجسَّد في العلاقات مع الآخرين، ومن هنا فإن الحديث عن الأمراض الاجتماعيَّة لا بدَّ أن يقودنا إلى الحديث عن جذورها في النفس البشريَّة، وما وراء ذلك من أسباب ودوافع.

وأصلُ الداءِ في العِلَل النفسيَّة كلِّها: تضخُّمُ الذات وغرورها، وانتفاخها وتورُّمها، وتأليه النفس وطغيانها، وعبوديَّة الهوى من دون الله، إنه الكبر الذي هو باب الكفر وميزابه، فهو أول ما عصي به الرحمن سبحانه، وهو مصدرُ الشرِّ على الإنسان وفساده، وسرُّ شقائِه وخذلانه، آفتُه عظيمة، وغائلتُه جسيمة، وفيه يهلك الخواصُّ من الخلق، وقلَّما ينفكُّ عنه العبَّاد والزهَّاد فضلاً عن عوامِّ الخلق، وكيف لا تعظم آفته، وقد قال النبيُّ عليه الصلاة والسلام: (لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ) قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَناً وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، فقَالَ: (إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ، الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ). رواه مسلم.

(وإنما صار حجاباً دون الجنَّة، لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلِّها، وتلك الأخلاق هي أبواب الجنَّة، والكبر والتعاظم ورم خبيث، تمتدُّ شُعَبُه وجذوره في النفس، فتتمخَّض عنها سلاسل العلل والأمراض، حتى يغلق على العبد أبواب الجنَّة كلّها، لأنه لا يقدر على أن يحبَّ للمؤمنين ما يحبُّ لنفسه وفيه شيء من الكبر، ولا يقدر على التواضع ـ وهو رأس أخلاق المتَّقين ـ وفيه الكبر، ولا يقدر على ترك الحقد وفيه الكبر، ولا يقدر على ترك الحسد وفيه

الكبر، ولا يقدر على النصح اللطيف وفيه الكبر، ولا يقدر على قبول النصح وفيه الكبر، ولا يقدر على أن يدوم على الصدق وفيه الكبر، ولا يسلم من الازدراء بالناس، ومن اغتيابهم وفيه الكبر، ولا يسلم من ظنِّ السوء بهم وفيه الكبر، فما من خلق ذميم إلا وصاحب الكبر والعزَّة بالإثم مضطر إليه ليحفظ عزَّته المزعومة، ورفعته الموهومة، وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه خوفاً من أن يفوته عِزُّه، فمن هنا لم يدخل الجنَّة من كان في قلبه مثقال حبَّة خردل من كبر، والأخلاق الذميمة متلازمة، والبعض منها داع إلى البعض لا محالة، وشرُّ أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم، وقبول الحقِّ والانقياد له.

وصاحب الكبر والعزَّة بالإثم يأنف من مساواة غيره له، فضلاً عن تقدُّم غيره عليه حساً أو معنى؛ فهو إن حاجَّ أو حاور غيره أنف أن يُرَدَّ عليه، وإن وُعظ استنكف من القبول، وإن وَعظ عنَّف في النصح، وترفَّع على الناس، وإن رُدَّ عليه شيء من قوله غضب وثار، وإن علَّم لم يرفق بالمتعلِّمين واستذلَّهم وانتهرهم، وامتنَّ عليهم واستخدمهم، وينظر إلى العامَّة كأنه ينظر إلى الحمير استجهالاً لهم واستحقاراً). من: (إحياء علوم الدين) بتصرف يسير.

ويرجع الكبر في جذوره النفسيَّة إلى الشعور المغرور بالاستعلاء الذاتيِّ على الأقران والنظراء، وعلى المكانة التي يجد المستكبر نفسه فيها داخل مجتمعه ويرجع كذلك إلى الرغبة بإشعار الآخرين بالامتياز عليهم، ولو لم يكن لهذا الامتياز وجود في الواقع، فهو انتفاخ بغير حقٍّ، وورم خبيث، ليس من اليسير علاجه واستئصاله، وهو تطاول بغير حقٍّ، وتعالٍ على الآخرين بغير حقٍّ، وتصغير لهم بغير حقٍّ، أو تصغير ما لهم بغير حقٍّ..

ويرجع أيضاً إلى الرغبة الجامحة في عدم الخضوع لأحد، ويقترن بهذه الرغبة الشعور الجاهل المغرور بالاستغناء الذاتيِّ.

والتكبُّر خطَّة غبيَّة فاشلة لنيل المجد والمحافظة عليه بين الناس، وذلك لأن الناس الآخرين مثله، يعرفون دوافع النفوس، ويحقِّرون في نفوسهم المستكبرين، ويستصغرونهم، ويعطون المجدَ الحقيقيَّ للذين يقبلون الحقَّ، ويرجعون إليه، ولا يستكبرون عنه.

إن الناس يكرهون المستكبرين، ويحبُّون المتواضعين موطّئي الأكناف، ويعطون المجدَ الحقيقيَّ للذين يحبُّونهم ويقدِّرونهم، أما الذين يستكبرون عليهم فيستصغرونهم ويحتقرونهم، وهذا من الجزاء الربَّانيِّ الساري ضمن سنن الله الاجتماعيَّة التي فطر الناس عليها.

كيف عالج الإسلام هذا الداء؟

إن الإسلام لم يحرم شيئاً أو ينهى عنه إلا لفساده وإفساده، ولم يحرم شيئاً إلا وقد أقام في منهجه تصوُّراً كاملاً ونظاماً شاملاً، يقف في وجه ذلك الفساد، ويحول دونه؛ فدعا إلى التواضع لعباد الله تعالى، والذلَّة للمؤمنين والتواضع لهم، والرحمة بهم، وخفض الجناح لهم، فجاءت صفة أصحاب رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم في القرآن الكريم: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ الفتح: ٢٩، وجاء في صفة المؤمنين الذين يحبُّهم الله ويحبُّونه: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ المائدة: ٥٤.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

تأمُّلاتٌ ولَطَائِف ونَفحَات
مِنْ وَحيِ سُورَة الحُجُرَات

١ / ١ ـ الأدب مع الله سبحانه، والأدب مع رسوله صلَّى الله عليه وسلَّم، يتَمثَّل في حقيقة كبرى شاملة، وهي: التلقِّي عن الله ورسوله صلَّى الله عليه وسلَّم في كلِّ شأن، وعدم التقدُّم على أمر الله وأمر رسوله صلَّى الله عليه وسلَّم في أيِّ شيء، فكما أن ذلك أصل إيمانيٌّ فهو أعظمُ أصلٍ أخلاقيٍّ تربويٍّ، ينتظم سائر الآداب التي تتحدَّث عنها سورة الحجرات وتنبثق عنه.

ومن هذا الأدب ينبثق الأدب مع النفس والأدب مع الآخرين، والأدب في السرِّ والعلانية، والأدب في حركات الجوارح وهواجس الضمير.

ويخطِئ ويضلُّ السبيلَ مَن يزعم لنفسه حسن الخلق، وهو مستهتر بحقِّ الله وحقِّ رسوله صلَّى الله عليه وسلَّم، مع أنَّه حريص على علاقاته الاجتماعيَّة الحسنة مع الناس..

فأيُّ الحقوق أولى بالرعاية، وكيف يتأتّى أداءُ الحقِّ الأَدنى مع التفريط بالحقِّ الأعلى وإهماله؟

أم أنَّ الأخلاقَ الاجتماعيَّةَ عند هؤلاء لا تعدو أن تكُون نوعاً منَ المجاملة المتصنَّعة، التي لا تُشبه الأخلاق الإسلاميَّة ولا تدانيها..

١/٢ ـ يُقاس على النهي عن التقدُّم بين يدي الله ورسوله صلَّى الله عليه وسلَّم ـ ومع ملاحظة الفارق الذي لا يُنكر ولا يخفى ـ التقدُّمُ بين يدي وليِّ الأمر الصالحِ والوالدَيْن أو أحدهما، فليس من الطاعة ولا البرِّ التقدُّم بين أيديهم، والتجاوز لحقِّهم في التقديم والتكريم، ويتأكَّد ذلك، وتفحش مخالفته كلَّما علا مقام وليِّ الأمر، وظهر فضل الوالدين وعرف صلاحهما.

١/٣ ـ ﴿لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَي اللهِ وَرَسُولِهِ﴾: كلُّ خروج عَن طاعَة اللهِ وَرَسُولِهِ صلَّى الله عليه وسلَّم هوَ نوع من التقدُّم بَيْنَ يَدَي اللهِ وَرَسُولِهِ، ولو كانَ بلسان الحال دونَ المقال، ولكنَّ الدوَافع تختلِف؛ فإذا كان الدافِعُ الخطأ أو النسيان أو غلبة هوى النفس فهذا ممَّا يُرْتَجى مغفرته، لأنَّ المؤمَّل من العبد أوبته، أمَّا إذا كان الدافِعُ تجاوُزَ العبوديَّة، والتطاولَ على مقام الربوبيَّة، فذلك مِنْ منهج إبليس اللعين، الذي قالَ: ﴿أَنَا خيرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ الأعراف: ١٢، ويَقوم منهَجه على الكِبْر والغرور، وجحود النعمة، ونكران المنَّةِ، ولا ينتظر من صَاحبه إلا أن يقولَ: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأعلَى﴾ النازعات: ٢٤، إلا أن يتوبَ الله عليه.. وقليل ما هم..

٢/٤ ـ إنَّ رفعَ الصَّوت فوق الحاجة رعونةٌ وقلَّة أدبٍ، لا تَليق مع أحد، فكيف إذا كانت مع سيِّد الخلق وأشرف المُرسلين عليه الصلاة والسلام؟! ولكنَّ مَنْ أَلِفَ مستنقع الرعونة وقلَّة الأدب في جميع أحواله فأنَّى له أن يعرف الأدب مع الله ورسوله صلَّى الله عليه وسلَّم!

٢/٥ ـ ﴿وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾: أَنْزلوا الناس منازلهم.. فليسَ من العدل أن تُعامل الناس بالسويَّة وبينهم منَ الفروق الفرديَّة كما بين السماء والأرض..

٢/٦ ـ ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾: ربّما تَحْبَطَ الأَعْمَالُ فيشعر الإنسان بحبوطها، وَرُبَّما تَحْبَط ولا يَشْعُرُ، وتلك مُصيبةٌ أدهى، وعُقوبةٌ أَمرُّ.. فكيف للعبد أنْ يشعر بحبوطها؟

إنَّ ذا القلبِ الحيِّ، والفكر المبصر اليقظ يستشعر ذلك وحشةً في روحه، وضيقاً في صدره، وخذلاناً عن العمل، وفقداً في الخلوة للأنس..

وأما من يرتكب الذنب الأكبر، ويصرُّ عليه، فكيف له أن يشعر بالعقوبة، ويتحسَّس شيئاً من آثارها؟

٧/ ٣ ـ التَّقْوَى الباطنة لا بدَّ لها أن ترشح ثمراتها الطيِّبة، فتزيِّن الظاهر، وتُجمِّله بأبهج صورة، وأجمَل حلَّة، ومن ادَّعَى خلاف ذلك فقد خدع نفسه وأوهم وافترى..

٨/ ٣ ـ ﴿امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾: ما امْتَحَنَكَ إلا ليمنحك، وإنَّما تكون المنحة بعد المحنة لِتَعظم في نفسك النعمةُ والمنَّةُ.

٩/ ٣ ـ ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾: وهل يكون الجزاء من العظيم إلا عظيماً؟!

١٠/ ٤ ـ ﴿أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾: من لم تدفعه الخشيَة لترك المعصية فليدفعه العَقل، ومن لم يدفعه العقل فلتدفعه المروءة والحياء، ومن لم تدفعه المروءة والحياء فأيُّ خيرٍ فيه، وصدق رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: (إذا لم تَستَحِ فاصنَعْ ما شِئتَ).

١١/ ٤ ـ ﴿أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾: لا يُكرِمُ المرءَ إلا عقلُه، ولا يكشف نُبلَه إلا عقلُه، ولا يرفع قدرَه إلا عقلُه، ولا يسفُّ به إلا إهمالُ عقله، ولا يحقر قدره إلا تسلُّط هواه على عقله! فهل بعد ذلك من يدّعي أنَّ الإسلام يقلِّل من قَدْر العقل، أو يقبل تعطيله؟!

١٢/ ٥ ـ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا﴾.. رُبَّما ظنَّ بعض الجاهلين الصبر ضعفاً أو عجزاً.. وكم يثمر الصبر من خيرات، وكم تختبئ وراءه من بركات وحسنات!

١٣/ ٥ ـ ﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: ما أحسن صفح الكريم بعد عتابه، وعفوه بعد تقرير العبد بالتقصير، ولكن شتَّان مَنْ قصارى حاله المغفرة، وبين من تحلَّى بالأدب فله مغفرةٌ وأجرٌ عظِيمٌ!

١٤/ ٦ ـ ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ﴾: ليس المهمّ ما يأتيكَ من الأخبار، وإنما المهمُّ من يأتيك بالأخبار..

١٥/ ٦ ـ عنوان فسق الإنسان أن يقبل خبر الفاسق وهو يعلم بفسقه.

١٦/ ٦ ـ أفسقُ فَاسِقٍ قريبٍ منك ولا تحذره: نفسُك الأمَّارةُ بالسوءِ، عندما تلقي إليك بالظنون بلا تحفُّظ ولا اكتراث، وتزيِّن لك التهم والأباطيل، فهلا وقفتَ من نفْسك الأمَّارة بالسوء كما تقفُ مِنْ ناقل الأخبار الكاذب؟

١٧/ ٦ ـ الهوى فاسقٌ وشاهد زور! فرُبَّما زكَّى الهوى شهادة الفاسقين، وشكَّك في شهادة المزكِّين، فاحذر هواك أكثر ممَّا تحذر عدوَّك، وهل غلبكَ عدوُّك إلا بهواك.

١٨/ ٦ ـ ﴿فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ﴾: كفى بالرويَّة عقلاً، وكفى بالتسرُّع جهالة.

١٩/ ٦ ـ النَّدمُ نِعمةٌ لِإصلاح ما فسد، وأوَّلُه وأقلُّه: عذابُ الضمير الذي هو وقود التغيير.

٢٠/ ٧ ـ ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ﴾: الكبار القدوة عصمة من الفتن، وصِمَامُ أمانٍ للصغار.

٢١/ ٧ ـ ﴿لَعَنِتُّمْ﴾: إنَّما نصنع عنتنا بأيدينا، ولكنَّنا كثيراً ما نتَّهم غيرنا.. وتحبيبُ الإِيمَان عصمة من العنت وشفاء لِـمَا في الصدور.

٢٢/ ٧ ـ ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ﴾: من لم يطِع الرحمن، واستمرأ المخالفة والعصيان، فليبكِ على نفسه لأنَّه لم يحبَّبَ إِلَيه الإِيمَانُ، وهل تكونُ طاعة بغير تحبيب الإيمانِ، وتزيينه في القلوب؟!

٢٣/ ٧ ـ تحبيب الإيمانِ، وتزيينه في القلوب، سرٌّ من أسرَار الحفظ من الذنوب، وتثبيت الإيمان في القلوب، وما انتكس من انتكس بعد هدىً ظاهِرٍ إلا من خراب في القلب غائر: (ألا وإنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً)..

٢٤/ ٧ ـ الإيمان زينة القلوب، والإسلام زينة الجوارح، والإحسانُ زينةُ الكيانِ الإنسانيِّ كلِّه، وهي نِعَمٌ ومِنَن، توهب أكثر ممَّا تُكتسب، ولكنّ العبد يصدق في طلبها ويتسبّب.

٢٥/ ٧ ـ وجود القدوة والرجوع إليه وطَاعته، عصمة لِلمُؤْمِنِينَ من الاختلاف والاقتِتَال، فليحذر القدوات أن يقفوا في الفتن مواقف السلبيَّة والاعتزال، فذلك تخلٍّ عن المسؤوليَّة، وربما كانت له عواقب غير محمودة.

٢٦/ ٨ ـ مِنْ أعظم النعم على العبد شهود المنَّة والفضل في كلِّ حال، ومن شهد المنَّة والفضل عظمت في نظره النعمة وجلَّت، ودامت عليه، واتَّصلت بأمثالها، وبما هو أكبر منها وأعظم.

٢٧/ ٩ ـ الفئة المصلحة بين طَائِفَتَينِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ تُعَدُّ أعلى شأناً، وأرفع قدراً من كلا الطَّائِفَتَينِ، بما تضطلع به من مهمَّة الإصلاحِ التي هي من مهامِّ الأنبياء.. ولكنَّها لن تستطيع ذلك ما لم تكن متحلِّية بصفاتٍ ومؤهِّلات، تجعلها تقوم بهذه المهمَّة بجدارة واقتدار.

٢٨/ ٩ ـ الآيات من قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بالتأمُّل فيها يستشعر الإنسان وكأنَّها تشير إلى ما سيحدث بعد وفاة النبيِّ عليه الصلاة والسلام، من فتنة بيْن المسلمين إثر مقتل الخليفة عثمان رضي الله عنه، وما تبع ذلك من فتن وخلافات، وما جرَّ وراءه على الأمّة من مصائب وآثار، لا تزال الأمّة تعاني منها إلى يومنا هذا..

وكان المرجَّى أن تبرز في الأمَّة تلكَ الفئةُ المصلِحة، التي لا تقاتل مع إحدى الطائفتين، وتدعو كلا الفريقين إلى خُطَّة صلح، تُحقن فيها الدماء، وتُحفظ الحرمات، وتصان وحْدة الأمَّة، فلا تعصف بها الفتن.. ولا تبدأُ في كيَانها التشوُّهَات.. ولكن حدث جزء مِنْ هذا الأمر، وهو الاعتزال، ولَم يحدث الجزء الآخر، فلماذَا؟

ليس هُنا موضع بحثِ ذلك، ولكنَّ ما يَعنينا هُوَ: كيف تبرز هذِه الفئَة، وتأخذ دورها، وتَقُوم بمسؤوليَّتها في مثل تلك الأَحوال؟ إنَّ الأمرَ باختصار يعود إلى التكوين السويِّ النوعيِّ المتميِّز الَّذِي يتحقَّق في شخصيَّاتهَا: فكرياً ونفسياً وروحياً.

٢٩/ ٩ ـ إنَّ كُلَّ خلاف بين فئتين قد يتمادى إلَى الاقتِتَال والاحتراب.. والأَصل أَنْ تقِف الأمَّة كلُّها دون هذا المنزلَقِ الخطير، ولكنَّ الواقع نادراً ما يشهدُ مثل ذلك، كما أنَّ سنَّة الحياة أنْ تقف مع كلِّ طائفة فئةٌ مِن الناس، وأَن تبقى فئةٌ مِن الناس لا تنتمي إلَى أَيٍّ مِن الطائفتين، وهُنا تكونُ مثل هذه الفئة مرشَّحة للقيام بمسؤوليَّة الإصلاح ورأب الصَّدْع، حتَّى تعود الأمَّة إلى وَحدة صفِّها واجتماع شملها..

٣٠/ ٩ ـ ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى﴾: أوَّل البغي: الانفراد بالرأي، وترك الشورى، فمن أراد أن لا يكُون من أهل البَغي فلا ينفَرِدنَّ برأيِه ولا يزهدنَّ بمشورة إخوانه.

٣١/ ٩ ـ الفيءُ إِلَى أَمرِ الله مفتاحُ الحلِّ لمشكلات البشريَّة كلِّها، ولكنَّ الإنسان ظلوم جهُول، مُدَّعٍ مغرور، كثيراً ما يحسب نفسه قادراً على كُلِّ شيء، فيُخَرِّب بِيَدِهِ ما لا يقدرُ عَليه عدوُّه..

٣٢/ ١٠ ـ أُخوَّة المؤمنين ميزان من موازين التقوى، التي يستهتر بها كثير من المنسبين إلى الدعوة، ويتجاوزها تحت دعوى الغيرة على الإيمان والعقيدة، ومن فرض هذا الميزان على عباده أغير على دينه من كلِّ مُدَّعٍ أو مزايد، نسأل الله تعالى أن يلزمنا سبيل الأدب والاستقامة، إنَّه سميع مجيب.

٣٣/ ١١ ـ ﴿وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾: كُلَّما نضِج الإنسان تربيةً وأخلاقاً وجد نفسه أكثر في نفع الآخرين، وكفَّ الأذى عنهم، ووجد إيذاء الآخرين إيذاء لنفسه وتعدِّياً عليها.

٣٤/ ١١ ـ ﴿بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ﴾: إنَّ من سُبل إصلاحِ النفس وتهذيبها أنْ يقارن الإنسانُ بين ما يخسر ومَا يربح، فذلكَ من أكبر الدوافع إلى عدم الرضا بالواقع، والسعي في تغييره.

٣٥/ ١١ ـ ﴿لا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ﴾: لم يقل القرآن: (لا يَسْخَرْ بعضكم من بعض) كما قال في النهي عن الغيبة: ﴿وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً﴾، وذلك ليشمل النهي السخرية من العدوِّ، لأنَّها شرٌّ وبيلٌ وداء خَطير.. والسخرية مبدأُ كلِّ شرٍّ في حياة الفرد الجماعة، فهي تعمي الإنسانَ عن مزايا الآخرين وفضائلهم، وتجعله يستهين بقدراتهم وطاقاتهم، ولا يبالي بمواهبهم وإمكاناتهم..

فإن كانوا من الأعداء فوجئ الساخر بغلبتهم وتمكُّنهم، وظلمهم وقهرهم، وهذا ما وقع لهذه الأمَّة على فترات مختلفة من تاريخ صراعِها مع أعدائها، وقد يغفل بعض الناس عن الخرق الذي أتينا منه، وإنَّما مبدأ الأمر كان سخريةً واستهانة، ورَّثت غفلة واستهتاراً، ثمَّ آلت إلى غلبة

الأعداء، وانبهار الأبناء، والولوع بالتقليد وَالتبعيَّةِ، وضعف الحيلة عن مقارعة من كانوا بالأمس موضع السخرية والاستهزاء!

وإن كانوا من الأتباع والأولياء كانت السخريَة سبباً لتقطيع الأواصر، وتمزيق الروابط، وتشتيت طاقات الأمَّة وتبديد كفاءاتها، وكفى بذلك ما يؤكِّد النهي عنها..

٣٦/ ١٢ ـ ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾: إذا كنَّا نُهينا عن الكثير خشية الوقوع فيما فيه الإثم القليل، فكيف لا نُنهَى عن القليل الذي يجرُّ إلى الإثم الكبير؟! فما أكثر ما ترتكب المآثم الكبيرة بدعوى المحافظة على فضائل وكمالات صغيرة! وقديماً كان ما يروى عن جحا من المحافظة على السنَّة وترك الفريضة طرفة من الطرائف، فأصبح اليوم منهجاً لبعض الناس ينافحون عنه ويدافعون، ويظنُّون أنَّهم به ينصرون دين الله ويعزُّون كلمته.. وإنَّما الفقه في الدين خير ما يعطاه المتَّقون العابدون..

٣٧/ ١٢ ـ ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ﴾: الفطرة السويَّة خطُّ الدفاع الأخير عَن الحقِّ وأحكامه، والاستعانة بها خير مَا يعيننا عَلى دعوةِ الإنسَان وإصلاح واقعه، وإذا فسدتِ الفطرة ضَعف الأملُ في إصلاح الإنسان وفيئته.

٣٨/ ١٢ ـ ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾.. الأمر بالتقوى يتكرَّر في ثلاث آيات سابقَة: وَاتَّقُوا اللهَ.. وَاتَّقُوا اللهَ.. وَاتَّقُوا اللهَ.. قبلَ أن تقرِّر الآية التالية هذا المبدأَ العظيمَ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ ممَّا يشِير إلى أنَّ التعامل مع هذا المبدأ ليس شعاراً يطرح، وليس التعامل به يأتي من فراغ، وإنَّما يحتاجُ إلى ثلاث مستوياتٍ منَ التقوى، ليرتَفع الإنسان إلى مستوى هذا الشعار وسُموِّه.

٣٩/ ١٤ ـ ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا﴾: كم في الناس من أَعرابٍ في دينهم، يحملونَ ألقاباً علميَّة أو اجتماعيَّة خادعةً، وَهُم فارغون من كُلِّ منقبةٍ أو فضيلةٍ، ويزيدونَ على الأعراب الدعاوَى الفَارغة في كُلِّ شيء.

٤٠/ ١٣ ـ الاختلاف تنوُّع جعله الله تعالى آية من آياته، ونعمة على الإنسان تدفعه إلى التعارف والتعاون، واتَّخذه كثير من الناس سبيلاً للتنازع والقطيعة، والعداوة والبغضاء.

٤١/ ١٤ ـ ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا﴾: من طبيعة الإنسان محبَّة الكمال، وهي تدعو إلى ادِّعاء الكَمال.. ولو يعطى الناس بدعواهم لادَّعى أناس أموال قومٍ ودِماءهم..

٤٢/ ١٤ ـ ﴿قُلْ: لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾: الدعاوَى حجاب عن الحقِّ قاتِل، والاعترافُ بالنقص أوَّلُ الرقيِّ في سلَّم الكمال..

٤٣/ ١٤ ـ ﴿وَلَـمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾: الإيمانُ أعزُّ بضاعة عرفتها القُلُوب، فهَل يمكنُ أنْ تدخلَ والقلوب مليئة بالشهواتِ والشبهَات، والرعونات والدعَاوى؟! فإذا أردنا أن يدخلَ الإيمانُ القلبَ فلا بدَّ لنا أنْ نهيِّء القلْبَ لاستقباله، وخَير ما يُهيَّأ به القلب: التَّذلُّلُ بين يدي خالقه، والاعتراف بِتقصيره وتفريطه.

٤٤/ ١٤ ـ ﴿لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: يشير خِتام الآية إلى أنَّ القَبول لابدَّ أَنْ يحفَّه العفوُ الإلهيُّ والتجاوز، وإلا فأيُّ عمل منَ العبد يليقُ بحقِّ العبوديَّة وجلالها؟!

٤٥/ ١٥ ـ ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾: كم صدَّ الريبُ الإنسانَ عن خير! وكم ثبَّطه عن مغانم، وزيَّن له أنَّها مغارم! وكم حجزه عنِ اتِّخاذ القرار في وقته المناسب، فباء بالخزي والخسارِ! وكم انتقصه من العمل فانتقص من دينه ويقينه، وحجبه عن مقامات القرب والتمكين!

كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَـمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ السجدة: ٢٤، فمن أعطي الصبر واليقين أعطي الإمامة في الدين.

٤٦/١٦ ـ ﴿قُلْ: أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ﴾؟!: تشير الآية إلى بطلان القول بما يلزم عنه من حال أو قول، وذلك أنَّ الله تعالى دلَّل على فساد دعواهم بما يلزمُ عنها من ادِّعاء باطل بأنَّهم يُعلِّمون الله ما لا يعلم! وفي هذه الإشارة ما يؤيِّد من ألزم الخصم بلازم قوله أو مذهبه.

٤٧/١٦ ـ رُبَّما كانت إساءة الأدب تهدِّد بنقض عقد الإيمان، قارن هذه الآية بما جاء في الآية الأولى، يقول الإمام ابن المبارك رحمه الله: (من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السنن، ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض، ومن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة)، فأيُّ رفعة لأمر الأدب مع الله ورسوله عليه الصلاة والسلام آكد من هذا؟!

٤٨/١٧ ـ ﴿بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾: الهداية للإيمان إشراقة روح، وانشراح صدر، ولا يذوق لذَّة الإيمان والهدى إلا من شهد مِنَّة الله عليه في كلِّ شيء، وشهد شدَّة ضعفه ومسكنته، وافتقاره وحاجته إلى الله تعالى في كلِّ شيء..

٤٩/١٨ ـ الصدقُ مِعيارُ صِحَّةِ العلاقةِ بدين الله وسلامتِهَا في كلِّ أمر، وهو مفتاح القبول عند الله، وباب العطاء والفتوح، فمن فقد ذلك فليتفقَّد صدقه مع ربِّه، ﴿فإذا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكَانَ خيراً لهُم﴾ محمد: ٢١.

٥٠/١٨ ـ وبعد؛ فما أبلغَ الارتباط بين الختام والابتداء، فمن يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ سبحانه، وهُوَ بَصِيرٌ بِمَا يعمَلُ العبادُ، لا تَخفى عليه خَافية أحقُّ أن لا يتقدَّم العبادُ بينَ يديه، وبينَ يدي رسوله عليه الصلاة والسلام المبلِّغ عنه، ويشير ذلكَ إلى وَثيق الاتِّصال غالباً بينَ مبادئ الأمور وخواتِمِهَا، وليتقرَّر في يقين المؤمن أنَّ أيَّ حكم من أحكام التشريع في دينه له وزنه العقدي النوعي، فأي انتقاص منه ينتقص من وزنه العقديِّ النوعيِّ بقدره.

* * * * *

هَذَا لِغَيْرِي، فَمَاذَا لِي؟!

يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً. وَإِذاً لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً. وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً﴾ النساء: ٦٦.

تأمَّلت فيما يُنشَر على صفحات التواصل الاجتماعيِّ، من النصائح والمواعظ فرأيت سيلاً هائلاً على مستوى كلِّ يوم.. فكيف بالشهر؟! وكيف بالسنة؟!

وتأمَّلت مقابل ذلك الأثرَ الفرديَّ أو الاجتماعيَّ، فرأيته قليلاً ضئيلاً، لا يكاد يُذكَر.. فما السرُّ يا ترى؟!

لقد كانت الموعظة الواحدة من أحد السلف، وهي كلمات معدودة، تقلب أحوال الناس، وتفعل فعلها في قلوب أمَّة من الناس، ورُبَّما إلى مدَّة طويلة.. بل لا تزال تؤثِّر في القلوب إلى اليوم.. فأين الخلل فينا؟!

الخلل في نظري اليوم هو في الواعظ والموعوظ.. في الواعظ: فما خرج من القلب يقتحم أسوار القلوب بلا استئذان، وما خرج من اللسان لا يتجاوز الآذان..

وأمَّا الخلل في الموعوظ، وهو ما أريد تسليط الضوء عليه، فقد انقلب أكثر الموعوظين وعَّاظاً، وأصبح الوعظ والنصح أشبه بالبضاعة، التي لا تدخل دكَّان البائع إلا للمتاجرة.. أو كالكرة بين اللاعبين، تتداولها الأيدي، وتتقاذفها الأرجل، وكذلك الموعظة، وكأنَّ كل واحد يريد أن يتخلَّص منها، أو يتباهى بتزيين صفحته بها، ونشرها وتعميمها، ولسان حاله يقول: هذه لغيري، ولا علاقة لي بها..

وتأمَّل حال المصلِّين يوم الجمعة، لو أنَّهم وقفوا هذا الموقف، وكان لسان حال كلِّ واحد منهم يقول: هذه الخطبة بما فيها من النصح والتذكير والنقد لغيري.. لخرج الجميع، ولم ينتفع أحد منهم بشيء، فكيف يكون التغيير؟! ومن الذين يغيِّرون ما بأنفسهم، ليغيِّر الله أحوالهم؟! وحال أكثر المصلِّين كذلك وللأسف..

وسمعت من أستاذنا وشيخنا الشيخ أحمد عزّ الدين البيانونيّ رحمه الله تعالى أكثر من مرَّة يقول: «ينتقد كثير من الناس خطباء الجمعة، ويقولون: أحسن في كذا، وأساء في كذا، وينتقدون أسلوبه وكلماته وحركاته، ليبرِّروا لأنفسهم عدم انتفاعهم بما يسمعون، والمؤمن الحقُّ يكفيه أن يسمع؛ قال الله.. قال الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم.. يكفيه أن يسمع؛ اتّق الله، ليرقَّ قلبه، ويستجيب لدعوة الحقِّ».

فيا أخي المؤمن! لا يكن لسان حالك عن كلِّ موعظة أو نصيحة: هذا لغيري.. هذا لغيري.. بل وطِّن نفسك على أن تتلقَّى كلَّ موعظة أو نصيحة على أنَّها موجَّهة إليك أوَّلاً، وأنَّها رزقٌ إيمانيٌّ من الله تعالى ساقه الله إليك، ليصلح حالك، وتزداد خيراً على خير.. وحاسب نفسك على ذلك، وسترى خيره وبركته في حياتك..

وما أحرى الواعظين وأجدرهم، أن يتحقَّقوا بما يعظون الناس به! ليكون كلامهم مشحوناً بحرارة الإيمان، وصدق القلب وإخلاصه، ولا يكونوا كالنائحة المستأجرة، التي لا تحمل همّاً، ولا حزناً، وإنَّما همُّها أن تمضي وقتها، وتأخذ أجرتها..

أستغفرُ اللهَ مِن قَولٍ بِلا عَمَلٍ ... فقَد نَسَبتُ به نَسلاً لِذِي عُقُمِ

* * * * *

صُورَةٌ مِنْ أدَبِ العِلْمِ مَنْسِيَّةٌ

من أظهر أخلاق العلم وآدابه: التواضع ولين الجانب، والاعتراف بالفضل لأهله، وهو ما يدعو صاحبه إلى الاستفادة من الكبير والصغير، والعامَّة والخاصَّة، دون أنفة أو تمييز، والحرص على الاستزادة من العلم في جميع الظروف والأحوال، تحقيقاً لقول الله تعالى: ﴿وقُلْ: رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ طه: ١١٤..

وقد بيَّن لنا القرآن الكريم كيف حرص موسى عليه السلام، وهو نبيٌّ من أولي العزم على صحبة العبد الصالح، الذي أخبره الله أنَّه أعلم منه، ليستزيد من العلم..

وهذا يعني أن لا يصدَّ المؤمن عن أخذ العلم شيء، من كبر سنٍّ، أو علوِّ جاه، أو أيِّ اعتبار يحول بين الإنسان، وبين الاستزادة من العلم..

وهذا الخليفة الراشد عُمَرُ رضي الله عنه يُدخِل ابْنَ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ، لما رأى فيه من النجابة، والعلم والفهم، ولم تَحُلْ حداثةُ سنِّ ابْنِ عَبَّاسٍ دون ذلك.

وهكذا كانت سيرة العلماء في طلب العلم وآدابهم من سلف هذه الأمَّة.. فلم يكن الأشياخ من سلف هذه الأمَّة يستنكفون أن يتعلموا من الشباب ما جهلوا، ولا يزرون عليهم لصغر سنِّهم، إذ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، لا مانع لما أعطى الله من صبيٍّ أو غيره، ولا معطي لما منع الله من كبير أو غيره.

قال أبو أيوب السجستاني: إني أدركت الشيخ ابن ثمانين سنة يتبعُ الغلام يتعلَّم منه، فيقال له تتعلم من هذا؟ فيقول: نعم، أنا عبده ما دمت أتعلَّم منه.

وقال عليُّ بن الحسن: من سبق إليه العلم فهو إمامك فيه، وإن كان أصغر سنّاً منك.

وقيل لأبي عمرو بن العلاء: أيحسن للشيخ الكبير أن يتعلَّم من الصغير؟ فقال: إن كانت الحياة تحسن به، فإن التعلُّمَ يحسن، فإنَّه يحتاج إلى العلم ما دام حيّاً.

وقال يحيى بن معين لأحمد بن حنبل وقد رآه يمشي خلف بغلة الشافعي رضي الله تعالى عنه: يا أبا عبد الله تترك حديث سفيان بعلوٍّ، وتمشي خلف بغلة هذا الفتى، وتسمع منه؟

فقال أحمد: لو عرفتَ منه ما أعرف لكنت تمشي من الجانب الآخر، إنَّ علم سفيان إنْ فاتني بعلوٍّ أدركتُه بنزول، وإنَّ عقل هذا الشاب إنْ فاتني لم أدركه بعلوٍّ ولا نزول!

وقال أبو بكر بن الجلاء رحمه الله: إني لأرى الصبيَّ يعمل الشيء فأستحسنه، فأقتدي به، فيكون إمامي فيه.

فما أحسن هذا التواضع! ومَا أرفع قدر صاحبهِ! وقد أصبَحنا في زمن فُقِدَت فيه خَلائقُ العلم والعلماء، وغابت آداب العلم عن كثير من طلابه، إلا من رحم ربِّي، وأهمُّها: التواضعُ والاعترافُ بالفضل لأهله..

فرُبَّما فاقَ التلميذُ أستاذَه، وكذلك الولد والده، وبزَّه في علم أو أكثر بمرَاحلَ وأشواط، ولكنَّ أستاذَه أو والده لا يزال يذكره تلميذاً، أو طفلاً كما كان بالأمس، ويذكِّره بذلك كُلَّما التقاه، ولا يقرُّ له بفضل أو سبق، ورُبَّما أظهر له الترفُّع عليه، بلهَ أن يتعلَّم منه.. وهذا ممَّا يحرم مِنْ بركة العلمِ، ويدلُّ على ضعف الإخلاص.

* * * * *

(الحُبُّ أعظَمُ قُوَّة دَافِعَة)

لقد صدق شاعر الإسلام محمد إقبال رحمه الله إذ قال: (إن كارثة المسلمين في هذا العصر، أنهم يحملون القلوب، ولا يعرفون المحبوب.. أنهم يملكون مادة الحبِّ، ولا يعرفون مَنْ يشغلونها به، ويوجهونها إليه).

إن الحبَّ أعظمُ قوَّة دافعة، وعاطفة محرِّكة، وطاقة باعثة، به يظهر الفرق جلياً بين إيمان المؤمنين، وأفكار الفلاسفة المهوّمين، وبه يكون الإيمان حياً نابضاً، بعد أن يكون مغشَّى بغشاوات الشهوات والأهواء، مترعاً بحبِّ الدنيا، والسعي وراء حطامها..

إن هذه القوَّة الدافعة، والعاطفة المحرِّكة، والطاقة الباعثة عندما نحسن استغلالها وتوظيفها: تحرق لنا المراحل، وتختصر لنا الطريق، وتحبط مخطَّطات أعدائنا ودسائسه..

إن هذه القوَّة الدافعة تذيب من النفوس رعوناتها، وتستخرج منها أرفع ما فيها وأزكاه، ولا تزال تقدح زنادها، لتشرق أنوارها، وتزكو أسرارها، ويتألَّق عطاؤها وإبداعها..

إن هذه القوَّة الدافعة، والطاقة المحرِّكة تحرق الضغائن، وتستلُّ السخائم، وتغطِّي مساحات من الخلل في النفس لا تغطَّى بسواها مهما بلغ شأنه، وتجعل النفوس المتنافرة كالجسد الواحد، يحكمه القلب السليم الذي اتَّضح هداه، وسما على الأعراض هواه..

إن هذه القوَّة الدافعة تنهض بالهمم الوانية، فتلحق المقلِّين المقصِّرين بركب المكثرين السابقين..

وإنَّ الحبَّ إن لم يُوَجَّه إلى الغايات الشريفة، والأحوال الزكيَّة، تَوَجَّه إلى الأهواء المفسدة، والشهوات المدمِّرة، وأصبحت حياة الإنسان بذلك تافهة رخيصة، أسيرة مستعبدة..

إنه طاقة ضخمة، لا تقبل الإهمال والتعطيل، وإلا فإنها تنقلب إلى قوَّة مفسدة مدمِّرة.. كواقع حال أكثر أبناء الأمَّة اليوم.

لقد استغرقت أهواؤنا وشهواتُنَا هذه الطاقةَ الحيَّةَ، والمنحةَ الإلهيَّةَ البديعة، وضيَّعت منها الكثير الكثير، وراء فتنة الأموال والأولاد، والجاه والنساء، والتفاخر بالمظاهر وأنواع الحطام..

هذا هو الحبُّ الذي يسمو بالإنسان ويعليه، وحقٌّ على كلِّ مكلَّف أن يسعى لنيل مكارمه، والتمتُّع بحلاه، وما أحرى العاطلين عنه أن يستشعروا عظيم الخسران بما يفقدون.

* * * * *

نشوةُ الطَّاعَة..

ما بال كثير من الناس يتثاقلون عن طاعة الله تعالى، حتَّى يسمعوا القوارع، ويعرفوا ما وراء المعصية من الغضب والعذاب، فيجرُّون إلى طاعة الله جراً بسياط القهر، وسوط التهديد، وكلمات التقريع والتأنيب؟! هذا إن نفعت معهم، وأثَّرت فيهم..

وقد رفع النبيُّ عليه الصلاة والسلام همم المؤمنين كي لا يقفوا مع ظاهر العمل الصالح بما فيه من حركات ظاهرة، بل ينفذوا إلى ما وراءه من حقائق شعوريَّة ترقى بها حياة المؤمن وتسمو، فقال صلَّى الله عليه وسلَّم قَالَ: (ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلا لله، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ). متفق عليه.

وقال صلَّى الله عليه وسلَّم: (ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِىَ بِالله رَباً، وَبِالإِسْلاَمِ دِيناً، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً). رواه مسلم.

فللإِيمَانِ حَلاَوَةٌ يذوقها المؤمن عندما يتحقَّق بهذه الحقائق الإيمانيَّة الكبرى، ولا أريد الحديث عنها في هذا المقال، إنَّما أريد أن أتحدَّث عن ثمرة من ثمرات الإيمان الذي ذاق المؤمن حلاوته.. ومعلوم أنَّ العمل الصالح بشتَّى مجالاته وميادينه، يتَّصل اتِّصالاً وثيقاً بالإيمان، فعندما يكون الإيمان على مثل هذه الصفة من ذوق اللذَّة والحلاوة، تكون الطاعة والعبادة للمؤمن منشطاً، ويشعر بنشوة للطاعة، يجهلها كثير من الناس، الذين لم يتذوَّقوا شيئاً منها، فلذا يرون أنفسهم لا ينشطون للطاعة، ولا همَّة لهم فيها، ويلتمسون لأنفسهم شتَّى الأعذار للتهرُّب منها..

إنَّ مَنْ ذاق نشوة الطاعة سمت همَّتُه، وعلت عزيمته، رضي من الدنيا بما قسم الله له، ولم يرتض من أمر الآخرة بالدون..

مَنْ ذاق نشوة الطاعة لم يصدَّه عنها شيء من علائق الدنيا أو عوائقها، فهو يعرف كيف يذلِّل العقبات، ويتجاوز المثبِّطات، ولم تفتنه المغريات، ولم يضيِّع عمره بالملهيات..

من ذاق نشوة الطاعة لا يبالي بإعراض المعرضين، ولا بعتب العاتبين، ولسان حاله يقول: وعجلت إليك ربِّي لترضى.. ويقول أيضاً: ولي أذن عن العذَّال في صمم..

من ذاق نشوة الطاعة ترفَّع عن الدنايا، وأعرض عن الجاهلين، وأنف عن سفساف الأمور.. إنَّ نشوة الطاعة من حلاوة الإيمان، وبشاشة الإيمان إذا خالطت القلوب، لن تخرج منها بإذن الله، ولن تتخلَّى عنها..

نشوة الطاعة هي من مشكاة الحبِّ والرغبة، لا من سياط القهر والغلبة.. وما كان من مشكاة الحبِّ والرغبة يصنع الأعاجيب، ولا يقف في وجهه شيء من العوائق بإذن الله..

ولا يذوق نشوة الطاعة من يقتصر على وجه واحد من العمل الصالح، كما هو حال كثير من عامَّة المسلمين، وبعض خاصَّتهم.. الذين يولعون ببعض النوافل القاصرة على أنفسهم، ولا يعرفون غيرها..

لذَّة الانتصار على النفس بالعفو عند المقدرة.. لذَّة العطاء والسخاء، حيث لا يراك إلا عالِـمُ السرِّ وأخفى.. لذَّة إغاثة الملهوف، وتفريج كربة المكروب.. لذَّة إزالة جبال الهمِّ والحزن عن مثقل محزون.. لذَّة السعي على الأرملة والمسكين.. وكلُّ هذه الحقائق فيها من الأجر العظيم، والفضل الكبير ما يجعل المؤمن يذهل: كيف الناس عنها غافلون؟ وبها زاهدون؟!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(كلُّ عَمَلٍ يَخرُجُ وَعَلَيهِ رَايَةُ إرَادَتِهِ)

كلُّ عمل يخرج وعليه راية الإرادة التي أخرجته، فإذا خرج بإرادة الدنيا، ولو كان ظاهره الخير والصلاح كانت عليه ظلمة، ومنه نفرة، ولم تكن له ثمرة.

وإذا خرج بإرادة الآخرة كان عليه نور، وكتب له في الصالحين القبول، وكان له في الأرض أصول وجذور، وثمرة ونماء.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(مِنْ عَلامَاتِ إرادةِ الآخرة)

﴿مِنكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنيَا، وَمِنكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ آل عمران: ١٥٢. إرادةُ كلٍّ منهما لها علاماتٌ؛ فمِنْ علاماتِ إرادةِ الآخرةِ: إيثارُ مرضاةِ الله على كلِّ أمرٍ، والحذرُ من هوى النفس، وحفظُ القلب من كلِّ غلٍّ، واغتنامُ الوقت إلى أبعد حدٍّ، والحرصُ على صحبة الصالحين ومجالس الخير.

ومِنْ ثمرات ذلك: انبعاثُ الهمَّةِ لكلِّ خير، والتوفيق لكلِّ برٍّ، ونيل القبول عند الخلق، والحظوة ببركات النعم والعمر.. وعكس ذلك كلِّه لمن أراد الدنيا بهمَّته.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

نحو نَظْرَة أعمق إلى حَقِيقَةِ الإخلاصِ وآثَارِهِ

إنَّ حقيقة الإخلاص تعني الوقوف مع الله تعالى في العمل ابتغاء مثوبته وأجره، والحرص على مرضاته، إنَّه رباط ربَّانيٌّ أزليٌّ، لا يقف عند صورة العمل ومادَّته، وشكله ومظهره.

وهو يعني: الحرص على وقوع العمل كما يحبُّ الله تعالى ويرضى، من حيث شروط العمل وأركانه، وحدوده ومكمِّلاته. ووقوف العبد مع مراد ربِّه.. يعني: أنَّه يقدِّم عمله لله، ويعمل في الدنيا وقلبه معلَّق بالآخرة، يتطلَّع إلى مرضاة الله تعالى ورضوانه.

وتأسيساً على ذلك، فالمؤمن يعمل، وهو يخشى أن يحبط عمله، أو لا يقبل سعيه، وهذا ما يشير إليه قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ المؤمنون: ٦٠. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في التعريف بهؤلاء: هو (الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ، وَهُوَ يَخَافُ أَنْ لا يُقْبَلَ مِنْهُ). رواه أحمد.

فإن لم يرد العبد تقديم العمل لربِّه، أو لم يقف في عمله مع مراد ربِّه، فهو واقف مع مراد نفسه ولا بدَّ، ولا ثالث لهما..

ووقوف العبد مع مراد نفسه يعني: تحريف اتِّجاه العمل وقبلته، وتكييفه بما يتناسب مع أهواء النفس ورعوناتها، وتوظيف العمل لخدمة طغيانها، ومآربها الدنيويَّة العاجلة.

ويعني بعبارة أخرى: أنَّ العبد يسعى في عاجل حظِّ نفسه، فالعمل الصالح الذي يقوم به كما يتراءى لنا لا يريده امتثالاً لأمر الله جلَّ وعلا، ولا يقصده من حيث هو عمل طيِّب صالح، ولا يحرص عليه إلا بمقدار ما يبلِّغه أهدافه الخاصَّة ومآربه، فهو وسيلة غير مقصودة، ولا يلتفت إليها، إلا بمقدار ما تحقَّق له ذلك، ومن ثمَّ فهو يمكن أن يستبدل بها في أيِّ وقت أنماطاً غيرها من العمل والسلوك، وهذا ما يفسِّر لنا تقلُّبات الإنسان الكثيرة من العمل إلى نقيضه، وتلوُّنه وتناقضاته في سلوكيَّاته وعلاقاته، عندما يفقد الإخلاص في عمله، ويقف مع دوافع النفس ورغباتها.

ومثل هذه النوعيَّة من الناس لا ينقصهم العلم، وليس بلاؤهم الجهل، وإنَّما بلاؤهم من فساد الوجهة وسوء القصد، وفي أمثالهم يقول الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ: هَوَاهُ، وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ الجاثية: ٢٣.

وانظر الفرق بين سلوك هؤلاء، وبين قول الإمام الربَّانيِّ الجنيد بن محمَّد رحمه الله تعالى، وهو يعبِّر عن حاله وحال الصالحين من المؤمنين: (إنَّ العارفين أخذوا الأعمال عن الله، وإليه رجعوا فيها، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البرِّ ذرَّة، إلا أن يحال بي دونها).

ويتبيَّن ممَّا سلف أنَّ نوعي العمل: العمل لله أو العمل بدوافع الرغبات النفسيَّة، ولو أنَّهما قد يتفقان صورة في بعض الأحيان، فهما يختلفان جوهراً وحقيقة، اختلافاً جذرياً، ولو مثَّلنا لهما بصورة حسِّيَّة لرأينا أحدهما يصعد إلى الأعلى ويسمو، ورأينا الآخر، يهبط إلى الأرض ويسفُّ، وهو ما يشير إليه قول الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ، والعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ فاطر: ١٠.

والمعادلة التي نستخرجها من ذلك: أنَّه عندما يزداد العمل الفاقد للإخلاص، وتتحقَّق للإنسان نجاحات من وراء ذلك أكثر: تزداد رعونات النفس، وتنتفش أهواؤها، ويعظم ادِّعاؤها، وتتوسَّع مطامحها في الحياة ومطامعها، وتشتدُّ رغباتها فيها وتعلُّقاتها.

وفي الطرف الآخر من هذه المعادلة: عندما يزداد العمل المتحقِّق بالإخلاص لله تعالى، تزداد النفس خروجاً عن الأنا وتقديس الذات، وتزداد حرصاً على إتقان العمل وتجويده، وتخليصه من شوائبه ودخنه، ولا تقف عند منافعه الحاضرة، أو مردوده العاجل.

على أنَّ تجريد النفس عن أهوائها ورعوناتها لا يقف عند تحقيق حدِّ الإخلاص، ولا يقتصر عليه، وإنَّما منه يبتدئ، ليشمل خيره بعدئذ مناحي الحياة الإنسانيَّة بجميع جوانبها ومشمولاتها، فلا يقف الشارع بالمكلَّف عند الأعمال التكليفيَّة التعبديَّة، ليتحقَّق فيها الإخلاص والتجرُّد لله تعالى فحسب..

وإنَّما يحثُّه على أن يترسَّم هذا السبيل في كلِّ خطوة من خطوات حياته، حتَّى ولو كانت من الأعمال العاديَّة المباحة، لكي تصطبغ حياته بروح الإخلاص والتجرد لله تعالى في كلِّ شأن، وقد شاع في مصطلح أهل العلم: أنَّ النيَّة تقلب العادة إلى عبادة، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ العَالَمِينَ. لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ الأنعام:١٦٢ـ١٦٣.

وبالنظر إلى هذه العلاقة المتلازمة بين تحقيق الإخلاص لله تعالى، وبين تجرُّد النفس من رعوناتها وأهوائها، فإنَّ الإخلاص هو الأصل إذن لعلاج أمراض النفس، وتزكيتها من الأمراض والعلل الخلقيَّة والنفسيَّة، كالكبر والعجب، والحسد والغرور، ممَّا يؤكِّد على المؤمن في خاصَّة نفسه، وعلى الدعاة والمربِّين في علاقاتهم بالناس وتعاملهم معهم أن ينطلقوا منه في خطابهم، ويجعلوه مبتدأ دعوتهم وحديثهم.

آثارُ العَمَلِ في كلا الاتِّجاهَيْن:

وكما أنَّ روح الدين الإخلاص لله، والإخلاص سرُّه وحقيقته: الخروج عن الذات وحظِّ النفس والتجرُّد في العمل لله تعالى، فإنَّ إخلاص العمل لله هو إذن روح الوجود الإنسانيِّ في وجهتيه الفرديَّة والاجتماعيَّة. وقد لخَّص القرآن الكريم هذه الحقيقة في قول الله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ الملك: ٢.

قال الإمام الفضيل بن عياض رحمه الله: (هو أخلصه وأصوبه)، قالوا: يا أبا عليّ ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: (إنَّ العمل إذا كان خالصاً، ولم يكن صواباً، لم يقبل، وإذا كان صواباً، ولم يكن خالصاً، لم يقبل، حتَّى يكون خالصاً صواباً، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على

السنَّة)، ثمَّ قرأ قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً، ولا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ الكهف: ١١٠.

ومن دقَّق النظر وجد فساد الناس لا يخرج عن الخلل في أحد هذين الجانبين؛ فإمَّا أنَّه يعود إلى فساد القصد والإرادة، أو إلى انحراف السلوك عن نهج الشريعة، بذريعة التأويل، أو بدعوى الاجتهاد والتجديد، أو بحجَّة تغيُّر العصر أو فساد الزمن! أو بدعوى المصالح والضرورات، أو تحت أيِّ مبرِّر أو تعليل.

وللسلف عبارات دقيقة جامعة توجز أبعاد الإخلاص، وتميِّزه عمَّا عداه، فقد حدَّ الإمام الهرويُّ حقيقةَ الإخلاص بقوله: (هو تصفية العمل من كلِّ شوب). ويعني بذلك أن لا يمازج عمله ما يشوبه من شوائب إرادات النفس؛ إمَّا طلب التزيُّن في قلوب الخلق، وإمَّا طلب مدحهم، والهرب من ذمِّهم، أو طلب أموالهم، أو خدمتهم ومحبّتهم، وقضائهم حوائجه، أو غير ذلك من العلل والشوائب، التي عقْدُ متفرِّقاتها هو: (إرادة ما سوى الله بعمله كائناً ما كان).

ولا يتمُّ للعبد ذلك إلا بثلاثة أمور:

١- الخروج عن رؤية العمل، وشهود منَّة الله تعالى عليه فيه، فلا يرى العمل منه، وإنَّما بمحض فضل الله تعالى وتوفيقه، وعونه وتسديده:.. ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ هود: ٨٨، فكلَّما ازداد توفيقاً ازداد شعوره بذلك ونما.

٢- وإذا كان لا يرى العمل منه، فإنَّه يستحيي من الله تعالى أن يطلب عليه عوضاً، أو يتطلَّع إلى ذلك، فمهما اجتهد في عمله لا يراه موفِّياً شيئاً من حقِّ العبوديَّة، فكيف يتطلَّب العوض مع شعوره بعظيم تقصيره؟!

٣- وإذا نظر جلال الله سبحانه وعظمته فإنَّه يشهد آفات عمله، ونقصه وخلله، وسوء بضاعته وآفاتها، التي هي جزء من آفات نفسه ورعوناتها، فلا يزال يسعى في تحسين عمله وتجويده، وإتقانه وترقيته، واتِّهام نفسه والتدقيق في محاسبتها.

وإنَّ صحَّة هذا النظر فرع عن علم العبد بما يستحقُّه الربُّ جلَّ جلاله من حقوق العبوديَّة، وآدابها الظاهرة والباطنة، وشروطها، وأنَّ العبدَ أضعفُ وأعجزُ وأقلُّ من أن يوفِّيها

حقاً، وأن يرضى بها لربِّه، فالعارف لا يرضى بشيء من عمله لربِّه، ولا يرضى نفسه لله طرفة عين، ويستحيي من مقابلة الله بعمله، فسوءُ ظنِّه بنفسه وعمله، وبغضه لها، وكراهته لأنفاسه، وصعودها إلى الله يحول بينه وبين الرضا بعمله، والرضا عن نفسه.

كما أنَّ صحَّة هذا النظر فرع عن دقَّة معرفة العبد بنفسه، وشدَّة اتِّهامه لها، فإنَّ النفس أمَّارة بالسوء، جاهلة ظالمة، طبعها الكسل والبطالة، وإيثار الشهوات، والانهماك في اللذَّات، والقعود عن الطاعات والقربات، فهي مأوى كلِّ سوء، ومنبعُ كلِّ شرٍّ.

وقال بعضهم: (آفة العبد رضاه عن نفسه، ومن لم يتَّهم نفسه على دوام الأوقات فهو مغرور، فالمؤمن؛ جَمَعَ إحساناً في مخافة، وسوء ظنٍّ بنفسه. والمغرور؛ حَسَنُ الظنِّ بنفسه مع إساءته وتقصيره).

ويقول الإمام الحارث المحاسبيُّ رحمه الله: (واعلم رحمك الله أنَّ الصدقَ والإخلاصَ؛ أصلُ كلِّ حال، فمِنَ الصدق يتشعب الصبر والقناعة والزهد والرضا والأنس، وعن الإخلاص يتشعب اليقين والخوف والمحبَّة والإجلال والحياء والتعظيم).

ولكلِّ مؤمن في هذه المقامات موطنٌ يعرف به حاله، فيقال له: خائف وفيه الرجاء، وراج وفيه الخوف، وصابر وفيه الرضا، ومحب وفيه الحياء، وقوَّةُ كلِّ حال وضعفه؛ بحسب إيمان العبد ومعرفته. ولكلِّ أصل من هذه الأحوال ثلاثُ علامات يعرف بها الحال:

- فالصدق في ثلاث أشياء لا تتمُّ إلا به: صدق القلب بالإيمان تحقيقاً، وصدق النيَّة بالأعمال، وصدق اللفظ في الكلام.

- وأمَّا شُعَب الإخلاص، فلا يسمَّى المخلص مخلصاً، حتى يفرد الله عزَّ وجلَّ من الأشباه والأنداد، والصاحبة والأولاد.

- ثم إرادته الله بإقامة التوحيد، وجمع الهمّ له وبه في النفل والفرض.

مثلانِ يَكْشِفَانِ آثَارَ العَمَلَيْن، والفَرقَ بَيْنَ الفَرِيقَيْن:

حال المنفق ماله ابتغاء وجه الله تعالى، والمنفق ماله رياء وسمعة، ومنّاً وأذىً، فقد صوَّر القرآن الكريم حال الفريقين أدقَّ تصوير، يكشف عن آثار كلا العملين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا

تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ. وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ البقرة:٢٦٤ـ٢٦٥.

أغوَار وأبعَاد فِي المُقَارَنَةِ بَينَ الفَرِيقَيْنِ والاتِّجَاهَيْن:

١- إنَّ أوَّل ما يلازم الإخلاص، ولا ينفكُّ عنه: احتساب الأجر من الله تعالى على العمل، وهو ما يعبَّر عنه في النصوص الشرعيَّة بالإيمان والاحتساب، كما جاء في الحديث الصحيح: (مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَاناً واحتِسَاباً غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ). متفق عليه.

وأمَّا الآخر فيدفعه إلى القيام بالعمل: الرياءُ والسمعةُ، أو حبُّ محمدةِ الناس والثناء عليه، والوصول إلى الجاه والرئاسة بينهم، أو بلوغ مغانم الدنيا العاجلة، أو ما يشبه ذلك ويقاربه، ويتَّصل به ويلازمه.. وكلُّ ذلك ممَّا ينافي الإخلاص ويجافيه.

٢- المخلص لله في عمله كلَّما تقدَّم به العمر ازداد حرصاً على العمل الصالح وازدياداً منه.

وأمَّا الآخر فهو يتقلَّب بين أنواع من الأعمال المتعارضة المتضاربة، ولو عمل صالحاً، فإنَّه لا يثبت على عمله، ولا يستقرُّ.

٣- المخلص لله في عمله لا تصدُّه العقبات أو المكاره عن طريقه، بل تزيده عزيمة على الحقِّ وإصراراً، وأمَّا الآخر فيصدُّه عن العمل الصالح أيَّة عقبة تعترض سبيله، ويدخل فيمن: ﴿يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ الحج: ١١.

٤- المخلص لله في عمله تستوي سريرته وعلانيته، بل إنَّ سريرته خير من علانيته، وأمَّا الآخر فهو يتظاهر بالعمل الصالح، ويتزيَّن به بين الناس، وسريرته خالية عن ذلك وبعيدة.

٥- المخلص لله في عمله صاحب همَّة عالية، وعزيمة صادقة، كلَّما بلغ شيئاً من همَّته وعزيمته تطلَّع إلى ما هو أرفع منه وأجلُّ، وأمَّا الآخر فكثيراً ما تصدُّه شهوات النفس ومآربها، وتقعد به عن السموِّ عن محاصرة الحسِّ ونطاق المادَّة.

٦- المخلص لله في عمله بعيد عن العجب والغرور، والتباهي والادِّعاء مهما أحرز من نجاح أو حقَّق من إنجاز، فلا يعوق تقدُّمه أمد، ولا يقف رقيُّه عند حدٍّ، فهو مرشح للزيادة من كلِّ خير، وأمَّا الآخر فيغلبه العجب والغرور، والتباهي والادِّعاء عند أدنى نجاح يحقِّقه، بل ويبرِّر لنفسه كلَّ تقصير يقع فيه، لأنَّ ما حقَّقه من نجاح ـ بزعمه ـ قد أسكره عن رؤية عيوبه.

وبعد؛ فكلما فكَّرت في الإخلاص رأيته قريباً من النفس، لا تعجز عن تحقيقه والتحلِّي به، فإذا تفكَّرت فيه أكثر رأيته سرّاً عزيزاً، وجوهراً نفيساً، لا تمنحه العناية الإلهيَّة إلا لمن سبقت لهم الحسنى.

ورُبَّما زعم الأدعياء تحقُّقَهم به، واستحواذهم عليه، ولو صدقوا الله في أنفسهم لاعترفوا بقصورهم عن الحقِّ الذي عنه ينحرفون، وبه يمارون.. وإلا فسيبدو لهم من الله حين ينكشف الغطاء، ما لم يكونوا يحتسبون، فيألمون ويندمون، ويرون أنَّهم زُيِّنت لهم سوء أعمالهم، وكانوا مخدوعين بسراب الوهم، ويومئذ يعلم الذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون.

* * * * *

الإنسَانُ اليَتِيمُ

وُلِد اليَتيم.. فلم تجِد أمُّه بجوارها ذلك الأب الذي ودَّع الحياة منذ عدَّة أشهُر.. فَعَلَتْ مسحةٌ من الحزن والكآبة وجهها، مع تلك الآلام التي تعاني منها الوالدة في مثل هذا الموقف..

ومعَ الحزن والألم، نظرت في وجه وليدها فرأت بسمة وجمالاً، يشعَّان من عينيه وفمه ووجنتيه، وكأنَّهما يقتحمان الدنيا من أوَّلها إلى آخرها.. فأنساها وحشة الكآبة، ومسحةَ الحزن والألم..

ونظرت حولها فرأت بعض نسوة، يشاركنَها تلك المشاعر بصورة صامتة، ولكنَّهنَّ يتصنَّعنَ البهجة كما تتصنَّعها..

يَتيم.. وماذا عسى أن يكونَ شأن هذا اليَتيم؟!

يَتيم.. وماذا وراءه إلا القهر والذل، أو الإهمال والضياع.. وهو لا يرى الوالد، الذي يسنده في هذه الحياة، التي لا تعرف إلا لغةَ القوَّة والبطش؟! وبأسَ الأهل والعشيرة..

يَتيم.. وأي أمل أرتقبه له في عيش كريم؟! والناس يلهثون في ضنك الحياة، لا يعرفون كيفَ ينالون لُقمةَ العيش، وكأنَّها مُعلَّقة بأسباب السماء وعالم المجهول أكثر من أسباب الأرض؟! التي حظُّهم فيها قليل..

يَتيم.. ومن يأبه لليَتيم؟! ومن يحبُّ هذا اليَتيم؟! ومن يرحم هذا اليَتيم؟! ومن يمنحُ العطف لهذا اليَتيم؟! والناس من حَولي لا يعرفون الرحمة بأطفالهم، فأنَّى لهم أن يعطفوا على طفلي، ويرحموا يتيمي؟!

وهتف بها من أعماقها صَوت كأنَّه همس النجوى: وما يدريك أيَّتُها الوالدة ما تخبِّئ الأيَّام لطفلك اليَتيم؟! لِـمَ لا تعلِّقين رجاءك بالله، الذي خلقه، وهو أعلم به؟

فلرُبَّما كان هذا اليتيم دُرَّةَ الوجود اليتيمة! ومنحة الرحمة للإنسانيَّة المعذَّبة.. ورُبَّما حفَّه القدر الجميل في كلِّ خطوة يخطوها.. فكان أسعد من كلِّ من عرفت من الناس!

وهمست في سرِّها بكلمات، خرج بعضها مع آهاتها، فأحسَّت النسوة حولها ببعض فحواها.. فقالت كبيرة النسوة الحاضرات:

يا آمنةُ لا تحزني.. إنَّه لن يضام.. ولن يضيع.. إنَّ له ربّاً يرعاه ويحميه، كما يحمي بيتَه العتيقَ ويرعاه.. أرسليه إلى جدِّه عبد المطَّلب فهو ينتظر قدومه بفارغ صبره وشوقه..

وحمله جدُّه وشمَّه وقبَّله.. وتذكَّر أباه، فاغرورقت عيناه بالدمع.. لقد فارق الدنيا وهو في مَيعة صباه، ولم تكتحل عينه برؤية وليده..

وطاف به جدُّه حول الكعبة، ورفعه بين يديه إلى السماء، يدعو ويبتهل.. ودموع عينيه لا تكفُّ، كأنَّها الغيث الصيِّب، وأقبل عليه رجال قريش يبَاركون له ويهنِّئونه..

وما أسميتَه أيُّها الشيخ؟ لقد أسميتُه مُحَمَّداً.. وليكوننَّ لابني هذا شأن، وأي شأن..

عجباً! من أين لك هذا الاسم؟! إنَّه ليس باسمِ أحد من آبائك أو عشيرتك؟!

أجل! إنِّي أريد له أن يُحمَدَ في الأرض والسماء..

وقال بعضهم في سرِّه: وأنَّى له أن يُحمَدَ؟! وليس وراءه أب يرعاه.. وماذا عسى أن ينفعه جدُّه، وهو في مدبر أيَّامه، وخريف شيبته؟!

وتمتم آخر: لا يحمد إلا بالمال والرجال.. وهو منهما عادم قُلٌّ..

ونظر عبد المطَّلب في وجوه القوم فكأنَّه قرأ أفكارهم.. وقال: والله ليكوننَّ لابني هذا شأن! والله ليكوننَّ لابني هذا شأن!

* * * * *

بَشَائِرُ بَعْثَةِ الأمِينِ بِالحقِّ المُبِين

سرت في الكون روح عطريَّة أخَّاذة، لم يَعرف لها من قبل مثيلاً.. ملأت شرقه وغربه، وأرضه وفضاءه.. فترقرقت أمواه الأنهار نشوى، ومالت أغصان الأشجار في البستان طرباً..

ورنا البدر الساري، وقد دنا للغروب، ليستطلع ماذا جرى للناس في عالم الأرض؟

واقتربت النجوم، وتدلَّت بقناديلها الفضِّيَّة، وهي ترى أنواراً تتلألأ من ركن من الأرض عميق، لا تشبه شيئاً من أنوارها! ولا تدانيه أنوارها في شيء!

واطمأنَّت الأرض بنور ربِّها، وتهلَّلت أساريرها، وأطلَّت الشمس من وراء أفق الليل المدبر! ومن ذيول الفجر الصادق.. تبحث بأشعَّتها الذهبيَّة عمَّا طرأ في عالم الأرض، وسَمعت في السماء أرواح شتَّى غابرة، فلم تزل ترجو ربَّها أن يأذن لها، لتستطلع ما يجري في الأرض من بعدها! فأذن لها تكرمة لهذا القادم الكريم!

وانطلقت الأرواح من إسارها، وأقبلت ترفرف حول بيت، في زاوية منسيَّة من زوايا أمِّ القرى، تلك المدينة الحالمة على أعتاب البيت العتيق..

كان في تلك الأرواح أرواح العظماء والفلاسفة، والعلماء المصلحين، والقادة الفاتحين، والأبطال المقاتلين، والمظلومين المقهورين، والأغنياء المترفين، الذين ملأوا الأرض بترفهم المفسد قبل أن يرحلوا عنها، فلا تزال آثارهم تشهد عليهم..

وتقدَّمت روح أحد الفلاسفة من الغلام.. كان جسده الغضُّ كأنَّه قطعة من البدر، وكان وجهه يسبح في النور، وعيناه تشعُّ بالنور، وكأنَّه مصدر من مصادره..

ـ من أنت أيُّها الغلام؟ وما قصَّة قدومك إلى هذا العالم؟!

ـ فيلسوف آخر: أأنت من جنس البشر أم من جنس آخر..

ـ لعلَّك ملك من ملائك السماء ظننت أنَّ أهل الأرض سعداء.. فأردت أن تجرِّب حياة أهل الأرض! فيا بؤسك إذن مع هؤلاء البشر التائهين الظالمين!

ـ إذا كنت عظيماً من عظماء الأنبياء، قد حظي به أهل الأرض، بعد دهر من العناء، فطوبى لهم! ثمَّ طوبى لهم! فأنت فخر الإنسان، وللسعادة الأبديَّة عنوان..

ـ كنت أسمع أنَّ نبياً له شأن عظيم، تختم به النبوَّات، سيبعث في آخر الزمن.. إنِّي لأحسب إن لا تكنه، فلن يكونه أحد!

ـ وهتفت روحُ الصبيِّ بهؤلاء الزائرين: (أنا البشير النذير، والسراج المنير، والرحمة المهداة للعالمين، رسول الثقلين، وإمام المشرقين والمغربين، جئت مصدِّقاً لِـمَنْ قبلي، وخاتم النبيِّين، فلا أحد من الأنبياء بعدي.. جئت بالحقِّ المبين، لأنقذ الناس من الظلمات إلى النور، وأسعدهم بدين الحقِّ إلى يوم الدين..

ـ وأنَّى لك ذلك، وأنت فرد واحد ليس لك من نصير؟! أتراك تقدر على تغيير العالم، وقد استحوذ إبليس على الأرض، وتمكَّن من قلوب أهلها، وبثَّ أولياءه وأنصاره في كلِّ جزء منها؟! أتراك تقدر على منازعة إبليس في سلطانه، أو تصبر على مقارعة جنده وأعوانه؟!

ـ إنَّ كلَّ ما في الأرض يقول لك: (إنَّ الإنسان قد تمحَّض للشرِّ، واستعصى على الإصلاح والسُّمُوِّ.. ففيمَ عناؤك أيُّها الغلام الغرُّ؟! أليس خيراً لك أن تمضي حياتك المحدودة بمباهج دنياك، من أن تضع نفسك في بؤرة العناء والبلاء؟!

ـ لقد تملَّكنا الغرور قبلك! وجهدنا جهدنا مع أهل الأرض لنعلِّمهم الحكمة.. فلم نجن من عملنا سوى الجهد الضائع، والشقاء المتواصل!

ـ كان الناس يعلمون أنَّا عباقرتهم الأفذاذ، وأهل الحكمة والرأي فيهم، وقد خلَّفَنا الدهرُ فيهم أمداً، ثمَّ ضاع جهدنا فيهم سدى، وتركنا الدنيا، والناس على ما هم عليه، لم يستجب لنا منهم إلا بعض التلامذة، الذين لا وزن لهم ولا تأثير.. فخير لك أيُّها الغلام أن لا تشقي نفسك لإسعاد غيرك، ثمَّ لا تجني من الورد إلا الشوك.. لقد تمحَّضت الأرض للشرِّ وأهله..

ـ لست وحدي في أيِّ ميدان! أنا مع الله، والله معي.. معي من الله كتاب حكيم، ونور مبين.. معي قوَّة الله الغالبة، وعزَّته القاهرة، وسلطانه العزيز، ومن ذا يستطيع أن الوقوف في وجه قوَّة الله وسلطانه؟

ـ كثير من الأنبياء من قبلك قالوا مثل قولك، ثمَّ لم يكن حظُّهم من الناس أحسنَ من حظِّنا منهم.! وأرجو أن تفكِّر بعقلك: هل يستطيع فرد واحد أن يغيِّر المجتمع من حوله؟!

ـ نعم، يستطيع ذلك بحول الله وطوله، وقوَّة الله وتأييده..

ـ يضحك بعض الماكرين بصوت مرتفع ويقول: ألم تعلم أيُّها الغلام أنَّ إبليس وما معه من قوى الشرِّ ينازع الربَّ في سلطانه وحكمه وقوَّته، ونرى في الواقع أنَّه ينتصر ويغلب؟!

ـ أعوذ بالله ممَّا تقول، العزَّة لله، والقوَّة لله.. ولا حول ولا قوَّة إلا بالله العليِّ العظيم، آمنت بالله وحده.. وكفرت بما كانوا به يشركون..

ـ ليس لنا إلا أن ننظر ما تخبِّئ لك الأيَّام، وما تخبِّئ أنت للأيَّام.. وعندئذٍ تصدق منَّا الأحكام، وترحل الأوهام..

وعادت الأرواح حيث كانت.. ومضت أربعة عقود من السنين، وبزغ فجر النبوَّة من جديد، وتلألأت أنوارها موصولة من السماء إلى الأرض.. ودارت الأرض بإبليس.. ومادت من تحته.. وأحسَّ جنده وأعوانه بالهلع يخلع قلبه.. وعلاه الخزي أمام أوليائه.. فقال له قائلهم: مالك يا مولانا؟! عهدنا بك قوي الشكيمة، رابط الجأش.. ونراك اليوم في فزعٍ ليس له مثيل!

ـ ومالي لا أفزع؟! إنَّ الأمر جدٌّ.. نحن قادمون على حرب ضروس، تشيب لهولها الولدان، لا أجد لي فيها من الحيلة ما كنت أجد! لقد بُعث النبيُّ الخاتم..

إنَّه يجمع بين كفَّيه أسرار الأوَّلين والآخرين.. محمود محبوب.. منصور محفود، قد رفع الله له البنود، وجنَّد له الجنود.. لا يردُّ الله له سؤالاً، ولا يخيِّب له رجاءً.. يفلُّ خططي بطرفة عينه، ويهزم أوليائي بالريح والرعب، ويبطل سعيي ببعض كلمه..

ويبلغ بهمَّته في يوم ما لا أبلغه بكيدي في شهر، ويعطِّل بلمحة من عينه ما أنصب وأشقى بإحكامه أمداً طويلاً! ولو كان فرداً واحداً لصبرت عليه، وهان خطبه! ولكنَّه سيربِّي على منهجه ودينه أمَّة من الأتباع الأوفياء، المحبِّين الأشدَّاء! لا يقضي منهم واحد حتَّى يُدخل في دينه أمَّة، ولا أغلب أحدَهم في شيء، حتَّى يبرأ منه بتوبة.. أفَلَستُ منه في داهية دهياء، ومحنة عمياء؟ فلا تظنَّنَّ بي فُسُولةً ولا خوراً..

ـ لقد أقلقت خواطرنا أيُّها الرئيس! وعهدنا بك أنَّ لديك لكلِّ داء دواء، ومن كلِّ محنة مخرجاً، ولكلِّ أزمة حلاً؟ أفليس لديك من حلٍّ؟

ـ لن أقف مكتوف الأيدي، أيُّها الأعوان المخلصون! ولن تعدم حيلتي الحلول.. لأزيِّننَّ لأتباعه الدنيا، بشهَوات المال والنساء، وطول الأمل وحبِّ الجاه، ولأسلِّطنَّ عليهم اختلاف الكلمة وسوء الظنِّ، والتناحر وفساد ذات البين، وضياع العمر في القيل والقال، ولأوقظنَّ لهم الفتن النائمة، وأجعل بأسهم بينهم، ولأسلِّطنَّ عليهم كلَّ بلاء من أوليائي، ولن تقوم لهم بعد ذلك قائمة..

ولكنَّ مصيبتي معهم أنَّني أبرم وينقضون، وأمكر بهم ويستغفرون.. ولا تزال فيهم أمَّة على الحقِّ ظاهرين، لا يضرُّهم كيدي، ولا يفلُّ عزيمتَهم بأسي.. ولكن لن يداخلني منهم يأس، ما داموا أحياء على وجه الأرض..

وأقبلت كوكبة من الملائكة الكرام تحفُّ الطفل في مهده.. كان وجهه يتلألأ نوراً كأنَّه فلقة البدر.. كانت الملائكة فرحة مستبشرة، لأنَّها ترى رضوانَ ربِّها يملأ الكونَ كلَّه.. وعلمت أنَّ هذا الطفل يحمل للإنسانيَّة حلم السعادة، وسيعطي الحياة بهجة لا تعرفها من قبل.. فقال ملك كريم:

ـ ما أحبَّك أيُّها الطفل إلى ربِّك! وما أعظمَ مقامَك عنده!

إنَّه لو وزن بأهل الأرض لوزنهم..

ـ وقال آخر: ألم تعلموا أنَّ الله لا يردُّ له دعاءً، ولا يخيِّب له رجاء؟!

لقد اصطفاه الله على المرسلين، وأرسله رحمةً للعالمين..

ـ وقال ملك ثالث: طوبى لأصحابه وأهل بيته!

وطوبى لمن آمن به واتَّبعه، وطوبى لمن نصر دينه، ثمَّ طوبى!

إنَّه يعظم أجره، ويعلو ذكره، ولا يعرف حياته كلها الهمَّ والغمَّ..

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(هَمُّ المُستَقْبَلِ)

يشغل المستقبل تفكير كثير من الشباب.. وحُقَّ له ذلك.. وأحبُّ أن أهمس في أذنه: أنَّ هناك نوعين من المستقبل:

نوع يفكِّر فيه الإنسان، ويخطِّط له، ويسعى إليه، ويحرص عليه، وقد يدركه، وقد لا يدركه..

ونوع يصنعه لك توفيق الله تعالى وعنايته.. ويسوقك إليه سوقاً، وهو لا يكون إلا لمن فوَّض أمره إلى الله، وصدق في التوكُّل عليه، وطلب الخيرة منه في جميع شؤونه.. ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ الطلاق: ٣، ويصدق ذلك على شؤون الدين وشؤون الدنيا.

الصدق مع الله تعالى، والاستخارة الشرعيَّة تسوقك إلى الخير، وتسوق إليك الخير سوقاً، ومن حيث لا تحتسب.. ﴿فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرَاً كَثِيراً﴾ النساء: ١٩.

ولا شكّ أنَّ كلَّ مؤمن قد مرَّ بتجارِبَ شخصيَّة من ذلك، تزيده إيماناً بالله ويقيناً..

أتذكُرُ كم مرَّة سعيت في أمر فلم يقدِّره الله، ثمَّ قدَّر لك ما هو خير لك وأحسن عاقبة، واكتشفت أنَّ ما كنت تسعى إليه لا خير لك فيه؟ فكن على يقين وثقة بالله أنَّ اختيار الله تعالى لك خير من اختيارك لنفسك..

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(لا أُقَاتِلُ حَتَّى..)

ما أروع هذا الشعار الذي أطلقه الصحابيُّ الجليل سعد بن أبي وقَّاص، إذ قال زمن الفتنة: (لا أُقَاتِلُ حَتَّى تَأْتُونِي بِسَيْفٍ لَهُ عَيْنَانِ وَلِسَانٌ وَشَفَتَانِ، يَعْرِفُ الكَافِرَ مِنَ المُؤْمِنِ)! ألا فليعلم كلُّ مَنْ يحمل سلاحاً أنَّ سلطان الله وسلطان دينه فوق سلطان كلِّ آمر من البشر..

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(التَمِس الصَّوابَ قَبلَ أنْ تَبحَثَ عَنِ الأخطَاء)

التمس الحكمة والرشد في عمل أهل الخير والاستقامة، قبل أن تنقِّب عن الأخطاء والعيوب: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾ الكهف: ٦٦.

ولا تستهن برأي مهما كان مصدره.. فقد تنتفع بفكرة من عدوِّك، أكثر من رأي أقرب الناس إليك.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(لا بُدَّ أنْ نُقَدِّمَ بِسُلُوكِنَا صُورَةً مُشْرِقَة)

عندما نقدِّم بسلوكنا ومواقفنا صورة مشوَّهة عن مبادئنا، وتتقارب صورتنا الرماديَّة الضبابيَّة من الصورة السوداء القاتمة لعدوِّنا، فسوف يطول طريق النصر علينا، ولن تكون صورتنا أداة جذب وتأثير إليها، ولا وسيلة تنفير وإبعاد عن عدوِّها..

وإنَّ سرَّ اكتساح الصحابة وسلف هذه الأمَّة لأرجاء الأرض في مدَّة وجيزة أنَّهم كانوا يقدِّمون الصورة النيِّرة المشرقة، التي لا لبس فيها ولا ضبابيَّة، في وجه ظلمات الجاهليَّة المقيتة..

فأنَّى لظلمات الجاهليَّة أن تقف أمام نور الحقِّ والهدى ؟!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(الصَّبْرُ وطُولُ النَّفَسِ طَرِيقٌ إلى القِمَّة)

التربية تحتاج إلى الصبر والنفس الطويل، والسياسة تحتاج إلى الصبر والنفس الطويل، والحرب تحتاج إلى الصبر والنفس الطويل، ودعاة الحقِّ لا بدَّ لهم من الصبر والنفس الطويل، والمصائب والابتلاءات، وشدائد الحياة كلِّها لا بدَّ لها من زاد الصبر، ولا تغالب بغير ذلك..

ولا تقوم قائمة لأيِّ خطَّة، ولا تنجح إلا بالصبر والنفس الطويل..

ومن أوَّل عهد النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بالرسالة جاءه الأمر الإلهي: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرِ﴾ المدثر: ٧، ﴿فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً﴾ المعارج: ٥.

وقرَّر الله تعالى أهمِّيَّة الصبر في كتابه في كلِّ مناسبة ومجال، وجعله في سورة العصر ركناً من أربعة أركان للنجاة من الخسران: ﴿وَالعَصْرِ. إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ العصر.

ومع ذلك نرى كثيراً ممَّن يدَّعون العمل للإسلام لا يتمتَّعون بأدنى درجات الصبر..

يندفعون اندفاعاً هائجاً، بعيداً عن منهج النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وهديه، فإذا لم يروا النتائج قريبة، والثمار عاجلة، نكصوا على أعقابهم، أو سلكوا مسالك خاطئة منحرفة.. يريدون أن يغالبوا سنن الله .. وسنن الله غلابة ..

* * * * *

جُحْرُ الضَّبِّ

من مقاصد الشريعة المحكمة منع المسلمين من التقليد الأعمى، وواضح ما يحدثه التقليد من خلل في شخصية المسلم، وكيان المجتمع، من الشعور بالنقص والصغار، والضعف والانهزام، ثمَّ البعد والعزوف عن منهج الله وشرعه..

فقد أثبتت وقائع الحياة أنَّ الإعجاب بالكفار وتقليدهم سببٌ لحبِّهم وإحسان الظنِّ بهم، والولاء لهم، والثقة المطلقة بهم، وينتج عن ذلك التنكر للإسلام وقيمه، وثقافته وتراثه، وأبطاله ورجاله، والإعراض عنه كما يعرض العدوُّ عن عدوِّه..

وهذا ما وقع في شرِّه كثير من أبناء المسلمين اليوم، فاستبدلوا بالعلم جهلاً، وبالعزِّ ذُلاً، وبالقوَّة التي كانوا عليها استكانة وضعفاً..

والتمثيل بجُحر الضبِّ يُعَدُّ غاية في البلاغة النبويَّة، فجُحر الضبِّ حفرة متعرِّجة، يحفرها تارة يمنة، وتارة يسرة، فلذلك ضرب به المثل، وهو جحر فيه ضيق وظلمة، ووحدة ووحشة، والقصد منه التستُّر والهروب، وهو يعبِّر عن الإسفاف والريبة..

وإنَّ مثل اللاهثين نحو جُحر الضبِّ كمثل من كان في بحبوحة من عيشه، يأكل ما يشاء، ويشرب ما يشاء، ويعمل ويتاجر.. بطيِّبات ما أحلَّ الله، وإذ به يغرُّه الشيطان بهذه الحرِّيَّة، التي لا يعترض عليه فيها معترض، فيسوِّل له أن يتاجر بالمخدِّرات ويتعاطاها، ويصحب شياطينها، ويدخل متاهاتها..

فتلاحقه قوَّة الحقِّ وسلطانه، ولا تزال تتابع خطاه حتَّى يقع في شرِّ أعماله، فينتقل من رحب الحياة وسعتها، ونعمة الحرِّيَّة وكرامتها، ومحاسنها وبهجتها إلى ضيق السجن وظلمته، وعقوبة الجرم وعاقبته.. فأيُّ الطريقين أرحب مجالاً، وأقوم سبيلاً؟!

والطريق إلى جُحر الضبِّ يُقاد إليه الإنسان أو يَقود، أو يكون سمساراً لمن يَقود، لا فرق في النتيجة والأثر بين هذه الأحوال..

ولا يدخل الإنسان جُحر الضَّبِّ دفعة واحدة، بل يدخل نفسه مضايق بعد مضايق، إلى أن يبلغ جُحر الضَّبِّ فلا يجد لنفسه مناصاً من دخوله..

والطريق إلى جُحر الضبِّ تمثِّلها خطوات الشيطان التي نهانا الله عنها في كتابه.

والطريق إلى جُحر الضَّبِّ يكون باقتحام الشبهات، والاتِّكاء على أنواع التأويلات والتبريرات، والتنازل عن بعض الثوابت بدعوى أنَّها محلُّ خلاف واجتهاد..

وهكذا حتَّى يتَّسع الخرق على الراقع، وتستعذب النفوس اتِّباع الهوى، ويأسرها استرضاء الناس، واللهاث وراء المجد والجاه..

وتسكرها مغانم الدنيا وبرقها الخُلَّب، ويحقُّ على المتَّصفين بذلك قول الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الغَاوِينَ. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ القَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الأعراف: ١٧٥ـ١٧٦.

ما أكثر الذين وضعوا أنفسهم أو يضعونها في جُحر الضَّبِّ وهم لا يشعرون؟!

في الأخلاق والسُّلوك

﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ الحج: ٢٤.

إنَّ ممَّا هو مقرَّر معلوم أنَّ أعظم نعيم هو نعيم أهل الجنَّة، وإذ هداهم الله إلى الطيِّب من القول فهذا يدلُّ أنَّه من مظاهر تكرمتهم عند الله ونعيمهم..

فمن أراد في هذه الدارأن يذوق نعيم المتَّقين الأبرار فليلزم القول الطيِّب، وليكن ذلك ديدنه.. ومَنْ وُفِّق إلى ذلك في هذه الدار فذلك من دلائل السعادة العاجلة وأبوابها..

* * * * *

(حِينَ تَجِدُ رُوحَكَ فِي أجسَادٍ أخرى)

ما أسعدَك حين تجد روحك في أجساد أخرى، وقلبك في قلوبهم، وعقلك في عقولهم!

وهل يكون ذلك إلا لِـمَنْ ذَاقَ رحيقَ الحُبِّ في الله تعالى؟! واشتمَّ نسائمه، فأقرَّ بها واعترف، ومن لم يذقها أنكر وانصرف..

وقال تبريراً لسلوكه، ومن خلال تجرِبته المحدودة: إنَّها الأوهام والأماني.. ولو بحث عن أهل الصدق لوجدهم..

ولن يجدهم على مزابل الدنيا، وإنَّما في ميادين الشرف، ومحاريب الطهر والنقاء.. فما أعظم خسارة من قطع الحياة ولم يعرفهم!

* * * * *

(بَيْنَ التَّسَامُحِ والانتِصَارِ على مَنْ بَغَى)

قال لي: طيب المعاملة مع الناس تجعلهم يستغفلونك، ويتمادون في أذاك.. ومعاملتهم بما يستحقُّون يتنافى مع الدفع بالتي هي أحسن..

فكيف لنا أن ندفع بالتي هي أحسن، ولا نُستغفل من أمثال هؤلاء، ولا يتمادون في الأذى؟

كيف لنا أن لا نردَّ ظلم من بغى علينا، والله تعالى يقول لنا: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ البَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ الشورى: ٣٩.

حقاً! إنَّها إشكاليَّة ظاهرة: بين الدفع بالتي هي أحسن، وما يترتَّب عليه.. وبين الانتصار على من بغى علينا، وتنافيه ظاهراً مع الأمر الأوَّل..

وأرى في الجواب عنها والله تعالى أعلم أنَّ الأمر يدور بين الرخصة والعزيمة، وما يقتضيه كلُّ مقام وموقف من الأخذ بالحكمة، لا الجري مع عواصف الأهواء وحظوظ النفوس؛

فالدفع بالتي هي أحسن يتأكَّد مع ذوي القرابة، وفي مجال الدعوة إلى الله تعالى، وفيمن يرجى صلاح حاله، بأن يؤول الأمر معه إلى أن يصبح ولياً حميماً، بعد أن كان عدواً لئيماً.. كما نصَّت على ذلك الآية الكريمة..

والانتصار على من بغى علينا يتأكَّد ويترجَّح عندما يكون فيه درء مفاسد عامَّة، من الردع للمتسلِّط الباغي، وإيقافه عند حدِّه، وردع من وراءه، ومن يمالؤه، ومفاسد ما كان لها أن تدرأ بسوى ذلك..

﴿وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خيراً كَثِيراً﴾ البقرة: ٢٦٩.

* * * * *

(هَل العِتَابُ صَابُونُ القُلُوبِ)؟

لقد شاع بين الناس أنَّ العتاب صابون القلوب.. أي أنَّه يجلو صدأها، ويمحو كدرها..

وليس الأمر على إطلاقه.. فالعتاب كذلك إذا كان رفيقاً رقيقاً، مغلَّفاً بالحبِّ والتواضع، بعيداً عن القسوة وجرح المشاعر، ولم يك ديدناً للمعاتب وخلقاً كلَّما التقى إخوانه، يعاتبهم على كلِّ شاردة وواردة، ويقف لهم بالمرصاد على كلِّ هفوة.

وفي ذلك يقول بعض الفضلاء: «تجنَّب كثرةَ اللوم والتعنيفِ على من أساء: فلا يحسن بالعاقل أن يسرف في لوم من أساء، خصوصاً إذا كان المسيء جاهلاً، أو كان ممن يندر وقوع الإساءة منه؛ فكثرة اللوم مدعاة للغضب، وغلظ الطبع.

ثمَّ إنَّها موجبة للعداوة، ومجلبة لسماع ما يؤذي.

فالعاقل اللبيب لا يعاتب إخوانه على كلِّ صغيرة وكبيرة، بل يلتمس لهم المعاذير، ويحملهم على أحسن المحامل. ثمَّ إن كان هناك ما يستوجب العتاب فليكن عتاباً ليِّناً رفيقاً».

* * * * *

(مِنْ أبوَابِ السَّعَادَةِ)

أربعة من أبواب السعادة وراحة النفس مغلقة دون أكثر الناس: «سَعةُ الصدر، وغَضُّ النظر، والتماسُ العُذر، والاشتغالُ بعُيوب النفس». وليس لمن يتجاهلها حظٌّ من راحة البال وهناءة العيش..

* * * * *

من علامات التوفيق والسعادة، وصدق الإقبال على الآخرة: الضنُّ بالأنفاس، والاشتغال بعيوب النفس عن عيوب الناس.

* * * * *

(لِـمَاذَا غَابَتِ الأُخُوَّةُ الصَّادِقَةُ)؟

لقد أصبحت الأخوَّة الصادقة، والصداقة الوفيَّة، وخلائق الصَّفَاءِ والوفاء بين الأقارب والأخلاء مفقودة أو نادرة، أو ضرباً من الخيال، وحلماً بعيد المنال..

وَسَبَبُ ذلك أنَّ السَّلَفَ كَانَتْ هِمَّتُهُمْ الآخِرَةَ فطابتْ سرائرُهم، وَتجرَّدت عن حظوظ الدنيا نفوسُهم، وصَفَتْ نِيَّاتُهم فِي الأُخُوَّةِ وَالمُخَالَطَةِ، وفي كلِّ شأن من شؤونهم، فَكَانَتْ أُخُوَّتُهم دِيناً لا دُنْيَا ، وحُباً في الله وقرباً، وكانت الدنيا تبذل رخيصةً لخدمة الدين وإعلاء شأنه..

والآنَ قد استَوْلَى حُبُّ الدُّنيَا عَلَى القُلُوبِ، وشحَّ الناس بدنياهم، وهان عليهم دينهم، وأصبح الدين سبيلاً لنيل الدنيا، فتباعدت القلوب وتنافرت، واشرأبَّت حظوظ النفوس فتباغضت، وعمَّت الأثرة والمشاحَّة بين الناس فتقطَّعت الأرحام وتدابرت..

وما كان للدنيا إلا أنْ تكُونَ بأهلها كذلك، فمن سُنَّة الله تعالى في خلقه أنَّ ما لا يكون لله لا ينفع ولا يدوم.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

موقف واحد لِـمَنْ باع عقلَه لهواه، يكفيه ليبيع صداقة خمسين عاماً.. أكانت صداقة زائفة، أم أنَّه الهوى يعمي ويصمُّ؟!

اللهمَّ إنِّي أعوذ بك من طغيان الهوى، وزيف التقوى ..

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

هَكَذَا فَلْتَكُنِ الأُخُوَّةُ فِي الله..

الحديث عن الأخوَّة في الله تعالى ذو شجون.. لا يدري الإنسان بم يبدأه؟ وبم ينهيه؟ وبخاصَّة في زمن ضعفت فيه قيم الإسلام في النفوس، وغلبت على الناس خلائق المادِّيَّة النفعيَّة، وتقديس النفس وانتفاشها، وتشبُّعها بالزور والادِّعاء، وتوارت عن أعينهم النماذج الأسوة، التي

تجدِّد قيم الإسلام وتحييها.. وإذ كان العمل والسلوك محكَّ الإيمان الصادق، فكان لا بدَّ من تقديم النماذج الحيَّة، والمواقف العمليَّة، التي تغني عن تلال من الدعاوى، وجبال من القول..

كنت منذ أيَّام في زيارة أخ لي لم تلده أمِّي.. وأنا أزوره كلَّ مدَّة، عندما تضيق بي الحياة، وأريد أن أخرج عن همومها ولأوائها، وأسمع منه من الحكمة ما يثبِّت القلب، ويفرِّج الكرب، أو تعرض حاجة لأخ ملهوف أريد منه أن يعين على قضائها.. وأنا بفضل الله لا أطمع منه بشيء من حظِّ الدنيا..

وهذا الأخ كلَّما زرته عقدت العزم أن أكتب عنه مقالة، دون أن أذكر اسمه، لأنِّي لا أريد أن أغضبه، أو أسوءه، وأريد للناس أن يعلموا أنَّ هذه الأمَّة منجبة معطاءة، وأنَّ فيها خيراً كثيراً، ونماذج مضيئة متألِّقة، من شموع الأخوَّة الصادقة، لا تقلُّ شرفاً ونبلاً عن خيار السلف الصالح، الذين رويت عنهم عجائب المناقب، في أداء حقوق الأخوَّة ورعايتها.. وأريد للمتشائمين بخاصَّة، المتصيِّدين للنقائص والسلبيَّات أن يكفُّوا قليلاً، ولا يبالغوا في تصوير النقائص، وتعداد السلبيَّات والدنايا..

هذا الأخ الفاضل كلَّما ذكرت مواقفه، وتذكَّرت ما يتمتَّع به من خلائق وصفات تمثَّلت لي صورة ما أثر عن سلف هذه الأمَّة الصالح، من حقائق الأخوَّة الإيمانيَّة التي كانوا عليها.. وأنا لا أبالغ في وصفه، ولا أتزيَّد، وإنَّما أقول عن واقع تجربة لهذا الأخ الحبيب ومعايشة.. ويكفي أن أنقل للقارئ الكريم ما قاله لي هذا الأخ الفاضل في مناسبة سابقة، فقد جئته مستعيناً على تفريج كربة أخ عزيز، فعندما حدَّثته بها أطرق رأسه قليلاً، ثمَّ قال لي، والدمعة تخنق كلماته: (والله إن أحبَّ ساعة إليَّ في حياتي تلك الساعة التي تزورني فيها.. وأحب ساعة إليَّ منها عندما تطلب منِّي يا فلان ما يقرِّبني إلى الله تعالى)..

وفي كلِّ مرَّة أزوره يقول لي: مُرني يا فلان! وقال لي في مناسبة مشابهة، وقد تبرَّع لإغاثة مريض مشرف على الخطر: أيكفي هذا القدر أم أزيد؟!

وقد يظنُّ بعض القارئين أنَّ هذا الأخ من أهل الغنى والثراء، وممَّن يشار إليهم بالبنان في ذلك.. ولا والله إنَّه ليس كذلك.. وإنَّما هو ممَّن وضع نصب عينيه أن ينافس المتنافسين في مرضاة

الله تعالى، وفي المسارعة في الخيرات، وذاق نشوة الطاعة، التي لا تعدلها لذَّة أو نشوة.. وممَّن علت همَّتُه، فهو يريد أن يضرب من كلِّ غنيمة بسهم..

وكلَّما تذكَّرتُ هذا الأخ الفاضل ومواقفه تذكَّرتُ كلمة كنت أسمعها عن بعض المشايخ المربِّين أنَّهم كانوا يقولون: (ليس لي سوى تلميذ واحد.. وربَّما قال بعضهم: ليس لي سوى تلميذ ونصف).. وأنا أحمد الله عزَّ وجلَّ أنَّ لي من مثل هذا الأخ الفاضل خمسة من الإخوة الكرام الأفاضل، بالمعايير العليا التي أفهمها وأنشدها، وفي سواهم خير كثير..

ولا أريد أن يذهب بي الحديث عن هذا الأخ مذاهب متشعِّبة، وقد وضع لنا الفاروق رضي الله عنه معياراً دقيقاً لتقوى الإنسان واستقامته، وعدالته وفضله، وذلك عندما شهد رجل عند عمر رضي الله عنه بشهادة فقال له: لست أعرفك، ولا يضرُّك أن لا أعرفك، ائت بمن يعرفك، فقال رجل من القوم: أنا أعرفه، فقال: بأيِّ شيء تعرفه؟ قال: بالعدالة والفضل، قال: فهو جارك الأدنى الذي تعرف ليله ونهاره، ومدخله ومخرجه؟ قال: لا، قال: فهل عاملك بالدينار والدرهم اللذين بهما يستدلُّ على الورع؟ قال: لا، قال: فرفيقك في السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق؟ قال: لا، قال: لست تعرفه.

وإذا كان التعامل المادِّيُّ محكَّ الأخوَّة وبرهانَ صدقِها، فقد رأيت من هذا الأخ الفاضل من ذلك عجباً، وأذكر للقارئ الكريم برهان ذلك من بعض مواقفه معي، التي لا أنساها:

ـ قصدته مرَّة لإعانة طالب علم في قسط جامعيٍّ لا يجد سداده، وكنت أتوقَّع منه أن يسهم بجزء كبير منه، ولكنَّه خيَّب ظنِّي، وتكفَّل بالقسط كلِّه، ولم يكتف والله بما فعل، بل زاد مبلغاً آخر، وقال لي: لا شكَّ أنَّ على هذا الأخ تكاليف جامعيَّة أخرى، فليستعن بهذا المبلغ عليها..

ـ وزرته مرَّة ألتمس منه أن يُنظر صديقاً قد استدان منه مبلغاً كبيراً من المال، وقد اقترب أجل الوفاء، والأخ معسر، فعندما طلبت منه التأخير إلى ستَّة أشهر أشار إلى عينيه، وقال لي: بكلِّ سرور.. بل إلى أجل غير مسمَّى، فشكرته، وأثنيت عليه خيراً.. وأخذنا بحديث آخر..

ثمَّ قام بعد قليل، ورجع ومعه دفتر وقلم، وفتح على صفحة فيه، وشطب بقلمه، وأنا لا أعلم ماذا يفعل، ثمَّ قال لي: قل لصاحبك: لقد شطبت هذا الدَّيْن، فأرحتُ قلبي قبل أن أريح قلبَه، وجزاك الله عنِّي خيراً بما أزحت عن قلبي من هذا الهمِّ..

فلم أعرف والله كيف أشكره.. فما زدت على أن قلت له: جزاك الله خيراً، وفرَّج كرباتك، وزادك من فضله وتوفيقه..

فدمعت عيناه، وقال لي: يا فلان أنا ما فعلت شيئاً، سوى أنَّني شطبت سطراً من هذا الدفتر.. كان عليَّ أن لا أكتبه أصلاً.. وماذا نقص منِّي؟!

وكان يقول لي كثيراً: نحن في نعم من الله لا تعدُّ ولا تحصى، فإذا لم نقف مع إخواننا ونعينهم، فمن يعينهم؟!

كلُّ ذلك مع تواضع عجيب، وبعد عن الحديث عن نفسه والرضا بأعمالها.. قد امتلأ قلبه بالشفقة على عباد الله، وصفاء السريرة عليهم، وحبِّ الخير لهم، دون انتقائيَّة أو تمييز.. قد جعل الله هواه أن يتتبَّع الأسر المحتاجة، ويقدِّم لها ما يقدر عليه من مساعدة..

لقد كنت أقول بعد كلِّ موقف أراه منه: يا الله! من أيِّ المعادن هذا الرجل؟!

إنَّه والله أنفس من الذهب الخالص! ولا عجب فتلك هي الأخوَّة الصادقة في الله.. وهذا هو الإيمان الحقُّ، الذي يهذِّب النفوس، ويفعل الأعاجيب..

وبعد؛ فما أحوج الأمَّة أن يعتني الدعاة والمربُّون بإحياء خلائق الأخوَّة في الله تعالى، وتقديم النماذج الحيَّة من جهودهم التربويَّة متمثِّلة في جيل من الشباب المؤمن، الذي يفتح القلوب بأخلاقه وسيرته قبل أن يملأ الأرض بضجيجه وغوغائه، ولهوه ولغوه..

وذلكم لعمر الحقِّ هو النجاح كل النجاح، الذي تفتقده الأمَّة منذ أمد بعيد، فتعاني من الانهيارات على مختلف الأصعدة والجبهات..

* * * * *

(الحَقُّ والأخلاق الحَسَنَة لا يَفتَرِقَانِ)

الحقُّ ومكارم الأخلاق صنوان لا يفترقان.. وهي تضفي على الحقِّ جمالاً وجاذبيَّة، وإذا تجرَّدت عن الحقِّ كانت نفعيَّة متقلِّبة، لا روح فيها ولا نكهة لها.. ومن هنا كان ربطها في الإسلام بالإيمان تأكيداً على قوَّة اتِّصالها بالحقِّ..

أحبُّ مكارمَ الأخلاقِ جَهدي ... وأكرهُ أن أعيبَ وأن أعابا

وأصفحُ عن سِبابِ الناس حِلماً ... وشرُّ الناس مَنْ يَهوَى السبابا

ومَنْ هابَ الرجالَ تهيَّبُوه ... ومَنْ حقرَ الرجالَ فلن يُهابا

* * * * *

فَنُّ التَّعَايُشِ مَعَ النَّاس!

التعايش مع الناس بإيجابيَّة، وبخاصَّة القريبين منهم، الذين لا بدَّ لنا من معايشتهم.. فنٌّ لا يتقنه كثير من الناس..

وسبب ذلك أنَّ لكلِّ إنسان قيمه الخاصَّة، التي تشكِّل شخصيَّته، وتطبع حياته.. ومن هذه القيم ما هو مشترك بينه وبين الآخرين، وهو بمثابة الأمور الضروريَّة والمسلَّم بها، ومنها ما هو دون ذلك من الأذواق الخاصَّة والأمزجة، ومنها ما هو من العادات، التي يتمسَّك بها الإنسان، ويحافظ عليها، إلى أن تكون من الأمور الضروريَّة المسلَّم بها في حياته.. ولكنَّها في نظر الآخرين ليست بهذه الأهمِّيَّة والاعتبار..

أمزجتنا الخاصَّة بما فيها من عادات، وأسلوب في الحياة ترفع صغائر من الأعمال إلى مصافِّ الفرائض أو الكبائر.. وتضع فرائض أو كبائر لتكون صغائر لا يؤبه لها.. فما الذي جعل أمزجتنا الخاصَّة معياراً، وقانوناً للحكم على الآخرين؟!

إنَّ الإنسان عندما يزن الآخرين بميزان شخصيَّته، فهذا يعني أنَّه لن يقبل التعايش إلا مع من كان على مقاس شخصيَّته بكلِّ مكوِّناتها.. فأنَّى له أن يستطيع التعايش مع الناس وتقبُّلهم؟! وأنَّى لهم أيضاً أن يتعايشوا معه ويتقبَّلوه؟!

والعجب أنَّك ترى هؤلاء يحكمون على الآخرين بميزان شخصيَّتهم قبولاً أو رفضاً.. فما أكثر ما يظلمون الناس، ولا ينصفونهم!!

ومن ذا الذي شهد لشخصيَّتهم أنَّها القدوة المثاليَّة؟! وحتَّى لو كانت يغلب عليها المثاليَّة والتألُّق في أمور عديدة، فما الذي يجعلها معياراً لقبول الآخرين أو رفضهم؟!

ألم يعلم هؤلاء أنَّ هناك مساحةً رحبة في حياتنا من المباحات، في العادات والأذواق وأساليب الحياة، يسع الإنسان أن يأخذ منها ما يشاء، ويدع ما يشاء، بلا لوم ولا تثريب، دون أن يفرض شيئاً من ذلك على الآخرين؟!

حتَّى الرسول القدوة صلوات الله وسلامه عليه لا يستطيع أحد أن يحيط باتِّباع سنَّته وهديه في كلِّ شأن، ولا تثريب على أحد فيما يقصِّر فيه من بعض الآداب والسنن، فليست كلُّها سواء في أهمِّيَّتها، ودرجة التكليف بها..

فلنراجع أنفسنا، ولنعد النظر في أسلوب تعاملنا مع الآخرين، وتقويمنا لهم، وأحكامنا عليهم..

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(النِّتُّ مِرآةٌ للفَرْدِ والأُمَّة)

شبكة النت مرآة، تعكس ثقافة الفرد والأمَّة، ومستواهما الأخلاقي والحضاري، فلا عجب إذا كانت الأمَّة تعاني من التخلُّف على مستويات عديدة أن يتجلَّى ذلك فكراً وأخلاقاً، فيما يكتب أفرادها ويعرضون..

ويبقى المؤمن الذي يضع رقابة الله تعالى نصب عينيه، ويعلم ويوقن أنَّه ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد.. يبقى منضبطاً فيما يكتب ومتميِّزاً، لأنَّه صاحب هدف في الحياة ورسالة..

إنَّه يدخل إلى شبكة النت كما يدخل التاجر الناجح إلى السوق، همُّه: التجارةُ، وميزانُه: الربحُ والخسارةُ، فلا يغفل عن صفقة، ولا تفوته فرصة..

ولعلَّ أهمَّ الضوابط في ذلك أن يتحلَّى المتعامل مع شبكة النت بعد الإخلاص لله تعالى بخمس صفات هي: الأدب، والصدق، والعلم والتعلُّم، والنصح، والمشاركة.

* * * * *

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾

يقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾ الفرقان: ٢٠.

من حكمة الله تعالى في ابتلاء الناس بعضهم ببعض: أنْ يراجعَ المؤمن نفسه ويحاسبها فيما يبتلى به من كلام الناس، واستطالتهم في عرضه، فإن وجد صحَّة لما يتَّهم به تراجع وعدَّل مواقفه.

وإن وجد غير ذلك لم يضرَّه الاتِّهام بما ليس فيه، ففي ختام الآية يقول الله تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾ فهذا خير عزاء للمؤمن فيما يبتلى به..

أفلا يكفيك علم الله جلَّ وعلا بك، واطِّلاعه على ما في قلبك؟! فتدبَّر علاقتك بربِّك، وكفى بالله ولياً، وكفى بالله نصيراً..

وعندما نستحضر أنَّ الحياة قاعة اختبار كبيرة، وغداً ستعلن نتائج الفائزين والخاسرين.. يهون كلُّ ابتلاء فيها، على من يتطلَّع إلى الفوز الكبير..

عَظَمَةُ الإِسلامِ وَجَمَالُهُ

الإِنسانُ بَينَ الحُرِّيَّةِ والعُبُودِيَّة

في الإنسان روح تتوق إلى الملأ الأعلى.. إلى العبوديَّة لله ربِّه وخالقه.. وفيه عقل ينزع إلى الحرِّيَّة.. إلى تخطِّي القيود.. مطلقاً أو مقيَّداً ببعض القيود..

والفلسفات الوضعيَّة، والمناهج البشريَّة تمزِّق الإنسان بين عبوديَّة لمن لا يستحقُّها.. وحرِّيَّة جامحة متمرِّدة، تلغي العبوديَّة الحقَّة، وتذعن لعبوديَّات طاغية مدمِّرة.. وربَّما جعل بعضها الإنسان "الفرد" ندّاً لخالقه..

والإسلام ينظر إلى الإنسان كياناً واحداً لا تناقض فيه ولا اختلاف؛ إنَّه يجمع بين الحقيقتين في تلاؤم وانسجام:

فالعبوديَّة لا تكون إلا لله الواحد القهَّار، ربّ الإنسان وخالقه، فاطر السموات والأرض، ربّ كلِّ شيء ومليكه، إنَّها شرف الإنسان وعنوانه، وثوبه وسرباله، بل هي ألصق به من جلده..

والحرِّيَّة في إطار عبوديَّته جوهر كرامته، وزينته ودثاره، إنَّها التحقيق لحكمة خلقه ووجوده، ليتحمَّلَ الأمانة، التي أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها، وحملها الإنسان..

فالعبوديَّة عبوديَّة العقل والروح، والحرِّيَّة حرِّيَّة العقل والروح، كلٌّ له ميدانه وساحته، وحدوده وضوابطه، وفق منهج الله ودينه..

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(تبتَعِدُ الرَّحمَةُ عِنْدَ الإنسَانِ عَلَى قَدْرِ ابتِعَادِهِ عَنْ هَدْيِ النُّبُـوَّة)

يقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلعَالَمِين﴾ الأنبياء: ١٠٧. تشير هذه الآية الكريمة إلى أنَّ الناس على قدر بعدهم عن هدي النبوَّة تشحُّ الرحمة من حياتهم، ويبتعدون عنها، لأنَّ الله تعالى أرسل نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم رَحمَةً للعَالمين، ومعنى ذلك أنَّ معه من عطاء الرحمة الإلهيَّة ما يسع

حياة العالمين في كلِّ شأن من شؤونها، فمَنِ ابتعدَ عن هديه ابتعد عن رحمة الله له. فلا يلومنَّ إلا نفسه..

* * * * *

(عِنْدَمَا أُقْصِيَ الإسلامُ أُقْصِيَت الرَّحمَة)

عندما أقصي الإسلام عن مجتمعاتنا أقصيت الرحمة والخير، والعدل والإحسان، وأصبحت أمَّة الإسلام كالأيتام المقهورين الأذلاء، فما أصدق قول القائل: أبي الإسلام لا أب لي سواه..

والعجب كل العجب من أبناء الإسلام الذين يهربون من الحقِّ إلى الباطل، ومن الرحمة والعدل، إلى الظلم والبغي، ويرتمون بأحضان ظالميهم وجلاديهم.. حقّاً إنَّها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور..

* * * * *

أيُّها المُتَخَوِّفُونَ مِنَ الإسلام!

إنَّ الإسلام، وهو دين الله الحقِّ، بنصوصه الصريحة الواضحة، ومواقفه التاريخيَّة الثابتة كفل حقوق الأقلِّيَّات على أحسن الوجوه وأرقاها، وبما جعل المنصفين من أصحاب الأديان الأخرى يشهدون أن معاملة المسلمين وحكمهم أعدل وأرحم من معاملة أبناء دينهم.

وما يشيع في عالم اليوم من افتراءات المبطلين واتِّهاماتهم للإسلام والمسلمين، سببه من جهة: سوءُ تصرُّفِ بعض المسلمين، وما تعانيه أمَّة الإسلام من ضعف وتخاذل عن نصرة الدين، وحسن تمثيله من جهة أخرى..

فالضعيف المستضعف عرضة لكلِّ افتراء واتِّهام، كالجدار الخرب عرضة لأن تلقى بجواره القاذورات، ولا يجد من أحد أدنى اهتمام.. ولا عزاء للمستضعفين إلا أن يكونوا أقوياء، بالتمسُّك بالحقِّ ونصرته قبل كلِّ شيء..

* * * * *

(الإسلامُ جَاءَ لِتَحرِيرِ الإنسَان)

مع هلال ربيع الأول الأنور تهلُّ على الأمَّة ذكرى مولد سيِّد ولد آدم، خير البشر حسباً ونسباً، وخلقاً وأدباً، سيِّد المرسلين، ورحمة الله للعالمين، البشير النذير، والسراج المنير، خير من صدع بالحقِّ، وهزم الباطل..

و كلَّما تجدَّدت ذكرى مولده تجدَّدت في الحياة حاجة الإنسانيَّة إلى دينه وشريعته، وشمائله وأخلاقه، وتجدَّدت الحاجة إلى الاقتداء به..

ولن تصدق الأمَّة في فرحها به، وحبِّها له إلا إذا صدقت في الغيرة على دينه، ونصرة شريعته، واتِّباع سنَّته وهديه، وقدَّمت ذلك للإنسانيَّة منهجاً وسلوكاً، وعملاً وأخلاقاً..

ومع هلال ربيع الأول الأنور لا بدَّ أن نذكر أنَّ الإسلام جاء لتحرير الإنسان، وتحقيق كرامته حيث كان، وأنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أوَّل من حرَّر الإنسان من ربقة التبعيَّة العمياء للأجداد والآباء، وقرَّر حرِّيَّة الفكر والإرادة، ليكون الإنسان مكلَّفاً مسؤولاً..

فليس لطاغٍ في الأرض أن يتمسَّح بالإسلام، وهو يدوس كرامة شعبه، ويصادر حرِّيَّته؟!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

حَضَارَةُ الحُبِّ!

عندما تُذكَر الحضارة الإسلاميَّة يتبادر إلى ذهن أكثر الناس الجانبُ العلميُّ والعمرانيُّ، وقِيَمُ الحقِّ والعدل، وفعل الخير ومكارم الأخلاق..

وكلُّ ذلك حقٌّ لا غبار عليه، ولكنَّ جانباً على درجة كبيرة من الأهمِّيَّة، يغفل عنه أكثر الناس، ولا يتحدَّث عنه إلا قلَّة من الخواصِّ، وهو يحمل بُعداً إنسانياً سَامياً، يُعَدُّ روح الحضارة الإسلاميَّة، وشعارها ودثارها.. إنَّه الحُبُّ.. بمفهوم الإسلام، لا بمفهوم الناس، الذين جعلوا منه علاقة مسفَّة مبتذلة!

الحبُّ بمفهوم الإسلام يتنزَّل من سماء الربوبيَّة إلى أرض العبوديَّة، ليسمو بالإنسان عن علاقات الحسِّ ورغبات الجسد..

يتنزَّل من سماء قول الله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ المائدة: ٥٤، وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُباً لِّلهِ﴾ البقرة: ١٦٥، وفي الحديث القدسيِّ: (وَلا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ)، رواه البخاري وقوله صلَّى الله عليه وسلَّم: (إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْداً دَعَا جِبْرِيلَ، فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلانَاً فَأَحِبَّهُ). متفق عليه.

ويتغلغل الحبُّ في الإيمان حتَّى يكون جزءاً لا يتجزَّأ من حقيقته، ففي الحديث: (فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ). متفق عليه.

كما أنَّ حلاوة الإيمان لا تتحقَّق للعبد إلا بالحبِّ في أرقى صوره وعلاقاته، وحقائقه ومعانيه، ففي الحديث: (ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ). متفق عليه.

وثقافةُ الحُبِّ في الإسلام أضفت على الحياة الإنسانيَّة بُعْداً يتجاوز القيود والعادات المصطنعة بين الإنسان والإنسان، وهذا من صلب الدين وتشريعاته السمحة، التي تهدف إلى هداية الإنسان إلى الحقِّ، وإخراجه من الظلمات إلى النور.. ألم يأذن الإسلام بنكاح الكتابيَّات؟ وهل يُتَصوَّر النكاح بغير الحبِّ والرغبة؟

بل إنَّ الأمر أبلغ من ذلك وأوسع، إذ يرشد الله عباده إلى أن يعقدوا بينهم وبين أهل الكتاب غير المحاربين المعتدين، أن يعقدوا معهم علائق البر، لتكون خير جسر بينهم وبين المؤمنين، لزرع الثقة، وفتح أبواب الحوار والتعارف، وهو من أهمِّ متطلَّبات الدعوة إلى الله تعالى.. فيقول الله تعالى: ﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللهُ قَدِيرٌ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ. لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ الممتحنة: ٧ـ٨.

ولا يتعارض شيء من ذلك مع مبدأ الولاء والبراء، كما يتوهَّم بعض المتحمِّسين بغير فقه شرعيٍّ، أو كما يشيع الأعداء المغرضون..

دينُنَا دينُ الحُبِّ.. دين يزرع الحُبَّ في القلوب، ويتغلغل به في الأحشاء، ويظهر على بسمة الوجه، وحروف الشفاه، وفعل الخير، وبذل المعروف..

دينٌ جهادُه حُبٌّ، وفتحُه رحمةٌ، وحُكْمُه بين الناس عدلٌ وإحسان..

وثقافتنا ثقافة الحُبِّ، تربَّى عليها أجيال الإسلام عبر القرون، وملأت ما بين المشرق والمغرب، ووحَّدت العرب والعجم، وألَّفت بين الأمم والشعوب، وجمعت القلوب على روح واحدة، ومشاعر واحدة..

وغيرنا دينه الحقد، وثقافته الكراهية، وعلاقاته الكبر والاستعباد، وحربه الإفساد والتدمير، والقتل والنهب.. والتاريخ حكم عدل، وشاهد صدق.. وهو يتجاهل قيمنا، ويطمس فضائلنا، وينكر محاسننا، ويرمينا بدائه الدويِّ، وخلائقه المرذولة..

ومع امتداد بساط الحُبِّ ليشمل الحياةَ الإنسانيَّةَ كلَّها فإنَّه يشمل كلَّ موجوداتها، من الحيوان والنبات والجماد، كما قال النبيُّ صلى الله عليه وسلَّم عَنْ جبل أُحُدٍ: (هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ). متفق عليه.

فالمسلم في سلم مع الكون كلِّه، وفي حبٍّ ووئام، وأُنْسٍ وانسجام..

فانظر رعاك الله: أين تجد مثل هذه الثقافة في أيِّ ملَّة من ملل الأرض؟! وأيّ حضارة إنسانيَّة راقية، أسعد بها البشريَّة، يوم استظلَّت بظلِّها، ونعمت بخيراتها؟!

فالحمد لله على نعمة الإسلام.. والحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنَّا لنهتدي لولا أن هدانا الله..

* * * * *

رِسَالَةُ الإسلامِ الربَّانيَّة العالميَّة

الإسلامُ رسالةٌ ربَّانيَّةٌ، عالميَّةٌ شاملةٌ، متجرِّدةٌ عن الزمان والمكان وظُرُوف الإنسان.. تلك حَقيقة عقديَّة بدهيَّة، لا تحتاج إلى برهان.. ولكنَّ تعامل الناس معها متباين مختلف، ولا يهمُّني هنا أن أرصد مواقف العامَّة أو المناوئين، وإنَّما أريد أن أبيِّنَ مواقف العلماء والدعاة، الذين يترتَّب على

مواقفهم مواقف العامَّة وتوجُّهاتهم، كما يترتَّب على مواقفهم خطابهم للمناوئين، وأسلوب تعاملهم معهم.

ويمكن في هذا المجال أن أرصد المواقف التالية:

١ـ موقف محلِّي: تحكمه العادات والتقاليد، والأعراف الموروثة، ويضيِّع حقائق الإسلام ومبادئه، ويفرض عليه التخلُّف..

٢ـ موقف مصلحيٌّ: ينتقي من حقائق الإسلام ومبادئه ما يوافق رغباته، ولا يعارضها، ويفسِّر الإسلام وفق رؤيته الخاصَّة.

٣ـ موقف مذهبيٌّ: يفسِّرُ الإسلام على مقاس اتِّجاهه العقديِّ والمذهبيِّ، مهما خالف حقائق الإسلام ومبادئه.

٤ـ موقف سياسيٌّ: لا يشغل وقته وجهده من الإسلام إلا المبادئ السياسيَّة، وربَّما فرَّط حملته ودعاته بفرائض الإسلام وأركانه، وحقائقه ومبادئه.

٥ـ موقف مبدئيٌّ: يؤمن بالإسلام كُلّاً لا يتجزَّأ، ويتلقَّاه من مصدريه المعصومين: الكتاب والسنَّة، ويجتهد في العمل به، والدعوة إليه، والجهاد في سبيله وفق هدي النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وسيرته.

فالمواقفُ الأربعةُ الأولى كلُّها مَشوبَة مُشوَّهة.. مَشُوبَة بالأهواء بنسب متفاوتة، مُشَوِّهة لجمال الإسلام وكماله..

ويبتعد أصحاب هذه المواقف عن تمثيل الإسلام الحقِّ على قدر قصورهم عن الأخذ به كاملاً، والبعد عن صبغة المواقف الضيِّقة، التي يحشرون أنفسهم بها..

ورسالة الإسلام الربَّانيَّة العالميَّة تهب حملتها بحقٍّ صفاتها وخصائصها، ويكتب لهم التوفيق والنجاح، على قدر صدقهم في حملها، والدعوة إليها، لأنَّهم يكونون جزءاً منها، وتكون صبغة لذواتهم وشخصيَّاتهم..

* * * * *

(الإسلامُ أوسَعُ مِنْ كُلِّ المَذَاهِبِ التي تَنتَمِي إلَيهِ)

إنَّ الإسلام أكبر وأعظم من كلّ الزعماء والأحزاب والجماعات، والشيوخ والهيئات، وأكبر وأوسع من كلِّ التنظيمات والمؤسَّسات، وكلِّ قوى الأرض مهما عظم شأنها..

فلا يستطيع أحد بالغاً ما بلغ أنْ يحتكرَ الحديث باسم الإسلام لنفسه، ولا أن يحجب حقائقه الناصعة بعمله، ولا يقوم عمله حُجَّة على الإسلام وحقائقه، فلله الحُجَّة البالغة..

كما أنَّه ليس لأحد أن يحتجَّ لبعده عن الإسلام، واتِّخاذه منهجاً آخر لحياته لإساءة فلان أو فلان.. إلا أن يكون متذرِّعاً لمنهجه الذي اختاره بمثل هذه الأقاويل الأباطيل.. وهو بذلك لا يخدع إلا نفسه، ولا يجني إلا عليها..

* * * * *

(المُطَالَبَةُ بالحُرِّيَّةِ جُزءٌ مِنْ عُبُودِيَّتِنَا لله تَعَالى)

أيُّها الثائرون الأبرار، في كلِّ شبر من بلاد الإسلام.. اعلموا أنَّ مطالبتكم بالحرِّيَّة والكرامة جزءٌ لا يتجزَّأ من عبوديَّتِكم لله تعالى..

فمَنْ تحقَّق بصدق العبوديَّة لله، ذاقَ لذَّة الحقِّ وحلاوته، فأبت نفسه الذلَّ والهوان، لأحد من الطواغيت، مهما كان نوعه..

فالتحرُّرُ من الطواغيت ركنٌ ركين من عقد هذا الدين ونظامه: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِالله فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا﴾ البقرة: ٢٥٦.

فأخلصوا نيَّاتكم لله، ومحِّصوا مواقفكم، واعرفوا مواقع أقدامكم، فكلُّ ساعة هذه الأيَّام لها ما بعدها.. ورُبَّ زلَّةٍ أفسدت عملاً، وحطَّمت أملاً..

* * * * *

أيُّها الإسلاميُّون! أتدرون لماذا اختاركم الناس؟!

اختاركم الناس لأنَّ عورات الباطل تكشَّفت فلم يبق عليها ستر، ولم تعد تقدر على شيء من التواري..

اختاركم الناس لأنَّهم سئموا الشعارات البرَّاقة، التي تختفي وراءها الأيدي الملوَّثة بالفساد، والسرقة لأموال الأمَّة.. لأنَّهم سئموا امتهان كرامة الأمَّة، وطمس هويَّتها وانتمائها، ومصادرة حرِّيَّتها، والتفريط بكرامتها، حتَّى غدت مستخفَّة بين الناس، وأضحوكة بين الأمم..

اختاركم الناس لأنَّهم أصبحوا على درجة من النضج والوعي، وفهم الحقائق مهما غُيِّبتْ أو لُبِّست، فهم أكبر من أن يخدعوا بالأكاذيب، ويستخفَّ بهم بشمَّاعات من التهم الرخيصة، والافتراءات التافهة، وأصبحوا يميِّزون الخبيث من الطيِّب، والمستنقع الآسن من المنهل العذب..

اختاركم الناس لأنَّهم يتوقون إلى النهضة التي طالما مُنُّوا بها، وحلموا بعزِّها، ونالتها شعوب كثيرة من حولهم، ليسوا أقلَّ منها وزناً وتاريخاً، وحضارة وإمكانات، وحرموا منها ما يقرب من قرن، وكانوا أحقَّ بها وأهلها.. اختاركم الناس لأنَّهم سئموا الكذب والدجل، ويتطلَّعون إلى الجدِّ والعمل..

وقبل أن يختاركم الناس لقد اختاركم القدر، بما قدَّمتم من تضحيات على مدار عقود، وما استرخصتم من دماء في سبيل الله، وما تحمَّلتم من ابتلاءات، مصداق قول الله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ﴾ القصص: ٥.

فهل تكونون أهلاً للثقة، وعلى قدر المسؤوليَّة والأمانة، وعند حسن الظنِّ؟! إنَّكم اليوم أمام مسؤوليَّة تاريخيَّة كبرى، واختبار طويل عريض.. فاحذروا أن تخونوا الأمانة، أو تسقطوا في الامتحان.. فعند الامتحان يكرم المرء أو يهان..

فهذا الاختيار التاريخيُّ له ثمنه الباهظ، وتكاليفه الكبيرة، ولقد فتح الله لكم باباً عريضاً لنصرة دينه، وإعلاء كلمته، فاستعينوا بالله تعالى، وتوكَّلوا عليه، وشمَّروا عن ساق الجدِّ والاجتهاد، لتكونوا قرَّة عين الأمَّة، وعند حسن ظنِّها..

* * * * *

(كُلُّ مَا ثَبَتَ فِي الدِّين فَهُوَ مَوصُولٌ بِالحَقِّ المَتِين)

لا تستهن بأيِّ شيء ثبت في دينك، فكلُّ ما ثبت في دينك فهو موصول بحبل الحقِّ المتين..

وإذا لم تدرك الحكمة فيه اليوم، فهل جهلك وقصورك يقوم لك حُجَّة؟! أو يعذرك أن تتجاوز حدَّك، وتسيء الأدب؟!

وكم اعترض بعض الناس بنظرهم القاصر على بعض الأحكام الشرعيَّة، ثمَّ كشفت حقائق العلم ما فيها من سرٍّ، يثبت طرفاً من حكمة ذلك الحكم، وما خفي أعظم.. فلا معدى لك من أن تقف موقف العلم والأدب..

بينَ الحَقِّ والبَاطِل .. مُفَارقَاتٌ ومُقَاربَات!

(كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلطَانٍ جَائِر)

«كلمة الحقِّ عند سلطان جائر» حكم شرعيٌّ تكليفيٌّ، يدور بين الرخصة والعزيمة، وإذا كان عوامُّ المسلمين يسعهم أن يسلكوا فيه مسلك الرخصة، فإنَّ الخاصَّة من العلماء لا يسعهم أن يترخَّصوا ويسلكوا سبيل العامَّة، لأنَّ الله تعالى أخذ الميثاق على العلماء لتبيِّننَّه للناس، ولا تكتمونه، ويدخل في عموم ذلك: «كلمة الحقِّ عند سلطان جائر».

وإذا عجز العالم عن قول «كلمة الحقِّ» فقد وضع نفسه في صفِّ العامَّة، فلا أقلَّ من أن يلزم الصمت، فلا ينطق بالباطل، ولا يكون عوناً له على الحقِّ.

* * * * *

(لِـمَاذَا كَانَتْ كَلِمَةُ الحَقِّ أفضَلَ الجِهَاد)؟

لماذا كانت كلمة الحقِّ عند سلطان جائر أفضل الجهاد؟

لأنَّها تحيي في نفوس الأمَّة الغيرة على دين الله، وتقف عثرة في وجه النفاق والتدليس والتزوير، وتجعل السلطان الجائر يحسب لكلمة الحقِّ حسابها، ولا يستهين بدعاتها، مهما لفَّ حوله من علماء السوء، الذين يزيِّنون له الباطل، ويبرِّرون له أفعاله..

وكلمة الحقِّ لا تذهب سدىً عندما يقتل صاحبها في سبيل الله.. بل يخلَّد ذكره وذكرها..

إنَّها تحيي بإذن الله قلوباً ميِّتة، وتحرِّك عزائم كامنة، وتجدِّد هِمماً فاترة..

إنَّها كلمة طيِّبة أصلها ثابت وفرعها في السماء..

إنَّها باب من أبواب التجديد الموعود لهذا الدين، فلا بدَّ لها أن تعمل عملها في نفوس الأمَّة، لأنَّها من روح الله، ومن سنن الله في خلقه وأمره.. ولن تجد لسنَّة الله تبديلاً..

* * * * *

(لا مَوْضِعَ للحِيَادِ بَينَ الحَقِّ والبَاطِلِ)

هل من موقف حياد بين الحقِّ والباطل؟ البصيرة في الدين تعني وضوح الرؤية عن الأشخاص والأفكار والمواقف، ووضوح الرؤية لا يترك مجالاً للالتباس بين الحقِّ والباطل، ولا يترك خياراً ولا حياداً لأيِّ عاقل..

وعندما يكون الاصطفاف ظاهراً للعيان بين جند الحقِّ وجند الباطل، ويتجلَّى في شخصيَّة المختلفين ومواقفهم وانتماءاتهم، فلا معنى لدعوى الحياد، إلا أنْ يدلَّ على غبش الرؤية، وغيبة الوعي، أو يكون على مبدأ المنافقين، الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ النساء: ١٤١؟

وإنَّ أكبر الخطر والخطل والضرر أن يكون غبش الرؤية، وغيبة الوعي، من أولئك الذين يرجى منهم أن يكونوا أهل البصيرة والوعي، والرشد والهداية..

ومرَّة أخرى يتردَّد في أسماعنا بملء الحسرة والألم قول القائل:

يا معشرَ العلماء يا ملحَ البلد ... ما يُصْلِحُ الملحَ إذا الملحُ فَسَدْ؟

* * * * *

(هَلْ يَجتَمِعُ الحَقُّ والبَاطِلُ في قَلْبٍ وَاحِدٍ؟)

مَنْ ذاقَ حلاوةَ الحقِّ هيهات له أن يداهن الباطل.. ولكنَّنا نرى بعض من ينتسب لأهل الحقِّ يسير في ركاب الباطل، ويداهن الباطل ، ويبرِّر أفعاله..

فكيف يجتمع الحقُّ والباطل في قلب واحد؟! نعم، يجتمع الحقُّ والباطل، كما يجتمع الطعام الطيِّب مع السمِّ القاتل في إناء واحد، وكما يجتمع الحقُّ والباطل في سطر واحد، وليس بينهما إلا حرف واحد هو «و».. وهو هنا التأويل الفاسد..

فأي وجود وبقاء للحقِّ بعد ذلك؟!

قليل من الباطل يفسد كثيراً من الحقِّ.. فلا تخدعنَّك نفسك أيُّها المراوغ بين الحقِّ والباطل..

ولا تجعل من الحقِّ مطيَّة للباطل .. فلن يكون عملك إلا العبث ، والسراب الخادع ، ولن تجده في الآخرة إلا هباء منثوراً ..

* * * * *

(هَلْ زَمَانُنَا هُوَ زَمَانُ الانكساراتِ لأهلِ الحقِّ)؟

يخيِّم على تصوُّرات بعض الناس وكتاباتهم أنَّ هذا الزمان هو زمان الانكسارات لأهل الحقِّ، وأنَّ دولة الباطل لها السوق الرائجة في كلِّ ميدان..

بدءاً من سقوط الخلافة، إلى ضياع فلسطين.. إلى احتلال أكثر بلاد المسلمين، في شرق الأرض وغربها.. إلى تسلُّط أذناب المستخربين على مقدَّرات البلاد ونواصي العباد..

وتلك بلا شك هي الصورة السوداويَّة للواقع، ولا مراء فيها ولا جدال..

ولكنَّها ليست الصورة الكاملة، وليست القراءة الموضوعيَّة للمشهد، التي تقوم على الرؤية السننيَّة، والوعي التاريخيِّ ..

فمع هذه الانكسارات، وتكالب الأعداء وما يملكون من أسباب وإمكانات، وعتوٍّ واستكبار ، وقف الحقُّ صامداً شامخاً ..

ومع هذه الانكسارات تجاوز الحقُّ بثباته المحن، وانتصر بقوَّة إرادته في عدَّة مواطن على الطغاة والجلادين ..

ومع هذه الانكساراتِ، وتجرُّدِ أهل الحقِّ عن أسباب القوَّة المادِّيَّة والمعنويَّة فقد اقتحم الحقُّ حصون أعدائه ، فانحاز إلى معسكره خيرة أبنائه وصفوة علمائه ..

فكيف لو كان الحقُّ يملك القوَّة القاهرة، والغلبة الظاهرة؟!

إنَّ قصارى ما يأمله العدوُّ في حربنا أن تنهار أنفسنا أمام طغيانه..

وأن يسيطر علينا الوهم: أن لا يد لنا بالوقوف في وجهه ومقاومته..

ألا إنَّ هزيمة النفوس أخطر من هزيمة الجيوش في الميادين ..

* * * * *

(كَيفَ نَيأَسُ ورَبُّنا يَقُولُ: ﴿وَلا تَيأَسُوا﴾)!

كيف نيأس وربُّنا يقول لنا: ﴿وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا القَوْمُ الكَافِرُونَ﴾ يوسف: ٨٧؟

كيف نيأس وربُّنا يقول لنا: ﴿فَإِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً. إِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً﴾ الشرح: ٥-٦؟

كيف نيأس وربُّنا يقول لنا: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ المُؤْمِنِينَ﴾ الصف: ١٣؟

كيف نيأس وأقصى ما يفعله بنا عدوُّنا القتل، ولن تموت نفس إلا بإذن الله، والموت بوَّابة اللقاء بالأحبَّة، والخلود في جنَّة عرضها السموات والأرض..

لك العتبى يا ربِّ حتَّى ترضى، فعجِّل لأهلنا في سورية بالنصر المبين، والفتح القريب، والفرج العاجل، إنَّك سميع مجيب..

* * * * *

أحبُّكُم في الله!

أحبُّكم في الله! أيُّها الراحلون عنَّا، الصاعدون إلى الملأ الأعلى، حاملين تاج العزِّ والكرامة، ووسام الشهادة، مضمَّخين بعبير المسك، وشرف الحقِّ..

أحبُّكم في الله! أيُّها الرازحون تحت وطأة البلاء، ونير العبوديَّة والقهر، مصابرين مرابطين، تأبون التنازل عن الحقّ، أو مهادنة الباطل.. أحبُّكم، وأطأطئ رأسي أمام ثباتكم وشموخكم..

أحبُّكم في الله! أيُّها المعلنون لصرخة الحقِّ في وجه الباطل.. سلاحكم إيمانكم.. وحرابكم حناجركم.. وزادكم عزيمتكم وإصراركم..

أحبُّكم في الله! أيُّها الجنود الأبطال، أهل النخوة والحمية، أهل الشرف والمروءة، أهل النجدة والتضحية، يا من أبيتم الخيانة، وتمرَّدتم على الطغيان، وآثرتم رضا الله على طاعة الشيطان..

أحبُّكم في الله! أيُّها الجنود الأخفياء، الأبطال النجباء، الأحرار الشرفاء، المرابطون على الثغور، المضحُّون بأرواحهم لإنقاذ الأطفال والنساء.. تعجز الكلمات عن وصف همَّتِكم وعظمتكم، ويكفيكم علم الله بكم، وحبُّه لكم، ورضاه عنكم..

أحبُّكم في الله! أيُّها المقهورون في أقبية المجرم العفنة، ووراء أسوار الحديد الظالمة.. بوركت قلوبكم الحرَّة، وأرواحكم الطليقة..

أنتم الأحرار حقّاً، وسجَّانكم هو السجين.. وإنَّ يوم حُرِّيتكم التامَّة لقريب بإذن الله قريب..

أحبُّكنَّ في الله! أيَّتها الأمَّهات المجاهدات الصابرات، والزوجات المحتسبات، المؤيّدات المساندات، والفتيات الهاتفات بالحقِّ، ببراءة الطفولة الرائعة.. أحبُّكنَّ، وأتمنَّى أن يقتدي بكنَّ بعض الرجال..

أحبُّكم في الله! أيُّها الأطفال، الذين رفعتهم المحنة فوق هامات الرجال.. وكانوا وقود معركة الحرِّيَّة والكرامة، في كلِّ صباح ومساء.. أحبُّكم! وأقبِّل رؤوسكم الطاهرة، وأيديكم البريئة، وأغبط كلَّ أمٍّ أنجبتكم، وحملتكم على ذراعيها وأرضعتكم..

أحبُّكم أيُّها الأحرار! وأحبُّكم! وأحبُّكم! وهل أثمن من الحبِّ أقدِّمه لكم؟! أحبُّكم! ولا أرى الدنيا كلَّها تعدل شيئاً كفاء ما قدَّمتم..

وأمَّا الآخَرُونَ.. الآخَرُونَ.. الآخَرُونَ.. غيرُكم.. فيكفي أن أقول: إنَّني لا أحبُّهم.. وإنَّهم محرومون من حبِّكم..

* * * * *

(دَمُ الأضَاحِي يَقَعُ مِنَ اللهِ بِمَكَان، فكَيفَ بِدَمِ المَظلُومِينَ)؟

يا جار المستجيرين، ومأمن الخائفين، وحرز اللاجين، يا من حرَّمت الظلم على نفسك، وجعلته بيننا محرَّماً.. عزَّ جارك، وجلَّ ثناؤك، ولا إله غيرك..

إذا كان دم الأضاحي يقع من الله بمكان، ودعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب، فما بالكم بدم المظلومين، الذين هم في طهر الملائكة الأبرار؟

اللهمَّ اجعل هذه الدماء الزكيَّة الطاهرة لعنة على الظالمين القتلة، وإيذاناً بنقمتك العاجلة.. يا ربّنا العزيز غيرتك على عبادك المستضعفين..

* * * * *

الحَقِيقَةُ والوَهْمُ

عندما يقترن الأشخاص أو الأشياء بمعاني الحقِّ أو الباطل، والتوفيق أو الخذلان.. تقترن بها الحقيقة أو الوهم.. فالحقُّ مهما تجرَّد عن القوَّة فهو حقيقة مخيفة.. والباطل مهما ملك من القوَّة فهو وهم زائف..

وعندما يغفل الإنسان عن هذا الميزان وهذه الحقيقة تضعف في عينه قوَّةُ الحقِّ، وتعظم قوَّةُ الباطل..

يجلِّي لنا هذه الحقيقة بأوضح بيان قول الله تعالى عن غزوة بدر: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ الأنفال:٤٤.

فعندما التقى المسلمون بالمشركين في أرض المعركة ببدر رأى كلُّ طرفٍ الطرفَ الآخرَ بعين الحقيقة؛ فرأى المسلمون المشركين قلَّة قليلة، ورأى المشركون المسلمين كثرة كاثرة، فألقي الرعب في قلوب المشركين والوهن، وقويت عزائم المسلمين وإقدامهم على قتال عدوِّهم، فكان النصر حليفهم بإذن الله.

ولماذا رأى المسلمون المشركين قلَّة قليلة، ورأى المشركون المسلمين كثرة كاثرة؟

لأنَّ كلَّ طرف رأى الطرف الآخر بعين الحقيقة، فالمسلمون بعين الحقيقة كثيرون أقوياء، لأنَّهم موصولون بحبل الله المتين، وقوَّة الله الغالبة، وتوفيقه وتسديده..

والمشركون بعين الحقيقة قلَّة ضعفاء مهازيل، لأنَّهم مقطوعون عن قوَّة الله الغالبة، يحيط بهم الخذلان من كلِّ جانب.. وعلى قدر قوَّة إيمان المؤمن بالله ويقينه، تهيمن هذه الحقيقة على قلبه، وتملأ مشاعره ووجدانه..

* * * * *

متِّعْنَا بِنَفْسِكَ يَا أَبَا بَكر!

بين الحين والآخر نسمع عن مجازفات أمنيَّة من بعض من يشار إليهم بالبنان في مجال من المجالات.. وكأنَّهم في ملعب رياضيٍّ، أو مسرح هزليٍّ، لا في ساحة حرب ضروس، مع عدوٍّ شرس، لا يملك ذرَّة من الإنسانيَّة..

أولم يكف هؤلاء سيل الدماء، وما ينزل بشعبنا من فواجع؟! أين الحسُّ الأمنيُّ المرهف، والوعي السياسيُّ الناضج، والفكر الاستراتيجيُّ، الذي يوفِّر الطاقات، ويقتصد في بذل القوى إلى أبعد الحدود، ويضع الرجل المناسب في المكان المناسب؟!

وإذا كان منطق العقل يقضي أن لا يبذل القائد من القوى المادِّيَّة إلا بحساب، وفي أدنى الحدود فكيف بالقوَّة البشريَّة، التي هي أهمُّ وأخطر؟!

لقد علَّمنا النبيُّ صلى الله عليه وسلم أصول الفكر الاستراتيجيِّ، في كلِّ موقف ومناسبة، فعندما أراد أبو بكر رضي الله عنه في غزوة بدر أن يبارز ولده عبد الرحمن، وكان مع المشركين، فقال له المصطفى صلوات ربِّي وسلامه عليه: (متِّعنا بنفسك يا أبا بكر)! فليس لرجل بوزن أبي بكر رضي الله عنه أن يبارز أحداً من المشركين مهما كان شأنه..

إنَّ بعض الرجال يزن ملء الأرض من أعدائهم، فما بالهم يستخفُّون أنفسهم، ويخاطرون بحياتهم، ويقدِّمونها غنيمة باردة لأعدائهم؟!

* * * * *

(سَدَنَةُ البَاطِلِ لا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ وَلا يَقْضُونَ بشيء)

﴿وَاللهُ يَقْضِي بِالحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ غافر: ٢٠. قضاء الله تعالى نافذ، وسننه في خلقه ماضية.. لا رادَّ لحكمه، ولا معقّب لأمره، وهو العزيز الحكيم.. ولكن متى؟ وكيف؟ فهذا ما لا يعلمه سواه..

وسدنة الباطل وكهنة الطاغوت بشتَّى صوره وألوانه.. يصولون ويجولون، ويجعجعون وينتفشون، ويدَّعون ويصخبون.. ولكنَّهم لا يملكون في الحقيقة من نقير ولا قطمير.. إنَّهم لا يقضون بشيء.. أي شيء كان، مهما يكن تافهاً حقيراً.. لأنَّهم لا يملكون أيَّ شيء لأنفسهم، بَلْهَ غيرهم..

فعلام يغترُّ بهم الناس.. ويحسبون لهم كلَّ حساب؟ وينسون ربَّ الأرباب سبحانه.. إنَّها الغفلة وضعف الإيمان، وقلَّة الاعتبار بعبر القرون والأجيال..

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(عِزَّتُنَا بَعدَ الثَّورة على الطُّغيَان، تُنْسِينَا ما وَجَدْنَا مِنْ آلام)

رغم ما نشعر به من الغمِّ والأسى على كلِّ قطرة دم تراق في سورية، وكلِّ جرح ينزف، وكلِّ حزن يملأ قلب كلِّ حرٍّ وحرَّة، وأمٍّ وزوجة، وطفل وطفلة..

رغم كلِّ ذلك فإنَّ الشعورَ بالعزَّة والكرامة بعد قيام هذه الثورة المباركة بإذن الله لا يعدله شعور، ولا يطغى عليه حزن أو ألم، وكأنَّ وجودنا قبل ذلك كان أشبه بوجود المريض في غرفة العناية الفائقة، لا يعرف ما حوله، ولا يحسُّ به.. وقد صحا اليوم، ودبَّت فيه روح جديدة..

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(رَايَةُ الحَقِّ لا تُنكَّس)

﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيرَكُمْ﴾ محمد: ٣٨. رايةُ الحقِّ لا تنكَّس، وصفوفه المتقدِّمة لا بدَّ أن تملأ، لأنَّ الله تعالى جلَّت حكمته كتب العزَّة للحقِّ، وشاء أن يقيم الحجَّة على الباطل، ولا يتمُّ

ذلك إلا بفئة مؤمنة، تقف في وجه الباطل تصاوله وتقارعه، وتثبت على الحقِّ مهما عتى الباطل وعربد.. فاللهمَّ استعملنا ولا تستبدلنا، وأعزَّنا بدينك، وأعزَّ دينك بنا..

أما آن لهم ولبعضنا أن يعلم أن معركتهم مع الله؟! فعلام نهن ونحزن؟! ونأسى ونألم؟! وفي أيدينا وعد إلهيٌّ لا يُخلف: ﴿إنَّ اللهَ يُدافِعُ عَنِ الذينَ آمنُوا﴾ الحج: ٣٨، و(مَنْ عادَى لِي وليّاً فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ). رواه البخاري.

* * * * *

(كَيفَ يُحِقُّ اللهُ الحَقَّ بِكَلِمَاتِه)؟

﴿وَيُحِقُّ اللهُ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ يونس: ٨٢: كيف يحقُّ الله الحقَّ بكلماته؟ إنَّ صور ذلك كثيرة لا تحصى، كما إنَّ كلماته سبحانه لا تنفد:

ـ منها: أن يخذل الله الباطل، ويكشف عواره، ويفضح أساليبه، فلا يكون أمره إلا إلى بوار، كما في قصَّة مسجد الضرار..

ـ ومنها أنْ يعزَّ الله حملة الحقِّ، ويعلي شأنهم، بأقلِّ الإمكانات والأسباب، فيتميَّز الخبيث من الطيِّب، ويرى الناس بصورة مشهودة الفرق الجليَّ بين الحقِّ والباطل، والخير والشرِّ.. والهدى والضلال.. فيفيء العقلاء إلى الحقِّ والهدى.. كما في غزوة بدر، وفتح مكَّة، وغيرها من المواقع المشهودة..

ـ ومنها أن يقلِّب الله قلوب بعض زعماء أهل الباطل، فيكونوا من حملة الحقِّ وجنوده، وحماته وأنصاره.. كما كان في إسلام حمزة عمِّ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإسلام عمر بن الخطَّاب رضي الله عنهما.. وكما كان في تحوُّل كثير من زعماء قريش إلى الإسلام، وكما كان في إيمان سحرة فرعون..

ـ ومنها أنْ يقلب الله أسباب الباطل، التي يعتزُّ بها، ويركن إليها، فتكون حسرة عليه، وخذلاناً له.. كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ الأنفال: ٣٦. وإنَّها لسُنَّة الله مشهودة..

ـ ومنها أن يُسخِّرَ الله غير المسلمين لنصرة الحقِّ وتأييده، بدوافع شتَّى.. منها المصالح الخاصَّة، أو الانتصار لحقوق الإنسان، ونصرة المظلومين، أو المناكفة السياسيَّة لمنافسيهم.. ومنها ومنها..

والأمر كلُّه لله تعالى، بعزَّته وحكمته، وقوَّته ورحمته، وعدله وفضله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ الفتح: ٧. ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلا هُوَ﴾ المدثر: ٣١.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(الدُّنْيَا تَارِيخَانِ مُتبَايِنَانِ)

الدنيا من أوَّلها إلى آخرها تاريخان متباينان: تاريخ أهل الحقِّ، ومن سار في ركابهم، ودار في فلكهم، وتاريخ أهل الباطل، ومن سار في ركابهم، ودار في فلكهم..

فاقرأ التاريخ بهذه العين الواعية، ولا تقرأه بعين التلفيق بين الحقِّ والباطل.. ولا بعين التجنِّي على الحقِّ، وكأنَّه من زمرة الباطل..

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(حَبْلُ اللهِ هُوَ الحَقُّ)

﴿واعتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً ولا تَفَرَّقُوا﴾ آل عمران: ١٠٣. حبلُ الله هو الحقُّ، ولا حقَّ سواه.. وهو يَجذِبُ إليه المعادنَ النفيسةَ، كما يجذبُ المغناطيسُ الحديد، فكلَّما كان انجذاب الإنسان إليه أشدَّ كان دليلاً على نَفاسة مَعدِنه، وصفاءِ دَخيلتِه..

ولكنَّ غشاواتِ الأهواء وأتربةَ الشهوات عندما تراكمُ وتتكاثفُ على تلك المعادن تضعف جاذبيَّة حبل الحقِّ لها وتأثيرها..

فمن شأن المعادن النفيسة النقيَّة من الشوائب أن يقوى اعتصامها بحبل الله تعالى، وتلتقي وتتعاون وتتقارب.. وإلا كانت متَّهمة في صفائها ونقائها، وكان اعتصامها بحبل الله مختلاً عليلاً..

* * * * *

الحَقِيقَةُ والسَّرَاب

الحقيقةُ حقٌّ وصدق، والسَّرابُ وهم وكذب..

الحقيقة من الله الحقِّ، والسَّراب ممَّا سواه من الطاغوت والباطل..

الحقيقة قوَّة وعِزَّة، والسَّراب ضعف وذِلَّة.. الحقيقة عدل، والسَّراب ظلم..

الحقيقة نور وهداية، والسَّراب ظلمة وغواية..

الحقيقة حياة طيِّبة، وسعادة ووئام، والسَّراب لهاث وراء الأوهام..

الحقيقة أمن وطمأنينة، والسَّراب قلق وريبة..

الحقيقة قول وعمل، والسَّراب تلبيس وجدل..

الحقيقة مودَّة ورحمة، والسَّراب عذاب وفتنة..

الحقيقة إيمان ويقين، والسَّراب ظنٌّ وتخمين..

الحقيقة بدايتها جدٌّ، وعاقبتها حمد، والسَّراب بدايته كسل وقعود، وعاقبته خيبة وجحود..

الحقيقة وعد صادق لا يخلف، وعزم راشد لا يتخلَّف، والسَّراب وعد كاذب موهوم، وعزم راكد مأزوم..

الحقيقة تقوى عاصمة، وهمَّة حازمة، والسراب نفس شاردة، وهمَّة باردة..

ومن شاء الإيجاز، فالحقيقة من الله والسراب من الشيطان.. وشتَّان بين ما كان من الله، وما كان من الشيطان..

فكم من لاهث خلف السراب، وهو يظنُّ أنَّه يملك الحقيقة؟!

عندما ينظر الإنسان إلى الأمور بعينين يرى الحقيقة، ويرى السراب، وعندما لا ينظر إلا بعين واحدة لا يرى إلا ما يريد أن يراه.. ولا ضير على مَنْ يرى الحقيقة أن لا يرى السراب..

* * * * *

تَلْبِيسُ الحقِّ بِالبَاطِلِ

قلَّما يكشف الباطل عن وجهه القبيح، فيعلن عن نفسه بكلِّ وضوح، وبغير تلبيس ولا تزوير.. فيدعو إلى الكفر على أنَّه جحود.. ويعلن استباحة المسكرات والمخدِّرات على أنَّها كذلك.. ويدعو إلى الزنى على أنَّه حقٌّ استباحة الأعراض وانتهاك الحرمات.. ويعلن الظلم على أنَّه حقُّ القويِّ.. ولو فعل ذلك لنادى على نفسه بالثبور، وحكم على دعوته بسوء المصير..

وإنَّما هو في أكثر الأحوال يسمِّي الأشياء بغير اسمها، ويتخفَّى وراء رايات الحقِّ، وحقائقه وشعاراته.. وبذلك يقع التلبيس على أكثر الناس، ويقع في شباكه الأغرار والمغفَّلون، والهائمون وراء أهوائهم، ومن يبحث عن المبرِّرات لانحرافه.. ومن لا يتحرَّى مواقع أقدامه في كلِّ خطوة من خطواته..

وقد نصَّ القرآن الكريم على هذا التلبيس في الحديث عن أهل الكتاب في آيتين متشابهتين:

يقول الله تعالى: ﴿وَلا تَلْبِسُوا الحَقَّ بِالبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ البقرة: ٤٢..

ويقول تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِـمَ تَلْبِسُونَ الحَقَّ بِالبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾آل عمران: ٧١.

وكلا الآيتين تُختَمَان بقول تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، فالذين يلبسون الحقَّ بالباطل، ومن يُلَبِّسُون على أنفسهم يعلمون ما يفعلون، وهم يعذِّبون أنفسهم بما يفعلون.. وما يكتمون في أنفسهم من الحقِّ، يقوم حجّة عليهم وشاهداً يوم القيامة..

إنَّهم بتعبير القرآنِ المعجز: ما يخدعون إلا أنفسَهم وما يشعرون..

فلا تخدعنَّكم الرايات المرفوعة عن الحقائق المكتومة..

وكفى بالقرآن الكريم لأولي الألباب هادياً ومعلّماً: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً، حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً، وَوَجَدَ اللهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ، وَاللهُ سَرِيعُ الحِسَابِ﴾ النور: ٣٩.

فما أكثر المخدوعين بِالسرابِ، اللاهثين خلفَ الباطل، الذين لا يُبصرون مواقع أقدامهم، ولا يحسبون حساب مصيرهم!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

وَيْلٌ لِلظالِـمِ مِنْ مَظلُومِهِ!

يظنُّ بغروره وطغيانه أنَّه قادر متمكِّن.. ويجهل أنَّ مع المظلوم أسلحة لا تقاوم:

معه الله مالك الملك، العزيز الجبَّار المتكبِّر، الذي لا يجاوزه ظلم ظالم.. وهو سبحانه يقسم بجلاله أن ينصر المظلوم، وينتصر له..

ومعه ملائكة السماء، الذين لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون..

ومعه سهام الدعاء الحارقة الماحقة، التي لا تخطئ الظالم، ولا يفلت منها..

ومعه المؤمنون في كلِّ زمان ومكان، من يعرفه منهم، ومن لا يعرفه..

فهل للمظلوم بعد ذلك أن ييتئس؟! ما عليه إلا أن يعتصم بربه، ويلقي حمله ببابه، وليقل بصدق ويقين: رب إنِّي مغلوب فانتصر..

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(شَحْذُ الهِمَّة إِلى غَايَةِ الوُجُود)

عندما قال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم، لآل ياسر وهم يعذَّبون على رمضاء مكَّة: (صبراً آل ياسر! فإنَّ مَوعدَكم الجنَّة) فإنَّما كان يرفع هممهم للتطلُّع إلى غاية الوجود، ويعلِّق قلوبهم برحمة السماء، ويتسامى بهم عن الارتهان لمعاناة اللحظة الحاضرة..

وتلك هي (السياسة العليا) لهذا الدين، التي تحدَّت الطغاة والجبَّارين على مدار التاريخ، وكانت سرَّ تفوُّقِ الدين وانتصاره، وتجاوزه لكلِّ المحن والعقبات..

* * * * *

(نَحنُ بِحَاجَةٍ إلى ثَقَافَةِ الحُرِّيَّةِ والكَرَامَةِ، والثَّورَة عَلَى الثَّقَافَة الفَاسِدَة)

الحرِّيَّة والكرامة توأمان لا ينفصلان، أو هما وجهان لعملة واحدة.. وهما نهران عذبان، يتسلسلان من ينبوع الحقِّ الأزليِّ..

فحرِّيَّةُ الإنسان تولد مع ولادته، وكرامته هي من إرهاصات وجوده.. أي من حين اكتشاف حمله.. ألم يقل ربُّنا جلَّ وعلا: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ الإسراء: ٧٠، وقال الخليفة الفاروق الراشد عمر رضي الله عنه: (متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمَّهاتهم أحراراً)؟!

وها قد هبَّ شعبُنَا السوريُّ الأبيُّ يطلب الحرِّيَّةَ والكرامة.. بعد عقود من الصبر على الذلِّ والهوان، والاستبداد والطغيان..

ونحن اليوم أحوج ما نكون إلى أن تتحلَّى النفوس بثقافة الحرِّيَّة والكرامة.. التي تقتضي أوَّل كلِّ شيء أن نحترم الإنسان أيّاً كان.. نحترم انتماءه وعرقه، ومذهبه في الحياة ودينه..

وأن نحترم رأيَه وفكرَه، وحقَّه في التعبير عنه بكلِّ وسيلة مشروعة، وأن نلغي من قاموس تعاملنا مفردات التخوين والاتِّهام، التي هي جزء من اختصاص واحتكار لغة النظام وثقافته، وزرعه وإنتاجه، وقد أجهد نفسه، وجنَّد طاقاته كلَّ هذه العقود من السنين لصناعتها وإنتاجها، وزرعها وسقايتها، وتسويقها وتصديرها، حتَّى جعل شعبَنا الأبيَّ ممسوخ الكيان، مشوَّه الشخصيَّة، تسبق تلك الثقافة العفنة على لسانه قبل فكره، وتسيطر على فكره قبل عقله.. وهل الاستبداد والطغيان الذي يثور عليه شعبُنا الأبيُّ إلا هذا؟!

فما بال بعض الناس لا يزال تسيطر على لسانه وفكره لغة التخوين والاتِّهام، والشتم والسباب، والإرهاب الفكريِّ والنفسيِّ؟!

أيظنُّ هؤلاء أنَّ الشعب يهرب من استبداد إلى استبداد، ومن ثقافة فساد إلى أختها؟!

إنَّ على هؤلاء أن يراجعوا ثقافتهم فيثوروا عليها، ويتطهَّروا منها قبل أن يعلنوا الثورة على نظام الاستبداد والفساد.. وإلا فإنَّهم ينصرون الباطل وهم لا يشعرون..

وهم بذلك ساقطون نفساً، وساقطون فكراً، وساقطون مجتمعاً.. ولن يقبل شعبنا بعد اليوم أن يحكم بمثل هذه العقليَّة المتخلِّفة، واللغة البائدة، والثقافة المفسدة..

* * * * *

(الطُّغَاةُ جَاهِلُونَ مُتَخَلِّفُونَ)

الطغاة المتجبِّرون جهلة أغبياء، ينادون على أنفسهم بجهلهم وغبائهم، وضعفهم وعجزهم.. انظر إلى فرعون أحد زعمائهم ماذا يقول: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ القصص: ٣٨.

فانظر مظاهر جهله في هذه الآية وغبائه: (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ).. ما علم إذن فهو جاهل..

﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾.. فهذا يدلُّ على ضعفه وعجزه..

﴿فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً﴾.. وهذا يدلُّ على حاجته إلى الوسائل الماديَّة..

﴿لَعَلِّي أَطَّلِعُ﴾.. ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ﴾.. وهذا يدلُّ على اضطراب شخصيَّته وتأزُّم نفسه.

وهل مثل هذه النفس المضطربة الواهنة تقدر على الوقوف أمام قدر الله وسننه؟! أمام قوَّة الحقِّ وصلابته..

فلا يغرنَّكم أيُّها الناس انتفاش الطغاة وجعجعتهم فليس وراء ذلك إلا طبْلٌ أجوف، وتستُّرٌ على ضعف.

ولكنَّه لا يخفى على ذوي البصائر.. إنَّهم يرون بإذن الله العواقب كما يرون الظواهر..

وكثير من طغاة العصر أدهى من فرعون وأمرُّ.. فرعون كان في حاشيته مؤمن آل فرعون، يأمره بالحقِّ والخير والمعروف، وينهاه عن الباطل والمنكر.. وهؤلاء الطغاة ليس في حاشيتهم إلا من يسبِّح بحمدهم، ويقدِّس لهم..

فرعون شاور الملأ من حوله، واستجاب لهم.. وهؤلاء الطغاة يوجِّهون من حولهم بمجرَّد الإشارة وإظهار الرغبة، ويتنافس مَنْ حولهم على المزايدة في الولاء لهم بالنفاق، ودعوتهم إلى الإجرام..

فرعون كان في خلَّص أتباعه أولئك السحرة، الذين انقلبوا عليه في لحظة واحدة، رغم كُلِّ المغريات، عندما حلَّ نور الإيمان قلوبهم، فقالوا: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾الأعراف: ١٢١ـ١٢٢، وهؤلاء الطغاة حولهم من الطغاة من هو شرٌّ منهم، ومن يمدُّ لهم في الغيِّ والضلال، فيزدادون ضلالاً على ضلال، وغياً على غيٍّ..

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(سُبْحَانَ مَنْ أذَلَّ الجَبَابِرَةَ بِأضعَفِ الأسبَابِ)

تبارك اسمك يا رب، وجلَّ جلالك، وتقدَّست أسماؤك.. قضت حكمتك العليَّة أن تذلَّ الجبابرة الطغاة وتهلكهم بأتفه الأسباب، وأصغرها وأقلِّها..

فهل تراءى لفرعون شبح الزوال إلا على يد الأطفال؟

وهل ذلَّ النمرود الجبَّار إلا ببعوضة تافهة؟

وهل أهلك الجبَّارين الأشدَّاء إلا صفير الريح وقطر الماء؟

وهل كانت البداية في بلاد الشام إلا بأنامل الأطفال وحناجرهم؟

فهل يعتبر الواهمون، المخدوعون بالقوَّة المادِّيَّة الجوفاء، الهزيلة العجفاء، أمام قوَّة السماء، وقهر السماء؟! وهم يراهنون على غلبة الباطل، ووأد الحقِّ، وإنَّا لمنتظرون يا ربّنا أن ترينا عجائب قدرتك في فجرة بلاد الشام، الذين طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد..

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(مَصلَحَةُ النَّاسِ أنْ يَردَعُوا الطَّاغِيَة)

مصلحة الناس كل الناس أن يقفوا في وجه الطاغية، ويردعوه عاجلاً غير آجل.. وإلا عمَّ شرُّه وطمَّ، وانتشر إفساده وتجذَّر، وتوالد وتكاثر، وبعد أن يكون الناس أمام طاغية واحد، وفرعون واحد، فإنَّهم يصبحون أمام قطيع كبير من الطغاة والفراعين..

وعندئذٍ تتشتَّت جهود المجاهدين الأحرار وتوجُّهاتهم: ماذا ينكرون؟ وبمن يبدؤون؟ وعلى من ينكرون؟

أفليس من مصلحة الناس العاجلة والآجلة إذن أن لا يسكت أهل الحقِّ عن بغي الطاغية وظلمه، وأن يسارعوا إلى إيقافه عند حدِّه؟

ثمَّ إنَّ بغي الطاغية وظلمه كالحريق إذا شبَّ في دار، يبدأ تافهاً صغيراً، فإذا أهمل لحظة زاد انتشاره، وعمَّ شرُّه، واستفحل أمره، حتَّى يأتي على الدار كلِّها، ولا يُبْقِي، ولا يذر..

* * * * *

لَوْ كَانُوا يَعقِلُونَ!

لو كانوا يعقلون! لعلموا أنَّ أخون الخيانة أن يخون الإنسانُ الحقَّ، ويكون عدوّه، فيخون نفسه ويظلمها، ويراهن على الباطل، وهو إلى بوار.. وأنَّ أكذب الكذب أن يكذب عليها ويخدعها.. وهو يعلم في قرارة نفسه أنَّه خائن كذَّاب..

لو كانوا يعقلون! لنظروا إلى العواقب، عواقب أمثالهم، وعواقب أمثال أعدائهم.. وكيف غرَّتهم بهارج اللحظة الحاضرة، فكانوا مثلاً في الغابرين؟!

لو كانوا يعقلون! لقرؤوا التاريخ بوعي وبصيرة، ولم يروا أنفسهم استثناءً كونياً من سننه وقوانينه.. ولكنَّه الاستكبار عن الحقِّ يعمي العقل والبصيرة..

لو كانوا يعقلون! لعلموا أنَّ حركة التاريخ لم ترحم ظالماً، ولم تنحنِ يوماً لطاغية..

لو كانوا يعقلون! لعلموا أنَّ الشعوب أقوى من الطغاة وأبقى..

لو كانوا يعقلون! لعلموا أنَّ القوَّة المادِّيَّة قد تحكم الواقع وتقهره إلى حين، ولكنَّها لا تقدر على تزييف الحقائق، وتقديس الأكاذيب..

لو كانوا يعقلون! لعلموا أنَّ الأهواء ترضي الغرائز وتدغدغها، ولكنَّها لا تصنع المبادئ، ولا تجعل من الأكاذيب حقائق..

لو كانوا يعقلون! لعلموا أنَّ عبثَ الأطفالِ ولهوهم أقربُ إلى الحقِّ من خداع الكبار لأنفسهم، وتلبيسهم لانحرافهم، وكذبهم على الناس..

لو كانوا يعقلون! لعلموا أنَّ أعدى أعدائهم أولئك التافهون المنافقون، الذين يتزلَّفون إليهم، فيطمسون الحقَّ، ويزيِّنون لهم الباطل، وهم أوَّل مَنْ ينفضُّ عنهم ويتخلَّى..

لو كانوا يعقلون! لعلموا أنَّ العصبيَّةَ للآباء والأحزاب، والطوائف والأشخاص سبيلُ الخراب، ولهاث خلف السراب، بل هي مدفوعة الثمن من عقل الإنسان ورشده، وحرِّيَّته وكرامته..

لو كانوا يعقلون! لعلموا أنَّهم متخلِّفون منحطُّون، وفي مستنقع التفاهة يتخبَّطون، فعلام يراهنون؟! ونداء الحقِّ يقول: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ الشعراء: ٢٢٧..

* * * * *

مَهْمَا.. وَمَهْمَا.. وَمَهْمَا..

مهما قيل عنَّا من افتراءات فلن نتراجع عن ثورتنا وأهدافنا..

ومهما طال ليل الظلم والبغي، واشتدَّت المحنة والبلاء فلن نيأس من طلوع الفجر، ولن نتخلَّى عن الصبر..

ومهما تمادى البلاء فلن نقطع حبال الرجاء، ولن نتوقَّف عن الاستغاثة بالله والدعاء..

ومهما تخاذل عن نصرتنا الناس فإنَّا نلهج بـ (حسبنا الله، ونعم الوكيل، نعم المولى، ونعم النصير)..

ومهما ملك عدوُّنا من قوَّة وعتاد، وعدَّة وعدد، فإنَّا نتوكَّل على الله الحيِّ القيُّومِ، الذي بيده الخير، وله القوَّة والعزَّة جميعاً، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم..

إنَّها خمس «مَهمات»، من وحي الحقِّ الذي نؤمن به، نقف فيها موقف التحدِّي للباطل وجنده، لطاغوت العصر الجبَّار الغاشم، الذي لا مولى له إلا الشيطان وحزبه، وإنَّ كيد الشيطان كان ضعيفاً..

وإنَّا لموقنون أنَّ العاقبة للمتَّقين، و: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ البقرة: ٢٤٩، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ الشعراء: ٢٢٧..

* * * * *

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

إنَّها تعني فيما تعني: الاعتزاز بالحقِّ والوقوف معه، والتقدير العظيم لنعمة الهداية، إذ يطلبها المسلم في كلِّ ركعة من ركعات صلاته، وفي كلِّ مناسبة في مناجاته، وهو يستشعر أعباء الغربة ولأواءها، وكيد الباطل وطغيانه..

وهل من نعمة أعظم من نعمة الهداية؟! في بيداء حياة أشبه بالصحراء القاحلة الموحشة، قد أحاطت بها المهالك من كلِّ جانب، فاستأسد فيها المبطلون، وسيطر على ثغورها اللصوص المجرمون، وقطَّاع الطرق المفسدون، وعلا ضجيج الكذَّابين المدَّعين، وتوارى عن الأنظار أهل الخير المصلحون، ولم تبق إلا غلالات من النور هنا وهناك، يلفُّهَا الدخن، ويطمس جمالها علل الآراء، وغيوم الأهواء.. فمتى تتجرَّد لنصرة الحقِّ، ليعزَّها الحقُّ ويعلي رايتها؟!

* * * * *

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. دعوة يكررها الناس، ولا يعون كثيراً ممَّا تعني؛ إنَّها تعني فيما تعني: الثبات على الصراط المستقيم، فلا يخرج المؤمن عنه، ولو قيد أنملة..

فالخروج أنملة يغري بأخرى، والأخرى تغري بثالثة، وهكذا.. حتَّى يتنكَّب الإنسان الصراط المستقيم، وهو يدري أو لا يدري، وهو لا يزال يدعو: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

* * * * *

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. إنَّها تعني فيما تعني: أن لا ينسى المؤمن رسالته في الحياة، رسالة الحقِّ والهداية، أن يدعو الناس بسلوكه وأخلاقه، وحاله قبل قاله إلى صراط الله المستقيم..

ألم يقل الحقُّ جلَّ وعلا لنبيِّه المصطفى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ المؤمنون: ٧٣، فإن نسي رسالته، أو فرَّط بها وقصر، أصبح مستهدفاً من حملة ألوية الباطل، ليتزحرح عن الحقِّ، ويلتحق بركب الباطل، وينسى رسالته في الحياة وغايته: ﴿وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾ الإسراء: ٧٤..

* * * * *

﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ البقرة: ٢٤٩.

إنَّ هذه السنَّة الإلهيَّة لا تعمل عملها إلا إذا أخلصت الفئة القليلة ضمائرها للحقِّ، ووقفت بباب العبوديَّة لله بصدق، متبرِّأة من الحول والطول، وتجرَّدت لله تعالى عن شوائب الباطل، وحظوظ النفس.. فهل نكون من تلك الفئة الربَّانيَّة؟!

وإنَّنا لا نراهن على شيء من قوى الشرق أو الغرب، ولا على القريب أو البعيد، وإنَّما نراهن على هذه السنَّة الإلهيَّة، والوعد الربَّانيِّ الصادق، الذي لا يقف في وجهه شيء..

وعندما نستصرخ ضمائر الأحرار، ونهيب بمن يحمل شرف الكرامة الإنسانيَّة لينصروا الحقَّ، فإنَّما نريد لهم أن لا تطالهم سنَّة الله بأخذ الظالمين، ومن سار في ركابهم، أو تستَّر على جرائمهم..

* * * * *

(لَنْ نَركَعَ إلَّا لله)

ما أجملَه من شعار، وما أكْرمَه وأعزَّه! إنَّه يعبِّرُ عن نفوس أبيَّة، أشرقتْ أنوارُ الحقِّ في كيانها، فأسلمت له وجهها، وذاقت لذَّة العبوديَّة لله الواحد الأحد، وتحرَّرت من ربقة الذلِّ للطاغوت، وتنسَّمت عبير الكرامة، بخلايا أجساد أنست بعبادة الله، واطمأنَّت بذكره، واستروحت قلوبها للبذل في سبيله، فشهدت الكون من حولها عابداً قانتاً، ذاكراً مسبِّحاً.. فأنَّى لها أن ترضى بظلمات الباطل، وقيود الذلِّ والهوان، وحياة الظلم والطغيان؟!

* * * * *

(بَينَ قِيَادَةِ أَهْلِ الحقِّ وقِيَادَةِ أَهْلِ البَاطِلِ)

قيادة أهل الحقِّ إلى الله ورسوله صلَّى الله عليه وسلَّم، فلها القوَّة والإرادة، والعزَّة والغلبة، والعصمة والسيادة، ولا عوج فيها ولا التواء، ولا ضعف ولا زلل.. وقيادة أهل الباطل إلى الشيطان وأوليائه، فلها الضعف والخور، والزيف والزلل، وشتَّى العلل..

وليس للشيطان إلا أن يرسم لأوليائه سبيلاً من سبل غوايته، يزيِّنه لهم، ويغويهم بسلوكه، ولا يزال يتعهَّدهم ويؤزُّهم من بعيد، ويغريهم بالمزيد، حتَّى يكونوا من أوليائه المقرَّبين، وحزبه المفسدين.

* * * * *

(مِنْ صِفَاتِ أَهْلِ البَاطِلِ)

وصف الله تعالى أهل الباطل في القرآن بصفات تدعو إلى التأمُّل والتدبُّر، لا لنستهين بقوَّة الباطل ومكره وكيده، وإنَّما لنعرفه على حقيقته، ولا نفتتن بقوَّته الظاهرة؛ إنَّهم صمٌّ بكم عمي، فهم لا يرجعون.. لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام، بل هم أضلُّ.. أولئك هم الغافلون..

كما نفى عنهم العقل سبحانه، في أكثر من ثلاثين موضعاً من كتابه.. لأنَّهم لم ينتفعوا بعقولهم إلا في تدبير حياتهم المادِّيَّة فحسب..

* * * * *

كَيفَ نُميِّزُ بَينَ ابتِلاءِ أَهْلِ الحقِّ وابتِلاءِ أَهْلِ البَاطِلِ؟

من كان من أهل الحقِّ فإنَّه يستقبل الابتلاء بالصبر والاحتساب، وزيادة الإيمان بالله تعالى واليقين، والالتجاء إليه بصدق الاضطرار والانكسار، ولن تكون عاقبته بإذن الله إلا خيراً ورشداً: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدىً وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ محمد: ١٧..

وأمَّا أهل الباطل فإنَّهم عندما ينزل بهم الابتلاء لا يزيدهم إلا كفراً وضلالاً، وعتوّاً وطغياناً، ألم يقل نوح عليه السلام: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً﴾ نوح: ٧.. وإنَّ دعوتهم إلى الحقِّ ابتلاء لهم وأي ابتلاء..

* * * * *

(عِنْدَمَا يستَنِيرُ المؤمِنُ يَرَى البَاطِلَ على حَقِيقَتِه)

عندما تستنير بصيرة المؤمن بنور الحقِّ يرى قوى الباطل على حقيقتها، لا بصورتها الزائفة.. يراها هزيلة ضعيفة، كاذبة مدَّعية، سفيهة مغلوبة، مغلولة بأهوائها وشهواتها، واضطراب أفكارها ومواقفها..

يراها مهزومة من داخلها مهما مُكِّنَ لها في الأرض، وحازت من قوَّة وأسباب..

فقوَّة القلوب المؤمنة بالله، المطمئنَّة إلى وعده، الموصولة بحبله المتين، لا تغلبها قوَّة في الأرض مهما بلغت، وسرُّ انتصارها: مدد السماء لها بالصبر واليقين..

* * * * *

(مِنْ عَنَاوِينِ البَاطِلِ: المُرَاوَغَةُ والخِدَاعُ)

المراوغة والخداع عنوان كبير من عناوين الباطل، لا يستحيي منه ولا يتبرَّأ، لأنَّه يظنَّه ذكاءً نادراً، وعبقريَّة سياسيَّة فذَّة، وفناً من فنون النجاح المتألِّق، والقيادة الملهمة، التي تبرِّر لصاحبها الاستبداد بلا حدود، وتخوِّله مصادرة الحقِّ، واختصار الأمَّة والوطن، والتاريخ والمستقبل في جسد فرد واحد، ذي عقل فاسد، منتفخ بجنون العظمة، وعبادة الذات، وتقديس الأنا..

﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ البقرة: ٩. ويريد للآخرين أن يكونوا له مستعبدين.. وهيهات! وهيهات!

* * * * *

﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَـمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَـمُونَ كَمَا تَأْلَـمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لا يَرْجُونَ﴾ النساء:١٠٤

إنَّها قاعدة عظيمة في الصراع بين الحقِّ والباطل.. تقرِّر حقائق على درجة كبيرة من الأهمِّيَّة؛ فالوقوف مع الألم وقوف مع اللحظة الحاضرة، وارتهان لها بأفق ضيِّق، يحجب عنها الهواءَ النقيَّ، والرؤية المضيئة..

وليس لأهل الحقِّ أن يشتركوا مع أهل الباطل بمثل هذا الموقف وهذا الشعور، وإنَّما عليهم أن يصلوا الألم الحاضر بالرجاء بربِّ السموات والأرض خالق الأسباب ومقدِّرها..

* * * * *

(الألَـمُ عِنْدَمَا يَمْتَزِجُ بالإيمان)

﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لا يَرْجُونَ﴾ النساء:١٠٤. إنَّ الألم عندما يمتزج بالإيمان وابتغاء مرضاة الرحمن يتحوَّل إلى لذَّة لا توصف.. تجعل صاحبها يقول بكلِّ نشوة وحبور: فزت ورب الكعبة!

وعندما يمتزج الألم بالمقاصد التافهة، والأغراض الدنيئة، يتحوَّل إلى عذاب داخليٍّ ممضّ، وحياة شقاء ضنك، هي أشدُّ من آلام الجسد وأنكى.. فأنَّى لهؤلاء أنْ يصبروا ويصابروا؟! ومثل هؤلاء مرشَّحون للانتحار بامتياز..

* * * * *

الألم لحظة حاضرة، وربَّما كانت منفذاً للباطل أو مرتعاً.. ولكنَّها لا تلبث أن تدخل ماضي الذكريات..

فإذا اقترن بالإيمان والرجاء ذهبت غصصه وأحزانه، وبقيت مشاعر الإيمان الإيجابيَّة المحلِّقة، وأهمُّها: الشعور بقوَّة الاتِّصال بحبل الله المتين، والاعتزاز بالانتماء للحقِّ، ولذَّة الانتصار على ضعف النفس، وإرغام شياطين الجنِّ والإنس.. والتطلُّع إلى المستقبل المشرق، بالوعد الربَّانيِّ الصادق: ﴿وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الغَالِبُونَ﴾ الصافات: ١٧٣.

* * * * *

(ذِكْرُ الله تعالى عِنْدَ لِقَاءِ العَدُوِّ)

إنَّ ذكر الله تعالى عند لقاء العدوِّ يؤدي وظائف شتَّى: إنَّه الاتِّصال بالقوة التي لا تغلب، ومظهر الثقة بالله، الذي ينصر أولياءه، والتوكُّل عليه..

وفيه استحضار حقيقة المعركة وبواعثها وأهدافها، فهي معركة لله وفي سبيله، ولتقرير ألوهيته في الأرض والعبوديَّة له وحده، وطرد الطواغيت المستبدِّين، فهي معركة لتكون كلمة الله هي العليا لا للسيطرة، ولا للمغنم، ولا للاستعلاء الشخصيِّ، وتحكيم الأهواء..

* * * * *

(مَا أعظَمَ الأهْوَالَ التي تَنتَظِرُ البَاطِلَ)!

الله أكبر ما أعظم حجم الأهوال التي تنتظر الباطل؟! فعلى قدر غرقه في لجج الشرِّ، وتماديه في حرب الحقِّ والخير تعظم الأهوال التي تنتظره، والحسرات والكمد الذي يحلُّ به.. ليس ذلك في الآخرة كما نؤمن ونعتقد، بل في الدنيا قبل الآخرة.. وأدلَّة ذلك من الواقع شاهدة ناطقة، وهي أكثر من أن تحصى..

* * * * *

(الحَقُّ يَحتَاجُ إلى قُلُوبٍ طَاهِرَةٍ وعُقُولٍ نَيِّرَةٍ)

الحقُّ يحتاج إلى عقول نيِّرة تفهمه، وإلى قلوب طاهرة تخلص في الإيمان به وحمله، وإلى نفوس كريمة تترجمه، وإلى أدوات شريفة تدافع عنه وتنصره.. وإلا كان كما قيل: (أعدل قضيَّة بيد أفشل محامٍ). ولنا بوعد: (لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ) ما يبشِّر بنوعيَّة من الرجال: يحبُّهم ويحبُّونه.. ولا يخافون لومة لائم..

* * * * *

بُنْيَانُ الحقِّ وبُنْيَانُ البَاطِلِ

إنَّما الدنيا بناءان: بنيان الحقِّ وبنيان الباطل، فإمَّا أن نكون لبنةً في بنيان الحقِّ، أو لبنةً في بنيان الباطل.. وهل يتصوَّر للبنة أن تكون في بنيانين في وقت واحد؟

فبنيانُ الحقِّ أسُّه ومحوره، ورمزه ومصدره هو البيت العتيق، الذي هو أوَّل بيت وضع للناس بأمر الله، لعبادة الله وتوحيده.. ونبيُّنا صلَّى الله عليه وسلَّم لبنة ختم به بنيان النبوَّة، وتُوِّج به صرح الحقِّ..

* * * * *

(الحقُّ يَهْزِمُ أضْعَافَهُ مِنَ البَاطِلِ)

الحقُّ معدن نفيس، ينفع حيثما وقع، والباطل زَبَد خسيس، لا قيمة له ولا وزن، يضرُّ ولا ينفع، وأوَّل ما يضرُّ أولياءه..

وإذ كان الأمر كذلك فإنَّ أيَّ حركة من الحقِّ تهزم أضعافها من الباطل، كما أنَّ قليلاً من النور يبدِّد كثيراً من الظلمات، شرط أن تكون في الاتِّجاه الصحيح..

لأنَّ في الحقِّ سرَّ قوَّته وانتصاره، وفي الباطل معاول هدمه وهزيمته..

ورُبَّما طال عُمرُ الباطل ونَفَسُه لبقيَّة خير فيه، أو أثارة باطل في حملة الحقِّ..

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(التَّمَسُّكُ بِالحَقِّ لا يَعنِي الاستِخْفَافَ بِحَجْمِ البَاطِلِ)

إنَّ قوَّة تمسُّكنا بالحقِّ واعتزازنا به لا يبرِّر لنا الاستخفاف بحجم الباطل، فرداً أو تنظيماً أو دولة، وما يملك من قوى ومهارات..

وفي التاريخ مواقف كثيرة أُتِيَ فيها أصحاب الحقِّ من قبل الاستخفاف بالباطل، وما جرَّ ذلك عليهم من تراخ في إعداد القوَّة، وحفز الهمم، وأخذ الحذر، وغيبة الموضوعيَّة في معرفة مكامن قوَّة العدوِّ وضعفه..

ألم يقل لنا ربُّنا جلَّ شأنه: ﴿وَأَعِدُّوا..﴾ الأنفال:٦٠، ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ النساء:٧١؟!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

أنوارُ الحقِّ وظُلُمَاتُ البَاطِلِ..

الحقُّ والباطل ضدان لا يلتقيان إلا في شيء واحد هو الوجود.. مطلق الوجود.. وهما في هذا الوجود مختلفان..

فوجود الحقِّ أصل راسخ، ووجود حقيقيٌّ.. ووجود الباطل عرض زائل، ووجود طفيليٌّ زائف، لأنَّه على حساب الحقِّ ووجوده.. فاللهم أرنا الحقَّ حقاً، وارزقنا اتِّباعه، ولا تجعله يلتبس علينا فنضلَّ، أو نزلَّ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه..

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

يا طلاب الحقِّ في كُلِّ مَكَان!

يا طلاب الحقِّ في كلِّ مكان وأحبابه! يا أعوانه وجنده وأنصاره! إنَّ معركة الحقِّ والباطل الكبرى دنت أيَّامها، وتسارعت ساعاتها، وبدأت خطواتها.. وبين يديها معارك هنا وهناك، وجراح راعفة، ودماء نازفة، فاستعدُّوا لها وأعدُّوا، وألقوا عن نفوسكم الوهن والخور، وجدِّدوا في قلوبكم عزائم الصدق والحبِّ.. بدموع هطَّالة في سجدات السحر، وتحت أعتاب ذلِّ العبوديَّة للعزيز الحكيم، وارفعوا أكفَّ الندم والاعتذار، واصدقوا التوبة والانكسار، مع نثر درر الاستغفار..

فإنَّ كتائب الحقِّ هنا وهناك، المرابطين على الثغور النازفة أحوج ما يكونون إلى القلوب المنكسرة، والأكفِّ الضارعة، فلا تكونوا كالطبل الأجوف، ظاهرة صوتيَّة فارغة، بل كونوا صيحة التكبير الهادر، أو صداه المذهل، الذي يجلجل في آفاق الكون، ويقتحم حصون الباطل، ويزلزل أركانه، ويرهب جحافله، ويقضُّ مضاجع السادرين المخدّرين، لعلَّهم من غفلة الذلِّ يستيقظون..

* * * * *

عَجبتُ، وحُقَّ لكَ أنْ تعجبَ!

عَجبتُ لمن استضاء قلبه بنور الحقِّ كيف يرضى لنفسه أن يهادن الباطل، أو يسير في ركابه، أو يبرِّر أعماله.. فماذا بعد الحقِّ إلا الضلال؟! فأنَّى تصرفون؟! أما علم أنَّ طريق الحقِّ صراط مستقيم، وأنَّ كلَّ السبل سواه إلى الجحيم..

عَجبتُ لمن يهادن الباطل، ويركن إليه، ويبرِّر أعماله! أما علم أنَّ الحقَّ لا يلتقي مع الباطل، لا في أوَّل الطريق، ولا أوسطه، ولا آخره، ولا في ظاهره ولا باطنه؟!

أما سمع قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ﴾ هود: ١١٣.

عَجبتُ لمن يستنكر على أقرب الناس إليه أن يخالفه في اجتهاده.. ثمّ يبرِّر لأهل الباطل إفسادهم في الأرض، ويزيِّنه لهم، ويدافع عنهم؟!

عَجبتُ لمن أراد الله له بما حباه من نعمه أن يكون رأساً في الحقِّ، ينصره ويؤيِّده.. ثمَّ يرضى لنفسه أن يكون بوقاً للباطل وذنباً، وأخلد إلى الأرض واتَّبع هواه؟!

عَجبتُ لمن يلتمس رضا المخلوقين، ويسعى إليه، بسخط الله، وذلِّ النفس، والتنازل عن المبادئ، وينسى أنَّ رضا الخالق أقرب إليه من حبل الوريد! ثمَّ ما أكثر غدر الناس ونقضهم للعهود، وتنكُّرهم لمن أخلص لهم؟!

عَجبتُ لمن ذاق لذَّة عبادة الله عزَّ وجلَّ ومناجاته أن يخضع بالعبوديَّة لغير الله، في أيِّ صورة من صورها!

عَجبتُ لمن أنعم الله عليه بالعقل كيف يعطِّل عقله باتِّباع هوى زيد أو عبيد؟!

عَجبتُ لمن يرى العبر بغيره ولا يعتبر، وأعجبُ منه من تنزل به المصيبة بما كسبت يداه، ثمَّ يلقي باللائمة على الآخرين!

عَجبتُ ممَّن يكره من الآخرين ويستنكر ما لا يكره أضعافه من نفسه ولا يستنكر، بل يبرِّر لها أخطاءها ويعذر!

عَجبتُ ممَّن يتتبَّع أخطاء الآخرين وسقطاتهم؛ كيف يجد الوقت لذلك، وفراغ النفس لهذا العبث، ولا يجد الوقت لتقويم اعوجاجه، وإصلاح شأنه!

عَجبتُ ممَّن ينافق للباطل، وهو يعلم أنَّه يكذب! كيف يبرِّر سلوكه لنفسه؟! وكيف ينجو من احتقار نفسه لنفسه؟!

عَجبتُ.. وما أكثر في دنيانا العَجَب! ولكنَّ إلف الناس للعوج، ينفي عن أنفسهم الحرج.. فالحمد لله الذي متَّعنا بحرِّيَّة عقولنا، وكرامة أنفسنا، وموازين الحقِّ والهدى، التي لا يزيغ عنها إلا هالك..

* * * * *

(الرِّضَا بِالأَمْنِ المَوْهُومِ مِنَ الطُّغَاة)

مع تغوُّل الطغاة واستبدادهم، وضعف العمل الراشد المقاوم أو فقده، تقاصرت أماني بعض دعاة الحقِّ يوماً بعد يوم، وتقاصرت حتَّى أصبح قصاراها العيش في ظلِّ أمن موهوم، يُمنَح من الطاغية أو يُمنَع، ويُعطَى منه بالمنِّ بقدر أو يُحجَب، وسيفُ القهر مُسلَط على الرقاب لا يرفع..

فأين الثقةُ بوعد الله ونصره؟! وأين التوكُّل على الله جلَّ وعلا وحده؟!

وأين الإيمان بأنَّ الباطل كالزبد يذهب جفاء، وأنَّه زهوق زائل، مهما صال وجال، وملك من العدد والعتاد وبأس الرجال؟!

وأين الاعتبار بقصص القرآن، وأخبار الرسل مع الجبابرة الطغاة؟!

أم أنَّ المادِّيَّة اقتحمت حصوننا، وغزتنا في عقر دارنا، فأصبح المنقذون غرقى، والأطباء المرجوون لعلاج الناس من جملة المرضى؟! بل غدا بعضهم من الهلكى، وتلك والله مصيبة كبرى تستوجب العودة إلى الأصول وإحكامها قبل أن يستشري الداء، ويعمَّ البلاء..

* * * * *

(هَنِيئاً لأَهْلِ الحَقِّ)

هنيئاً لمن قُتل تحت راية الحقِّ، ونحسبه عند الله شهيداً مبروراً.. هنيئاً له شرف الدنيا، وعز الآخرة.. إنَّه حيٌّ في كلِّ قلب وضمير، وحيٌّ عند ربِّه سعيد..

وبئس من قاتل تحت راية الباطل! ويا أسفا على الإنسان يوم يقتل أخاه، ولا يسأل نفسه: لِـمَ قتله؟ وكيف استحلَّ دمه؟! وما الشرف الذي ناله بقتله؟!

وهل استرضاء البشر كائناً مَنْ كان يبرِّر له قتله.. إنَّ في ذلك لذكرى لمن كان له ضمير حيٌّ، أو عقل يعي.. وبشِّر القاتل بالقتل، ولو بعد حين..

* * * * *

(حُزْنٌ فِي الأرضِ وأفراحٌ فِي السَّمَاء)

عندما نذكر علاقتنا بالشهداء نحزن على فراقهم، وعندما نذكر أنَّهم ارتفعوا، وسجَّلوا أعلى درجات النجاح في رحلة الحياة، نفرح لهم، ونحزن على أنفسنا بعدهم..

إنَّه حزن في الأرض.. وأفراح في السماء.. الناس كلُّهم يموتون.. أمَّا الشهداء فهم أحياء عند ربِّهم يرزقون.. فهنيئاً لكم أيُّها الأحبَّة من قلوبنا..

* * * * *

(ارتِقَاءُ الشُّهَدَاءِ، وسُقُوطُ المُجرِمِين)

الشهداء يرتقون، والمجرمون يسقطون.. عندما تكون المعادلة بين الحقِّ والباطل بهذه الصورة البدهيَّة، الواضحة البسيطة، يَعرف عندها كلُّ عاقلٍ مَن المنتصر، ومن الخاسر..

وعندما تكون المعادلة أنَّ شهداء الأخدود يخلِّد ذكراهم ربُّ العالمين في أعظم كتاب في الوجود.. وأنَّ أصحاب الأخدود، القتلة المجرمين لا يذكرون إلا باللعنة والبوار، والخزي والعار، يعرف عندها كلُّ عاقلٍ مَن المنتصر، ومن الخاسر..

وعندما تكون المعادلة أنَّ كلَّ الناس يموتون، ولكن شتَّان بين موتة شريفة عزيزة.. وموتة تافهة خسيسة، يكتب فيها المجرم في ديوان الملعونين أبد الآبدين، يعرف عندها كلُّ عاقل من المنتصر، ومن الخاسر..

ومع كلِّ يوم تطلع شمسه تسجِّل هذه ثورة الحقِّ بأيدي أبنائها البررة، ودماء شهدائها من النساء والرجال، والشيوخ والأطفال، صفحة في سجلِّ الخلود، وتضيء شعلة للحقِّ على الطريق، تفضح ظلمات الباطل وتبدِّدها، وتصحِّح التاريخ، وتشهد لها الجغرافيا.. فمن المنتصر بعد ذلك، ومن الخاسر؟!

فهل للوهن بعد ذلك أن يعرف طريقه إلى القلوب المؤمنة، وهي تسجِّل هذه الانتصارات؟ والله جلَّ في علاه يعدها إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة..

إنَّه طريقُ الحقِّ أيُّها الأحرار! فلا يصدَّنَّكم عنه كيد الكائدين، ولا تخاذل القاعدين المثبِّطين.. وإذا كنتم مع الله فأنَّى لكم أن تُخذَلوا، والله معكم، ولن يتركم أعمالكم..

* * * * *

بَينَ الُمدَارَاةِ وَالُمدَاهَنَة! ﴿وَدُّوا لَو تُدهِنُ فَيُدهِنُونَ﴾ القلم: ٩.

كيف يتحوَّل بعض الناس من المداراة إلى المداهنة؟ لا بدَّ من الاعتراف أوَّلاً أنَّ الخطَّ الفاصل بين المداراة والمداهنة دقيق في حقيقته، غائم في تصوُّرات كثير من الناس ومواقفهم..

فالمداراة نوع من الملاينة بالقول والثناء على المنحرف التماساً لتقريبه إلى الخير، أو إبعاده عن الشرِّ، فهي ليس فيها إقرار له على الشرِّ، ولا ممالأة على الباطل، ولا تنازل عن الحقِّ، ولا عن شيء منه، وإنَّما فيها السكوت عن شيء من الحقِّ، بغية الوصول إلى مصلحة أكبر، أو حقٍّ أهمّ أو أكبر..

أمَّا المداهنة فهي على خلاف ذلك كلِّه.. فعندما يكون السكوت لا يقابله شيء، أو تقابله مصلحة أدنى، أو مصلحة شخصيَّة، أو هوىً نفسيّ فهنا يبدأ الخطأ والزلل..

المداراة أنْ تكونَ قدماك على الصراط المستقيم ثابتتين، وتمتدَّ يدك لتنقذ الشاردين والغرقى وتساعدهم.. والمداهنة أن تزلَّ قدما أحدٍ عن الصراط، بدعوى الحرص على إنقاذ الآخرين، فيمشي وراءهم، وهو لا يدري، فيصبح المتبوع تابعاً، وصاحب المنهج ضائعاً إمَّعةً، ثمَّ لا يزال يتبعهم ويتبعهم، حتَّى تبعد به الشقَّة عن الصراط المستقيم، وتتَّسع زاوية الانحراف، ويصبح المنقذ غريقاً، ورائد الطريق تائهاً متخبِّطاً..

وعندما تتحوَّل المداراة والمجاملة مع الزمن إلى قناعة نفسيَّة، لا بدَّ أنَّها تطمس في مقابلها قوَّةَ الحقِّ في النفس وتضعفها.. ومع الزمن تتمدَّد المداهنة، وتقوى وتتَّسع على حساب المداراة المقبولة، وبخاصَّة عندما تتراءى وراءها بعض المكاسب التي تضعف النفس أمامها، ويختلط فيها كثير من الباطل بشيء من الحقِّ، وتُمنِّي النفسُ بتحقيق مصالح لا تزيدها الأيَّام إلا تناقصاً وبعداً..

وهنا تضمر المداراة في حقيقتها، بل تتلاشى، وتقوى المداهنة، التي يضيع معها لواءُ الحقِّ، وتستبدل به المصالح الشخصيَّة، التي لا تعني بالضرورة المنافع المادِّيَّة فحسب، بل إنَّ أخطرَها

المنافعُ النفسيَّةُ، كالتقديرِ الظاهريِّ المبالغ فيه إلى درجة التقديس، وكيل المديح بلا حساب، وإحاطة المعنيِّ بالأمر بفريق من المنافقين الذين مردوا على النفاق بفنِّه وأصوله، والتوريط ببعض المناصب، التي لا يأمن على نفسه فيها أحد إلا أن يكون كيوسف الصدِّيق.. وأساليب الفتنة والإغراء لا تقف عند حدٍّ، ولكلٍّ من الناس ما يلائمه ويغريه، ولكلِّ مقام ما يناسبه من الأساليب.. والمعصوم مَنْ عصمه الله..

وينبغي أن لا يظنَّ أنَّ هذا الأمر يقع اعتباطاً، أو بنوع من المبادرة الشخصيَّة، وإنما هو فنٌّ من التأثير في الآخرين، له قواعدُه وأصوله، ودراساته النفسيَّة والاجتماعيَّة المتخصِّصة، وله دوراته وورشات عمله، التي تعقد في كلِّ ميدان، ولا يعفى منها أيُّ مسؤول يكون في أيِّ موقع من مواقع المسؤولية..

ومن أهمِّ ما يعتني به هذا الفنُّ للتأثير في الآخرين دراسةَ المصطلحاتِ الشائعة عند كلِّ فئة دينيَّة، أو عرقيَّة، أو اجتماعيَّة، واستعمال تلك المصطلحات عند خطاب أهلها، ممَّا يكون له تأثير نافذ في قلوبهم.. وما أكثر الغافلين من قومنا المستغفلين، الغارين عن هذا كلِّه المخدوعين!؟ ورُبَّما ظنَّ أحدهم بنفسه أنَّه بمثل بديهة عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه وإلهامه، ونباهته ودقَّة فهمه..

ولتسعك هذه الإضاءة الأخيرة: (قف مع الحقِّ الصريح، ودعك من التلبيس والتزوير).

* * * * *

(الحُبُّ للحَقِّ)

يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ الزخرف: ٧٨.

إنَّ مبدأ الأمر وأصله: الحبُّ للحقِّ إلى أقصى حدٍّ.. الحبُّ الذي يَعني صفاءَ القلب وإشراقه.. يعني السموَّ والتألُّق، والشفافية ورقَّة الشعور..

يعني التطهُّرَ من أغلال الحقد والكراهية، والتحرُّرَ من أثقال الماضي وأعبائه..

يعني صدقَ الرغبة في الحقِّ، والتجرُّد عن الأهواء..

وعندما يفقد الإنسان ذلك الحبَّ العلويَّ الطهور يرتكس في خصومة مع الحقِّ، لا تقف عند حدٍّ، فتضطرب موازينه، وتختلُّ أحكامه، وينحاز إلى الباطل وحزبه، فيغرق في مستنقعه، ويتخبَّط في ظلماته، فيَرى الحسنَ قبيحاً، والقبيحَ حسناً، والمنكرَ معروفاً، والمعروفَ منكراً..

ولا علاجَ لهذا الداء الظاهر إلا بطهارة القلب مِنْ تمكُّن الأهواء المُدنِّسة، التي لا تلتقي مع سُمُوِّ الحبِّ للحقِّ، وإيثاره على كلِّ شيء..

وربَّما تدرَّج القلب يمنة ويسرة، من حبِّ الحقِّ وإيثاره إلى بغضه وكراهيته على حسب تمكُّن الأهواء وسيطرتها، وحبِّ الدنيا وإيثارها، وتأثير الصحبة السيِّئة وإفسادها..

ولا عصمة إلا بتوفيق الله وعنايته، وفضله ورحمته.. ولكنَّ الله حبَّب إليكم الإيمان وزيَّنه في قلوبكم.. بل الله يمنُّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين..

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(الحقُّ يُخَاطِبُ العَقْلَ والبُرهَانَ، والبَاطِلُ يُدَغْدِغُ الشَّهَوَاتِ)

الحقُّ يناجي العقل دائماً، أمَّا الباطل فإنَّما يحاول التسلُّلَ خفية منه إلى رغائب النفس، ويدغدغ شهواتها..

والحقُّ يتعامل مع الناس بالأدلَّة والبراهين الحرَّة، أما الباطل فيستعين للوصول إلى نفوس الناس بالكاريكاتير الساخر، أو التشويه الكاذب، أو الصور المستبشعة..

والحقُّ قد يأتي ثقيلاً في وطأته على النفس، ولكنَّه يتَّسم في مقابل ذلك بالترفُّع عن أيِّ غرض خفيٍّ، أو حاجة مستكنَّة..

أما الباطل فقد يكون خفيفاً في وطأته على النفس، ولكنَّه يستبطن في مقابل ذلك عرضاً خفيّاً يستهدف إليه بكيد وخداع.

وأثقل ما في الباطل أنَّ صاحبه يصطنع له من البراهين ما يعلم أنَّه ليس إلا مصانعة وتلبيساً، فهو لا يفتأ يصانع في الكلام، ويشقِّق له المذاهب والأشكال، طمعاً في أن يصدِّق الناس ظاهر ما يقول، ويذهلوا عن باطن ما يهدف إليه.

* * * * *

(خِدَاعُ البَاطِلِ)

انظر إلى حجم خداع الباطل ومخادعته.. إنَّه مذهل مذهل.. تختلط فيه المخادعة بخداع النفس، وتختلط فيه المعرفة الداخليَّة العميقة بكذب ما يعلن، وهشاشة حُجَّته، وضعف مستنده، وتدثُّره بمعسول القول، واستغلاله مصطلحات الحقِّ، التي يتقن أولياء الباطل استعمالها ورفع رايتها..

فلا معدى لطالب الحقِّ عن الاعتصام بحبل الله تعالى، والاستهداء بنور العلم على أيدي الربَّانيِّين من عباده..

* * * * *

(عِنْدَمَا يُعْرِضُ الإنسَانُ عَنِ الحَقِّ، يَتَجَرَّدُ عَنْ إنسَانِيَّتِه)

رُبَّما نفهم أن يُعجبَ الإنسان بقائد يظنُّ أو يرى فيه مزايا من القيادة الحكيمة، والفكر المستنير، والحرص على الإصلاح والتغيير، وما شئت من إيجابيَّات متوقَّعة أو موهومة.. ولكنَّ هذا القائد عندما يتحوَّل إلى قاتل، يستبيح الدماء لأتفه الأسباب، فقد يبرِّر ذلك المفتون له القتل مرَّة أو مرَّتين أو ثلاثاً..

أمَّا أن يتفنَّن في القتل، ويوغل في دماء الأبرياء، ولا يعرض للناس من إصلاحه إلا القتل وسفك الدماء، ويطلق عصابات القتل، يعيثون فساداً في الأرض بلا سؤال ولا حساب.. فكيف لإنسان يحترم عقله، ويعتزُّ بالحقِّ، ويملك من الإنسانيَّة ذرَّة أن يبقى معه، أو يبرِّر فعله؟!

اللهمَّ إلا أن يكون سفاحاً مثله، أو يكون ممَّن طمس الله على عقله وقلبه، وأعمى بصيرته، وجعل على بصره غشاوة، أو يكون من أولئك القطيع، الذي تخلَّى عن عقله، وغيَّب ضميره، فهو لا يسمع إلا دعاء ونداء.. ولا رابع لهذه الأثافي..

حقّاً إنَّ الإنسان عندما يعرض عن الحقِّ، يتجرَّد عن معاني إنسانيَّته، فيصبح كالأنعام بل هو منها أضلُّ..

وإذا فقد الإنسان معاني الإنسانيَّة، التي يعتزُّ بها، وقيم الدين التي يدافع عنها، فبطن الأرض خير له من ظهرها.. بل إنَّ بطن الأرض ليتبرَّأ منه ولا يسعفه، يوم يتحسَّر على ما كان عليه، ويتمنَّى أن يكون تراباً..

أيُّها الإنسان إن لم يكن فيك شرف الوطن، ولا الانحياز للحقِّ، ولا كرامة الإنسان وشهامة الرجولة، ولا وازع الدين ويقظة الضمير، فقل لي ماذا تكون؟!

* * * * *

(عِزُّ العُلَمَاءِ الصَّادِقِينَ وذُلُّ الخَائِنين)

لقد كسا الله العلماء ثوبَ العزِّ في الدنيا والآخرة، فهم أهل الخشية لله، وهم ورثة الأنبياء، وهم شهداء الله مع ملائكته على وحدانيَّته، يحملون لواءَ الحقِّ، فلا تأخذهم في الله لومة لائم، ويبلِّغون رسالات الله ويخشونه، ولا يخشون أحداً إلا الله..

فإن قاموا بحقِّ الرسالة، وكانوا أوفياء بهذه الأمانة كانوا يوم القيامة مع النبيِّين والصِّدِّيقين، والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً..

وإن خانوا الأمانة، وتخلَّوْا عن الرسالة، وساروا في ركاب الباطل، واشتروا بعهد الله وميثاقه ثمناً قليلاً، كانوا أوَّلَ الهالكين يوم القيامة، تسجر بأحدهم النار، والعياذ بالله، فتندلق أقتابه فيها، فيدور حولها كما يدور الحمار في الرحى.. كما جاء في الحديث الصحيح.. فاللهَ اللهَ أيُّها العلماء! اتَّقوا الله فيما حُمِّلتُم من أمانة العلم والدين، فإنَّ زلَّتكم زلَّة أمَّة وراءكم..

* * * * *

(العَاصِفَةُ حِينَ تَكُونُ قَدَراً مِنْ أقْدَارِ الحَقِّ)

هبَّت العاصفة هوجاء مدمِّرة.. بدأت كما يَبدأ كلُّ شيء ضعيفاً.. ثمَّ اشتدَّت.. واشتدَّت.. ووقف الناس ينظرون ويعجبون! ووقف بعضهم يخاطب العاصفة بكلماته، ويرجوها أن تهدأ!

يا هذا إنَّ العاصفة ماضية في طريقها، لا تنثني عن هدفها، ولا تهدأ بكلماتك.. فكيف تخاطبها؟! وحمل سفهاء بعض الأشواك والحجارة، وألقوها في طريقها لعلَّها تقف، أو تغيُّر مسارها.. ولكنها اقتلعتها، وزمجرت بهم، واشتدَّ غضبها.. وأوقدوا النار في طريقها فاشتدَّ غضبها.. ونفخت بالنار في وجوههم، ومضت في سبيلها.. وازداد غضبها وثورانها..

ولأنَّهم سفهاء فقد عادوا الكرَّة بعملهم، فعادت النار أشدَّ عليهم.. فأحرقت وجوههم، ووجوه من حولهم.. وعاد أولئك المخاطبون للعاصفة يخاطبونها، ويتوسَّلون إليها ويرجونها!

يا هؤلاء أتحسبون العاصفة تعي شيئاً من كلامكم، أو تستجيب لشيء من توسُّلاتكم؟! خير لكم أن تخاطبوا أولئك السفهاء الذين يجلبون النار عليكم وعلى أنفسهم.. إنَّ العاصفة لن تهدأ حتَّى تبلغ مداها.. أروني عاصفةً أخمدتها يدُ الإنسان؟!

فخير لك أيُّها العاقل أن لا تقف في وجه العاصفة.. فكيف إذا كانت قَدَراً من أقدار الحقِّ، وسنَّةً من سنن الله في الخلق؟!

* * * * *

(أعظَمُ كَلِمَةٍ فِي نُصْرَةِ الحَقِّ)

إنَّ أعظم كلمة عرفتها البشريَّة في نصرة الحقِّ وتأييده، والثبات عليه والتضحية في سبيله هي قول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه: (يَا عَمّ! وَاللهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي، وَالقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللهُ أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ مَا تَرَكْتُه).

ومثلها قوله صلَّى الله عليه وسلَّم يوم الحديبية: (وَإِنْ هُمْ أَبَوْا، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي، وَلَيُنْفِذَنَّ اللهُ أَمْرَه).

* * * * *

(أَسَالِيبُ البَاطِلِ وأَسَالِيبُ الحَقِّ)

الباطل يتدثَّر بالكذب، ويلتحف بالكبر، ويتعاظم بالوهم، ويتسلح بالخداع، ويتغذَّى بالحقد، ويتفكه بالظلم، ويسكر من خمر الغدر، ويتباهى بالطغيان، ويستنصر بالشيطان، ويسخر من عباد الرحمن..

فإذا كانت هذه وسائل الباطل وأساليبه؛ فما أساليبُ الحقِّ ووسائله؟!

إنَّها عكس هذه تماماً؛ فالحقُّ يتدثَّر بالصدق، ويلتحف بالتواضع، ويتعاظم بالحقائق، ويتسلح بالوفاء، ويتغذَّى بالأمانة، ويحكم بالعدل، ويأخذ بالعلم، ويتفكه بالحلم، ويشرب من سلسبيل التسامح، ويتباهى بالإحسان، ويستمسك بالقرآن، ويستنصر بالرحمن، وينأى عن سبيل الشيطان، ويؤاخي دعاة الإيمان..

فخذ هذا الميزان بيديك، واجعله نصب عينيك، وعُضَّ عليه بناجذيك، ولا تبال من تنكَّب عن سبيلك، فالعاقبة للمتَّقين، أهل الإيمان واليقين..

* * * * *

(كَيفَ تَرضَى لِنَفْسِكَ السُّكُوتَ عَنِ الحَقِّ)!

عجباً لك أيُّها العاقل! كيف ترضى لنفسك السكوت عن الجهر بكلمة الحقِّ.. وأنت من لا يشكُّ في شرف نفسك ونزاهة قلبك؟! ألم تعلم أنَّ في الناس مَن هم أدنى منك علماً وعقلاً، وقد سبقك إليها، وجهر بها، وقدَّم روحَه في سبيلها.. أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة؟! فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل..

* * * * *

إن لم تستطع الوقوف مع الحقِّ، والصدع بالحقِّ فلا تكن نعلاً للباطل، ولا قلماً بيد الباطل..

* * * * *

(العُلَمَاءُ الصَّادِقُونَ يَقِفُونَ فِي صَفِّ الأُمَّة)

إنَّ الأئمَّة المهديِّين، والعلماء الربَّانيِّين في كلِّ عصر ومصر لا يقفون بين الأمَّة والحاكم على مسافة واحدة، بل هم في صف الأمَّة وأقرب إليها، لا استرضاءً للعامَّة وإيثاراً للأهواء..

ولكن لأنَّ الأمّة في أغلب الأحوال تُنتَقَص حقوقها، ويُعتَدى عليها، وتُصَوَّب إليها سهام المظالم من كلِّ باغ متنفِّذ، ويضعف أكثر أفرادها عن المطالبة بحقوقهم، فينامون على الضيم، ويستكينون للظلم..

ممَّا يجرُّهم إلى ألوان من الفساد لا تقف عند حدٍّ.. ويتطلَّعون إلى العلماء، وهم الفئة الرائدة الراشدة، وينتظرون منهم أن ينتصروا لهم، ويطالبوا بحقوقهم.. فهل من المسؤوليَّة أن يخذل العلماء الأمَّة التي وثقت بهم، وعلَّقت آمالها عليهم؟!

* * * * *

مَنْطِقُ المَعْدِنِ النَّفِيسِ ومَنْطِقُ المَعْدِنِ الخَسِيسِ

منطق المعدن النفيس الذي أعلنه شباب الثورة من أوَّل يوم، وصدق في إعلانه: (الموت ولا المذلَّة)، وأثبتت الأيَّام يوماً بعد يوم، أنَّه بعد إيمانه بالله، أرسخ عقيدة في كيانه، وأصدق عزيمة في نفسه..

فكلَّما اشتدَّت وطأة الموت عليه كمّاً ونوعاً زاد صلابة في إعلانها، والتمسُّك بها، والإصرار عليها.. ولعمر الحقِّ إنَّها من الحكمة العربيَّة القديمة الراسخة: (اطلب الموت توهب لك الحياة)..

وأمَّا منطق المعدن الخسيس فقد بدأ به من أوَّل يوم، وأسرف في الأخذ به بصورة تقشعرُّ لها أبدانُ كلِّ من فيه ذرَّة من حياة.. إنَّه القتل بكلِّ لؤم وخسَّة.. القتل بكلِّ صوره المهولة البشعة.. القتل والتفنُّن في القتل.. والتلذُّذ بالقتل.. القتل بصورة لا يعرفها وحش الغاب، ولا تدخل تحت شيء من قاموسه..

ظنّاً واهماً منه أنَّ هذه الصورة تكسر إرادة الشباب، وتحطِّم عزيمته، وتثنيهم عن طلب الحريَّة والكرامة، وتجعلهم يعيدون النظر في ثورتهم، ويعودون إلى القمقم الذي خرجوا منه.. ولكن هيهات! هيهات!

إنَّ بُعدَ الشباب عن ذلك بعدما ذاقوا طعم الحرِّيَّة والكرامة أقصى من بعد المشرقين..

لأنَّهم أوَّلاً وآخراً من المعدن النفيس، الذي يأبى الذلَّ والهوان.. وشتَّان بين المعدن النفيس والمعدن الخسيس..

فما كان للمعدن الخسيس أن يقارع المعدن النفيس إلا إذا قَدَرَ الخفَّاش على مقارعة النسر، وقَدَرَ الليل على طمس نور الفجر، وقَدَرَ العُهْر على تشويه صورة الطُّهْر..

وإنَّ قرابة سنة من هذه الثورة المباركة بإذن الله ليحمل كلّ يوم فيها دليلاً على ذلك بل عشرات الأدلَّة.. فهل يعقل ذوو المعدن الخسيس أو يرتدعون؟!

فيا أيُّها المرتابون الشاكُّون إن كنتم لا تزالون تشكِّكون، وتعيشون ليل الشكِّ وأوهامه ووساوسه، فحاولوا تحويل المعدن النفيس إلى معدن خسيس.. فإن لم تستطيعوا، ولن تستطيعوا فاعلموا أنَّ هذه الثورةَ ماضيةٌ في طريقها إلى النصر المبين بإذن الله، وأنَّ المعدن الخسيس في طريقه إلى مزبلة التاريخ كما مضى أمثالهم، ويقولون: متى هو؟ قل: عسى أن يكون قريباً، وإنَّه لصبح قريب بإذن الله.. ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله..

* * * * *

مَاذَا يَعنِي انحِيَازُكَ لِلحقِّ؟

انحيازُكَ للحقِّ يعني أموراً كثيرةً، كلّها تنبع من معين الخصوصيَّة والنعمة الإلهيّة: ﴿وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ البقرة: ١٠٥، ﴿بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ الحجرات: ١٧.

انحيازُكَ للحقِّ يكشف عن نفاسة معدنك، كما في الحديث: (النَّاسُ مَعَادِنُ، كَمَعَادِنِ الفِضَّةِ وَالذَّهَبِ). متفق عليه.

انحيازُكَ للحقِّ يكشف عن حبِّ الله تعالى لك: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ المائدة: ٥٤.

انحيازُكَ للحقِّ يعني أنَّكَ على صراط الله المستقيم: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ آل عمران: ١٠١.

انحيازُكَ للحقِّ يعني أنَّكَ حرُّ الفكرِ والقلبِ، سامي الروح والشعور: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ﴾ الأنعام: ١٢٥.

انحيازُكَ للحقِّ يعني أنَّكَ تعرف هدفك في الحياة وغايتك، ومسؤوليَّتك ومصيرك، وتعرف موقع أقدامك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ الحشر: ١٨.

انحيازُكَ للحقِّ يعني أنَّكَ لم تخدع بالباطل، ولم يَرُجْ عندك الزيف، ولم تكن مغفَّلاً مستغفلاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ النساء: ٧١، ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ البقرة: ١٢٠.

فلا يخدعنَّك الشيطان أنَّك ذكيٌّ، تمسك العصا من الوسط! فأنت تمسك عصا الباطل.. ولا عصا مشتركة بين الحقِّ والباطل!

* * * * *

﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً﴾ المائدة: ٣٢.

هل في الدنيا كلِّها تعبيرٌ أبلغ من هذا التعبير الإلهيِّ المعجز؟ إذ تشير هذه الجملة من الآية الكريمة إلى أنَّ الإنسان خليَّة حيَّة في الجسد الإنسانيِّ، بغضِّ النظر عن دينه وجنسه ولونه: فالاعتداء عليها اعتداء على الجسد كلِّه، وموتها ينذر بموت الجسد، وفي حياتها حياة الجسد..

وعندما يُوخَز جسدك بإبرة فإنَّها تعتدي على خليَّة من جسدك، فكيف يشعر جسدُكَ كلُّه بوخزها؟ وهل لك أنْ تتجاهلَ هذا الألم؟

وتصوَّر نفسك أنَّك تمشي فضربك أحد على كتفك ضربة خفيفة، يريد إهانتك.. فكيف تغضب لكرامتك وتثور؟ والأمر لم يعدُ أن يكون ضربة خفيفة، فما بال هذا الجسد الإنسانيِّ يثخن

بالجراح في سورية اليوم، وما من غاضب، ولا ثائر من سائر الجسد؟! بما يناسب حجم العدوان وقسوته ووحشيَّته..

إنَّه معتدىً عليه كله.. وينزف كله.. ومهدَّد بالموت كله.. وهو جامد لا يتحرَّك، هادئ لا يثور..

أهو الموت الحقيقيُّ أم تبلُّد الإحساس؟! أم كلاهما معاً؟! وهل يستنجد أهل سورية بسباع الغاب والذئاب للدفاع عن خليَّة الإنسان المهدَّدة بالفناء؟!

وإذا كان قتل نفس واحدة ظلماً يُعَدُّ تهديداً للبشريَّةِ كلِّها بالفناء، فما بالك بالقتل بلا عدٍّ ولا حساب؟! ألا فليعلم أهل الحقِّ كم يشكِّل الباطل للإنسانيَّة من خطر محدق ماحق، وأنَّ مهمَّتهم في مقارعة الباطل هي مهمَّة إنسانيَّة بالدرجة الأولى..

* * * * *

(سِلاحُ الكَلِمَة)

الكلمة في المعركة سلاح رُبَّما كان أمضى من السلاح وأفتك..

أليست الكلمة كانت أحد أسباب هزيمة الأحزاب يوم الخندق، عندما قال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم لنعيم بن مسعود، الذي انشقَّ عن معسكر المشركين: (إنَّما أنت واحد، فخذِّل عنَّا ما استطعت) وكان تخذيله بالكلمة، التي أحدثت فتنة في معسكر المشركين، وزرعت الشكَّ في قلوبهم، والريبة بينهم..

فهل يقدِّر الكاتبون على صفحاتهم، والمعلِّقون هنا وهناك خطر كلماتهم وأثرها وأبعادها؟!

أم أنَّ الكتابة أصبحت مهرجاناً في سوق تنافسيٍّ، تتداخل فيه أنواع التجارات، وتختلط الأفكار بالأمزجة والأهواء؟! ويسارع فيها من يحسنونها، ومن لا يحسنونها..

ليت كثيراً من الكاتبين قبل أن يكتبوا وينشروا يراجعون أنفسهم فيما يكتبون، أو يعودون إلى مراجعهم، أو من يثقون بهم، وقبل ذلك يدقِّقون في مصادر معلوماتهم، لينجوا من الدسِّ

المغرض للأخبار.. قبل أن تكون كتاباتهم خطايا تضاف إلى صحائفهم، أو جريمة من الجرائم التي تقترف بحقِّ هذا الوطن.. وقبل أن يكونوا نكبة من نكباته..

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(كَلِمَاتُ الصِّدْقِ سِلاحٌ قَوِيٌّ، فَكَيفَ بِأفعَالِهِ)!

الصدقُ أقوالٌ وأفعالٌ وأحوال، وهو سلاح الحقِّ الفعَّال..

فإذا كانت كلماتُه سِلاحاً فعَّالاً، طلقاتُه لا تُصيبُ الجسدَ، ولكنَّها تفضح الباطل، وتَقتلُ الأكاذيب، فما بالك بأفعاله؟! وماذا يقف أمامها؟! إنَّ أسرارها كامنة في قول الحقِّ جلَّ وعلا: ﴿مِنَ الْمُؤمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيهِ، فَمِنهُمْ مَنْ قَضَى نَحبَهُ، ومِنهُمْ مَنْ يَنتظِرُ، ومَا بَدَّلُوا تَبدِيلاً﴾ الأحزاب: ٢٣.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(الجِهَادُ بِالكَلِمَةِ الطَّيِّبَـةِ)

طوبى لمن يجاهد بالكلمة؛ فيزرع الأمل، ويمسح الجراح، ويقدِّم البسمة، ويلتقط شعاع النور من حلكة الليل، فيصنع منها مشعلاً من الثقة بالله واليقين، ينير السبيل للسالكين..

أرجوك.. كن كذلك، أو الزم الصمت، فلسنا بحاجة إلى مزيد من السكاكين..

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(مَرْحباً بِكَ أيُّها الحرُّ المُنتَصِرُ عَلَى الأوْهَامِ)

مرحباً بك أيُّها الحرُّ الشريف، مرحباً بك أيُّها المنتصر على إغراءات السلطة، وزيف الأوهام، المنصوبة على ركام الجماجم، وسيل الدماء..

ولو جئتَ متأخِّراً.. فخير لك من التمادي في معاندة الحقِّ، والوقوف مع الباطل..

وإنَّ انشقاقك عن هذا النظام المجرم يحمل رسالتين: الأولى لأمثالك من المسؤولين أن أفيقوا فلن ينفعكم دفن الرؤوس في الرمال، بل في الدماء..

ولن يعفيكم من المسؤوليَّة القانونيَّة والأخلاقيَّة عن جرائم هذا النظام.. إلا أن تبرؤوا من هذا النظام المجرم، وتقفوا موقف الوطنيَّة والمروءة مع شعبكم وأهلكم..

والرسالة الثانية لأولئك الساكتين والمبرِّرين للنظام جرائمه.. تقول لهم: إلى متى الوقوف مع الباطل؟ إلى متى تؤيِّدون الظلم والإفساد؟

أما يكفيكم حُجَّة ودليلاً، إن لم يكفكم سيل الدماء النازفة أن يشهد شاهد من أهلها؟

سيأتي يوم لا ينفع القفز من السفينة الهالكة.. اقفز الآن أيُّها المتردِّد قبل أن تكون مع الهالكين.. ويومها نقول لك: لا عاصمَ اليومَ مِنْ أمر الله..

* * * * *

(سُبْحَانَ مَنْ سَخَّرَ البَاطِلَ لخدمَةِ الحقِّ)

عداوة أهل الباطل تَكشِفُ محاسنَ أهلِّ الحقِّ، وتزيدهم قوَّة وتألُّقاً..

ألم ترَ إلى دفاع الله تعالى عن نبيِّه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، كيف أبرزت محاسنه وشمائله، ورفعة مكانته عند ربِّه؟ ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُون. وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُون. وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيم﴾ القلم: ٢ـ٤.

وتدبَّر سورة الضحى وسورة الكوثر، وآيات كثيرة في كتاب الله العزيز..

فكن مع الحقِّ يدافع الحقُّ عنك.. فسبحانَ مَنْ سخَّر الباطل لخدمة الحقِّ من حيث لا يشعر..

* * * * *

(القُوَّةُ الذَّاتِيَّةُ هِيَ الحَلُّ)

«قوُّتنا الذاتيَّة» هي مربط الفرس كما يقال، في كلِّ ما يجري لنا، وما يجري حولنا..

وتبدأ «قوَّتُنَا الذاتيَّة» من اعتصامنا بحبل الله المتين، واجتماع كلمتنا على الحقِّ، وأخذنا بأسباب القوَّة في كلِّ شأن..

وإنَّ عدمَ تحقُّقِنا بذلك يجعلنا نلهث وراء الأقوياء، ونشتِّت جهودنا ونحن نستجدي رضاهم، ونلتمس سراب وعودهم.. ولو تحقَّقنا «بالقوَّة الذاتيَّة» لأصبحنا محوراً يدور الناس حولنا، وتتعب أقدامهم في السير وراءنا، ولو كانوا يملكون ما يملكون من أسباب القوَّة الظاهرة، التي لا تغني عنهم أيّ غناء عن القوَّة الحقيقيَّة المؤثِّرة.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

القوَّة الذاتيَّة تفرض إرادة صاحبها على الأرض، ثمَّ تفرض على الآخرين التعامل معها بندِّيَّة..

ومن البدهيِّ أنَّ القوَّة الذاتيَّة لا تمرُّ عبرَ الآخرين، ولا تستجدى منهم، وإنَّما تقوم على أساس الاعتزاز بالحقِّ، والتمسُّك به، والسير في الاتِّجاه الصحيح لنصرته.

إنَّ قوَّتنا الحقيقيَّة هي الرقم الصعب الذي لا يستطيع أحد أن يتجاوزه.

والقوَّة الذاتيَّة للمؤمنين، معنوياً وماديّاً، وتحصين جبهتهم الداخليَّة، هي الحصن الحصين من كيد المنافقين والمرجفين، وهي القوَّة التي يُفَلُّ أمامها الحديدُ، ولا تُفَلُّ بإذن الله وعنايته..

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(آيَةٌ تَجمَعُ مَنْهَجَ الحَقِّ)

ما أكثر الآيات الكريمة، التي تجمع بكلمات معدودة منهج دعوة الحقِّ من أطرافها..

وخذوا على ذلك مثلاً هذه الآية الكريمة:

﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ

وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ

وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ

وَقُلْ: آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللهُ مِن كِتَابٍ

وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ

اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ

لَنَا أَعْمَالُنَا

وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ

لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ

اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا

وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ الشورى: ١٥.

لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ: أي: لا خصومة ولا مُحاجَّة، بعد ما اتَّضح الحقُّ، واستبان السبيل، ولم يبق للمحاجَّة حجَّة، إلا المكابرة والعناد..

* * * * *

مِنْ أَلوَانِ الصِّرَاعِ بَيْنَ الحَقِّ والبَاطِلِ

كما أنَّ الله تعالى يستدرج أهل الباطل، فيمدُّهم بالنعم ويمهلهم، كما قال الله تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُون. وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِين﴾القلم:٤٤-٤٥، فإنَّ أهل الباطل يحاولون استدراج أهل الحقِّ إلى طريقهم بشتَّى الوسائل والأساليب.. ولكن شتَّان بين استدراج الله واستدراج أهل الباطل لأهل الحقِّ..

فإنَّ أهل الباطل يسعون إلى استدراج بعض أهل الحقِّ إلى نصف طريقهم، فإن لم يستطيعوا فإلى الثلث، فإن لم يستطيعوا فإلى الربع، فإن لم يستطيعوا فإلى الخمس، فإن لم يستطيعوا فإلى العشر، فإن لم يستطيعوا فإلى واحد بالمئة من طريقهم.. ولا يستيئسون..

والأسئلة التي تفرض علينا نفسها:

ما نسبة الراكنين إلى الظالمين من استدراج الباطل لهم؟

وما نسبة الساكتين عن نصرة الحقِّ من استدراج الباطل لهم؟

وما نسبة المداهنين للباطل من استدراج الباطل لهم؟

وما نسبة الطاعنين بإخوانهم المشهِّرين بهم من استدراج الباطل لهم؟

وما نسبة المخذِّلين لأهل الحقِّ من استدراج الباطل لهم؟

وما نسبة المفترين على أهل الحقِّ، والمصدِّقين لافتراءات الباطل من استدراج الباطل لهم؟

ورضي الله عن فاروق الأمّة عمر عندما قَالَ لأبي سفيَان، وقد أراد منه أن يشفع له إلى رَسُولِ الله صَلّى الله عَلَيْهِ وَسَلّمَ لتمديد صلح الحديبية، بعد أن نقضت قريش عهدها، فقَالَ له عمر: (أَأَنَا أَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَوَالله لَوْ لَـمْ أَجِدْ إلا الذَّرَّ لَجَاهَدْتُكُمْ بِهِ).

أيُّها المنتسبون إلى الحقِّ لا يليق بكم أن تكونوا مستغفلين محسوبين على الباطل من حيث لا تشعرون، إن كنتم صادقين..

وإنَّ حكمة الحياة التي ترصد الصراع بين الحقِّ الباطل تقول لنا: «إن لم تكن سيفاً بيد الحقِّ، فلا تكن نعلاً للباطل.. من حيث تشعر أو لا تشعر».

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(قَتْلُ الأعدَاءِ للدعَاةِ يُقَوِّي دَعْوَةَ الحقِّ)

يظنُّ أعداء الله أنَّهم يستطيعون القضاء على دعوة الحقِّ بقتل داعية من دعاة الهدى أو إعدامه، ولا يعلمون أنَّ قتل الدعاة إنَّما هو إضاءة شمعة لا تنطفئ، تنير للسالكين الطريقَ إلى يوم الدين.. وأنَّ قتلهم يقدِّم للناس برهانَ صدقِهم مع المبادئ، التي عاشوا لها، وماتوا في سبيلها..

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(اجتِمَاعُ الكَلِمَةِ وخُطُورَةُ التَّفَرُّق)

عُقدةُ العُقد في مُشكلات الأمّة بلا استثناء: التفرُّقُ واختلافُ الكلمة، بدءاً بتفرُّق الحكَّام والعلماء، وانتهاءً بتشرذم العامَّة وما تعانيه من ضياع..

هذا التفرُّقُ الذي ضيَّع قوَّة الأمَّة وشتَّتها، وكسر شوكتها، وأذهب هيبتها، وفتح لأعدائها منفذاً رحباً إلى صفوفها، وقطَّع الروابط الوثيقة بين أبنائها، وعلى وجه الخصوص بين العلماء وعامَّة أبنائها..

إنَّ التفرُّقَ واختلافَ الكلمة هو الزلزال الكبير، والبركان الثائر المدمِّر، فتصدّع به بنيان الأمَّة، وكانت ارتداداته لا تقف عند حدٍّ، ولا يدرك لها مدىً.. ولا نزال نعاني منه على كلِّ صعيد.. وهو الاستراتيجيَّة العليا التي يعمل عليها أعداء الأمَّة منذ قرون، ليل نهار، ولا يفترون..

وكلَّما اقترب عقلاء الأمَّة وحكماؤها من إطفاء حرائقه، واحتواء ارتداداته عمل أعداء الأمَّة، وبأيدي بعض أبنائها بجهل أو عمالة أو سوء فهم، على بعثه وتثويره، وإذكاء نيرانه هنا وهناك، تحت شتَّى الشعارات والرايات..

فمتى نستفيق من غيبوبة الوعي، ونصحو على أمرنا، ونعلم أنَّ ما يصيبنا هو من عند أنفسنا، قبل أن يكون بكيد أعدائنا؟!

وإنَّ مبدأ الصلاح لأمرنا أن يكون اجتماع كلمة الأمَّة قضيَّة لا تقبل المسَّ أو التجاوز.. مهما اختلفت الرؤى والاجتهادات.. وأن يكون ثقافة وتربية، تحكم مناهج الخاصَّة، وينشَّأ عليها العامَّة..

فعلى العلماء والدعاة وقادة الرأي والتأثير أن يحملوا دائماً راية اجتماع كلمة الأمَّة على سواء، ويجعلوها بوصلة هادية لهم في مناهجهم ومواقفهم.. ولو فعلوا ذلك بحقٍّ لما تفرَّقت بالأمَّة الأهواء، وما لعبت بها مخطَّطات الأعداء..

* * * * *

(التَّمْكِينُ لِغَيرِ المُؤَهَّلِينَ يُشَوِّهُ صُورَةَ الحَقِّ)

كيف يُمكَّن لأهل الحقِّ في الأرض إن لم يكونوا على مستوىً راقٍ من الأمانة وتحمُّل مسؤوليَّة عمارة الأرض؟! لأنَّهم إن يمكَّنوا وهم على هذه الحال كانوا عوناً للباطل على تشويه صورة الحقِّ من حيث لا يشعرون..

* * * * *

(اللهُ قَدْ يُرَبِّي الأُمَّةَ بِالهَزِيمَةِ)

إنَّ الله تعالى يربِّي هذه الأمّة بالهزيمة، كما يربِّيها بالنصر.. وما من هزيمة ظاهرة إلا قبلها هزائم خفيَّة، أو أخطاء نوعيَّة، تمكَّنت في النفس والسلوك، ثمَّ تجلَّت بتلك الهزيمة الظاهرة..

ولئن كانت الهزيمة على النفس صعبة قاسية، وتكلفتها غالية، فإنَّ ما وراءها من التربية أعلى وأغلى، ممَّا فيها من الآلام والمرارة.. واعتبر ذلك بغزوة أحد، وما كان وراءها من العبر والخير على الأمَّة..

ولإدراك أهمِّيَّة هذه الحقيقة، والاستفادة منها وحسن استثمارها لا بدَّ من المصارحة ولو كانت مُرَّة، ووعي الدروس المستفادة بدقَّة، وتصميم المناهج التربويَّة والدعويَّة للعامَّة والخاصَّة على ضوئها..

* * * * *

(قُوَّةُ الحَقِّ قَدْ تَتَمَثَّلُ في أحَدِ حَمَلَتِهِ)

عندما يحمل رجلٌ بصدق همَّتِه لواءَ الحقِّ من كلِّ جوانبه، فتتمثَّل به قوَّة الحقِّ وعزَّته، وصبره وثباته، فلا يمكن أن يهزمه الباطل، مهما أوتي من القوَّة، وهذا من معنى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ النحل: ١٢٠..

* * * * *

عَجَباً! لا يَنتَهِي مِنْهُ العَجَب!!

يستنكرون على شعب نصفه ما بين شهيد وفقيد، وسجين لا يعرف مصيره، وجريح لا يجد علاجه، وهائم على وجهه، وشريد من وطنه وأرضه، ومفرَّق عن أهله وصحبه.. وقد خذله القريب، وتآمر عليه البعيد، وطعنه في ظهره من آواه يوماً ما ونصره..

يستنكرون على هذا الشعب أن يلعن قاتله، ويسبّ جلاده، ويدعو على ظالمه.. ولا يتكلَّمون كلمة واحدة يستنكرون على المجرم إجرامه، وينهونه عن الإفساد في الأرض..

بل ولا يتعاطفون مع شعبهم بكلمة واحدة، تدلُّ على ولاء المؤمنين للمؤمنين، الذين يتعاطفون، ويتوادُّون، ويتراحمون.. وهم في ذلك كالجسد الواحد..

أهذه قضيَّتكم؟! أهذا مبلغ علمكم؟! مالكم كيف تحكمون؟!!

إنَّها والله لقسمة ضيزى.. أن يرتفعَ الصوت على الضحيَّة، وهي تتلوَّى تحت وطأة الظلم والقهر، ويغضَّ الطرف عن الجلاد، ثمَّ نتَّهم عدوَّنا أنَّه يكيل لنا بمكيالين.. وبين أيدينا مكاييل، ونعامل أهلنا وشعبنا بما يروق لنا من مكاييل..

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِين﴾

مِنْ علامات القبول عند الله أن لا يكون العبد عوناً للمجرمين بما أمدَّه الله من نعمه الظاهرة والباطنة: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِين﴾ القصص: ١٧.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

نَعَمْ.. سَنفرَحُ ونُغِيظُ عَدُوَّنَا!

العيد يوم من أيَّام الله، التي ينشر بها رحمته على عباده المؤمنين الموحِّدين..

إنَّه يوم من أيَّام استعلاء الحقِّ والهدى على زخرف الباطل وانتفاشه، وكيده وطغيانه..

إنَّه يوم يربط قلوب المؤمنين في الأرض برحمة الله وعطائه، وجوده ومغفرته..

إنَّه يوم يستعلي على كلِّ الابتلاءات والأحزان، إذ يضفي عليها قدر الله الرحيم الرحمن، ويغمرها بما وراء الابتلاء من الرحمة والرضوان..

أفلا يحقُّ لكلِّ الحزانى والثكالى والمكلومين أن يرتفعوا على الأحزان والآلام، ويستشعروا الفرحة بيوم العيد؟!

إنَّهم بالإيمان أكبر من كلِّ الجراح.. إنَّهم بعطاء الله أبهج من كلِّ الأفراح.. إنَّهم برضوان الله يستعلون على كلِّ الأتراح..

إنَّهم بتضحياتهم يحرِّرون الأمَّة من قيود الذلِّ والاستعباد، ويكتبون تاريخها من جديد، وينفضون عنها ركام الظلم والتغريب والاستبداد..

إنَّهم بتوحيد الله وتعظيمه، وتكبيره وحمده يسمون إلى مقام الصدِّيقين والصالحين، وهم يقدِّمون الشهداء بعد الشهداء، من النساء والأطفال، والشباب والرجال؛ فمنهم والد الشهيد وولده، وأمُّه وزوجه، وأخوه وصاحبه، ومحبُّوه وأقاربه.. وينالون شفاعته بإذن الله، ليكونوا معه في جنان الخلد..

إنَّهم يرتفعون إلى مقامه بتضحياتهم الهائلة، وصبرهم الفذِّ، الذي أذهل العالم، ونيَّاتهم الصادقة، التي تترجمها قوَّة عزائمهم..

أفلا تفرحون أيُّها الأحبَّة بعد ذلك بالعيد، وتقبلون التهنئة من قلب يشارككم كل المشاعر والمآثر؟! فكلُّ عامٍ، وأنتم بألف خير..

بلى! سنفرح ونتسامى على آلامنا.. سنفرح ونغيظ عدوَّنا..

سنفرح ونزرع البسمة على وجوه من حولنا..

سنفرح وندخل البهجة إلى قلوب أطفالنا..

سنفرح ونمسح دمعة الأرامل والثكالى..

سنفرح ونتابع طريقنا، ونقارع عدوَّنا..

سنفرح اليوم بفضل الله ورحمته..

وسنفرح غداً بنيل كرامتنا، وتحرُّر إرادتنا..

وسنفرح بدحر الباطل، وهزيمة الطاغوت..

سنفرح قريباً قريباً بإذن الله.. ويفرح معنا كلُّ المؤمنين الموحِّدين.. فالله أكبر والعزَّة لله، ولرسوله وللمؤمنين، والذلُّ والخزي للظالمين المجرمين.. «الله أكبر الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر ولله الحمد»..

* * * * *

(حَتَّى الأطفَالُ لَـمْ يَسْلَمُوا مِنْ بَغْيِ الطُّغَاةِ)!

عندما يبلغ الباطل أسوأ درجات الوقاحة والإجرام، فاستبشروا يا أنصار الحقِّ بقرب سقوطه.. ودونكم هذا النوذج الذي يعرض على أبصاركم صباح مساء:

لقد شاع بين الناس أنَّ الأطفال يحبُّهم كلُّ الناس، حتَّى من كانوا أعداء لآبائهم.. لأنَّ الطفولة رمز البراءة الإنسانيَّة، وصفاء القلب والروح والطويَّة، وهي لا تحمل إثماً ولا ذنباً، ولا تعلق بها تبعة..

ولكنَّ هذا الشائع المتَّفق عليه أصبح موضع شكٍّ ونظر.. بعدما رأينا الطفولة المعذَّبة أبشع أنواع التعذيب والتنكيل قبل أن تقتل، على أيدي فراعنة العصر الأشرار..

لقد اكتفى فرعون الغابر بقتل الأطفال البنين، واستحياء البنات، كيلا يكون تقويض ملكه على أيديهم، كما قيل له..

أمَّا أن يعذِّبَ الأطفال، وينكِّل بهم، انتقاماً من آبائهم، ثمَّ يقتلوا بأبشع الصور، وما لا يخطر على عقل البشر فهذا ما لم تعرفه الوحوش في شريعة الغاب، ولكنَّ الإنسان عرفه وابتدعه عندما تجرَّد عن إنسانيَّته، وكان عبداً لذاته شهواته.. فويل للإنسان من أخيه الإنسان! وويل للإنسان من عاقبة الطغيان!

* * * * *

(يَطُولُ التَّمْحِيصُ عَلَى قَدْرِ المَرَض)

إنَّما يطول التمحيص على قدر طول زمن المرض، وتغوُّله في الجسد.. ويقصِّره صدق الأوبة العامَّة، واجتماع الكلمة على منهج الحقِّ، فالمدارُ كلُّه على الجملة القرآنيَّة: ﴿قُل: هُو مِنْ عِنْدِ أنفُسِكُمْ﴾ آل عمران: ١٦٥.

تلك الجملة التي تقرِّر سنَّة إلهيَّة لا تتخلَّف، ولكنَّ غير الجادِّين وغير الصادقين في التعامل معها يتجاهلونها، ويحاولون الالتفاف عليها بإلقاء التهم على الآخرين..

وإذا لم تكن جادّاً وصادقاً في نفع نفسك، وحلِّ مشكلاتك فكيف تنتظر من الآخرين ذلك، وتلومهم إذا قصَّروا؟!

* * * * *

(لَنْ تَسْعَدَ الرَّعِيَّةُ إلا بالعَدْلِ والرَّحمَة)

(اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئاً فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئاً فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ) رواه مسلم، هذا دعاء من المصطفى، رحمة الله للعالمين، صلوات الله وسلامه عليه، على مَنْ شقَّ على أُمَّتِه مجرَّد مشقَّة، فبأبي هو وأمِّي، ما أكرمَ مشاعره وأرقَّها! وما أعظم غيرته على أُمَّتِه وألطفها؟!

فكيف بمَنْ رفع لواء الباطل، واستلَّ عليها سيف القهر والظلم، واستحلَّ الحرمات، وسفك الدماء، وروَّع الأطفال والنساء، وشرَّد الناس، وأدمى القلوب بفقد الأهل والأصحاب؟!

وَكَتَبَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رَضِي الله عَنْهُ إِلَى أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ: (أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ أَسْعَدَ الرُّعَاةِ مَنْ سَعِدَتْ بِهِ رَعِيَّتُهُ، وَإِنَّ أَشْقَى الرُّعَاةِ مَنْ شَقِيَتْ بِهِ رَعِيَّتُهُ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَزِيغَ وَيَزِيغَ عُمَّالُك، وَيَكُونَ مَثَلُك مَثَلَ البَهِيمَةِ نَظَرَتْ إِلَى خُضْرَةٍ مِنَ الأَرْضِ فَرَعَتْ فِيهَا تَبْتَغِي بِذَلِكَ السِّمَنَ، وَإِنَّمَا حَتْفُهَا فِي سِمَنِهَا. وَالسَّلَامُ).

ولن تسعد رعيَّة، ولن يسعد راعيها إلا بالحقِّ والعدل، وإشاعة الرحمة ورفع الظلم..

* * * * *

﴿وَالعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾

كلمتان تقرِّران سنَّة من سنن الله تعالى في انتصار الحقِّ: ﴿وَالعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ طه: ١٣٢.

وإنَّما يكون كمال النصر على حسب ضرورة المؤمنين، وعلى حسب الإيمان والتقوى، ولذلك كان هذا الوعد للرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه، ومن سار من بعده على منهجه وهديه، فيكون النصر تاماً في حالة الخطر، كما كان يوم بدر والخندق، ويكون سجالاً ومشوباً في حالة التقصير والخلل، كما في وقعة أحد وحنين.

وقد دلَّ على ذلك قولُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم يوم بدر: (اللهُمَّ إن تهلك هذه العصابة لا تُعبدُ في الأرض)، وقال الله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ: اسْتَعِينُوا بِالله وَاصْبِرُوا إنَّ الأَرْضَ لله يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَالعَاقِبَةُ لِلمُتَّقِينَ﴾ الأعراف: ١٢٨.

ويكون هذا الوعد لمن بعد الرسول صلى الله عليه وسلم من جيوش المسلمين على حسب تمسُّكهم بوصايا الرسول صلى الله عليه وسلم والتزامهم بمنهجه، وأخذهم بما يستطيعون من الأسباب المشروعة..

* * * * *

(مِنْ دَرْءِ الفِتْنَةِ: قَوْلُ الحَقِّ والجِهَادُ)

إنَّ درء الفتنة عن الأمَّة يبدأ من قول الحقِّ وجهاد الكلمة، بالحكمة والموعظة الحسنة..

ويتدرَّج إلى ما هو أعلى من ذلك وأكبر، حتَّى يكون الجهاد في سبيل الله تعالى دفعاً أو طلباً هو الدرء للفتنة والإبعاد لها عن الأمَّة، يقول الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لله فَإِنِ انتَهَوا فَلا عُدْوَانَ إلَّا عَلَى الظَّالِمِين﴾ البقرة:١٩٣، وفي آية أخرى يقول الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾الأنفال:٣٩.

* * * * *

ولا يزال بعضهم يأبى أن يمدَّ يده لنصرة شعب مظلوم يأبى الذلَّ والهوان.. ويقولون: إنَّها فتنة.. ألا في الفتنة سقطوا..

* * * * *

(الصَّبْرُ هُوَ في الثَّبَاتِ عَلَى الحَقِّ ولَيسَ في البَقَاء على الذُّلِّ)

إن الصبر ليس سلوكاً سلبياً يعني الذل والخضوع..

وإنما هو الثبات على الحق، مهما تكن الظروف التي يمر بها المؤمن شديدة قاسية، واتخاذ أسباب القوة، وإعداد العدة لمواجهة مع الباطل، بعيدة الأمد، طويلة النفس..

واليقين هو التعلق الصادق بالله تعالى، وبأسمائه سبحانه وصفاته، والتسليم لله تعالى في أمره ونهيه وجميع أقداره، والنظر بعين البصيرة إلى ما وراء اللحظة الحاضرة..

* * * * *

(ضَريبَةُ الاستِكَانَةِ لِلبَاطِلِ أكبرُ مِنْ ضَريبَةِ الحَقِّ)

التحدي بين الحقِّ والباطل سنة الله في الحياة، وإلا يكن ذلك فهو الاستكانة للباطل والاستخذاء..

وما ينال المرء من ذلك أسوأ بكثير مما يناله بالصراع والتحدي..

* * * * *

(مَا سَبَبُ هَذَا الانتِكَاسِ)؟

كان في شبابه، وفورة حماسته لنصرة الحقِّ، وغيرته عليه يرفض التعامل مع من يشتمُّ منه رائحة الحرص على الجاه والسمعة، وحبّ الظهور والرياء، ومداهنة أهل الباطل، ويزهد في لقاء أمثال هؤلاء.. وكان معياره في التزكية لا يقلُّ عن معيار أئمَّة الحديث الكبار في نقد الرجال.. فما باله في شيخوخته يسعى إليهم سعياً، ويشيد بمواقفهم، ويعجب بهم، ويرفع من قدرهم في المدح والثناء؟!

أهي الفتن يرقِّق بعضها بعضاً؟! أم أنَّه تغيُّر الزمان، وتدنِّي الأحوال؟! أم أنَّه ضعف التجربة، وقلَّة الخبرة بالحياة سابقاً، وسلسلة التنازلات لاحقاً؟!

أم أنَّه ضعف التعلُّق بالحقِّ، وقلَّة المبالاة بقدره؟! أم أنَّه النكوص عن الحقِّ إلى الباطل والعياذ بالله، والحرص على القبول عند أولئك الكبراء؟!

أم أنَّه الإحباط ضرب القلب بمقتل، فتدنَّى سقف الانتصار للحقِّ، وتحقيق الأهداف والطموحات، وعلا سقف الباطل؟! أم أنَّها المداهنة في دين الله، حُباً للراحة، وإيثاراً للسلامة، واسترضاءً للآخرين؟! أم أنَّه؟! أم أنَّه؟!

ومهما يكن من سبب، أو تعليل وتبرير، فإنَّ الله تعالى يقول، وقوله الحقُّ المبين، وفصل الخطاب للمتقين: ﴿فاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾ الروم: ٦٠.

* * * * *

أَيُّهَا العَالَـم المُتَحَضِّر!!

يروى أنَّ أحد العلماء فيما سلف من القرون مرَّ في بغداد بشارع قد تجمَّع فيه الناس، فسأل عن الخبر؟ فقيل له: يقام الحدُّ على سارق، فظهر عليه عدم الارتياح، وقال: (سَارقُ العَلانيةِ يَقطعُ سَارقَ السرِّ)!

وإنَّها والله لكلمة بليغة معبِّرة أصبحت تحكم الدنيا كلَّها اليوم، وتتحكَّم بها..

تقع جريمة قتل في الليل، فتجنَّد لها قوى الأمن للبحث والتحرِّي، ويستنفر لها الجنود الظاهرون والمستورون، ويجري التحقيق فيها مع عشرات الناس، حتَّى تتكشَّف خيوط الجريمة، ويضع القضاء يده على المجرم، ثمَّ تنفق ألوف الساعات في الاتِّهام والتحقيق..

وتبذل الأموال الطائلة في الدفاع والمرافعات.. ثمَّ يقضي القاضي حكمه.. ويساق المجرم إلى ساحة العدالة، أو يخرج مرفوع الرأس مبرَّأً من الجريمة، وتذبح العدالة، وتقيَّد الجريمة ضدّ مجهول..

كلُّ هذا في جريمة قتل واحدة، وقعت في الظلام.. وحقٌّ لها أن يبذل في سبيلها ما يبذل، لإقامة العدل، وتحقيق الأمن في حياة الناس..

أمَّا المجرم الذي يعيث فساداً في الأرض، يعمل في وضح النهار، ويتحدَّى العالم بأسره، فلا يقتل واحداً فحسب، بل يقتل العشرات والمئات، والألوف..

ويقتل بأسوأ آلات القتل وأشنعها، وأشدِّها فتكاً وإجراماً، يقتل الرجال والنساء، والأطفال والشيوخ.. يقتل ويتباهى بالقتل، ويضحك.. ويتفنَّن في التمثيل والذبح.. يقتل ويقف متحدِّياً على آثار خرائبه وأشلاء ضحاياه.. ولا أمن يلاحقه، ولا قضاء يطارده..

بل يقف العالم كلُّه يتفرَّج، وبعضهم يستمتع، وكأنَّهم في مسرحيَّة هزليَّة ضاحكة أو عابثة.. يتفرَّجون ثمَّ يعودون إلى شهواتهم ولذَّاتهم، وكأنَّهم لم يروا شيئاً، ولم يسمعوا، وينامون ملء جفونهم، ومعهم القضاء حارس العدل!!

أهكذا أصبحت أيُّها العالَـم المتحضِّر؟! أم أنَّك قاتل في صورة متفرِّج مستنكر؟! أم أنَّك شريك للقاتل مشجِّع؟!

وهل لمنكر القتل حقّاً أن يقف متفرِّجاً عاماً كاملاً، يعدُّ القتلى، وينتظر المفاجآت؟!

حُقَّ لكم أيُّها المستضعفون، الذين تنتظرون الذبح في الليل والنهار أن تكفروا بهذا النظام الدوليِّ كلِّه، وأن تنفضوا أيديكم منه، وأن تعلموا أن لا ناصر لكم في غابة الوحوش والذئاب إلا الله تعالى، ثمَّ ما تملكون من المخلب والناب..

وأنتم أيُّها القضاة الأحرار في العالم، أما آنَ لكم أن تصحو ضمائركم، وتنتفض الأقلام بأيديكم، فتنتصروا للعدالة، التي تذبح أمام أعينكم..

وإنَّ أقل انتصار لها أن تعلنوا الإضراب عن القضاء حتَّى تتحرَّك جيوش العالم، فتمسك بالجاني لتقدِّمه إلى يد العدالة...

أيُّها العالَـم المتحضِّر الذي يقتلنا بسكوته وتواطؤه! سيأتيك يوم تقتل فيه فلا يتحرَّك لقتلك أحد.. أمَّا نحن فلنا الله.. وكفى بالله ولياً، وكفى بالله نصيراً..

* * * * *

تَحِيَّة إِلَيْكَ أَيُّهَا الوَطَن!

ومن أنت قبل أن أوجِّه إليك التحيَّة؟! أأنت التراب والماء، والأرض والهواء؟ أم أنت الأجداد والآباء، والتاريخ والتراث؟

أم أنت المجد والحضارة؟ أم أنت الحاضر المشرق، المفعم بالأمل؟ أم أنت الإنسان، صانع الماضي والحاضر، وباني المجد والحضارة؟

أم أنت النظام الاجتماعيُّ، الذي يحصرني في إطاره، ويملي عليَّ حركتي بإرادة منِّي أو بغير إرادة؟ أم أنت العادات والتقاليد، التي أصبح كثير من أبنائك يتبرَّمون منها ويتبرَّؤون؟

أم أنت سراب خادع يراد لي أن أتجرَّع سراب أوهامه؟ أم أنت خداع النفس المظلومة عن الحقوق المهضومة؟ أم أنت؟ أم أنت؟

دعني أناجك بما أقول، ولتكن ما تكون.. دعني أفض إليك بمكنون سرِّي، في لحظة صدق، وساعة مكاشفة.. فرُبَّما كان فيها بثُّ بعض الأشجان، ووضع النقاط على بعض الحروف..

يومك يومي أيُّها الوطن يوم تعترف بي.. يوم تحترم إرادتي.. يوم أجد كلَّ شيء فيك يحترم وجودي، ويقدِّس حقوقي.. يوم أعتزُّ بكلِّ أبنائك..

يوم أجد كرامتي في ظلِّ كلِّ شجيرة في ربوعك.. يوم أجد إنسانيَّتي وحرِّيَّتي في كلِّ حركة على ترابك.. يوم أجد نظامَك الإنسانيَّ العادلَ، وقضاءك الحرَّ النزيه..

يوم أجد إنسانك الكبير والصغير، يأخذ حقوقه، لا يضام في شيء منها قيد شعرة.. يوم أجد كلَّ شيء فيك يطوَّع لكرامة الإنسان وحرِّيَّته، ولحقوق الإنسان وخدمته..

أنت يا وطني تكبيرة الأذان، وأرض العبادة، وتهليل الشهادة، تصدح في ربوع أرضك وسمائك.. أنت سجدة العابدين تزيِّن ترابك.. أنت يا وطني عبق التاريخ، وشرف الجغرافيا..

أنت العزُّ والفخار، وأمجاد الأخيار.. أنت قطرة دم المجاهدين تعلو فوق هاماتك.. أنت ابتسامة الطهر الحلوة، والبراءة العذبة على شفاه أطفالك..

أنت ترنيمةُ الحُبِّ والحنان على لسان أمَّهاتك.. أنت عطاء الآباء بغير حساب..

أنت قطرة العرق الزكيَّة على جبين عاملك وفلاحك.. أنت حكمة الأجداد، وعقل الآباء، وجهد الأبناء..

أنت جهدُ كلِّ المخلصين من أبنائك وبناتك، ورجالك ونسائك..

سأحتفل بك أيُّها الوطن يوم أقطع أيدي اللصوص الكبار قبل الصغار.. يوم أقتصُّ من القتلة المجرمين، الذين سفكوا دماء أبنائك الأحرار الأطهار في كلِّ ميدان..

يوم أقتصُّ من الخونة الحاقدين عليك وعلى أمجادك، المتاجرين بك في أسواق الدعارة، وأوكار المقامرة..

يوم أراك لا تكرِّم إلا أحرارك الأباة الأوفياء، المخلصين الشرفاء، الذين أخلصوك الحبَّ والودَّ، وصدقوك الوعد والعهد، وأعطوا ولم يأخذوا، وبذلوا ولم يطلبوا، وضحُّوا بكلِّ غالٍ ونفيس، في سبيل عزَّتك ونهضتك..

قلت ما قلت أيُّها الوطن! لأنَّني أكره النفاق والكذب.. أكره المتاجرة باسمك وأمجادك، أكره التزوير لتاريخك.. أكره الذين يحتفلون بك في النهار، ويدوسون تراثك، ويهينون تاريخك وحضارتك في الليل والنهار، والسرِّ والجهار..

قلت ما قلت.. فاعذرني بما قلت أيُّها الوطن! فأنت أحوج إلى صدق أبنائك، كحاجتك إلى الماء النقيِّ، والدم الزكيِّ..

ومع كلِّ ما أشكو.. وأعاني فيك أيُّها الوطن! فلا أجد على لساني ما أقول: إلا تحيَّة إليك أيُّها الوطن! لا لشيء إلا لأنَّني مهووس بحبِّك أيُّها الوطن!

وسلام عليك إلى يوم أراك فيه أعز وطن..

(الجَمَالُ النفسيُّ والفكريُّ يَقُومُ على التَّوَازُنِ بَيْنَ الحَقَائِقِ والمَعَانِي)

كما أنَّ جمال الصورة الظاهرة يقوم على التناسق والتناسب بين أعضائها، فإنَّ الجمالَ النفسيَّ والفكريَّ يقوم على التوازن بين الحقائق والمعاني، وعندما يختلُّ ذلك التوازن تتشوَّه صورة الشخصيَّة التي تعبِّر عنها..

وما أكثرَ الذين يقدِّمون صورة مشوَّهة عن الإسلام عندما يأخذون منه جانباً، ويهملون جوانب أخرى..

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(مَا هِيَ أسبَابُ الاختَلافِ المذمُومِ)

الاختلاف المذموم بين شعوب الأمَّة الإسلاميَّة كافَّة، وبلا استثناء، ظاهر على كلِّ المستويات.. فما أسباب ذلك يا ترى؟! وما حقيقته ونوعه؟!

أهو اختلافٌ علميٌّ أو فقهيٌّ، بعيد عن اختلاف الأهواء، له سنده وأدلَّته؟

أم هو اختلاف على هويَّة الأمَّة وانتمائها؟

أم هو اختلاف فكريٌّ، أسهمت فيه عناصر دخيلة؟

أم هو اختلاف في تشخيص داء الأمَّة وسبيل النهضة؟

أم هو اختلاف الأهواء، تُلبَّس لبوس الغيرة على الدين، أو على الوطن، أو على المصلحة العامَّة؟

أم هو اختلاف لوقوع الأمَّة ضحيَّة مكر الأعداء الكبار ومخطَّطاتهم؟

أم هو اختلاف على مطامع الدنيا وحطامها؟

أم هو اختلاف الجهل والتعالم، والعجب بالنفس والغرور؟

أم هو اختلاف فيما يسع الناس الاختلاف فيه، ولكنَّ كثيراً من النَّاس مصاب بضيق النظر، وسطحيَّة الفهم؟

أم هو اختلاف لفقد الأمَّة القيادة الربَّانيَّة الراشدة، التي تجمع القلوب، وتوحِّد الرؤى، وترفع الخلاف، الذي يشتِّت ويبدِّد، ويفرِّق ولا يجمع؟

أم هو اختلاف على كلِّ ما سبق، وأدهى ممَّا سبق؟

الحقيقة التي لا تقبل الاختلاف والجدل أنَّ للشيطان حظاً كبيراً في أكثر اختلافاتنا.. لأنَّها تجعل من الفروع أصولاً، وتتلاعب بأصحابها الأهواء، وحظوظ النفوس، ولا يراد بأكثرها وجه الله.. ألا إنَّها الأهواء عمَّت فأعمتِ..

وما أبعد رحمة الله تعالى عن المختلفين لغير وجه الله! ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ هود: ١١٨ـ١١٩.

* * * * *

مَعَالم تَربَويَّة ومَنهَجيَّة لِضَبْطِ المَسِيرةِ الدَّعويَّة

واقعنا الدعويُّ الداخليُّ أسوأ من كيد الأعداء ومؤامراتهم بما لا يقاس، وهم لم يبلغوا منَّا ما بلغوا إلا باختلاف كلمتنا، وتفرُّقِ صفِّنا، واستغلال ما بيننا من خصومات تصل إلى درجة العداوة والبغضاء، والقطيعة والتدابر، والتنابز بالألقاب، والكيد الرخيص، الذي يتوسَّل بما لا يمتُّ إلى الإسلام بصلة، وتستباح به كبائر الإثم.. والأمثلة على ذلك كثيرة حاضرة، لا تخفى على أيِّ معايش للواقع، مكتوٍ بمآسيه ومواجعه..

والسبب في نظري القاصر واجتهادي يعود إلى نوعين من البلاء، ابتليت بهما الساحة الشرعيَّة والدعويَّة:

ـ الأوَّل: غياب الضوابط الشرعيَّة المنهجيَّة أو ضعفها، وهي التي يتوخَّى منها أن تضبط الاجتهادَ الشرعيَّ، أو الدعويَّ بقواعد الشرع وأصوله.. ويدخل في ذلك تصدِّي من ليس مؤهَّلاً للقول في دين الله للفتوى، والقول فيما لا يحسن.

ـ والسبب الثاني: تلبيس الشيطان على بعض الدعاة وطلبة العلم، واختلاط الدوافع النفسيَّة، وعلل النفس ورعوناتها بدافع الانتصار للحقِّ، والغيرة على حرمات دين الله، والانتصار له، والغضب لله..

وهذا السبب أخطر من الأوَّل وأدهى، لأنَّه نفسيٌّ خفيٌّ، لا يمكن لأحد أن يتَّهم به أحداً مهما رأى من مؤشِّراته الظاهرة، وقرائنه المعبِّرة، لأنَّنا نقع بذلك فيما نحذِّر منه، من اتِّهام النيَّات والمقاصد، والتشكيك بالدوافع.. ومكر الشيطان لا يكتشفه إلا من كان من أهل البصيرة، والرسوخ في دين الله، وقد روي عن الحسن بن صالح رحمه الله أنَّه قال: (إنَّ الشيطان ليفتح للعبد تسعة وتسعين باباً من الخير يريد بها باباً من الشرِّ).

وهذا لا يمنع من التنبيه عليه على وجه العموم والتحذير من خطره، وهو يحتاج إلى بصيرة إيمانيَّة ناقدة، ومحاسبة للنفس صادقة، تكشف للإنسان بصدق وشفافية عن أدواء نفسه، وحقيقة دوافعه ومواقفه..

فهل من سبيل لتدارك هذا الخلل، وعلاج هذا الأمر الجلل؟ إنَّ السبيل إلى ذلك في تقديري أن يتَّفق الدعاة وطلبة العلم على ضوابط شرعيَّة تربويَّة، وأخرى منهجيَّة، تجمع قلوبهم، وتحفظ مسيرتهم من التفرُّق والاختلاف، وتكون أمراً يحتكم له، ويرجع إليه..

أهمُّ المعالم التربويَّة والمنهجيَّة لضبط المسيرة الدعويَّة:

١ـ علينا أن نحاسب أنفسنا، ونمحِّص نيَّاتنا، ونستشعر رقابة الله تعالى علينا، ونقف على حقيقة دوافعنا قبل أن نكتب ما نكتب، أو نقول ما نقول، وكم خدعت النفوس أصحابها، وزيَّنت لهم الحظوظ الدنيئة بزينة الحقِّ، ولبَّست عليهم الباطل بالحقِّ! والله تعالى يقول: ﴿بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ. وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ القيامة:١٤ـ١٥.

وينبغي قبل أن نتكلَّم أن تكون النصيحة الخالصة رائدنا، والرحمة والشفقة دافعنا، وأن نحسن اختيار الكلمات، ونسمو في التعبير عمَّا نريد من الخير وعرضه، وليكن شعارنا في ذلك قول الله تعالى: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ طه:٤٤..

وقد بيَّن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله خطر الانطلاق من الدوافع النفسيَّة، وحذَّر منه فقال: (وهذا الاختلاف المذموم من الطرفين يكون سببه تارة: فساد النية؛ لما في النفوس من البغي والحسد وإرادة العلو في الأرض ونحو ذلك، فيحب لذلك ذمَّ قولِ غيره، أو فعله، أو غلبته ليتميز عليه، أو يحب قول من يوافقه في نسب أو مذهب أو بلد أو صداقة، ونحو ذلك، لما في قيام قوله من حصول الشرف والرئاسة.. وما أكثر هذا من بني آدم، وهذا ظلم.

ويكون سببه تارة جهل المختلفين بحقيقة الأمر الذي يتنازعان فيه، أو الجهل بالدليل الذي يرشد به أحدهما الآخر، أو جهل أحدهما بما مع الآخر من الحق: في الحكم، أو في الدليل، وإن كان عالماً بما مع نفسه من الحق حكماً ودليلاً. والجهل والظلم: هما أصلُ كلِّ شرٍّ، كما قال سبحانه: ﴿وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ الأحزاب: ٧٢..

٢ـ النصيحة بشروطها وآدابها هي الحقُّ الأكبر من حقوق الأخوَّة بين المؤمنين، ولا بديل عنها إلا التجريح والاتِّهام، والخوض في الأعراض، والقطيعة والتدابر، وما يتبع ذلك من سلسلة رديئة من الخلائق المذمومة، والمآثم القلبيَّة، التي لا تقف عند حدٍّ.. وأهمُّ آداب النصيحة أن تكون سرّاً، بصورة مباشرة، أو بطريق المكاتبة والمراسلة..

وكم من نصيحة في السرِّ كشفت أوهاماً في الفهم، وأخطاء في النقل، وتزيُّداً في الكلام، بل وافتراء من بعض المغرضين وتحريفاً، وقديماً قال سلفنا: (شؤم الرواية آفة الأخبار)، فهل يرضى لنفسه طالب علم أو داع إلى الله أن يكون غير متثبِّت من الأقوال، ضحيَّة التقوُّلات والافتراءات؟!

والحديث عن النصيحة بشروطها وآدابها طويل عريض، كثر تناوله علمياً ونظرياً في الخطب والمحاضرات، والمجالس العلميَّة والندوات، ولكنَّ أكثر بيئاتنا الدعويَّة والعلميَّة وللأسف بعيدة عنه عملياً غاية البعد، وما أكثر المتنصِّلين من حقائقه ومعانيه، تحت شتَّى المبرِّرات والشعارات، والمعاذير الواهيات..

والعجب أن نعلِّمَ الناس هذه الآداب ولا نلتزم بها! فالأمر يحتاج إلى تربية أصيلة، عميقة دقيقة، تقطع دابر التأوُّلات الباطلة، والحجج الواهية..

ولا يخفى أنَّ من فوائد النصح سراً أن يتاح للناصح مجال الحوار مع من يخالفه، واستماع وجهة نظره، وما يستند إليه من حجج وأدلَّة.. وأكاد أجزم أنَّني من خلال الوقائع والتجربة ما أنكرت على أحد في أمر بلغني عنه إلا وتغيَّرت وجهة نظري بدرجة ما، بعد محاورته واستماع وجهة نظره، فنسأل الله تعالى أن يرزقنا العدل والإنصاف، والحكمة وسعة النظر..

٣ـ (لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ). ما أروعَهُ من ضابط نبويٍّ دقيق شامل، يغني عن كثير من الضوابط! وما أعظمَهُ من ميزان لأعمالنا، يغنينا عن كثير من القيل والقال، وكثرة المراء والجدال: فنحن نحبُّ لأنفسنا أن ننصح سراً، ولا نفضح.. ونحبُّ لأنفسنا أن تُلتَمَس لنا الأعذار، فيما نجتهد فيه، أو ظاهره الخطأ.. ونحبُّ لأنفسنا أن نعان على الخير، ولا يعان علينا أعداؤنا.. ونحبُّ لأنفسنا أن تحفظ أعراضنا، ويدافع إخواننا عنَّا.. ونحبُّ لأنفسنا أن يُتثبَّتَ ممَّا ينسب إلينا، ولا يقبل عنَّا خبر بغير بيِّنة..

ومن منَّا لا يحفظ هذا الحديث ويردِّده، حتَّى أطفالنا الصغار يحفظونه.. فما بالنا نخالف ذلك ونتجاوزه في مواقفنا وخلافاتنا!

وأوَّل ما يخاصمنا في هذا التجاوز هذا الحديث الصريح الذي لا يحتاج إلى كبير عناء لفهمه، ولكنَّه يحتاج إلى صدق في تطبيقه، ومجاهدة نفس على الالتزام به.. ومن يصدق الله يصدقه..

٤ـ (هَلَّا شَقَقتَ على قلبِه)؟! هَلَّا أحسنت الظنَّ بأخيك، والتمست له العذرَ؟! علينا أن نحذر كلَّ الحذر من إساءة الظنِّ، واتِّهام المقاصد والنيَّات، فتلك متاهة مهلكة مفسدة، لا تقف بنا عند حدٍّ.. وما أكثر الواقعين فيها، والوالغين في مستنقعها، وهم يظنُّون أنَّهم يحسنون صنعاً! ومن الأدبيَّات السلفيَّة الراشدة: (التمس لأخيك عذراً، ولو من سبعين باباً)، (لأن تحسن الظنَّ وتخطئ خير من أن تسيء الظنَّ وتصيب).

وقال الإمام ابن سيرين رحمه الله: إذا بلغك عن أخيك شيء فالتمس له عذراً، فإن لم تجد فقل: لعل له عذراً لا أعرفه.

وقال الشاعر:

تَأنَّ ولا تَعجَل بِلومِك صَاحباً ... لعلَّ له عُذراً وأنتَ تَلومُ

وما أكثر ما ينقل العامَّة أفهامهم عن أهل العلم إلى طالب علم آخر، فيسرع بإساءة ظنِّه، أو إنكاره على إخوانه دون تثبُّت ممَّا سمع، وعندما يعرف حقيقة القول والموقف يتبدَّى له كم كان متسرِّعاً، وأنَّه إنَّما أُتي من قِبَل تسرُّعه، وقبوله لتلك الأقوال المشوّهة أو المغرضة..

٥ـ ضرورة التمييز بين الثوابت والمتغيِّرات: فقبل الاعتراض والإنكار، والتشنيع وإثارة الغبار لا بدَّ من تصنيف العمل الذي هو محلُّ إنكارنا: أهو من الثوابت والقطعيَّات، التي لا يجوز فيها الاختلاف، أم هو ممَّا اختلف فيه قديماً، فلا يزال الخلاف فيه قائماً، ولا مطمع لأحد في إلغائه، ولكلِّ طرفٍ أدلَّتُه وحُجَجُه..

وقد أشار شيخ الإسلام رحمه الله إلى هذه النقطة في النصِّ السابق بقوله: (ويكون سببه تارة جهل المختلفين بحقيقة الأمر الذي يتنازعان فيه، أو الجهل بالدليل الذي يرشد به أحدهما الآخر، أو جهل أحدهما بما مع الآخر من الحق: في الحكم، أو في الدليل، وإن كان عالماً بما مع نفسه من الحق حكماً ودليلاً. والجهل والظلم: هما أصلُ كلِّ شرٍّ)، وصدق رحمه الله: إنَّ الجهل والظلم: هما أصلُ كلِّ شرٍّ.

وكثير من الدعاة وطلبة العلم يلزم ما ألفه واعتاده، ويتمسَّك به أشدَّ التمسُّك، وينافح عنه، قبل التفكير فيه: أهو من الثوابت التي لا خلاف فيها أم من الأمور المختلف فيها؟ فتراه يسارع إلى إنكار ما لم يألف، بل والشدَّة في ذلك بصورة تخرجه عن الموضوعيَّة، والمنهج العلميِّ الرشيد..

٦ـ من الظواهر الصحِّيَّة في العالم والداعية أن يتطوَّر خطابُه الشرعيُّ والدعويُّ، وينضج ويتجدَّد، وإلا فإنَّه يتخلَّف عن مستجدَّات عصره، وينعزل عن الواقع ولا يعيشه، ويجمد ويتآكل، ورُبَّما كانت مواقفه فتنة على الناس، وإساءة لدين الله من حيث لا يشعر..

وهذه الظاهرة الصحِّيَّةُ التي نراها في العالم والداعية، ونشيد بها فيما أثر عن بعض الأئمَّة من السلف، رُبَّما نظر إليها بعضهم على أنَّها منقصة ومثلبة، فما أكثر ما قرأنا وسمعنا من بعض أهل الغيرة والحميّة أنَّهم يحاكمون بعض العلماء والدعاة إلى ما كانوا عليه قبل ربع قرن أو يزيد،

ويعدُّون تغيُّرَهم مثلبة، وانتكاساً عن الهدى وانحرافاً، ويغمزون بهم ويلمزون، ولا يزالون يناشدون أحدهم في كلِّ مناسبة: عد إلى ما كنت عليه يا فلان.. أين فلان الذي كان كذا وكذا؟! لقد تغيَّر فلان، ولم يعد من نعرفه..

وأقول لهؤلاء: ميِّزوا يا إخواننا بارك الله فيكم بين الثوابت والمتغيِّرات، وبين المقاصد والوسائل، وبين الأحكام المطلقة، والأحكام المؤقَّتة، المرهونة بظروفها وملابساتها.. وفتِّشوا أنفسكم هل أنتم لم تتغيَّروا أبداً.. فعلام الإنكار على ما لا يدخل تحت الإنكار؟!

وقد ثبت أنَّ كثيراً من الصحابة رضي الله عنهم، وهم خير القرون أشاروا إلى تغيُّر حصل في حياتهم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يكن ذلك بالضرورة سيِّئاً أو انحرافاً عن الهدى، وإنَّما كان من قبيل التكيُّف مع المستجدَّات، ممَّا لا يتعارض مع دين الله ومنهجه، وهدي نبيِّه صلى الله عليه وسلم وسنَّته..

وقد ثبت أيضاً عن الخليفة الراشد عمر الفاروق رضي الله عنه أنَّه اختلف حكمه واجتهاده في مسألة بين وقت وآخر، وعندما قيل له: لقد قضيت فيها بكذا وكذا يا أمير المؤمنين، فقال رضي الله عنه: (تِلْكَ عَلَى مَا قَضَيْنَا، وَهَذِهِ عَلَى مَا نَقْضِي).

وقال رضي الله عنه في كتابه إلى أبي موسى الأشعريِّ في القضاء: (لا يَمْنَعَنَّكَ قَضَاءٌ قَضَيْتَهُ، ثُمَّ رَاجَعْتَ فِيهِ نَفْسَكَ، وَهُدِيتَ فيه لِرُشْدِكَ أَنْ تَرْجِعَ إلى الحَقِّ، فَإِنَّ الحَقَّ قَدِيمٌ، وَالرُّجُوعُ إِلَى الحَقِّ خَيْرٌ مِنَ التَّمَادِي فِي الْبَاطِلِ).

٧ـ (كلُّ رجل من المسلمين على ثغرة من ثغور الإسلام، الله الله لا يؤتى الإسلام من قبلك). ممَّا لا يخفى على كلِّ طالب علم وداعية أنَّ الساحةَ الدعويَّةَ أرحبُ مجالاً للاجتهاد، وأوسعُ من الساحة الشرعيَّة، فأكثر قضاياها تدور حول المصالح المستجدَّة في حياة الناس، ومن هنا تتنوَّع الاجتهادات وتختلف بين بيئة وأخرى، وزمن وآخر، ولا ينبغي لداعية أو طالب العلم أن يضيق بذلك ذرعاً أو يقصر نظراً، ممَّا هو من مزايا هذه الشريعة الربَّانيَّة الخالدة.

يقول الشيخ سلمان العودة: (أنا لا أقول عن نفسي ولا عن غيري: إنَّنا استفرغنا القيام بكلِّ الواجبات الكفائيَّة، بل أقول: إنَّ أكثر الدعاة يرى الواحد منهم أنَّه قام ببعض الواجب،

وسدَّ بعض النقص، وغطَّى بعض الأمور، وقام في بعض الثغور، وأنَّ غيره قام بواجبات أخرى، فكلّ من قام بواجب ممّا اشتغل به الدعاة، أو مما لم يشتغل به الدعاة فنحن نشكره ونؤيِّده، وندعو له، ولا نقول: إنَّ الذي نقدِّمه إنَّما نقدِّمه للناس هو منهج ينبغي للجميع أن يسلكوه؛ بل هو محاولة لسدِّ نقص، وتلافي ثغرة موجودة، وغيرنا يقوم بغير ذلك من ألوان الخير وصنوفه، وكلٌّ على ثغرة من ثغور الإسلام، وكلٌّ على خير إن شاء الله تعالى).

ألا ما أسوأ أن يكون المسلم على ثغرة من ثغور الإسلام، ينافح عن دينه، ويتلقَّى سهام أعداء الإسلام بصدره، وفي الوقت نفسه يخذل من إخوانه، فيطعن منهم بظهره، ويُتَّهم في دينه وعِرْضه؟! ورُبَّما استُجِرَّ بذلك إلى ترك الثغرة التي هو قائم عليها، والالتفات إلى معارك جانبيَّة، لا أوَّل لها ولا آخر.. وأظنُّ أنَّها صورة لا نرضاها لأنفسنا، ولكنَّه واقع نعيشه وألفناه! ثمَّ نسأل متى نصر الله؟!

وأنا لا أكتب ما أكتب دفاعاً عن أحد، وإنَّما تقريراً لمنهج، ونقداً لواقع عامٍّ.. وإن كنت يشرِّفني أن أدافع عن عرض أيِّ مسلم، ظاهره الخير والصلاح..

٨ـ تنوُّعُ خطابِ الداعية وأسلوبه ظاهرة صحِّيَّة، لا تدعو إلى الرفض والإنكار: فلا يخفى على كلِّ طالب علم وداعية أنَّ خطاب الداعية وأسلوبه يتنوَّع على حسب الفئة التي يخاطبها؛ فخطاب العامَّة غير خطاب الخاصَّة، وخطاب المتديِّنين غير خطاب البعيدين الشاردين، والخطابُ العلميُّ الأكاديميُّ غيرُ الخطابِ الوعظيِّ العاطفيِّ، وخطابُ الكبارِ غيرُ خطابِ الأطفال والشباب.. فلكلِّ مقام مقال، ولكلِّ جبهة سلاح وعتاد، وطعام الكبار سمٌّ للصغار، وقد أمرنا أن ننزل الناس منازلهم، ونخاطب الناس على قدر أفهامهم، وقربهم من الحقِّ والخير أو بعدهم، وكلُّ ذلك يدخل في ميدان حكمة الداعية، وفقهه لدينه، ووعيه بالواقع ومستجدَّاته ومتغيِّراته: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيراً كَثِيراً﴾ البقرة: ٢٦٩.

٩ـ اجتماع الكلمة، وتآلف القلوب فريضة كبرى، فإن لم نصل إليها، ولم نقدر عليها فلا أقلَّ من كفِّ ألسنتنا عن إخواننا، واشتغالنا بما ينفع الأمَّة، ويكون خطوة ولو بطيئة في سبيل اجتماع كلمة الأمَّة، واجتماع جهودها، ووحدة صفِّها.. ولا نجانب الحقيقة ولا نبالغ إذا قلنا: إنَّ

أكثر ما حلَّ بنا من الضعف والتخاذل، وضعف العطاء، وتكالب الأعداء إنَّما سببه تفرُّق القلوب، واختلاف الكلمة، وفساد ذات البين..

١٠ـ الحوارُ العلميُّ هو اللغةُ الحضاريَّةُ الراقية التي نزل بها القرآن الكريم، وأخذ بها النبيُّ صلى الله عليه وسلم في دعوته وهديه، ولم يرشد إليه في التعامل بين المسلمين فحسب، وإنَّما في التعامل مع أصحاب الديانات الأخرى، فهو السبيل الأمثل في الدعوة إلى الله تعالى، لأنَّ من كان على بيِّنة من أمره، ويقين من دينه، لا يهرب من مواجهة الباطل بالحوار، ولا يفزع..

وإذا كان المسلم مطالباً بمجادلة غير المسلم بالتي هي أحسن، فمن باب أولى أن يحاور أخاه المسلم بلغة راقية، وأسلوب لا يوحش القلوب، ولا يعكِّر صفو العلاقة.. وكيف نطمع بنصرة ما معنا من الحقِّ وقبوله إذا سلكنا سبيل الفظاظة والمخاشنة؟!

١١ـ من القواعد المقرَّرة، التي تتَّصل بالموضوعيَّة، والتجرُّد عن الهوى والعصبيَّة، ولا خلاف عليها فيما أحسب: أنَّنا نعرف الرجالَ بالحقِّ، ولا نعرف الحقَّ بالرجال، فالرجال مهما بلغوا من العلم والفضل يؤخذ منهم الحقُّ، ويترك منهم ما خالفه، والحقُّ أحبُّ إلى القلوب من الرجال، ولا أحد من الناس يُعَدُّ كلامه معياراً وميزاناً للحقِّ إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى..

وهذه القاعدة تعني أنَّنا لا نقدِّس أحداً من الرجال، ولكنَّنا أيضاً لا نهدر مكانتهم ومنزلتهم، ولا نرضى بانتقاصهم لخطأ اجتهاديٍّ أخطؤوه، فيما نحسب ونجتهد، كما لا نسيء الظنَّ فيما ذهبوا إليه من مواقف واجتهادات.. فما أحسنَ العدلَ والإنصافَ! ومَنْ أولى به غير المسلم؟!

وقد قلت في موقف لأخ أطلق لسانه في عرض أخيه بالاتِّهام، لاجتهاد بلغه عنه: (يا أخي كما أنَّني أحسبك من أهل الغيرة على دين الله، فأحسب أنَّ أخاك على مثل غيرتك، فارفق بأخيك، ولا تتعجَّل بالتجريح والاتِّهام).

وبعد؛ فإنَّ مَنْ يعي واقع الأمَّة ومآسيها، وتكالب أعداء الإسلام عليها من كلِّ جانب، لا يرضى لنفسه أن يكون جهده وجهاده إلا في تقوية صفِّها الداخليِّ، وتحصين بنيانها وحمايته،

وتوظيف نفسه للمرابطة على ثغرة من ثغور الإسلام، وثلمة من الثلم، التي ينفذ منها أعداء الإسلام إلى عقول أبناء الإسلام وقلوبهم.

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ الحشر: ١٠.

«اللهمَّ أرنا الحقَّ حقاً، وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً، وارزقنا اجتنابه، ولا تجعله ملتبساً علينا فنضل».

* * * * *

لقَد حَجَّرتَ واسِعاً!

الحمد لله أنَّ رحمةَ الله ليستْ حكراً بيد أحَد.. وأنَّ حساب البشر ليس إلى زيد أو عبيد.. وأنَّ جنَّة الله ليست حكراً على جنس أو لون من البشر..

أرسل إليَّ أخ فاضل مقالة آلمني ما فيها من نظرة ضيِّقة، وعصبيَّة مقيتة، وتجنٍّ على الحقيقة، واحتكار ساذج لنشاطات الصحوة الإسلاميَّة وامتداداتها، فلم يسعني إلا أن أكتب هذه الكلمات غيرة على العدل، وانتصاراً للحقِّ. والله تبارك وتعالى يقول: اعدلوا هو أقرب للتقوى..

مغالطة الحقِّ لا تغني عن الحقِّ شيئاً، فالله يُحِقُّ الحقَّ بكلماته.. وقد يتأثَّر بتلك المغالطة بعض الناس، ولكنَّها لا تعدو أن تكون فتنة من الفتن الكثيرة المحيطة بنا من كلِّ جانب..

العاطفةُ الجامحةُ تجنحُ بصاحبها إلى غلوٍّ غَيرِ محمودٍ..

لقَد حَجَّرتَ واسِعاً، وسددتَ شارعاً.. عندما تسعُنا جادَّة صراط الله المستقيم العريضة، ويأبى أحدُنا إلا أن يزيحَ إخوانه عن الجادَّة، ويصادر حقَّهم في ارتيادها فاعلمْ أنَّه ممَّن يطاله قَولُ الله تَعالَى: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ آل عمران: ١٠٥.

الصحوة الإسلاميّة تيّار عريض، ونهر متدفّق، كلُّ عامل للإسلام مخلص لله تعالى ساهم في تغذيته وتقويته.. وربَّما ساهم في تغذيته من لا يؤجر على عمله، كما جاء في الحديث الصحيح: (إنَّ اللهَ يُؤَيِّدُ هذا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الفاجِرِ). متفق عليه.

الصحوة الإسلاميَّة إسلاميَّة، لا سلفيَّة ولا صوفيَّة، ولا حَركيَّة ولا رسميَّة، ولا يعني هذا الكلام أنَّني أنكر وجود هذه الفئات، وأوزانها على مستوى الأمَّة، وعلى مستوى الامتداد الجغرافيِّ.. وإنَّما أنكر الاحتكار والمصادرة.. ودعوى الاستقلال بالتأثير، وإلغاء الآخرين، والاستهانة بأعمالهم..

الصحوة الإسلاميَّة أسهم في بعثها علماء الإسلام ودعاته المخلصون الصادقون في مشارق الأرض ومغاربها، بنسب متفاوتة، لا يَعلمُ قدرَهَا ووزنَها إلا ربُّ العبادِ سبحانه، الذي أحصى كلَّ شيء كتابُه، وهو يعلم السرَّ وأخفى.. والله تعالى يأمرنا بالعدل والإحسان، ونحن نمارس الظلم والطغيان بأسوأ صوره وأشكاله.. نمارس الظلم مع أقرب المقرَّبين إلينا! مع الذين يجمعنا بهم مركب واحد شئنا أم أبينا..

فنحاول بما أوتينا من قوّة ونفوذ أن نقصيهم عن المركب، وأن ننكر وجودَهم فيه، وحقَّهم في الانتساب إليه، وننظر إليهم بعدوانيَّة، كما ننظر إلى العدوِّ المتربِّص سواء بسواء.. ننكر أي خير ينتسبون إليه أو ينتسب إليهم، أو نشكِّك فيه على أحسن الأحوال..

ونختزل الصورة عنهم بسلبيَّات معدودة أكثرها محلُّ نظر واجتهاد، فلا نزال نضخِّمها ونضخِّمها حتَّى تقتربَ من الكفر البواح، والشرك الأكبر الذي لا يختلف فيه اثنان.. ورُبَّما لم نتورَّع عن ذلك.. ونشنِّع ونشهِّر، ونقول للناس: تعالوا وانظروا إلى هؤلاء.! نحن أبناء الإسلام.. ورجال العلم والدعوة.. وأهل الحميَّة والغيرة.. ومن سوانا هباء في هباء..

ومَنْ يمارس الإقصاء بهذه الصورة يمارس عليه الإقصاء أيضاً، من قبيل ردَّة الفعل أوَّلاً.. ثمَّ من باب أنَّ الجزاء من جنس العمل ثانياً.. ثمَّ من أبواب أخرى، لا يتَّسع المقام لذكرها.. في سلسة رديئة من السلوك المشين، الذي لا يفرح به إلا أعداء الإسلام..

ويكفي أحد هذه الأسباب لنبقى نتحرَّك في دوَّامة التيه، ونأبى أن نلتمس المخرج منها..

والمخرجُ الشرعيُّ واضحٌ في كتاب الله وسنَّة رسوله صلَّى الله عليه وسلَّم.. إنَّه الحذر من أسباب التفرُّق والاختلاف والبعد عنها، والإصرار على وحدة الأمَّة واجتماع كلمتها..

إنَّ هذه الأمَّة بامتدادها التاريخيِّ والجغرافيِّ هي أمَّة الإسلام، وأمَّة محمّد صلَّى الله عليه وسلَّم، رضي من رضي، وكره من كره.. فيها الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات بإذن الله..

وإنَّما مثلها مع نبيِّها صلى الله عليه وسلم كمثل الأولاد مع أبيهم: فيهم البرُّ المرضيُّ، المجتهد في الأدب والطاعة، وفيهم المقصِّرُ، وفيهم المفرِّط بحقِّ والده.. والوالد يربِّي ولده بما يرى فيه خيره وصلاحه.. ولا يرضى من أحد أولاده ولو كان برّاً مرضيّاً أن يحمل السلاح حقيقة أو مجازاً على أخيه المقصِّر أو المفرِّط، بحُجَّة الانتصار لوالده، أو يعلن نفي الوالديَّة عنه، لتقصيره أو تفريطه..

ورُبَّما أسهم في تغذية هذه الصحوة جنود مجهولون، لا يعرفهم أكثر الناس، ونساء يعملن بصمت خلف الجدران، ورجال من عامَّة الأمَّة، لا يعرفون الأضواء، ولا تعرفهم.. ولكنَّ الله جلَّ في علاه يعرفهم جميعاً، ويعرف مواقعهم، ولا يخفى عليه شيء من أمرهم.. وإنَّ من كمال إخلاص المخلص لله أن يحرص على خفاء عمله عن الناس، ويكتفي بعلم الله به، ونظره إليه..

إنَّ أمثال هذه المقالات، وهذه الاتِّجاهات في الفكر والسلوك تعكس خللاً تربوياً ومنهجياً في حياتنا الدعويَّة والاجتماعيَّة، وتدعو العقلاء الحكماء، وأهل الغيرة على حرمات الحقِّ أن يركِّزوا جهودهم واهتماماتهم على معالجة هذه الأدواء النفسيَّة، التي تحبط كثيراً من الجهود المبذولة أو تشلُّ فاعليَّتها!

إنَّ مشكلتنا في العقول الضيِّقة الأفق، والنفوس المشحونة بالأهواء والرعونات، إنَّها طفولة دعويَّة لم تبلغْ حدَّ المراهقة بعد..

أمَّا إنَّها طفولة دعويَّة فهذا ما توضِّحه هذه الواقعة الطريفة: حدَّثني بعض الإخوة الذين كانت لهم مجالسة طويلة للأستاذ محمَّد المبارك رحمه الله وأحاديث وحوارات، في شتَّى مجالات العلم والدعوة، وتجارب الحياة، وكان متأثِّراً بأنشطة بعض الجماعات الإسلاميَّة في بلاد الغرب،

وكان مقيماً في بعضها للدراسة، فقال: كنْتُ أحدّث الأستاذ عن تلك الأنشطة، وأتحمَّس في مدحها، ومدح القائمين عليها ونجَاحاتهم، فكان ينصت لي باهتمام، ويقابل ذلك بابتسامة معبِّرة، ورُبَّما سألته عن سرِّ ابتسامته فنظر إليَّ ولم يجبني.. وعلمت منه بعد ذلك أنَّه ينظر للعمل الإسلاميِّ كنظر الوالد العدل إلى أولاده، يعرف لكلِّ عامل قدره، ولا ينتقص شيئاً من حقِّه، كما لا يَرضى أن يحابي ولداً على حساب آخر..

والأستاذ محمَّد المبارك رحمه الله هو صاحب الشعار الذي أطلقه في مناسبات مختلفة: (أريد للسلفيَّة أن تتصوَّف، وللصوفيَّة أن تتسلَّف).. وإنَّما يعرفُ الفضْلَ لأهل الفضل أهلُ الفضل.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(أَهْلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَة فَضَاءٌ وَاسِعٌ لِلمُسلِمِينَ)

إنَّ أهل السنة والجماعة هم الفضاء الواسع للأمَّة الإسلاميَّة، التي تجمع في صفوفها بين الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات بإذن الله..

ويمثِّل أهل السنة والجماعة كل القوى الفاعلة من العلماء والدعاة إلى الله والجماعات الدعويَّة والمؤسَّسات الخيريَّة..

وليس من حقِّ أحد أن يدعي احتكار هذه الصفة، أو إقصاء أحد، أو ادعاء أنَّه وحده الفرقة الناجية، بَلْهَ إطلاق اتِّهامات التكفير والتفسيق، وما أشبه ذلك..

وكلُّ الألقاب والتسميات التي تسهم في تمزيق الأمَّة، وتقطيع الجسد الواحد لا تمتُّ إلى منهج أهل السنة والجماعة بصلة..

وإلا فإنَّ النزيف الداخلي، وتآكل الجسد الواحد سيتواصل، وسيتواصل معه إجهاض كلِّ الجهود، وتعثُّر كلِّ مشروعات النهضة، التي يطمح إليها المصلحون، وسيكون هؤلاء ممَّن يخدم مخطَّطات عدوِّه، ويحقِّق أهدافه من حيث يشعر، أو لا يشعر.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(حَتَّى تَكُونَ كِتَابَتُكُم سَلِيمَةً ومُنْصِفَةً)

العلماء والدعاة بشر يعتريهم الضعف، وتؤثِّر فيهم المصائب والأحداث، والابتلاءات الخاصَّة، فيغلب عليهم الملل أحياناً أو التشاؤم، ويستفزُّهم بعض الأشخاص أو المواقف، وتغيب عنهم أمور، وتتضخَّم في نفوسهم أمور، فتكون كتاباتهم مطبوعة بأحوالهم النفسيَّة، وظروفهم العارضة، سلباً أو إيجاباً.

ومن هنا فإنِّي أنصح إخواني الكاتبين بأمرين:

ـ الأوَّل: أن لا يكتبوا إلا في أحسن أحوالهم النفسيَّة، واتِّزانهم الفكريِّ والعاطفيِّ، كيلا يكون تناولهم للأمور معتلاً ومختلاً، ولا ينقلوا أحوالهم السلبيَّة للآخرين.

ـ والثاني: أن يدقِّقوا فيما كتبوا قبل نشره، ويدقِّقوا خاصَّة في نشر الأخبار، فما أعظم هذه الآفة التي ابتلينا بها، وهي نشر الأخبار قبل التحقُّق القاطع منها.. فالكلمة مسؤوليَّة وأمانة، ورُبَّ حرفٍ كانت وراءه مصائب، وأن يعيدوا النظر فيما كتبوا برويَّة، فذلك من إتقان العمل الذي أمرنا به.

وقبل ذلك كلِّه عليهم أن يراقبوا الله تعالى فيما يكتبون وينشرون.

* * * * *

(الحَقُّ كَالنَّهرِ)

الحقُّ كالنهر الجاري، له نبعه الخاصُّ ومصدره، وله مجراه المتميِّز ومساره، ومصبُّه ومآله.. والجماعات التي تنتسب إليه هي كالجداول المشتقَّة من النهر..

فمن أراد أن يكون نفعه عاماً للأمّة فخير له أن يكون نقطة في النهر، من أن يكون دفقةً في جدول..

فالجدول قد ينقطع مدده من النهر فيجف، أو يأسن، وقد ينحرف مساره عن النهر فيضعف، وقد يتمكَّن منه عابث فيكدِّر صفوه، ويفسد عذوبته.. وقد.. وقد.. ويبقى النهر عصياً على ذلك كلِّه..

والنهر يضمُّ إلى صدره الجداولَ كلَّها، ولا يستطيع ذلك الجدول..

وهذا القول لا يعني تزهيد العمل مع الجماعة ـ أيَّة جماعة ـ ولكن أن يعمل المؤمن، وقلبه مع الأمَّة وفكره ولسانه.. وأن يعلم أنَّ الأمَّة هي الأصل، وأنَّ الجماعة هي الوسيلة والفرع.. ولا يمكن أن تناقض مصلحة الفرع الأصل..

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(العَقْلُ مَنَاطُ التَّكْلِيفِ)

هذه قاعدة شرعيَّة محلُّ إجماع بين العلماء..

ومعناها الظاهر: أنَّه لا تكليف ولا مسؤوليَّة ما لم يتمتَّع الإنسان بالعقل، الذي يميِّز به بين الخير والشرِّ، والنفع والضرِّ..

ولازم ذلك أن يكون الإنسانُ حرَّ التفكير، لا يعطِّل عقلَه أمام عقل غيره، حتَّى لو كان باسم الدين.. لأنَّ الدين نفسه هو الذي حرَّر العقول من العبوديَّة لغير الله.. وضابط ذلك العام أن لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق..

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

امتِحَانُ الـمَبَادِئ!

قضت حكمة الله في خلقه أن تمتحن الرجال بالمبادئ، وتمتحن المبادئ بالرجال..

والقاعدة الكبرى في هذا الباب أنَّ المبادئ بأدلَّتها المعتبرة هي الأصل والحكم، وأنَّها الحكم الفصل بين الرجال، والميزان العدل عند اختلاف الأقوال.. وقد جاء من كلام سيِّدنا علي رضي الله عنه: (اعرف الحقَّ تَعرفْ أهلَه).

قال الإمام ابنُ الجوزيِّ رحمه الله في كتابه (صيد الخاطر): (واعلم أنَّ المحقِّق لا يهوله اسمٌ معظمٌ، كما قال رجل لعليٍّ رضي الله عنه: أتظنُّ أنَّا نظنُّ أنَّ طلحة والزبير كانا على باطل؟

فقال له عليٌّ رضي الله عنه: (إنَّ الحقَّ لا يُعرَف بالرجال، اعرف الحقَّ تعرف أهله)، ولعمري إنَّه قد وقر في النفوس تعظيم أقوام، فإذا نقل عنهم شيءٌ فسمعه الجاهلُ بالشرع قَبِلَهُ لتعظيمهم في نفسه).

وصِدْقُ هذه الحكمةِ والقاعدة الكبرى يتجلَّى في أنَّ قليلاً من الهوى قد يحرف الإنسان عن الحقِّ ويصدُّه، ويزيِّن له الباطل، ويغريه به.. كما أخبر الله تعالى عمَّن آتاه آياته فانسلخ منها: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ الأعراف: ١٧٥ـ١٧٦.

وما أكثر شعب الأهواء! وما أخطر أبوابها وأوديتها!

وهذا واضح في الناس وضوح الشمس، مشهود دون لَبْسٍ، فكيف للإنسان أن يرهن نفسه لهوى بشر غير معصوم؟! مهما كان شأنه، وعلا قدره..

وما أحسن قول أرسطو لما خالف أستاذه أفلاطون: (تخاصم الحقُّ وأفلاطون، وكلاهما صديق لي، والحقُّ أصدق منه).

وقد يقول قائل: وأنَّى للعامِّيِّ قليل العلم والثقافة أن يهتدي للحقِّ إلا عن طريق الرجال؟! وكيف تلزمونه بسؤال أهل العلم والذكر، ثمَّ تقولون له: (اعرفِ الحقَّ تَعرفْ أهلَه)؟! أليس في هذا تكليف له ما ليس في طاقته ووسعه؟!

والجواب عن ذلك والله أعلم: أنَّ هذه الكلمة الحكيمة تصدق على الأصول لا الفروع، لأنَّ الأصول قطعيَّة واضحة، لا تلتبس على العقلاء، وينبغي أن لا يختلف عليها عاميٌّ ولا متعلِّم، أمَّا الفروع فهي ملتبسة على كثير من الناس محتملة، ومن هنا جاء قول العلماء: «من قلَّد عالماً ـ أي في الفروع ـ لقي الله سالماً». لأنَّه استجاب لأمر الله تعالى: (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُون) الأنبياء: ٧.

يقول الإمام الذهبيُّ رحمه الله: (وبين الأئمة اختلاف كبير في الفروع وبعض الأصول، وللقليل منهم غلطات وزلقات ومفردات منكرة، وإنما أمرنا باتِّباع أكثرهم صواباً، ونجزم بأنَّ غرضهم ليس إلا اتِّباع الكتاب والسنَّة، وكلّ ما خالفوا فيه لقياس أو تأويل..

وما زال الاختلاف بين الأئمَّة واقعاً في الفروع، وبعض الأصول مع اتفاق الكلِّ على تعظيم الباري جلَّ جلاله، وأنَّه ليس كمثله شيء، وأنَّ ما شرعه رسوله صلى الله عليه وسلم حقٌّ، وأنَّ كتابَهم واحدٌ، ونبيَّهم صلى الله عليه وسلم واحدٌ، وقبلتهم واحدة، وإنَّما وضعت المناظرة لكشف الحقِّ وإفادة العالِم الأذكى العلمَ لمن دونه، وتنبيه الأغفل الأضعف، فإن داخلها زهو من الأكمل، وانكسار من الأصغر فذاك دأب النفوس الزكية في بعض الأحيان، غفلة عن الله، فما الظنُّ بالنفوس الشريرة المنطفية).

ويأتي في هذا السياق قول الرسُولِ الله صلى الله عليه وسلم: (استفت قلبك، وإنَّ أفتاك الناس وأفتوك) فهو يربط المؤمن بالحقِّ لا بالرجال، وهو عندما يصدق في طلب الحقِّ، ويخشى الله تعالى ويتَّقيه، فإنَّ الله تعالى ينوِّر قلبه وبصيرته، فيستوحش قلبه من قبول الباطل والافتتان به.

وقال أبو إسحاق الشاطبيُّ في كتابه: «الاعتصام»: (كُلُّ مَا عَمِلَ بِهِ الْمُتَصَوِّفَةُ الْمُعْتَبَرُونَ فِي هَذَا الشَّأْنِ لَا يَخْلُو: إِمَّا أَنْ يَكُونَ مِمَّا ثَبَتَ لَهُ أَصْلٌ فِي الشَّرِيعَةِ أَمْ لَا: فَإِنْ كَانَ لَهُ أَصْلٌ؛ فَهُمْ خُلَقَاءُ بِهِ؛ كَمَا أَنَّ السَّلَفَ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ خُلَقَاءُ بِذَلِكَ.

وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَصْلٌ فِي الشَّرِيعَةِ؛ فَلَا عَمَلَ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ السُّنَّةَ حُجَّةٌ عَلَى جَمِيعِ الْأُمَّةِ، وَلَيْسَ عَمَلُ أَحَدٍ مِنَ الْأُمَّةِ حُجَّةً عَلَى السُّنَّةِ؛ لِأَنَّ السُّنَّةَ مَعْصُومَةٌ عَنِ الْخَطَأِ وَصَاحِبَهَا مَعْصُومٌ، وَسَائِرُ الْأُمَّةِ لَمْ تَثْبُتْ لَهُمْ عِصْمَةٌ؛ إِلَّا مَعَ إِجْمَاعِهِمْ خَاصَّةً.

وَإِذَا اجْتَمَعُوا؛ تَضَمَّنَ اجْتِمَاعُهُمْ دَلِيلاً شَرْعِياً.

فَالصُّوفِيَّةُ كَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ لَمْ تَثْبُتْ لَهُ الْعِصْمَةُ، فَيَجُوزُ عَلَيْهِمُ الْخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ وَالْمَعْصِيَةُ كَبِيرَتُهَا وَصَغِيرَتُهَا، فَأَعْمَالُهُمْ لَا تَعْدُو الْأَمْرَيْنِ.

وَلِذَلِكَ قَالَ الْعُلَمَاءُ: كُلُّ كَلَامٍ مِنْهُ مَأْخُوذٌ أَوْ مَتْرُوكٌ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

وقال الإمام ابن الجوزي في «تلبيس إبليس»: (وفي التقليد إبطال منفعة العقل، لأنَّه خلق للتأمُّل والتدبُّر، وقبيح بمن أعطي شمعة يستضيء بها أن يطفئها، ويمشي في الظلمة).

ومثل التقليد: التبعيَّة العمياء، تحت أيِّ دافع أو مبرِّر، وأكثر ما تكون بسبب غلبة العاطفة أو الهوى على العقل.. وهل خلَّف الأمَّة إلا مثل ذلك؟

ثمّ إنَّ مسلك أهل العلم الربَّانيِّين ربط أقوالهم بالدليل الشرعيِّ، فيما يقدِّمون للناس من رأي، فعندما يستشهدون لأقوالهم بالكتاب والسنَّة، فإنَّهم يرفعون مستوى العامَّة، لتستنير بصائرهم بهدي الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فلا يضيرهم بعد ذلك من شذَّ أو انحرف..

وقد تواتر كلام الأئمَّة من السلف على التحذير من التقليد والتبعيَّة بغير دليل:

يقول الإمام ابن المبارك رحمه الله لمناظريه في الكوفة، في النبيذ المختلف فيه لَـمَّا احتجُّوا بأسماء بعض أهل العلم: فقلت لهم: دعُوا عند الاحتجاج تسمية الرجال؛ فَرُبَّ رجلٍ في الإسلام مناقبُه كذا وكذا، وعسى أن يكون منه زلَّة، أفلأحدٍ أن يحتجَّ بها؟ السنن الكبرى للبيهقي (١: ٢٩٨).

ويقول الإمام أبو حنيفة رحمه الله: (لا يحلُّ لِـمَنْ يفتي من كتبي حتَّى يعلم من أين قلت).

وكان يقول رحمه الله: (هذا رأيي، وهذا أحسن ما قلت، فمن جاء برأي خيرٍ منه قبلناه).

ويقول الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: (لا تقلِّدوني، ولا تقلِّدوا مالكاً، ولا الشافعيَّ، ولا الثوريَّ).

وكان يقول: (من قلة علم الرجل أن يقلِّد دينه الرجال).

وقال: (لا تقلِّد دينك الرجال، فإنَّهم لن يسلموا من أن يغلطوا).

وقال رجل لأحمد بن حنبل: إن ابن المبارك قال كذا، قال: (ابن المبارك لم ينزل من السماء).

* * * * *

الخِطَابُ الدَّعوِيُّ بَيْنَ الجُمُودِ والتَّجدِيد

لا شكَّ أنَّ من إعجاز «النصِّ القرآني»، في أسلوبه وبيانه، وحقيقته ومضمونه، أنَّه يخاطب إنسانَ هذا العصر وكلَّ عصر، بلغة مؤثِّرة غاية التأثير، وكأنَّها تنزَّلت له، كما خاطب إنسان عصر نزول القرآن.. ويأتي في المرتبة التالية بهذه الصفة: «النصُّ النبويُّ»، لأنَّه نوع من الوحي، لصدوره عمَّن لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى..

وما سوى هذين الأصلين من النصوص التي يكتبها العلماء والدعاة والمفكِّرون ليست لها هذه المَزِيَّة، ولا تأخذ منها إلا بقدر ما تتَّصل بهذين الأصلين، من حيث أسلوب الخطاب ومضمونه..

فنصوص العلماء والدعاة والمفكِّرين الإسلاميِّين على مدار التاريخ، كلُّها تدور من حيث الموضوعات والمضمون في فلك الوحيين، بصورة مباشرة أو بصورة غير مباشرة.. ولكنَّها تتفاوت تفاوتاً كبيراً من حيث الأسلوب، الذي يطبع نصوص الوحيين الشريفين..

فبالنظر إلى الأعمِّ الأغلب في أساليب الكتَّاب عبر القرون، والمقارنة بين بعضها، وبينها وبين أسلوب الوحيين الشريفين يتبيَّن أنَّها محكومة بطابع عصرها، وما يغلب على ثقافة كتَّابه ومؤثِّراتها..

والقرون الإسلاميَّة الأولى كانت أقرب إلى أسلوب الوحيين الشريفين بصورة ظاهرة بيِّنة..

ويترتَّب على ما سبق أنَّ أسلوب الخطاب لعصر قد لا يصلح لعصر آخر، ولا يناسبه مطلقاً، ولنضرب على ذلك مثلاً بأسلوب السجع في الخطابة والكتابة، الذي سيطر على الخطباء والكتَّاب قروناً متطاولة، وكذلك الأسلوب الفلسفيُّ والمنطقيُّ، وأساليب علم الكلام المعقَّدة، التي ارتهنت لها كتب العقيدة دهراً طويلاً..

فهل من البرِّ بالآباء والأجداد، والعلماء والدعاة أن نستنسخ أساليبهم في الخطاب العلميِّ والدعويِّ؟ ونظنّ أنَّ ذلك من الوفاء لهم.. ولو بعث هؤلاء العلماء والدعاة فينا من أجداثهم هل يصرُّون على أساليب خطابهم العلميِّ والدعويِّ الذي كانوا عليه؟

فما بال كثير من الأتباع يظنُّون أنَّ من البرِّ بمشايخهم أن يجمدوا على ما ورثوا عنهم من آثارهم، ويأبون تجديد خطابهم وتطويره؟! إنَّهم بكلِّ وضوح يسيؤون إليهم من حيث لا يشعرون، ويسيؤون إلى علم مشايخهم وفكرهم، وهم يظنُّون بأنفسهم المحافظة عليه والوفاء له..

إنَّ مستجدَّات العصر ومتغيِّراته المتسارعة تفرض على دعاة الإسلام الغيارى أن يواكبوها، ويوظِّفوها لخدمة دينهم دعوتهم، ويطوِّروا من أساليبهم ويجدِّدوها، لتكون تلك المستجدَّات سلاحاً بأيديهم، وقوَّة لدينهم، لا سلاحاً عليهم..

* * * * *

(مَن سَنَّ فِي الإِسلامِ سُنَّة حَسَنَة.. وَمَن سَنَّ فِي الإِسلامِ سُنَّة سَيِّئَة)

كأنَّها تشير لنا إلى تقرير سنَّة فطريَّة واجتماعيَّة، ينبغي أن لا تغيب عن حسِّ الدعاة، ومنهجهم في الدعوة وأسلوبهم..

وهي أنَّ الحياة متغيِّرة متطوِّرة، ومن شأن الدعاة العقلاء، الحكماء الألبَّاء أن يواكبوا تطوُّرَها بابتكار ما يتلاءم مع قواعد الشرع وهديه وأحكامه..

ممَّا يخدم دعوتهم، ويرسِّخ قواعدها، ويحقِّقُ أهدافها، وليس ذلك من الابتداع في الدين من شيء، إذ الابتداع إنَّما يكون في جانب العبادات، التي يجب فيها التوقيف والاتِّباع..

ومن أمثلة ذلك إقامة الجمعيَّات الخيريَّة.

* * * * *

(التَّقِيُّ لا يَجِدُ حَرَجاً فِي الاعتِرَافِ بِخَطئِه)

العالم الفقيه هو الذي يخشى الله ويتَّقيه.. وهو يدور مع الحقِّ وشرع الله حيث دار..

لا يهمُّه أن ينتصر لرأي رآه باجتهاده، فهداه الله لما هو خير منه وأهدى، أو عرف خطأه فيه، أن يرجع إلى الحقِّ.. ويقول بملء فيه: (أخطأتُ).. فالرجوع إلى الحقِّ خيرٌ من التمادي في الباطل..

لا يرى في ذلك حرجاً ولا غضاضة، لأنَّ قصده وجه الله تعالى ورضاه.. ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللهِ، وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إلا اللهَ، وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً﴾ الأحزاب: ٣٩.

* * * * *

لِـمَاذَا يُسِيئونَ إلى نَبِيِّنَا صلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسلَّمَ؟! ومَاذَا يَجِبُ عَلَينَا؟!

بين الحين والآخر يستيقظ العالم على ضجَّة توقظ النائم، وتحرِّك الساكن، وتستفزُّ المشاعر.. والمستهدفون دائماً هم أمَّة الإسلام بقيمها ومقدَّساتها، من أدنى الأرض إلى أقصاها..

فلماذا هذه الاعتداءات على مقدَّسات الأمَّة وقيمها؟ وماذا ووراءها؟ لماذا يسيئون إلى نبيِّنا صلَّى الله عليه وسلَّم؟! وماذا يجب علينا؟!

وللإجابة عن ذلك لا بدَّ لنا أن نعي جملة حقائق:

ـ ينبغي أن نعلم أوّلاً أنَّ هذه الإساءات ليست تصرُّفات فرديَّة عفويَّة، وإنَّما هي خطَّة ممنهجة، تقف وراءها جهات مسؤولة متعدِّدة، تدفعها وتؤيِّدها، وتموِّلها وتدافع عنها، ولها أهدافها الدينيَّة والسياسيَّة، القريبة والبعيدة.. وكلُّ ما جرى سابقاً، ويجري الآن يؤكِّد هذه الحقيقة ويؤيِّدها..

ـ وينبغي أن نعلم أيضاً أنَّ هذه الإساءات لمقدَّسات الأمَّة وقيمها ليست جديدة ولا معاصرة.. إنَّها قديمة قدم هذه الدعوة الربَّانيَّة، وتلك سنَّة الله في أنبيائه ورسله.. أن يبتلوا بالأراذل الأشرار، وأن ينالوا منهم أسوأ الأذى والإساءات، ثمَّ تكون العاقبة لهم: ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ المجادلة: ٢١، ﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ الأحزاب: ٦٢.

ـ إنَّهم بهذه الإساءات لمقدَّساتنا يريدون أن يقيسوا نبض عواطفنا، ومدى حساسيتنا من انتهاك مقدَّساتنا، ومدى انتصارنا لها.. كما تفعل إسرائيل بانتهاك حرمات المسجد الأقصى بين الحين والآخر، وانتهاك حرمات المساجد على وجه العموم..

ـ وهم يريدون أن يشتِّتوا انتباهنا، ويضعفوا قوانا، ويشغلونا عن معارك أخرى، وانتهاكات لحرمات الأمَّة كبرى، في شرق الأرض وغربها، ممَّا يجري من مذابح في سورية وفلسطين، وبورما وأفغانستان، وغيرها.. ويقع تحت سمع العالم وبصره.. والمجرمون الكبار يمدُّون عملاءهم بالمال والسلاح، وكل أنواع الدعم والتأييد..

ـ لماذا نستغرب ما يقع من هؤلاء؟! وهل ينتظر غير ذلك من السفيه؟! فكلُّ إناء ينضح بما فيه.. إنَّهم يعبِّرون عن مستوى حضارتهم، التي هي عنصريَّة بامتياز، ومنحطَّة أخلاقياً؛ لأنَّها لا تعرف إلا أخلاق اللذَّة والمنفعة، ولا تدور اهتماماتها إلا حول شهوات البطن والفرج.. وهي توظِّف كلَّ القيم النبيلة، التي تدَّعي التمسُّك بها والانتصار لها.. توظِّفها بطريقة انتقائيَّة متحيِّزة لتكون في هذا الفلك، الذي يخدم استكبارها في الأرض، وهيمنتها على الأمم والشعوب..

فأين دفاعهم عن حقوق الإنسان الذي يدَّعونه؟! وقد ثارت ثائرتهم ولم تهدأ، وقامت قيامتهم ولم تقعد، وحرَّكوا قوَّاتهم لمقتل بعض رجالهم بطريق الخطأ، ولم تتحرَّك، لما يجري من مذابح في سورية، على مرأى منهم ومسمع.. بل يتواطؤون على قتل خمسين ألفاً من أطفال سورية ونسائها ورجالها، وتشريد مئات الألوف منهم خارج وطنهم، وملايين آخرين داخله.. فأين دفاعهم عن حقوق الإنسان وانتصارهم له؟!

إنَّهم يعبِّرون عن إفلاسهم الأخلاقيِّ والحضاريِّ، ويوظِّفون هذه المواقف لخدمة مشروعهم التغريبيِّ، الذي يريدون التسلُّط به على أمَّة الإسلام ومقدَّراتها، بدعوى حرِّيَّة الرأي والتعبير، وإنَّ قوانينهم تحترمها ولا تتدخَّل فيها، وإنَّها كما زعم قائلهم «خط أحمر»! فأين حرِّيَّة الرأي والتعبير لمن أراد أن يشكِّك «بالمحرقة اليهوديَّة» إن كانوا صادقين؟!

إنَّ حرِّيَّة الرأي والتعبير التي يتشدَّقون بها أكذوبة كبرى من أكاذيبهم، التي يبرِّرون بها العدوان على الآخرين، ويشهرونها سلاحاً في وجوه المخالفين، ويتجاهلونها، ولا يبالون بها عندما تدينهم، وتخالف مواقفهم..

ولنقارن مقارنة سريعة بين ثقافتهم وحضارتهم، وبين ثقافتنا وحضارتنا، إذ يأمرنا الله تعالى بنصِّ كتابه المبين أن نعدل مع عدوِّنا كما نعدل مع أهلينا وذوينا، يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ لا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ المائدة: ٨، ويقول سبحانه: ﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الأنعام: ١٠٨.

لقد فضح الله تعالى دخائل هؤلاء منذ أربعة عشر قرناً، فقال سبحانه: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ البقرة: ١٠٩، ويقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ. هَا أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ، وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ، وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ، قُلْ: مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ آل عمران: ١١٨ـ١١٩.

نعم، نقول لهم كما أمرنا ربُّنا: ﴿مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

* * * * *

نَماذِج وأنوَاع مِنَ الفِعلِ الإيجَابيِّ المطلُوب مِنَ المسلمينَ تجاه هذه الإسَاءات

ـ إحياءُ قلوبِ الأمَّة بسيرةِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وهديه، بدءاً من نفس الإنسان وأسرته، وانتهاءاً بالإنسان حيث كان، إذ لا شكَّ أنَّ هناك جهلاً كبيراً، مشِيناً مخزياً، فاشياً في أبناء الأمّة بسيرةِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وسنّته وهديه، والمرء عدوٌّ ما جهل.. فكيف بحال سائر الناس؟

ـ إحياءُ قلوبِ الأمَّة بالحبِّ الصادق للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، والحبُّ الصادق هو أعظم دافع للطاعة والاستجابة، والاتِّباع والتأسِّي، والدفاع والنصرة..

وإحياءُ القلوبِ بالحبِّ أولويَّة في حياة الأمَّة كبرى، تحتاج إلى مناهج تربويَّة، وبرامج عمليَّة، ودعاة ربَّانيِّين.. وكلُّ ذلك ممَّا تفتقر إليه الأمَّة افتقاراً شديداً.. وتنشغل عنه بقضايا هامشيَّة، تؤخِّر ولا تقدِّم..

ـ تحمُّل مسؤوليَّة الدفاع عن دين الله، ونبيِّه الأمين صلَّى الله عليه وسلَّم، وكتابه المبين، ببذل ما أمكن، ولو كان شق تمرة.. فأمَّة يزيد عدد أبنائها عن مليار نسمة، وينتشر أبناؤها في كلِّ بقعة من بقاع الأرض، لا يستهان بشيء من فعلها مهما يكن قليلاً.. ولكن أين هذا الفعل؟ إلا من

رحم ربُّك، ومشكلة الأمَّة في كثير من المواقف هي التنصُّل من المسؤوليَّة، واستهانة الفرد بذاته وقيمته، وإمكاناته وقدراته، وأنَّ هناك من هو أقدر منه، وأحق بالعمل، من العلماء والدعاة، وولاة الأمور المسؤولين..

ويقف أكثر الأمَّة منتظرين متفرِّجين.. ولو اتَّبعنا المنهجَ النبويَّ الحكيم: (فاتَّقوا النار، ولو بشق تمرة) لأصبحت حياة الأمَّة تمور بأنواع من الفعل الإيجابيِّ البنَّاء..

والأسوأ من ذلك كلِّه أنَّ كثيراً من أبناء الأمَّة، وممَّن يُعَدُّ من أهل الغيرة على دين الله والحميَّة يشغلون أنفسهم وأمَّتهم بالقيل والقال، وكثرة الجدال في مسائل فرعيَّة، مختلف فيها، ولا ضير على أحد في الأخذ بأيِّ اجتهاد فيها، عمَّا هو فريضة الوقت، التي لا تقبل التأخير.. فيفرِّقون الصفوف، ويشتِّتون القوى، ويهدرون الطاقات، وكان غير ذلك أولى بهم وأجدى..

فاقترب أيُّها المحبُّ من حبيبك المصطفى صلَّى الله عليه وسلَّم، طاعة واتِّباعاً، وغيرة صادقة ودفاعاً، وبذلاً في سبيل ذلك، لتعريف الجاهلين، وردِّ الشاردين، ونشر نور الحقِّ في العالمين، وتقدَّم صفوف المؤمنين ولا تحجم، وقل للعالمين: أنا لها! أنا لها! مستجيباً لقول ربِّك جلَّ وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ: مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ: نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ. فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ الصف: ١٤، والله يقول الحقَّ، وهو يهدي السبيل.

* * * * *

قِمَمٌ لا نحسَدُ عليها!

إذا كانَ قِمَّةُ الوطنيَّة أن نسبَّ ونلعن.. ونشتم ونطعن.. ونغمز ونلمز.. ونُسفَّ في الخلاف إلى أحطِّ المستويات.. بدعوى أنَّنا ندافع عن وطننا!

وَإذا كانَ قِمَّةُ التديُّن أن نكفِّر ونفسق، ونبدِّع ونزندق، ونهين ونضلِّل.. ونستهزئ ونتنابز بالألقاب.. ونفتري على من يخالفنا، بدعوى أنَّنا ننصر ديننا!

وَإذا كانَ قِمَّةُ السياسة أن نَخُون ونتآمر.. ونُخوِّن ونتَّهم.. ونَستبدَّ ونَظلم.. ونبيع ونشتري.. في ظلمات العهر والفسق، وسوق النخاسة والخيانة..

فإنَّنا نكفر بمثل هذه الوطنيَّة الزائفة.. ونبرأ من مثل هذا التديُّن الكذوب.. ولا يشرِّفنا العمل بمثل هذه السياسة العاهرة..

ونعلن للعالمين: أنَّنا أسلمنا قلوبنا ووجوهنا مع سيِّد المرسلين، لله ربِّ العالمين..

* * * * *

(النَّبِيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يُعَلِّمُنَا: المَوْضُوعِيَّة)

صلَّى الله على الرحمة المهداة، معلِّم الناس الخير.. ما بالنا أيُّها الأحبَّة؟! يعلِّمنا النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم ولا نتعلَّم، ويدعونا إلى الخير ولا نستجيب؟! اللهمَّ أخرجنا من أهوائنا وحظوظ أنفسنا، واغفر لنا وارحمنا، وتب علينا، إنَّك أنت التوَّاب الرحيم..

كان من هديه صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه إذا بلغه شيء ينكره عن بعض أصحابه، يقول: (ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا، أو يقولون كذا وكذا..). إنَّه التعليم النبويُّ الكريم، والأسلوب الحكيم، الذي يعلِّمنا الموضوعيَّة في النقد، ومراعاة المشاعر، والبعد عن إحراج المخطئ، فلرُبَّما استفزَّه الشيطان، فجمع إلى خطئه الكبر والعناد، فكان من الهالكين..

وكثير من الناس لا يميِّز في سلوكه بين الموضوعيَّة في النقد والحوار، وبين ما يسمَّى الشخصنة، أو الذاتيَّة في النقد، التي تجرِّح الآخرين بدعوى نقد فكرة، أو الدفاع عن فكرة..

والنقطة الفاصلة بين الأمرين: أنْ ننقد الفكرة بما نملك من الأدلَّة، ونبيِّن أوجه الخطأ فيها، ولا نذكر قائلها.. لأنَّنا أنصار فكرة ومبدأ، ولا يهمُّنا مخالفها كائناً من كان..

وهل علمتم أو سمعتم أيُّها الأحبَّة، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم شهَّر على منبره بأحد من المنافقين بذكر اسمه؟! حتَّى أولئك الذين طعنوا بعِرْضه الشريف قال عنهم: (ما بال أقوام يؤذونني في أهل بيتي)؟! فالله أكبر! ما أسمى الهدي النبويَّ، وما أشرفه!

ومن وجهة موضوعيَّة في النظر إلى الموضوعيَّة: لماذا نؤكِّد ونشدِّد على الموضوعيَّة في النقد والحوار؟

لأنَّه بالموضوعيَّة يتحقَّق العدل والإنصاف في طرح الأفكار ومناقشتها، وتأخذ الأفكار حقَّها من ذلك، وينأى الإنسان عن تهمة الميل مع الهوى، والانسياق وراء حظوظ النفس.. وبالحقِّ والعدل قامت السموات والأرض..

ولأنَّ الالتزام بالموضوعيَّة يوجِّه الأنظار إلى الفكرة، بما لها وما عليها، وينأى بالناس عن إسقاط مواقفهم المسبقة من الأشخاص عليها..

وكم جنى ذلك على أفكار! وكم أعلى من أفكار لا وزن لها ولا اعتبار!

فإذا كنَّا حقاً مخلصين في نصرة ما نعتقد أنَّه الحقُّ، فلنترفَّع عن الخصومة الشخصيَّة، ولنلتزم بهذه الموضوعيَّة النبويَّة، التي لا تسمح إذا التزمنا بها بقيام أيَّة خصومة بيننا وبين أكثر المخالفين لنا.. وهي خير سبيل لنصرة ما نؤمن به ونعتقده..

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

بَيْنَ اجتهَادِ الفَقِيهِ واجتهادِ السِّيَاسيِّ

الاجتهاد الفقهيُّ أمامه خيارات معدودة محدودة، أمَّا الاجتهاد السياسيُّ فأمامه بدون مبالغة عشرات الخيارات.. لأنَّه أمام أمشاج متباينة متداخلة من المعطيات، محلِّيَّة وإقليميَّة وعالميَّة، وأسرار خفيَّة، لا يعلمها أكثر الناس، وكثير منها لا يستطيع البوح به، ويتعرَّض لضغوط مختلفة، لا يسعه أن يتجاهلها.. كما لا يمكن أن نبرِّأه من هوى النفس، بالميل مع الموافق، والتجافي عن المخالف، والإصغاء للمحبِّ ولو كان غير صادق في نصحه، والإعراض عن الناقد، ولو كان صادقاً في نقده..

كلُّ ذلك يجعل اجتهادَ السياسيِّ محلَّ اختلافِ الناس وتباين آرائهم، فإذا اجتمع إلى ذلك أهواء النفوس وأمراضها، من الغلِّ والحسد، والتنافس على الرئاسة، وحبِّ الدنيا، والإعجاب

بالرأي.. وهي كمٌّ هائل من البلاء.. فأيُّ أمل في توافق الناس على اجتهاد السياسيِّ ومتابعته؟! إن لم يكن لمن هو في موقع المسؤوليَّة مزيَّة القيادة وحقُّ الطاعة؟!

إنَّ الإسلام علَّمنا أن لا ننازع الأمر أهله، ونسلِّم للسياسيّ اجتهاده، ونعطيه حقَّ السمع والطاعة ما لم يأمر بمعصية، كي تستقيم حياة الناس، ولا يكون الخلاف والنزاع هو الأصل الذي يحكم علاقاتهم..

ولا يصحُّ بمنطق العقل السويِّ أن تكون حرِّيَّة الرأي والتعبير ذريعة لفوضى اجتماعيَّة أو سياسيَّة، تعطِّل حياة الناس، وتفسد علاقاتهم، وتنتهك حرماتهم.. إنَّها ليست شيئاً مقدَّساً لا يُمَسُّ، فحياة الإنسان ووجوده أقدس منها وأثمن..

فلنفكِّر بحدود الحرِّيَّة وضوابطها، قبل أن نتغنَّى بها، ونطلقها بغير عقال، فتكون سلاحاً بيد المخرِّبين المفسدين.. وهم أخطر أعدائها، وأسوأ مبغضيها..

* * * * *

(اضطِرَابُ المَوَازِين)

ظاهرة مستشرية في سلوك أكثر الملتزمين: الاهتمام بسنن كأنَّها فرائض.. وارتكاب محرَّمات كأنَّها جنح خفيفة..

أهو الجهل يا ترى؟ أم تأثير الأعراف والعادات؟ أم اتِّباع هوى النفس، التي تميل مع ما ترغب، وتبالغ فيها، إلى درجة تخرج عن حكم الشرع ومنطق العقل؟ أم مزيج من ذلك كلِّه؟ وهذا ما يجعل استجابة كثير من الناس للتغيير أعقد وأعسر..

* * * * *

ضَاعَتِ الأُمَّةُ بَيْنَ التَّمَرُّدِ والتَّبَعِيَّة

التمرُّد الذي يتجاوز الأصول والثوابت.. ويذهب بصاحبه العجب والغرور كلَّ مذهب..

والتبعيَّة التي تغيِّب الوعي، وتبدأ عند قوم بتعطيل العقل بحجَّة الأدب مع الكبار والمشايخ والعلماء، وتنتهي عند آخرين بالميوعة الفكريَّة والأخلاقيَّة، التي تمسخ شخصيَّة الإنسان وتدمِّرها، وتفرض عليها التبعيَّة لكلِّ شيء..

* * * * *

مَا لَـمْ نَرتَقِ بِأخلاقِنَا فَلَنْ نَنتَفِعَ بِعِلمِنَا..

أدب الخلاف يؤمن به أكثر الناس نظرياً، ويخرجون عنه في مواقفهم عملياً.. وأقلُّ ذلك مصادرة حقِّ المجتهد في الاجتهاد.. إلى درجات من الإسفاف، تسوء الصديق، وتسرُّ العدوَّ..

ويتمادى بعض الناس في إسفافهم إلى درجة الطعن بدين من يختلفون معه، ولا يتورَّعون عن توزيع تهم التكفير والتفسيق والتخوين، والتجريح الشخصيِّ..

* * * * *

طَالِبُ العِلْمِ وقَول: (لا أدرِي)

يقول الشيخ محمود شاكر رحمه الله: (تثبَّت قبل أن تحكم، وتدبَّر قبل أن تقطع، واستقص قبل أن تستوثق، وانظر لنفسك قبل أن تزلَّ بك قدمٌ.

واعلم أنَّ شرَّ أخلاق الناس اللجاجة، وشرّ اللجاجة لجاجة العالم، وشرّ لجاجة العالم لجاجته فيما لا يعلمُ، أو فيما لا يُحسِنُ، وإنَّ نصفَ العلم قولُ المرء فيما لا يدري: لستُ أدري).

وأقول: كلمة: «لا أدري» متعدِّدة نواحي الأدب.. وهي عصمة لطالب العلم من أن تزلَّ به القدم، فضلاً عن غيره من العامَّة أن يتكلَّم فيما لا يعلم..

ومن علَّمونا أدب العلم في قول: لا أدري، كانوا أساطين في العلم، وكانت هذه الكلمة تستحثُّهم على البحث والازدياد من العلم، ولم يقولوها تبريراً للكسل والقعود، وحاشاهم من ذلك، وهم الذين ضربوا أروع الأمثلة في طلب العلم، حتَّى وهم على فراش الموت.

ولكنَّ قول طالب العلم فيما لا يَعلمُ، أو ما لا يُحسِنُ: «لا أدري»، قد اتَّخذه بعض كسالى طلاب العلم في هذا العصر تُكَأَة لتبرير التراخي عن طلب العلم، والجدِّ فيه.. ولذا فإنِّي أودُّ أن أقدِّم بعض التفصيل لهذا الأمر.

فما لا يَعلمُ طالب العلم، أو ما لا يُحسِنُ على درجات، وليس كلّه ممَّا يعذر بجهله فيه:

ـ فمنه ما يدخل في اختصاصه دخولاً مباشراً، أو يتَّصل به اتِّصالاً وثيقاً، فلا عذر لمختصٍّ في الفقه أو الحديث مثلاً بجهله بالنحو، ورُبَّما يعذر بجهله بدقائق النحو.. كما لا يعذر المختصُّ في التفسير بجهله بالفقه مثلاً.. ويعذر بجهله بفروع الفقه قليلة الوقوع..

ـ ومنه ما لا يدخل في اختصاصه: كعلم الطبِّ بالنسبة لطالب العلم الشرعيِّ، ولكنَّه هل يعذر بالجهل بما هو من الثقافة الطبِّيَّة العامَّة، التي ينبغي أن تعلمها العامَّة بله الخاصَّة؟ ومن البداهة أن لا يتكلَّم بأمر طبِّيٍّ يتَّصل بحكم شرعيٍّ إلا بعد سؤال المختصِّين الموثوقين فيه.

ـ ومنه ما نسمِّيه: ثقافة العصر والواقع، فهناك من العلوم، والثقافات، والمصطلحات، الموضوعيَّة، ومنها ما يتَّصل بالفكر المعادي للفكر الإسلاميِّ ومصطلحاته ومفاهيمه.. ممَّا غدا ثقافة مجتمعيَّة، لا يعذر طالب العلم بجهلها بحال من الأحوال، وإلا فخير له أن لا يحمل راية هذه الشريعة، علماً بها، ودعوة إليها، ودفاعاً عنها.. وأن لا يرتاد منابرها، إذ نقصه في ذلك مشين غير مقبول، ولا معذور.. ولا يبرِّر له ذلك أن يقول إذا سئل عن مثل هذه الأمور: لا أدري، ويبقى مصراً على مجافاتها وإهمال الأخذ بها، ويظنُّ أنَّه بذلك يلتزم بأدب علميٍّ..

ويبقى السؤال المهمُّ الذي يبحث في نفسي عن الإجابة:

لماذا عُرف في أسلافنا ألوف العلماء الموسوعيين، ولم يعرف ذلك في العصور القريبة إلا على ندرة، وليست بتلك الصورة من الكثرة؟!

ولماذا يتَّخذ كثير من المعاصرين التخصُّص حجاباً بينهم وبين الجهل بالعلوم الأخرى، التي لها وثيق الاتِّصال بما تخصَّصوا فيه؟!

السرُّ في ذلك على وجه الإجمال والله تعالى أعلم يعود إلى أمرين: البيئة العلميَّة، والمناهج التعليميَّة.

إضاءة نبويّة: قال رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَنْهُومَانِ لا يَشْبَعَانِ: مَنْهُومٌ فِي عِلْمٍ لا يَشْبَعُ، وَمَنْهُومٌ فِي دُنْيَا لا يَشْبَعُ). رواه الحاكم في المستدرك.

* * * * *

(كُلُّ فَرْدٍ مَسؤُولٌ عَمَّا يَستَطِيعُهُ)

لا يزال مستقراً في ضميرنا الاجتماعيِّ أنَّ الحاكم هو المسؤول الأوَّل والأخير عن إلغاء كلِّ نقيصة في المجتمع، وتحقيق كلِّ فضيلة، وأنَّ مسؤوليَّتنا تقتصر على دعاء الله بكرة وعشياً أن يهيِّئ الله لنا رجلاً كعمر بن الخطَّاب، أو حفيده عمر بن عبد العزيز، حاكماً عدلاً، يأخذ الناس بالحزم، ولا تأخذه في الله لومة لائم..

وتلكم لعمر الحقِّ طفولة نفسيَّة، وسذاجة فكريَّة، لا تزال مجتمعاتنا تئنُّ من ويلاتها وآثارها.. ولا أدري كيف استحكمت حلقاتها على رقابنا، وأغلالها على عقولنا؟!

والقرآن الكريم، وكذلك السنَّة المطهَّرة يقرِّران بأوضح الأدلَّة وأجلاها أنَّ كلَّ فرد في الأمَّة مسؤول، بحسب قدرته واستطاعته مسؤوليَّة فرديَّة، وأخرى اجتماعيَّة، ولا تعفيه مسؤوليَّة الآخرين عن مسؤوليَّته..

* * * * *

(الوَاقِعُ بَيْنَ أصحَابِ الهِمَمِ والقَاعِدِين)

الواقع.. ما الواقع.؟! مجتمع تلتقي فيه المحاسن والمساوئ، والفضائل والرذائل، وسلبيَّات الماضي بالحاضر.. يتعذَّر به القاعدون المتخلِّفون، ويتمسَّح به الكسالى العاجزون، ويرى فيه أهل الهمم ميداناً للعطاء والإبداع، ومضماراً للتنافس على أحسن العمل..

فلا عجب أن ترى من القاعدين العاجزين البطالة والكسل، والاشتغال بتافه العمل..

* * * * *

منطقُ التَّفْكِيكِ.. وضَحَايَاه البَائِسُون!

استراتيجيَّة المبطلين المفسدين في الأرض تقوم على مرتكزات عديدة، أهمُّها: (منطق التفكيك) كاللصِّ الذي يريد أن يلتهم الطعام المسروق يصغِّر اللقمة، ويسارع في ابتلاعها..

وإنَّ أسوأ ما يبتلى به أهل الحقِّ والرشد أن يكون بعضهم ضحيَّة خطط أعدائهم من حيث لا يشعرون، يندفعون في التزامها وتمثُّلها، وتراهم يظنُّون أنَّهم بعملهم ينصرون الحقَّ ويؤيِّدونه، ويغارون على الحرمات، ويذودون عنها..

منطق التفكيك يشمل كلَّ شيء.. ما يقبل التفكيك في نظر الناس وما لا يقبله.. ما تظهر مبرِّرات تفكيكه وما لا تظهر.. تفكيك الكيانات السياسيَّة.. تفكيك المجتمعات الإنسانيَّة.. تفكيك الأسرة.. تفكيك الرجل عن المرأة.. تفكيك الأطفال عن الوالدين تفكيك فئات المجتمع.. تفكيك الشخصيَّة الإنسانيَّة.. بكافة توجُّهاتها وانتماءاتها..

إنَّ الصورة البسيطة التي عرفت عن (منطق التفكيك) تجلَّت في سلوك الاستعمار البريطانيِّ بما عرف من سياسة (فرِّقْ تَسُد)، التي استطاعت أن تسيطر بها على الشعوب المستعمرة أطول مدَّة ممكنة..

إنَّه منطق قديم متجدِّد.. وسياسة لا تحتاج في كثير من الأحيان إلى كبير عناء.. فيكفي فيها أن تُلقَى البذور، ويُقَدَّم الطعم الشهي للفريسة..

وترقب النتائج بعد ذلك، التي تصدر عن الحكمة المحذِّرة القائلة: (يفعل الجاهل بنفسه ما لا يفعله العدوُّ بعدوِّه)..

والفرق بين (منطق التفكيك) وسياسة (فرِّقْ تسد)، كالفرق بين الأمر في صورته الأوَّليَّة الساذجة، وبين صورته المعقَّدة المركَّبة.. وكالفرق بين الاستراتيجيَّة والتكتيك..

فسياسة (فرِّق تسد) يلمح فيها السلوك المبادر العجل، والموقف السريع، الذي يعاجل ما يكره قبل أن يعاجله، ويضرب ضربته المبادرة، ولو لم تكن محكمة في جميع خطواتها، ولكنَّها تحقِّق أهدافها الآنيَّة، ويمكن أن تدعمها خطوات بعدها، فلا مانع لديها إذن أن يكون التفريق ظاهراً..

وقد قامت شريعة الله على محاربة (منطق التفكيك) بكلِّ مظاهره وأساليبه، بلا هوادة، وحذَّرت أشدَّ التحذير منه، وفوَّتت عليه الفرص، وقطعت عليه الطريق في كلِّ مناسبة..

* * * * *

قَالُوا: يوم اللغَةِ العَرَبيَّة!

وا أسفا علينا أن نجعل لهذه اللغة العظيمة يوماً في السنة معلوماً.. لا تكاد شمسه تشرق حتَّى تغيب..

لغتنا حياتنا.. قرآن ربِّنا.. سنَّة نبيِّنا.. لغتنا وجودنا وحضارتنا.. هي كلُّ لحظة، وكلُّ يوم من عمرنا.. فما بالنا أصبحت على هامش حياتنا؟! لأنَّنا أصبحنا على هامش الحياة..

إذا أردت أن تعرف حياة أمَّة فانظر إلى موقع لغتها من حياتها..

* * * * *

(العَرَبِيَّةُ هِيَ نَبِيُّ اللغَات)

إن كان في الأمور أنبياء فإنَّ اللغة العربيَّة هي نبيُّ اللغات، فقد تميَّزت بمزايا برَّت بها كلَّ اللغات..

فهي لغة القرآن.. المعجز ببيانه للأنس والجنِّ.. ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُون﴾الزخرف: ٣.

وهي لغة الحرف المعجز: برسمه ولفظه وجرسه، وجمال صورته وشكله..

وهي لغة التنقيط والتشكيل، الذي يجعل من الحرف الواحد حروفاً..

وهي لغة الحرف الموسيقيِّ، والنغم الساحر، الذي يجمع للنفس بين متعة السمع، ومتعة البصر..

وهي لغة المعاني الجزلة، والحقائق الكثيرة في الأحرف القليلة..

وتبارك ربُّنا الرحمن القائل:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً لَعَلَّكُمْ تَعقِلُون﴾ يوسف: ٢.

﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الوَعِيدِ﴾ طه: ١١٣.

﴿قُرآناً عَرَبِياً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُون﴾ الزمر: ٢٨.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِياً لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ الشورى: ٧.

* * * * *

بمناسبة اليومِ العالميِّ لِلُّغَةِ العَرَبيَّةِ.. ماذا قدَّمْنَا لِلُغَتِنَا؟

أكاد أجزم أنَّ العرب ـ إلا من رحم ربُّك ـ أكثر الناس تقصيراً مع لغتهم، وإهمالاً لها، وتخلِّياً عنها على كلِّ مستوى.. ولا يلغي هذا القول ولا يقلِّل منه بعض المظاهر التي تخرج عنه هنا وهناك.. فالوردة كما يقول المثل لا تشكِّل ربيعاً، وقطرة الندى لا تبلُّ صدى..

فالخاصَّة على تنوُّع اختصاصاتهم بِمَنْ فيهم كثير من المختصِّين في اللغة العربيَّة إذا تكلَّموا في المجالس والمناسبات سمعت ألسنة ترطن بلغة غريبة، هي هجين من العامِّيَّة السوقيَّة، والكلمات الدخيلة، والأساليب الركيكة.. وهم على ذلك يتوارون من فصيح لغتهم..

ومناهج تعليمنا للغتنا تعاني من التخلُّف والقصور وكثير من التشوُّهات، ولا تخرِّج لنا إلا أجيالاً يكرهون لغتهم، وينفرون منها..

ومعلِّمو تلك المناهج داء وبلاء.. وأي بلاء! وما أقبحَ العلَّةَ في الأطبَّاء!؟

والنخبة المجتمعيَّة من الوجهاء والأثرياء أقصى أمانيهم أنْ يَرْطُنَ أبناؤهم بلغة أجنبيَّة، وأن يتعلَّموا في مدرسة أجنبيَّة.. ولتذهب اللغة الأمُّ مع حمار أمِّ عمرو..

وتدخل الفنادق والمؤسَّسات الخاصَّة في كثير من أرجاء وطنك العربيِّ، فلا تجد من يتفاهم معك بلغتك.. ويعتذر لك بعضهم بعذر أقبح من ذنب بأنَّ اللغة الإنجليزيَّة قد أصبحت لغة عالميَّة.. فهم مضطرُّون للتعامل بها..

ويتغرَّب بعض العرب عن بلادهم سنوات معدودة، فتضيع لغة أبنائه، ويتغرَّبون عن لغتهم إلى غير رجعة..

ولا أريد أن أتحدَّث عمَّا فعل عدوُّنا بلغته الميِّتة، من باب أنَّ الشيء بالشيء يذكر، فتلك حسرة لها مكان آخر، وهي تقطع لنا كلَّ حجَّة..

فمَنْ ينقذ لغتنا، ليس من عدوِّنا، بل من أنفسنا؟

الحقُّ أنَّه لولا القرآن لكانت اللغةُ العربيَّةُ في خبر كان..

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(لماذا لَـمْ يُحدِث الفِكْرُ الإسلاميُّ التأثيرَ المطلوب)؟

إنَّنا منذ قرْن من الزمنِ ونحن أمام كمٍّ هائل من نتاج الفكر، لا يَزالُ يتكاثر ويتكاثف، وأوضاع الأمَّة العامَّة لا ترى النقلة النوعيَّة المنشودة، ممَّا يدفعنا إلى إعادة النظر في كثير من توجُّهاتنا واهتماماتنا، وإنَّ هناك جانباً مغفلاً، تقوم عليه حقيقةُ نهضتنا، وبه نجدُ الكنزَ المفقود في حياتنا..

إنَّه باختصَار: تحويل الفكر إلى برامج عمل، وتربية الأمَّة على الفكر الحقِّ الذي نحمله، ونؤمن به وندعو إليه، وقبل ذلك كلِّه تربية أنفسنا على ذلك، إذ إنَّ فاقد الشيء لا يعطيه، وماذا ينفعنا أن نقدِّم بألسنتنا ما تكذِّبه أحوالنا، ويَتناقض مع سلوكنا؟! وإذا كان قوامُ النهضة العمل البنَّاء، فماذا يجدي الفكر إن لم يتحوَّل إلى عملٍ، يغيِّر الواقع، ويعيد ترتيبه؟!

لماذا لم تؤثِّر طروحات الفكر الإسلاميِّ على كثرتها وتنوُّعها وعمقها في الأمَّة الإسلاميَّة، ولم تحدث التغيير المطلوب؟!

بل إنَّ الواقع ينذر بخلاف ذلك، وهو وجود فجوة كبيرة بين الفكر الإسلاميِّ والأجيال الحاضرة.. ولا يُنكَر تأثير الفكرِ الإسلاميِّ في حياة الأمَّة، ولكنَّه مع ذلك لم يحدث التغيير المطلوب، الذي يتناسب مع حركته القويَّة العميقة.. ممَّا يدلُّ على أنَّه شرط ضروريٌّ، ولكنَّه غيرُ كافٍ، فلا ينبغي الاكتفاء به والوقوف عنده.

فليس العلاج هو إعادة صياغة الفكر الإسلاميِّ وطرحه من جديد، وإذا فعلنا ذلك، واشتغلنا به فسنجد الأمَّة لم يطرأ على واقعها تغيير يذكر، وسنجد أنفسنا بعد ذلك في مثل هذه الإشكاليَّة التي نشكو منها..

وإنَّما العلاج بالتربية على الفكر المنتج المجدي، الذي يملك ناصية التأثير والتغيير في حياة الأمَّة، إنَّ (الفكر السلوكي) ـ إن صحَّ التعبير ـ هو الذي نفتقده..

هذا الفكر وجد في حياة السلف وخير القرون ففعل الأعاجيب، وضعف في حياة الأمَّة، حتَّى افتقدته في قرونها المتأخِّرة فأخذنا ندور في حلقة مفرغة، أشبه بتيه بني إسرائيل.. الذين تاهوا عن العمل والاستجابة، وتخلَّوا عن السلوك المطلوب، فتاهوا في واقع الحياة عن رسالتهم

ومقاصدهم أربعين سنة، فلا تأس على القوم الفاسقين.. ولخَّصَ القرآن الكريم مشكلتهم بقول الله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعضِ الكِتَابِ، وَتَكفُرُونَ بِبَعض﴾ البقرة: ٨٥.

إنَّ التخمة الفكريَّة المعاصرة التي نعيشها ليس علاجها المزيد من الفكر، ولا إعادة ترتيبه وتحديث عرضه، وإنَّما علاجها البحث عن الفكر المنتج، المؤثِّر المولِّد، لبناء الحياة بمختلف جوانبها، الناهض بها من كبوتها التي نشكو منها.. الفكر العمليّ الذي تُربَّى عليه الأمَّة بمختلف شرائحها وفئاتها، فتعيشه واقعاً اجتماعياً حياً، يرتِّب لها كلَّ شأن من شؤون حياتها، ويصحِّح علاقاتها على تنوُّعها، إنَّه باختصار الفكر الذي هو واجب الوَقت، وفريضة الكفاية المعطَّلة منذ أمدٍ طويل..

وأظنّ أنَّنا لو غربلنا الفكر المعروض في الساحة منذ قرن لرأينا أكثره من نافلة القول أو ترفه وفضوله، وقد أربك حياة الأمَّة، وشغل عقلها ووقتها حيناً من الدهر عن واجبات أكبر، ومسؤوليَّات كانت أولى بها وأجدر.

نَصَائح ذَهَبِيَّة فِي الحَيَاةِ الزَّوجِيَّة

(الزَّوَاجُ قَائِمٌ عَلَى الأخلاقِ الحَسَنَة)

في الزواج: البداية دين وأخلاق: ﴿وَقَدِّمُوا لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ﴾البقرة:٢٢٣، (إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرضَوْنَ دِينَهُ وخُلُقَه فَزَوِّجُوه). رواه الترمذي وابن ماجه.

والنهاية دين وأخلاق: ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى، ولا تنسَوُا الفَضلَ بينكُم﴾البقرة:٢٣٧.

وما بينهما دين أخلاق: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ الله عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الكِتَابِ وَالحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللهَ﴾البقرة:٢٣١، فلا تجعلوا الفراق سبيلاً للتدابر والشقاق..

* * * * *

(طَاعَةُ الزَّوْجَةِ لَيسَت استعبَاداً مِنَ الزَّوْج)

بعض الناس وللأسف يفهمون طاعة الزوجة لزوجها استعباداً من الزوج يبرِّر له كلَّ ظلم أو تعسُّف..

ولا يُعقَل أن يكون الإسلام الذي جاء ليحرِّرَ العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده أن يخرج المرأة من عبوديَّة مخلوق إلى عبوديَّة مخلوق آخر، أو يسمح للرجل أن يستعبد زوجته باسم «حق القوامة».. ويجعل له مدى لا يقف عند حدٍّ..

أيُّها الرجل إذا كنت عبداً لله حقاً فلن ترضى لنفسك أن تنتقص حقَّ أحد من عباده، بله أن تستعبده وتهدر حقوقه، أو تنتقص كرامته.. أخلصوا دينكم لله أيُّها الناس، ولا تسيئوا إلى الإسلام بدعوى التمسُّك بأحكامه..

* * * * *

(الزَّوَاجُ بَيْنَ النَّظْرَةِ الإسلامِيَّةِ والنَّظْرَةِ المَادِّيَّـة)

الزواج في الإسلام قصَّة لبنة سويَّة، تنطلق من هدي الدين، وتلبِّي نداء الفطرة، فتتحوَّل إلى بيت أنيق، ثمَّ إلى قصر منيف، ثمَّ إلى مدينة فاضلة، تعمُّ علاقات المجتمع، فيها من محاسن الحياة ومباهجها ما يجعل من يراها يهفو قلبه إلى أن يحظى بمثلها..

والزواج عند الماديِّين علاقة نفعيَّة عابرة، لا تقوم إلا بعد التمرُّغ في أوحال الفساد والفجور، وهي نوع من اللعب على الحبال، باسترضاء بقيَّة من الضمير الفرديِّ، والنفاق للعرف الاجتماعيِّ، مع اللهاث بلا هوادة وراء اللذَّة الأثيمة، بمغامرات مع خليلة تلو خليلة.. وخليل تلو خليل.. كلُّ ذلك تحت شعار حرِّيَّة الفرد المقدَّسة.. إنَّها علاقة لا تعرف الوفاء ولا يعرفها.

* * * * *

(الطَّلاقُ قَدْ يَكُونُ رَحمَةً)

أكثر الناس ينظرون إلى الطلاق أنَّه مصيبة كبرى تحلُّ بالأولاد.. فإذا استطاع الزوجان المنفصلان أن يستأنفا حياتهما، ويسدلا صفحة النسيان على ماضيهما، فأنَّى للأولاد، وهم يستقبلون الحياة أن يسدلوا ستار النسيان على ما يصحبهم في كلِّ لحظة من حياتهم؟!

ولكنَّ الواقع يقول: إنَّ بعض الطلاق رحمة كبرى، ونعمة جليلة على أولاد بائسين، عاشوا بين والدين حياةً ظاهرها الرحمة، وباطنها المآسي والعذاب.. وصدق الله العظيم: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلّاً مِنْ سَعَتِهِ﴾ النساء: ١٣٠.

* * * * *

ومِنَ الحُبِّ ما خَرَّبَ البُيُوتَ.. ومَزَّقَ القُلُوبَ!

أكثر المتحدِّثين عندما يتحدَّثون عن المشكلات الزوجيَّة، يضعون أحد الزوجين أو كلاهما في قفص الاتِّهام، ويغفلون الحديث عن أثر تدخُّل الأهل في تصعيد المشكلات، وإفساد هذا الرباط المقدَّس وتدميره..

والحجَّة الظاهرة الحاضرة، التي تساق في هذه المناسبة، هي حبُّ الولد، والحرص على مصلحته، والدفاع عن حقوقه والمطالبة بها..

وأقول بكلِّ صراحة: ومن الحبِّ ـ المزعوم ـ ما خرَّب البيوت، ومزَّق القلوب، وأفسد المصالح، وكان وبالاً على أدعيائه؟! فهل يرعوي المدَّعون لمثل هذا الحبِّ الأرعن، ويكفُّون أيديهم؟!

ولو دقَّقنا النظر في تحديد الأسباب وترتيبها لرأينا أنَّ هذا السببَ وهو تدخُّل الأهل مقدَّمٌ على ما سواه، وأخطر في شدَّته وأثره من كلِّ سبب، وذلك لاعتبارات عديدة، أهمُّها:

١ ـ أنَّ هذا السبب يعمِّق هوَّة الخلاف بين الزوجين؛ فرُبَّما كان خلافهما على أمور جزئيَّة خاصَّة، فأصبح في دائرة تشمل أسرتي الطرفين، وما لا يهمُّ الزوجين، ويحمل على العناد والمكابرة، والإصرار على المواقف المتعنِّتة.

٢ ـ أنَّ هذا السبب من خلال الوقائع المشهودة، وفي أغلب الأحوال يوظِّف خبرة الآباء والأمَّهات المتراكمة في تعقيد الخلافات لا حلِّها، وفي تصعيدها لا تخفيفها.

٣ ـ أنَّ الخلاف بين الزوجين يعين على تخفيفه وحَلِّه تلك الرغبة النفسيَّة الخاصَّة من كلِّ طرف تجاه صاحبه، ممَّا يدفع الأمور باتِّجاه الحلِّ والإصلاح، والتنازل والتسامح، لا التصعيد والتأزيم، بخلاف التدخُّلِ الخارجيِّ.

٤ ـ أنَّ هذا السبب فيه إلغاء لشخصيَّة الزوجين أو أحدهما، أو إضعافها، وليس ذلك في مصلحة الحياة الزوجيَّة الآمنة المستقرَّة.

ولهذه الأسباب وغيرها فإنَّ على الوالدين أوَّلاً، أن يوطِّنوا أنفسهم على عدم التدخُّل في شيء من شأن أولادهم بعد زواجهم، إلا إذا طلب منهم ذلك، مصلحين موجِّهين، إذا كانوا مقتدرين على القيام بهذه المهمَّة..

وعلى المهتَّمين بالإصلاح الأسريِّ ثانياً أن يؤكِّدوا على الأزواج، وعلى آبائهم وأمَّهاتهم هذه المسألة، ويسلِّطوا الضوء عليها، حتَّى تكون مُسلَّمة لا تقبل الجدل والمماراة.

وتعميقاً لهذه القضيَّة وتأكيداً، فإنِّي أقدِّم قواعد مهمَّة هادية، تضع الحدود البيِّنة للآباء والأمَّهات من كلا الطرفين، كي لا تشتطَّ بهم العواطف، فتكون عواصف مدمِّرة لهذا البيت الناشئ الضعيف:

١ ـ حقُّ الزوج مقدَّم على حقِّ الوالدين، فقف عند حدود الله، ولا تتجاوزها..

٢ ـ التدخُّل وفرض الرأي نوع من العجب بالنفس والاستبداد بالرأي، وما كان المستبدُّ برأيه يوماً محبوباً.. وليس للعاقل مع تقدُّمه في العمر أن يزيد إلى مشكلات حياته الخاصَّة مشكلات غيره وهمومهم..

٣ ـ إيَّاك والانسياق وراء الأهواء، أو العواطف الرعناء، أو الاستسلام للأعراف والعادات، التي تتعارض مع هدي الإسلام وقيمه.

٤ ـ أكِّد على ابنك أو ابنتك أن لا يطلعا أحداً على مشكلاتهما، وأن يتعوَّدا حلَّها بأنفسهما.

٥ ـ دع ولدك يبني بيت سعادته بطريقته الخاصَّة، وما يرتضيه لنفسه، ما دام لا يخالف دين الله.. وليس لك إلا النصح، وتقديم الرأي الذي تراه أصوب..

٦ ـ لا تتدخَّل إلا برضا الطرفين، أو عندما ترى وقوع الظلم البيِّن، أو الفساد الذي لا يختلف عليه اثنان.

٧ ـ إذا رأيت اعوجاجاً من الطرف الآخر، فابدأ بالنصح سراً، أو من طرف ثالث، فأكثر الأمور يمكن تداركها بالنصيحة المخلصة، بآدابها وشروطها.

٨ ـ علِّم ابنك أو ابنتك الأسلوب الأمثل (الآليَّة الصحيحة) لحلِّ الخلافات بينهما، ودعهما يبنيان حياتهما بطريقتهما الخاصَّة.

٩ ـ إذا كنت حَكَماً فكن عدلاً مقسطاً، ولا تسمح لصغائر الأمور أن تتورَّم، وتأخذ أكثر من حجمها.

* * * * *

(لا يَزَالُ بَعضُهُمْ مُتَخَلِّفاً فِي نَظرَتِهِ للمَرأة)

لا يزال كثير منَّا يحتاج إلى مراجعة نفسه في موقفه من المرأة، وتعامله معها.. ينظر إليها نظرة دونيَّة، لا تخفى في كلِّ موقف من مواقفه: فلا احترام لها، ولا تقدير لرأيها، ولا يحقُّ لها أن تتكلَّم في حضرة أبيها أو أخيها، أو عمِّها أو خالها، وإنَّما عليها أن تتلقَّى الأوامر للتنفيذ، وتسمع الرأي لتطيع، ولا تتكلَّم، ولا تناقش، ولا يؤخذ لها رأي، حتَّى فيما يتعلَّق بشؤونها الخاصَّة ومشاعرها ورغباتها..

ورُبَّما ألقى أحدهم محاضرات في الناس عن تكريم الإسلام للمرأة، ومعاملة النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم للمرأة، وأخلاقه صلَّى الله عليه وسلَّم مع أهله..

إنَّه موروث التخلُّف، الذي لا يستطيع كثير من الناس الفكاك منه..

ولَكِ الله أيَّتُها المرأة المسلمة! وأنت بين مطارق التغريب والإفساد، ودعاوى الدفاع عن حقوقك.. وبين ظلمات الجهل والتخلُّف، الذي يلبس لبوس الدين.. والدين منه براء..

* * * * *

وَاقِعُ الغَربِ فِي نَظْرَتِهِ لِلمَرأةِ وتَعَامُلِهِ مَعَهَا

إنَّ منطق البداهة يقول: (عليك أن تبني بيتك قبل أن تبني بيت الآخرين)، ولكنَّ واقع الغرب يتناقض مع هذه البديهة، إذ يتباكى اليوم على حقوق المرأة في بلاد المسلمين، ويحرِّض مرضى القلوب المتغرِّبين هنا وهناك ليثيروا الشبهات والاتّهامات، ويعلنوا التظلُّم ممَّا تتعرَّض له المرأة من ظلم واضطهاد، ويحاربوا شريعة ربِّهم بكلِّ جراءة ووقاحة..

والنظرة الموضوعيَّة البعيدة عن التحيُّز والعصبيَّة تثبت أنَّ المرأة المسلمة تنعم في مجتمعها، وفي ظلِّ أحكام الإسلام وقيمه وآدابه، مع ما تعاني مجتمعات المسلمين من تقصير وتخلُّف عن الإسلام، بما تتحسَّر المرأة الغربيَّة، باعترافها وتصريحها، على شبهه أو عشر معشاره.. فكيف لو كنَّا أوفياء بحقِّ ديننا، ومنهج ربِّنا؟!

إنَّ الحضارة الغربيَّة لم تقضِ على الأسرة من الناحية النظريَّة فقط، بل إنَّها فعلت ذلك في الواقع أيضاً: فقد كان الرجل أوَّل من هجر الأسرة، ثمَّ تبِعتْه المرأة، وأخيراً تبِعهم الأطفال.. وكانوا هم الضحيَّة الكبرى لكلِّ المآسي، التي يتقلَّب فيها الجميعُ..

* * * * *

البيتُ المُسلِمُ الذِي نَطمَحُ إلى تَكوِينِهِ: مُعَادلَةٌ لَـمْ يَفقهها كَثِيرٌ مِنَ المُتَدَيِّنين..

ظاهرة أصبح الناس يتحدَّثون بها جهراً، بعدما كانوا يتهامسون بها سراً: أنَّ كثيراً من أولياء أمور البنات أصبحوا يفضِّلون لبناتهم شاباً على درجة من التدين العاديِّ، أي يصلِّي ويصوم، ولكنَّه صاحب خلق وحسن معاملة، على الشابِّ المتديِّن الملتزم..

وذلك لما رأوا من كثير من المتديِّنين.. الذين يُسَمَّون: «الملتزمين» من فظاظة في المعاملة، وتسلُّط وسوء خلق، وظلم للمرأة باسم الدين، وحقِّ الرجل على زوجته في الطاعة المطلقة.. ونتج عن ذلك كلِّه صورة مسيئة للإسلام أبلغ الإساءة.. وكان هؤلاء فتنة على الناس في دينهم وأي فتنة..

وغاب عن تفكير هؤلاء وأخلاقهم تلك الجملة القرآنيَّة المعجزة: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ النساء: ١٩، تلك الجملة التي جمعت فضائل الأخلاق من أطرافها، وألقت بمسؤوليَّة حسن الخلق على الزوج أوَّلاً.. كما غاب عنهم الهدي النبويُّ الأكمل في معاملة النساء، الذي هو البيان الأمثل للقرآن الكريم في كلِّ أمر ونهي..

عشرات القصص والأخبار، التي عاينتها بنفسي، أو عُرضت عليَّ من تلك الصور المخزية لمعاملة المرأة، وكذلك الأولاد.. من أزواج يدَّعون التديُّن، ويُظهرون أمام الناس الغيرة على الدين والدفاع عن حرماته.. وغالبها إن لم يكن كلها آل الأمر فيه إلى الطلاق.. وإلى مآس ومخازٍ بعد الطلاق..

والأمر في نظري لا يعدو أحد تفسيرين لا ثالث لهما:

ـ الجهل بدين الله تعالى.. مع ادِّعاء العلم والفهم، وهو داء دويٌّ لا منجى للإنسان منه إلا أن يشاء الله.. لأنَّه جهل مع ادِّعاء، فهو جهل مركَّب، يأبى صاحبه الاستجابة لأيِّ نصح وتذكير..

ويزيد هذا الجهل ضغثاً على إبَّالة موروثات تختلف من بيئة إلى أخرى، ما أنزل الله بها من سلطان، ويتمسَّك بها الناس ويعظِّمونها، وتنسب إلى دين الله زوراً وبهتاناً..

والأمر الثاني: سوء الخلق، والسير وراء هوى النفس ورعوناتها، مع غلبة تأثير البيئة والعادات والتقاليد، حتَّى ولو نشأ الإنسان في بيئة يغلب عليها التديُّن الظاهر..

ولكنَّه تديُّن انتقائيٌّ، يحكمه هوى النفس ومزاجها، إذ هو مليء بالشوائب، التي تفقده حقيقته الربَّانيَّة المتألِّقة..

والعلاج في نظري في كلمتين وراءهما عمل طويل من محاسبة النفس، والصدق في التغيير والمجاهدة.. هاتان الكلمتان هما: الصدق مع الله في التديُّن، والاجتهاد في التأسِّي بالرسول الكريم صلَّى الله عليه وسلَّم..

وقد ترجم ذلك الداعية المربِّي، الشيخ الربَّانيُّ أحمد عز الدين البيانونيّ رحمه الله تعالى إلى برنامج عمل وسلوك، للرجل المتديِّن الذي يطمح إلى بناء أسرة إسلاميَّة صالحة، فكان ينصح إخوانه المتزوِّجين بهذه القاعدة الإيمانيَّة الأخلاقيَّة السامية:

«أن يكون أحدهم سمحاً ليِّناً مع زوجته في أمور الدنيا، فلا يحاسب، ولا يطالب، ولا يعاتب.. وأن يكون مطالباً ومحاسباً ومعاتباً في أمر الدين، وكلُّ ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة»..

ولكنَّه في الوقت نفسه كان يدعو النساء إلى أن يقمن بحقِّ أزواجهنَّ على أكمل وجه، طاعة لله تعالى وتقرُّباً..

فعندما ترى الزوجة هذا السلوك من زوجها، فلا بدَّ لها أن تستجيب له أحسن الاستجابة بإذن الله في أمر الدين، وستقوم بواجباتها الدنيويَّة حُباً ورغبة، ببركة صدقه وإخلاصه لله عزَّ وجلَّ. وقل مثل ذلك في الزوج، ولا يشذُّ عن ذلك إلا أقلُّ من القليل..

أخيراً: تذكَّر أنَّ التعنُّت في المطالبة بالحقوق والإلحاح عليها يجعل الطرف الآخر يتعنَّت في التنكُّر لها.. ولن يؤول ذلك إلى خير..

* * * * *

أوراقٌ خَرِيفيَّة مِنْ رَبِيعِ العُمر..

مِنْ أيِّ الصَّحَارَى أنت؟!

بربِّك خبِّرني.. من أيِّ الصحارى أنت؟! ومن أيِّ القطبين جئت؟!

أتودَّد إليك في الليل والنهار.. أرقب رغباتك في الصبح والمساء.. وقبل نومي وبعده.. وفي صلاتي.. وعند تلاوة أورادي.. وأدعو لك من قلبي، وأقدِّمك في الدعاء لنفسي..

جنَّدتُ مشاعري كلَّها لأجلك.. ووقفتُها على رغباتك ومطالبك.. التي اكتشفت أخيراً أنَّها لا آخر لها.. لأنَّها ليس لها أوّل.. ولا تقف عند حدّ، لأنَّها لا تعرف ما تريد.. ولا تسير في اتّجاه، لأنَّها فقيرة محرومة.. وإنَّ مشاعري كلَّها لا قيمة لها عندك ولا وزن.. مبدع حقّاً! فكيف استطعت أن تكون كذلك؟

لسان حالي ومقالي إليك في كلِّ موقف يتودَّد.. ونظراتي المتسوِّلة في كلِّ مناسبة تتبدَّد.. وكلماتي المتوسِّلة تذهب أدراج الرياح العاصفة.. وكأنَّك لا تعيش مع إنسان يمنحك شيئاً من الودِّ الصادق، والمشاعر الفيَّاضة!

ظمأى إليك بكلِّ كياني.. إلى بسمة عاطرة.. إلى كلمة حلوة.. ولو عابرة، كسراب الهاجرة.. أو كالهباء المنثور.. إلى كلمة شكر وثناء.. بعد البذل والعطاء..

فلا أسمع منك إلا عواصف من النقد.. وقواصف من الرعد.. من رمال صحرائك القاحلة.. تلفح وجهي، وتحطِّم كياني.. من رماد بركانك الهادئ الثائر.. تخدش بوابل زخَّاتها العنيفة السخيَّة زجاج مشاعري.. وتجرح كرامتي.. حتَّى أصبح وجهي كئيباً متآكلاً، كوجه بدويَّة ثمانينيَّة، من بقايا صحراء الجاهليَّة..

كلُّ ما يأتيني من لفح صحرائك القاسية العاتية يردُّني إلى نفسي.. أنَّني مهينة حقيرة، تافهة ذليلة.. مهما قدّمت أو بذلت.. وأنَّ كلَّ من يتَّصل بي فهُم على شاكلتي، لا مرحباً بهم ولا كرامة!

وهل أنا في نظرك ومواقفك.. إلا هباءة منثورة، أو آلة قديمة في ركن صحراء قلبك، المحروم من سموِّ النفس، ودفء المشاعر؟!

أتراني أخطأت الوصف والطريق إليك يوم جئتك على طبق من الحُبِّ، وقُدِّمتُ إليك هديَّة من الذهب؟! أفكنتَ تريد خادمة أمينة، ليس لها من حقٍّ عليك إلا أن تأكل وتشرب، وتعمل وتنام، وليس لها أن تتكلَّم أو تكرم، وقصارى حقِّها أنَّها لا تضرب.. فكنت قدرك بحظِّي المدبر.. وحتَّى الخادمة المسكينة فإنَّ حقَّها كما تعلم أكبر من ذلك!

وقال لي الناصحون: (اصبري وأحتسبي، وتجاهلي وأحسني.. فالأيّام كفيلة أن تعلِّم من لا يعلم، وتليِّن الصخر الأصمَّ، وتصحِّح الفهم والسلوك.. ورُبَّما جاءك الولد، فكان سبيلاً لإيقاظ الحبِّ الكامن والودِّ الأصيل).

وجاء الولد بعد طول انتظار، ففرح به جميع من حولي سواك! لم أر منك لهفة الوالد، ولا مشاعر الأبوَّة، ولا عواطف الحبِّ والشوق بعد مرارة الفقد..

وتدفَّق نهر الحنان من صدري نحو طفلنا عذباً ندياً، ثراً سخياً، وكأنَّه يمنحك في طفلك ما فقدت في طفولتك.. ويريد أن يحرِّك مشاعرك.. ولكن دون أيِّ جدوى..

ثمَّ جاء المولود الثاني، ثمَّ الثالث، ثمَّ الرابع.. هبات من الله وعطايا، لا يقوم لها شكر ولا ثناء.. أربعة أطفال كالأقمار في قبَّة السماء.. ولكنَّهم لم يحرِّكوا فيك عاطفة، ولم يعنوا لك شيئاً.. إلا مزيداً من الأعباء، والهمِّ والعناء..

لم يسمعوا منك مرَّة واحدة كلمة أُبوَّة عذبة، ولم يحظوا منك بمجالسة أو مداعبة، أو لطف في القول والتوجيه.. في الوقت الذي تنفق فيه الكلمات العذبة على أطفال الآخرين بغير حساب..

وهذه رسالتي إليك الثانية بعد ستَّة أشهر من الأولى.. وقد وعدت على الأولى خيراً.. ولم أرَ شيئاً من التغيير يذكر.. ومع ذلك فلن أملَّ منك، ولن أيأس..

حائرة أنا حقاً.. كيف أتعامل معك؟! وماذا تريد منِّي؟!

أتذكرُ ما قلتُ لك منذ أوَّل يوم عرفتُك، أم تراك نسيتَ.. ولكنَّني ما نسيتُ.. لقد قلت لك يومها: لا أريد منك سوى أمر واحد.. أن تحبَّني في الله.. لأنَّني أحببتك في الله، وآثرتك على أهل الدنيا والمال والجاه.. وأنا امرأة مؤمنة، تخاف الله في نفسها، وتتَّقيه قدر استطاعتها.. وقلتَ لي يومها: هذا أقلُّ الواجب.. فهل تراك وفيتَ بما وعدت؟! وأين حبُّك في الله لمن أحبَّك بصدق.. وأخلص في حبِّك؟!

وختاماً: رفقاً بي، إن كنت تعرف للرفق معنى.. ورحمة بي، إن كنت تنشد لنفسك الرحمة.. فلئن كنتَ من صحراء الأرض.. فأنا بفضل الله من ريحان الجنان.. لأنَّني أحيا بمشاعر إنسان، وأحمل لك في قلبي الحُبِّ والحنان..

ولئن أصررت أن تكون صحرائي القاحلة، فلن أكون إلا جنَّتك الوارفة، وواحتك الآلفة.. فليكن منك ما تريد، فلن يكون منِّي غير ما أريد..

* * * * *

كَيْ لا تَخْبُو جَذْوَةُ الحُبِّ..

عشرة أسباب طوع اليد والإرادة

ظاهرة عمَّت وتفشَّت، وكثرت الشكوى منها وتفاقمت.. تبدأ حياة كثير من الأزواج بحبٍّ متألِّق، وعلاقة رائعة، وتنتهي نهاية مأساويَّة فاجعة..

يترامى فيها كلا الطرفين التهم، ويتراشقون أسهم النقائص، ويلتمسون لأنفسهم المعاذير..

أهي سنَّة صارمة في الخلق والتكوين للذكر والأنثى، هي من نوع الأمر القدريِّ لا بدَّ منها؟! أم هي سنَّة في الاجتماع الإنسانيِّ، لا محيد عنها؟! أم هناك خلل كان يشوب العلاقة من أوَّل يوم، ينبغي الوقوف على أسبابه، ورصد نواحيه وجوانبه؟!

والذي يرجح في نظري القاصر أنَّه خلل في العلاقة، له أسبابه ومقدِّماته.. أهملها كلا الطرفين، فآل بهما الأمر إلى ما آل..

فما أشبهَ الحُبَّ بنبتة الزينة الغضَّة، التي تحتاج إلى عناية خاصَّة، وإلا فإنَّها سرعان ما تذبل وتموت.. أو هو كالطفل الوليد، شديد التأثُّر بالحرِّ والبرد، والتقلُّبات المحيطة..

الحبُّ في حقيقته روح علويَّة شفَّافة، شديدة الحساسية والتأثُّر بالأوضاع المادِّيَّة، لا تقبل الخضوع لها، والتقيُّد بحدودها، ولكنَّها إذا غلبت عليها كان ذلك نذير دمارها، والقضاء عليها..

وقبل أن أستعرض الأسباب، التي تحفظ علاقة الحبِّ، وترعى وداده، أشير إلى مقدَّمتين مهمَّتين:

الأولى: لا بدَّ من تقبُّلِ كلِّ طرف للطرف الآخر على ما هو عليه، وأن يوطِّن نفسه على ذلك، ما دام الأمر يدخل ساحة المباح، وليس بمحظور شرعاً..

والثانية: لا بدَّ لكلِّ طرف من الزوجين أن يفكِّر في إيجابيَّات الطرف الآخر، ويستحضرها في نفسه في أغلب أحواله، ويفكِّر كذلك في سلبيَّات الطرف الآخر بطريقة موضوعيَّة، فلعلَّه يجد له العذر فيها، أو في شيء منها.. وأن يعلم أن لا أحد يخلو منها.. وهذا ما ينمِّي الإيجابيَّات، ويخفِّف من تأثير السلبيَّات..

وأهمُّ الأسبابِ التي تحفظ علاقة الحبِّ، وترعى وداده:

١ـ حسن الاختيار لكلا الطرفين، المنزَّه عن الفرض والإكراه، والذي يتحقَّق فيه التوافقُ النفسيُّ والاجتماعيُّ.

والتوافق النفسيُّ هو حجر الزاوية في بناء شخصيَّة الإنسان، وفي العلاقة الزوجيَّة السويَّة، وهو نقطة الغيث والسيل.. ويحتاج إلى جهد كبير من الثقافة التربويَّة، ومن التربية العمليَّة، وبناء الذات، بحيث يحقِّقان القدر المقبول منه، ويتركان بقيَّة الأمور للتلاين والتغافر والتسامح..

٢ـ إحكام العلاقة أوَّلاً، بتحديد القيم والمبادئ، التي ينطلق منها كلُّ طرف، ومناقشتها بتفصيل ورويَّة، في جلسات ودٍّ هادئة، وبذلك تبنى الثقة، ويرتفع سقف الحبِّ، ويطول بنيانه، وترسخ قواعده وأركانه..

٣ـ عزل الحبِّ عن الأسباب المادِّيَّة والظروف الطارئة، فأيُّ حبٍّ هذا الذي يكون رهن الأسباب المادِّيَّة وتقلُّباتها؟! يقوى بقوَّتها، ويضعف بضعفها، تحكمه ولا يحكمها، وتؤثِّر فيه ولا يؤثِّر فيها؟! وقد رأيت بهذا الميزان حبَّ أكثر الأزواج نفعياً موقوتاً، قاصراً عليلاً، مقبلاً مدبراً..

إنَّهم بكلِّ أسف لا يعرفون كيف يكون الحبِّ! فلا عجب أن تعصف به رياح الأيَّام، وتذهب به الأعاصير والأوهام..

٤ـ حفظ خصوصيَّة كلِّ طرف ورعايتها، فلكلِّ إنسان منَّا خصوصيَّة خاصَّة، هي جزء من شخصيَّته وكيانه، يعتزُّ بها، ويدافع عنها، وسمِّها إن شئت مزاجاً.. ويستطيع الإنسان أن يكتشفها في غيره بالمعايشة والمخالطة، أكثر من أن يكتشفها عن نفسه..

وإنَّ مِنْ بُعْدِ النظر، واللباقة الاجتماعيَّة، وحسن التعايش مع الآخرين أن يحترم الإنسان خصوصيَّاتهم ورغباتهم، ويقدِّر أمزجتهم الخاصَّة، ما دامت في بحبوحة المباح، وساحة الذوق العامِّ والعُرْفِ المقبول..

٥ـ الاحترام المتبادل في السرِّ والعلن، وهذه النقطة كالأثر والنتيجة عن النقطة السابقة، فمن وعى النقطة السابقة ورعاها كان من ثمرتها أن يحترم الآخرين، وبخاصَّة في مثل العلاقة الزوجيَّة، وما يراد لها من دوام واستمرار، وما فيها من الحقوق، وما يترتَّب عليها من الآثار..

ومشكلة كثير من الأزواج أنَّهم يحترمون بعضهم ظاهرياً، وفي السرِّ ما يخطر على البال وما لا يخطر، من الذمِّ والتجريح في المجالس، والانتقاص والإساءة..

ولن يطول الأمر بمثل هذه العلاقة، حتَّى يطفو الذمُّ والانتقاص من السرِّ إلى العلن، ومن الباطن إلى الظاهر.. ومن أسرَّ سريرة كساه الله علانيتها، وبعد ذلك تكون الاستهانة متبادلة.. ويصبح الحبُّ المدَّعى في مهبِّ الريح..

٦ـ المصارحة وتجديد العلاقة وتوثيقها، ورعاية نبتة الحبِّ وتنميتها.. فمع امتداد العلاقة وطول الزمن، وتوزُّع النفس بين المشاغل والاهتمامات يحتاج كلا الزوجين إلى جلسات للمصارحة، وتجديد العلاقة وتوثيقها.. ومشكلة كثير من الأزواج أنَّهم يرون أنَّ مثل هذه

الجلسات هي من الترف غير المهمِّ، وأنَّ ما هو فيه من مشاغل الحياة يعذره عنها، ويبرِّر له إهمالها، ولا يدرك أنَّها ضرورة لا غنى عنها، لسلامة الحياة الزوجيَّة وازدهارها..

٧ـ بناء الثقة العالية، وتفهُّم المواقف والأسباب، فبناء الثقة بين الزوجين مهمَّة كبيرة، وراءها عمل وسلوك عمليٌّ ونفسيٌّ، ورعاية دائبة.. وإنَّ إحكام النقاط الأولى والاهتمام بها إنَّما هو مقدِّمة لبناء الثقة العالية بين الزوجين، وغرس التقدير والاحترام..

ويترتَّب على ذلك تفهُّم المواقف والأسباب؛ المواقف التي لا يرتاح إليها الطرف الآخر، وينفر منها، والأسباب المبرِّرة لسلوكه.. ومع تقلُّبات الزمن، وامتداد العمر يحتاج كلا الطرفين إلى تعزيز الثقة وتوثيقها، وهو ما لا يقيم له أيَّ اعتبارٍ أكثرُ الأزواج.. لأنَّه لا يحرص على تفهُّم المواقف والأسباب..

٨ـ المبادرة في إصلاح العلاقة، والتنافس في الإحسان والبرِّ، وهما ثمرة المودَّة والرحمة.. فعندما تسوء العلاقة، ويشتدُّ التنازع بين الزوجين، ينتظر كلاهما المبادرة في الإصلاح والاعتذار من صاحبه، ويتلهَّف لذلك، كما يتلهَّف الطرف الآخر..

وعندما لا يبادر أيٌّ منهما نحو صاحبه تتعكَّر النفوس، وتستشري الشحناء، ويجد الشيطان مرتعاً خصباً، وملعباً رحباً، فلا يزال يؤجِّج نيران الغضب، ويذكي دخان البغضاء في النفوس، حتَّى يبلغ منها ما يريد.. وهو لا يريد إلا أن يصل الأمر إلى أبغض الحلال إلى الله، أو ما يقارب ذلك ويشبهه..

والحلُّ قريب ميسور بإذن الله، وهو أن يحمل كلا الزوجين مسؤوليَّة المبادرة في إصلاح العلاقة على عاتقه، ولا ينتظر المبادرة بها من الطرف الآخر..

وماذا يضير الرجل العاقل؟ وما ينقص من قدره إذا هو بادر فاعتذر؟! وماذا يضير المرأة المؤمنة؟ وما ينقص من قدرها إذا هي بادرت فاعتذرت؟! وماذا عليهما لو تسابقا إلى الاعتذار؟! ولم يصطنعا أمامه جدراناً من الأوهام وحظوظ النفوس، حتَّى ولو كان الخطأ من الطرف الآخر، بل إنَّ ذلك ليرفع قدر المعتذر عند الله، ويعزه ويعليه، وقد جاء في الحديث الصحيح عن النبيِّ

صلَّى الله عليه وسلَّم قَالَ: (مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْداً بِعَفْوٍ إلا عِزاً، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لله إلا رَفَعَهُ اللهُ). رواه مسلم.

وعلى الزوج أن يتذكر دائماً قول الله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ النساء: ١٩، وقول النَّبِيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: (خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ، وأنا خَيْرُكُم لأَهْلي). رواه الترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه.

وإنَّ إصلاح العلاقة بين الزوجين يسبق التنافس في الإحسان والبرِّ، وهما ثمرة المودَّة والرحمة، وركن السعادة الزوجيَّة الركين..

٩ـ لا بدَّ من وقفة مراجعة وتذكير.. المراجعة للمواقف، والتذكير بالميثاق الأوَّل.. يوم أن تعارفتما، وتآلفتما، وتعاهدتما، وتواثقتما، وكان الودُّ والصفاءُ عنوانَ حياتكما.. فهل يستحيل عليكما أن تستعيدا تلك البداية الطيِّبة؟! أظنُّ أنَّكما تتوقان إلى ذلك.. وليس بينكما وبينه إلا خطوة واحدة جريئة.. فكيف تستنكفان عنها؟!

١٠ـ الدعاء في ظهر الغيب، والوصيَّة به وطلبه، والدعاء له أثر عجيب في تطهير النفوس، والتأليف بين القلوب، وبثِّ الطمأنينة فيها، فمَنْ سأل الله تعالى بصدق أعطاه، والله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء..

وكم قلَّبت عناية الله تعالى من قلوب، وغيَّرت من نفوس، وشرحت من صدور، وحلَّت من عقد، وذلَّلت من عقبات!

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يس: ٨٢ـ ٨٣.

وأخيراً: تذكَّرا أنَّ القلوب المجتمعة على الله تعالى بحقٍّ، لا تشغلها العلائق، ولا تقطعها العوائق، حتَّى يكون مآلها إلى الجنَّة بإذن الله..

* * * * *

القَولُ الأمتَع في حَدِيث: (تُنْكَحُ المَرْأَةُ لأَرْبَع)

قال المصطفى صلى الله عليه وسلم: (تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لأَرْبَعٍ لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَلِجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ). متفق عليه.

إلى مَنْ يَتَوَجَّهُ هذا الحديث؟ لعلَّ بعض الناس يظنُّ أنَّ هذا الحديث موجَّهٌ إلى طالبي الزواج من الشباب فحسب، ولكنَّه في حقيقته ومراميه موجَّهٌ إلى فئات المجتمع كافَّة، بما يناسب موقع كلِّ فئة ومسؤوليَّتها:

ـ فهو موجَّه إلى الشباب ليُحسنوا النظر، ويُحكموا الموازين في أنفسهم، وفي اختيار شريكة حياتهم، فلا يؤخِّروا ما حقُّه التقديم، ولا يغفلوا ما حقُّه الاهتمام والتعظيم، ولا يغترُّوا بمظاهر خادعة، ليس وراءها ما يسعد وينجد..

ـ وهو موجَّه إلى كلِّ فتاة، هي محطُّ أنظار الخاطبين والخاطبات، لتعرف ما يطلبه الجنس الآخر فيها، وما تملكه من مواهب، وما ينبغي عليها أن تملك، وتتحقَّق به من مزايا وصفات..

ـ وهو موجَّه إلى أولياء أمور المسلمين، ليضعُوا بناء الأسرةِ موضعها في سلَّم الأولويَّات من خطط التنمية البشريَّة، لخدمة الإنسان ذكراً كان أو أنثى، وليقفوا من الأعراف الطاغية، والعادات الجائرة موقف التقويم الجادِّ، فلا يتركوها تعيث فساداً في حياة الناس وعلاقاتهم، إذ إنَّ بناء الأسرةِ على الأسس الصحيحة أصل التنمية البشريَّة القويمة.

ـ وهو موجَّه إلى أولياء أمور النساء بوجه خاص، كي لا تذهبَ بهم رياح الأعراف والتقاليد عن الموازين القسط، ولا تشتطَّ بهم الأعراض عن الجواهر، ويخدعوا عن الحقائق بالمظاهر.

والمجتمع أيّ مجتمع لا يخرج في جملته عن هذه الفئات.

ولاشكّ أنَّ معرفة المقصود بخطاب التكليف لها أهمِّيَّة كبيرة في تحديد المسؤوليَّة وطبيعتها وآثارها، فليس هذا الحديث إذن موجَّهاً إلى فئة الشباب من كلا الجنسين فحسب..

٣ ـ يجمع هذا الحديث بين عالم القيم وعالم الأشياء، ويتحدَّث عنهما، ويوازن بينهما: وإذ كان الإنسان مخلوقاً من روح وجسد، فكذلك هذه الحياة يتوزعها عالمان: عالم القيم، وعالم

الأشياء؛ فعالم القيم يعود إلى عالم الروح وطبيعتها وأشواقها، وعالم الأشياء يعود إلى عالم الجسد وطبيعته ومتطلَّباته.

وطبيعة عالم الأشياء تفرض عليه أن يكون من الوسائل، ممَّا يجعله وسيلة لعالم القيم، يُتَّخَذُ لبلوغها، ويُبْذَل لأجلها، وهو عالم متطوِّر متجدِّد، متغيِّر النوع والملامح بين جيل وجيل، ومجتمع وآخر.

وأمَّا عالم القيم فهو عالم المبادئ والمقاصد، فهو على وجه العموم عالم الاستقرار والثبات والرسوخ.

وما أكثر الناس الذين يقفون أمام عالم الثبات والرسوخ عاجزين عن الالتزام به، والثبات عليه، ويفتنون بعالم الأشياء، فلا يفكِّرون إلا به، ولا يزالون يلهثون وراء مظاهره ومتغيِّراته، ويكونون من عبيده وأسراه.. فهو مطمح أبصارهم، وغاية أمنياتهم!

وما أحوجنا إلى فقه الوسائل وفقه المقاصد، ودقَّة التمييز بينهما، لتستبين معانيَها، وتُوضّح حدودَها ومعالمها. وكي لا تلتبس عَلينا بعض الأنواع ببعضها الآخر، وليُوضَع كل قصد وعمل في موقعه الصحيح، وسيلةً كان أم مقصداً..

وإنَّ من أهمِّ ما يستفاد من التمييز بين هذين العالمين:

ـ أنَّ صورة الجمال الظاهرَة لا يدَ للإنسان في صُنعها، ولا قدرةَ له على تَغييرها وتبديلها، ورُبَّما كان له قدرَة محدودة على تحسينها وتجميلها..

فهل من العقل وَحُسنِ التدبير لمصلحتك ـ أيَّتُها الفتاة ـ أن لا تقفي إلا عندَها، ولا تفكِّري إلا بِها؟! وتسوء نظرتك إلى نفسك وإلى الحياة كلِّها، أنْ كان حظُّكِ من الجمال الظاهر ضعيفاً محدوداً؟!

وهل من العقل والحكمة ـ أيُّها الرجل ـ وَحُسنِ التدبير لأمرك أن لا يهمَّك في المرأة إلا هذا الأمر، الذي لا يكشف لك عن معدن الجنس الآخر وقيمته، بل يقدِّم لك بهرجاً وزيفاً، وتغفل من رغباتك ما هو أهمُّ وأعلى، وأولى بالاعتبار وأجدى؟!

ـ وإنَّ جمالَ القيم وسُمُوَّها لا حدَّ لهُ ولا غاية، ولا أمد له ولا نهاية، أفما يحسن بكلا الجنسين إذن أن يوجِّه كُلَّ عنايته إلى الاهتمام بجوانبه التي لا يحيط بها من الخَلْقِ أحد، ولا ينقطع عن بحبوحَة ساحَاتها المدد، وهيَ تزداد مع الأيَّام وتنمو، بينمَا تتناقص الأخرى وتضعف، وتسير في طريقها نحو التلاشي والزوال.. كما تذبلُ الوردة المتفتِّحة التي تَخلب الأنظار، بعد أيّامٍ معدودة.. وتفقد أريجها المتضوِّع، ثمَّ تكون هشيماً يابساً، ليس له من الوردة إلا اسمها ورسمها..

ـ إنَّ عالم الأشياء إن لم يهيمن عليه عالم القيم ويقده كان أشبهَ بالمالِ في يد السفيه، أو السلاح في يد المجنون.

ما هو موقف الإسلام من هذا التباين والصراع، والتنازع والاختلاف بين عالم القيم، وعالم الأشياء؟ وأين يريد لنا أن نكون من هذين الاتجاهين، وكيف نختار بينهما؟ وهل يسعنا أن نجمع بينهما؟!

إنَّنا نعلم أوَّلاً أنَّ الإسلام يحلُّ لنا التمتُّع بالطيِّبات، ولا يرضى لنا تحريمها على أنفسنا، وهو دين المثاليَّة الواقعيَّة، الإيجابيَّة البنَّاءة، لم يهمل عالم الأشياء، ولم يتنكر لها، ولكنَّه في الوقت نفسه لم يسمح لها أن تتمادى على عالم القيم أو تطغى، بل جعلها محكومة بعالم القيم مقودة له، وهل الحياةُ كلُّها في مفهوم الإسلام إلا القيم، تُستخدَم الأشياء وسائل لإقامتها وتحقيقها، وتسخيرها لإسعاد الإنسان بها؟

ومن هنا فإنَّ الانحياز لعالم الأشياء كما هي، تفكيراً واهتماماً وتحكيماً، يجعلها تطوِّع القيم الصالحة، وتحرفها لتخدمها، وتسخِّرها لتبرِّر اتِّجاهها، كما يتيح لها أن تفرض القيم الفاسدة المُفسدة، الهابطة المُنحطَّة، التافهة العابثة، على حياة الإنسان وسلوكه، ممَّا يحجِّم عالم القيم السامية في الإنسان، ويقتله أو يكبته، أو يجعله مظهراً لا قيمة له، وصورةً لا حقيقة لها.

وإن من واقعيَّة الإسلام وإيجابيَّته، واعتداله واتِّزانه أنَّه لم يرفض (عالم الأشياء) ولم يحاربه، وإنَّما قدره بحدود تحمي القيم وتصونها، ولا تفرط بحقائقها ومثلها، ففرض فيما نحن فيه من هذا الباب ـ على سبيل المثال ـ تقديم المهر للمرأة، الذي يُعَدُّ رمزاً لتكريمها، وحفظ حقوقها، وتقدير الزوج لعالمها الذي تنتمي إليه بفطرتها، وتحرص على إعطائه حقه من العناية والاهتمام..

ولم يجعل الإسلام للمهر حداً أعلى، ليكون بذلُ الزوج المقتدر للمرأة تعبيراً عن رغبته الصادقة بها، وإعلاءً لقيمة الزهد بعالم الأشياء في سبيل القيم التي يسعى الرجل لإقامتها وتحصينها، وإثباتاً عملياً أنَّ (عالم الأشياء) تبع لعالم القيم وخادم لها.

وإنَّ أكثرَ الرجال ـ إلا من شذَّ وَانحرف، وفسدت فطرته، وغلبته شهواته، واتَّبع هواه، وانساق وراء نزوة الشباب وطيشه ـ أكثر الرجال لا يتطلَّبون في المرأة لتكون شريكة حياتهم جمال الصورة الظاهرة فحسب.. وإنَّما يريدون جمال الصورة دالا على جمال الروح الباطنة، التي تشرق على الظاهر، فتعطيه روعة الحسن الباهر، لا صورته التي تخدَعُ بها الأصباغُ والألوان.. بل قد رأينا كثيراً من غير المتديِّنين يطلب في المرأة، التي يريدها شريكة حياته أن تكون متديِّنة عفيفة، مصونة صالحة..

وأمَّا مَنْ يرجِّح جمال الظاهر فحسب فهو مختلُّ الموازين، أحوج ما يكون إلى تَصحيح نظرته إلى الحياة الدنيا وعلاقتِهِ بها، وكثيراً ما يصطدم بالواقع، وتربِّيهِ مدرسة الحياة، وتلقِّنه درساً لن ينساه.. لأنَّها قائمة على سنن ثابتة لا تتغيَّر، ولا تحابي أحداً..

والسؤالُ المهمُّ الذي يتبَادر إلى الأذهَان: لماذا حَثَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم على مطلبِ الدينِ، وأكَّد عليه من بين سائر المطالب؟

إنَّ مطلبَ الجَمَال مطلبٌ فطريٌّ لا ينكر، ومطلبَ الحسب مطلبٌ اجتماعيٌّ، لا خلاف في أهمِّيَّته، ومطلبَ المال مطلبٌ فطريٌّ وشخصيٌّ، لا يُمَارَى في أهمِّيَّته وأثره، وأمَّا مطلبُ الدين فَهو مطلبٌ شرعيٌّ جَامع، يغني عمَّا سواه، ولا غناء عنه بما سواه..

وكان هذا المعنى كافياً في ترْجيحِ مطلبِ الدين على ما سواه.. فكيف إذا اجتمع مع ذلك حقائق أخرى جعلت الموازنة بين هذه المطالب من أصلها جائرة مختلَّة، لا تقف في وجه مطلب الدين ولا تدانيه؟! وأهمُّ هذه الحقائق:

ـ أنَّ مطلبَ الدين مقصود لذاته، وهو مطلق غير محدود، بخلاف المطالب الأخرى، فهي وسائل لا مقاصد، وهي خادمة لا سيِّدة، محدودة غير مطلقة، فمطلبُ الدين خيرٌ محض، بخلاف

المطالب الأخرى، فهي لا توصف بذلك، لأنَّها وسائل وأدوات، يمكن أن تستخدم في الخير أو الشرِّ.

ـ أنَّ مطلبَ الدين يحقِّق للإنسان سعادة الدنيا والآخرة، وهو من علامات سعادة العبد، وحسن عاقبته بإذن الله، ولا يتحقَّق ذلك في المطالب الأخرى، إلا إذا سُخِّرت لسعادة الآخرة.

ـ أنَّ مطلبَ الدين في مقدور الإنسان ذكراً كان أو أنثى أن يتحقَّق به، ويرقى في مدارجه، بخلاف المطالب الأخرى.

ـ أنَّ الوقوفَ مع مطلبِ الدين وقوف مع القيم الثابتة الراسخة، الباقيةِ النافعة، الموصولة بالله تعالى، فهي تمنح الإنسان السكينة والرضا والطمأنينة، بخلاف المطالب الأخرى التي هي من أعراض الدنيا الفانية، وليس وراءها إلا متاعب الدنيا وأكدارها، يقول الله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ الكهف: ٤٦.

ويجمع ذلك كله قول الله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ القصص: ٧٧.

ولك بعد ذلك أيُّها العاقل أن توازن بين العالمين، ثمَّ تختار، ولك الخيار فيما تختار، ولكنَّك تكشف باختيارك عن ذاتك، وتعلن للملأ عن حقيقةِ انتمائك، فحذار أن تخدع نفسك، أو تغالط الآخرين؛ إنَّ لك أن تختار بين مطلب الجمال الحسِّيِّ فحسب، الذي هو من (عالم الأشياء) أو مطلب الدين الذي هو من (عالم القيم)، وعليك أن تدرك مغزى اختيارك، وآثار انتمائك لأحد العالمين والتحاقك به.

ـ وإذا كان حبُّ الجمال مطلباً فطرياً، وعطاءاً وهبياً، فإنَّ حقيقته أن يكون جمال القيم والمعاني، لا جمال الصورة الظاهرة، أو الزينة الفاخرة..

ومن ثَمَّ فإنَّ للجمال صورة حسِّيَّة ظاهرة، وحقيقة معنويَّة باطنة، هي بمثابة روحه وحقيقته، لها القيمة الكبرى، وعليها في حقيقة الأمر المعوّل.

(بَينَ جَمَالِ الظَّاهِرِ وجَمَالِ القِيَم)

حبُّ الجمال الظاهر فطرةٌ وابتلاء: وإذا كان من فطرة الإنسان حبُّ الجمال، والإعجاب به، فإنَّ ذلك لا يعني أنَّ هذا الأمر هو الكمال المطلوب في الإنسان، بل إنَّ هذه الفطرة هي نوع من الابتلاء، بل هي من أشدِّه، فلا بدَّ من تقويمها وتهذيبها، بأحكام الشرع وآدابه، وأهمُّ ما يطلب في تقويمها أن تكون محكومةً بعالم القيم وتابعةً له، وذلك بالموازنة بين صورة الجمال وحقيقته، وبين مطلبِ الجمالِ ومطلب القيم، وترجيح ما فيه كمال الإنسان ورفعته، على ما فيه رغبته ومتعته.

وأنا لا أقلّل من قيمة الجمال الظاهر، ولا أنكر فطرة الإنسان ذكراً كان أو أنثى على حبِّه والافتتان به، وإيثاره على ما يضادُّه.. ولكنَّني أريد أن يكون مرجوحاً أمام جمال أعلى منه وأجلّ..

إنَّه جمال القيم، التي يحتاج أكثر الناس إلى أن ينتبهوا إليه، ويذكّروا به.. لأنَّه جمال معنويٌّ، لا يحسُّ به إلا من عاشه، وذاق لذَّته..

ـ **أثر البحث عن الجمال الظاهر فحسب:** وإنك عندما تطلب المرأة لا تطلبها إلا لجمالها الظاهر، فإنَّ ذلك يعني أنَّك لم ترَ فيها، ولا في أهلها سوى (عالم الأشياء)، ولم تطلب منهم سوى ذلك، وعندئذ ستراهم ينظرون إليك، ويقوِّمونك بميزان التفاخر بهذا العالم، والتنافس في حيازته، والتباهي بإيثاره وتقديمه، وعدم التقدير لعالم القيم ومثله، مهما كنت حريصاً عليها ومعتزاً بها، وسيطالبونك تبعاً لذلك بما يرهقك من عالم الأشياء، وكأنَّ لسان حالهم يقول لك: (إذا كنت حقاً ممن يعتزُّ بعالم القيم، وينتسب إليها، فلماذا جئت إلى عالمنا، ورغبت فيما عندنا؟ فابذل لنا من تكاليف عالمنا ما يرضينا)..

وسترى نفسك تبعاً لذلك، غارقاً في عالم من التنازع في طلب الأشياء، والحرص عليها، والشُّحِّ بها، والاختلاف معها، ومع أهلها فيها، فأنَّى لك بعد ذلك أن تنجو أنت وقيمك من صخب هذا الواقع وسهامه؟!

جمال الظاهر نسبيٌّ، فأيّ نوع وقدر من الجمال تريد؟!

فمن نعم الله على الإنسان أنَّ الجمال في الإنسان نسبيٌّ، تتفاوت أذواق الناس فيه، ولا تتَّفقُ على درجاته وموازينه، وقد يصل اختلافهم فيه إلى درجة التناقض والتباين بين أقصى الدرجات

وأدناها، واعتبَاره مَسألة شخصيَّة بحتة، ممَّا يرجِّح جمال الروح عليه، وتأثير فيه، كما يؤكِّد على أهمِّيَّة جمال الباطن، وانعكاسه على الظاهر..

وينبغي أن نلحظ باهتمام من قول النبيِّ صلى الله عليه وسلم: (فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ) أنَّ المقصود بِذَاتِ الدِّينِ غير ما يفهم الناس من كلمة: (متديِّنة)، فالتديُّن في مفهوم الناس لا يفهم منه إلا صورة جزئيَّة من التمسُّك ببعض الأعمال والأحكام، ورُبَّما كان الإنسان مقصِّراً بما هو أهمُّ منها وأرجح، ممَّا يعطي صورة مشوَّهة عن الدين والتديُّن، وهو وللأسف ما يئنُّ منه الواقع ويشتكي على كلِّ صعيد.. ولكنَّ ذلك لا يبرِّر الانصراف عن أصل المبدأ، وهو طلب المرأة ذات الدين.. وطلب الرجل صاحب الدين والخلق.

فالمقصود من قول: (فلان ذو دين): أنَّه يأخذ الدين بصورة شموليَّة جامعة، بها يستحقُّ المدح والثناء.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

تَأمُّلات ووقفَات مَعَ آيَةِ السَّكِينَةِ والمَودَّةِ والرَّحمَة

يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الروم: ٢١.

إنَّ العلاقة الزوجيَّة هي علاقة عاطفيَّة بالدرجة الأولى، ورُبَّما كان ارتفاعُ الذكاء الذهنيِّ المعرفيِّ عند أحد الطرفين، وانخفاض الذكاء العاطفيِّ عنده سبباً في إخفاق الزواج، وانفصام عراه، فكيف إذا كان كلا الزوجين على هذه الصورة؟

وسبب ذلك أنَّ صاحبَ الذكاءِ الذهنيِّ المعرفيِّ يكون أقدر على الجدل، والدفاع عن نفسه، وملاحظة أخطاء الطرف الآخر وهفواته، وقد يصاحب ذلك أن يشعر بالتفوُّق على الطرف الآخر، وأنَّه وحده يفهم الأمور على الوجه الصحيح، ويحسن تقدير العواقب بخلاف صاحبه، وهذا ما يؤدِّي إلى ظهور الاختلافات والمشاحنات على أتفه الأمور، وضمور الحبِّ بين الطرفين، وفتور علاقة المودَّة والرحمة..

وإنَّ هذه الآية الكريمة لتؤكِّد أنَّ قوام الحياة الزوجيَّة السعيدة هي: (العلاقة العاطفيَّة المتألِّقة)، إذ إنَّها لم تتحدَّث إلا عن حقائق عاطفيَّة روحيَّة، وقد عدَّها الله تبارك وتعالى آيةً من آيات إبداعه في خلقه، وعظمته في قدرته.

وأوَّل ما يُلاحَظ في هذه الآية أنَّ الله تعالى وجَّه الخطاب إلى الرجال بقوله: (لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا). وهذا يعني أنَّ السكينة يطلبها الرجل، وهي في المرأة مطلوبة، وإنَّ الرجل يبحث عنها حتَّى يجدها، فإذا وجد الرجل سكينته هدأ، واستقرَّت نفسه، وقابل هذا السكن النفسيَّ بالمودَّة والرحمة، وهو أمر يلائم فطرته ويناسبها، إذن هناك مطلوب واحد من المرأة، وهو أن تكون سكناً للرجل، ومطلوبان من الرجل وهو أن يدفع ثمن هذه النعمة بتقديم المودَّة والرحمة..

يقول الشيخ محمَّد رشيد رضا في تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ الأعراف: ١٨٩: (وذلك أنَّ المرء إذا بلغ سِنَّ الحياة الزوجيَّة يجدُ في نفسه اضطراباً خاصاً لا يسكن إلا إذا اقترن بزوج من جنسه واتَّحدا، ذلك الاقتران والاتِّحاد الذي لا تكمل حياتهما الجنسيَّة المنتجة إلا به)..

إنَّها معادلة تبادليَّة واضحة، يجد الرجل في المرأة الأنس والسكينة، فيمنحها المودَّة والرحمة، وتجد منه المودَّة والرحمة فتبادله مثلها، فتتوثَّق عُرَى المحبَّة، ويزداد الأنس والألفة، ويصبح الزوجان كالنفس الواحدة..

وإذا كان الزوج في اللغة يطلق على امرأة الرجل، ورجل المرأة ـ وكذلك العروس، وتلك من عبقريَّة هذه اللغة، لغة الإعجاز ـ فإنَّني لا أبعد في الفهم أيضاً إذا اعتبرت الخطاب في الآية يتوجَّه للرجال والنساء على حدٍّ سواء، وعلى هذا الفهم فالرجل يسكن للمرأة، والمرأة تسكن للرجل، وكل طرف تكون منه المودَّة والرحمة تجاه الطرف الآخر، ويبقى الفهم الأوَّل عندي أوجه وأرجح، والله تعالى أعلم.

ومن وجهة نفسيَّة فطريَّة فإنَّ السكينة تلائم فطرَةَ المرأة أكثر، والمودَّة والرحمة تلائم فطرَةَ الرجل أكثر، وهذا لا يعني أنَّ المرأة لا تكون منها المودَّة والرحمة، أو لا تطلب منها، وإنَّما أنا ألاحظ ما هو ألصق بفطرة كلِّ طرف، وهو أقدر على تقديمه.

ويترتَّب على هذه الحقيقة: أنَّ السكينة أمر وهبيٌّ فطريٌّ، أو يغلب عليها ذلك، والمودَّة والرحمة أمران كسبيَّان، أو بالأدقِّ يغلب عليهما ذلك، بالنظر إلى مظاهر ذلك وآثاره، ولعلَّ هذا ما يفسِّر لنا قول النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم للرجل الخاطب: (انْظُرْ إِلَيْهَا، فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ يُؤْدَمَ بَيْنَكُمَا).

رواه الترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه.

والحديث عمَّا يطلب من الرجل من (المودَّة والرحمة) يقود إلى بيان أصناف الرجال في ذلك، وهم أربعة أصناف بحسب القسمة العقليَّة والواقعيَّة:

ـ رجل صاحب مودَّة ورحمة، وهو الرجل المثاليُّ، الذي يسعد في حياته، وتسعد المرأة به.

ـ رجل صاحب مودَّة بلا رحمة، وهو الرجل الأنانيُّ المزاجيُّ، تنال المرأة من مودَّته على قدر ما تحقّق له من أنانيَّة ومزاجيَّة، وربَّما تدنَّت العلاقة بينهما إلى أدنى درجة إذا ضاق صدرها بنفسيَّته وأسلوبه..

ـ رجل صاحب رحمة بلا مودَّة، وهو الرجل الكاره لزوجته، ولكنَّه صابر عليها، لأسباب إنسانيَّة أو أخلاقيَّة، وتبعاً لذلك فهو يشفق عليها ويرحمها، وإن لم يستشعر من قلبه مودَّتها.

ـ رجل لا هو صاحب مودَّة، ولا صاحب رحمة، وهو الرجل الشاذُّ، وقد لا يكون الخلل منه وبسببه.. ولا يتصوَّر في هذه الحال أن تدوم العلاقة الزوجيَّة طويلاً..

ولا تعني السلبيَّة في أصناف هؤلاء الرجال أنَّها مستعصية على الحلِّ.. وإنَّما يعنينا هنا أن نكتشف مظاهر الخلل والداء من خلال العلاقة بين (المودَّة والرحمة)..

وأحبُّ أن أؤكِّد أنَّ المودَّة الصادقة متلازمة مع الرحمة، ولا تنفكُّ عنها، إلا إذا كانت مدخولة ذات غرض، وعندئذ يمكن أن يلحظ فيها هذا التصنيف..

ثمَّ إنَّ تحقيق السكينة النفسيَّة هو المقصد الفطريُّ الأكبر من الزواج، وإنَّ قانون الفطرة يفرض على الرجل أن يكون هو الباحث عن هذه السكينة بطلب الزوَاج، وهو الباذل في سبيله ما يبذل من المهر والنفقات، ولكن عندما تنتفي السكينة عن العلاقة الزوجيَّة، ولا تتحقَّق له، فإنَّ الرجل يبحث عن سكينته في جهات أخرى، مشروعة أو غير مشروعة، كالزواج بثانية، أو تضييع

الوقت مع صحبة صالحة أو غير صالحة، أو الهروب من البيت إلى غير هدف، ورُبَّما كانت هذه الأمور سبباً ومظهراً من مظاهر ضياعه وضياع أسرته..

والتحقُّق بالسكينة النفسيَّة من حيث النظرُ العقليُّ لا يتطلَّب جهداً كبيراً، إنَّها أقرب إلى العمل السلبيِّ المنفعل، الذي تملكه أيُّ امرأة ذات فطرة سويَّة.. ولكنَّها من حيث الواقعُ العمليُّ تحتاج إلى إعداد نفسيٍّ وتربية مهارات، ومجاهدة نفس، أمَّا المودَّة والرحمة فلهما مظاهر كثيرة، يجب العمل بها لتحقيقها، لتؤدِّي الحياة الزوجيَّة مقاصدها وأهدافها، وهنا تبرز مسؤوليَّة الرجل ومبادراته، وأثره الإيجابي في العلاقة الزوجيَّة، وهذا ما يفسِّر لنا جانباً من مفهوم القوامة، التي يسيء فهمها والعمل بها كثير من الناس..

وتتأكد الرحمة في مسؤوليَّة الرجل وحقِّ المرأة، نظراً لما جبلت عليه المرأة من الضعف، والحاجة إلى العون، ولتأكيد النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ذلك، وتأكيده على حقِّها والوصيَّة بها، وتشبيهها بالأسيرة عند الزوج، ممَّا يتطلَّب مزيد العناية بها ومراعاة حالها.

الفرق بين المودَّة والرحمة: المودَّة أرقى أنواع المحبَّة، يقول الإمام ابن القيِّم رحمه الله: (وأمَّا الودُّ فهو خالص الحبِّ وألطفه، وأرقُّه وأصفاه، وهو من الحبِّ بمنزلة الرأفة من الرحمة).

وأمَّا الرحمة فهي عاطفة فطريَّة تدعو الإنسان إلى أن يعطف على غيره، ويقدِّم له ما يستطيع من العون والخدمة، وهي أوسع دائرة من المودَّة، لأنَّ الإنسان قد يرحم من لا تربطه به أيَّة مودَّة، وإنَّما يفعل ذلك بدافع الشفقة وحبِّ الإحسان، وابتغاء مرضاة الرحمن..

ثمَّ إنَّ السكينة لها مَظاهرها وثمراتها، والمودَّة والرحمة لها مَظاهرها وثمراتها، ولكلِّ ذلك انعكاساته الإيجابيَّة على الأسرة والأطفال بالأمن والانسجام، والحياة الهانئة، والنشأة السويَّة.. ثمَّ على علاقَات الأسرة الاجتماعيَّة..

إنَّ هذه العلاقة الزوجيَّة الفطريَّة، القائمة على أرقى المعاني الروحيَّة العاطفيَّة، ويتبادل فيها الزوجان القيم الإنسانيَّة الرفيعة، من تحقيق السكينة والمودَّة والرحمة، ويشتركان في توثيقها.. هذه العلاقة بهذه الصورة إنْ هي إلا آية من آيات الله الدالَّة على عظيم قدرته، وبالغ حكمته ورحمته

بعباده، وإنَّ يد الغيب المعجزة هي التي تصنع العلاقات الإنسانيَّة الراقية وترعاها، وتجمعُ القلوب، وتؤلِّف بينها.. وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

إنَّها آية النظام الإنسانيِّ، الذي أقام الله به وجوده واستمراره وعلاقاته، بالفطرة التي فطر الناس عليها؛ نظام الزوجِيَّة بين الذكر والأنثى، وقيام الأسرة وبنائها، وطريقة التناسُل..

إنَّها آية معجزة، تنطوي على عدَّة آيات: فالذكر والأنثى نوعا الجنس البشريِّ، ولكلٍّ منهما فطرته، وخصائصه الجسديَّة والعقليَّة والنفسيَّة، ممَّا يجعله بحاجة إلى الطرف الآخر، يرغب به، ويأنس إليه، وقبل عقد الزوجيَّة لا يعرف كلُّ طرف صاحبه، ولا تقوم بينهما أيَّة علاقة أو عاطفة، وبمجرَّد العقد تبدأ المحبَّة، وتتأجَّج مع الأيّام وتتألَّق..

وقيام الأسرة وبناؤها، وحمايتها والدفاع عنها مطلب كلٍّ من الزوجين، لينشأ الجنس البشريُّ على أحسن حال من السواء الجسميِّ والنفسيِّ، ممَّا يؤهِّله بحقٍّ لعمارة الأرض ومسؤوليَّة الاستخلاف.. وطريقةُ التناسُل السامية، التي ترقى عن الأسلوب البهيميِّ المسفِّ، تزيد العلاقة الزوجيَّة توثيقاً وأنساً، ومودَّة ورحمة..

ومن آيات الله في هذه الآية: أنَّ حاجة الإنسان إلى الزواج حاجة مؤكَّدة، لضعفه وحاجته إلى السكينة والمودَّة والرحمَة، وأخذه بهذه الفطرة سبيل رقِيِّه وكماله، وهذه الحاجة المتأصِّلة في كيانه وفطرته هي من أهمِّ أدلَّة عبوديَّته لله تعالى، واستغناء الله سبحانه عن خلقه، وتنزُّهه عن الشريك والصاحبة والولد..

أفما ترى أيُّها الإنسان في هذه الآية آيات! ويزيدك يقيناً بهذه الآية الربَّانيَّة أنَّ الشاذِّين عن هذه الفطرة الحكيمة المحكمة لم يزيدوا القاعدة بشذوذهم إلا تأكيداً، وقد أجلَبوا على نظام الحقِّ بخيلهم ورجلهم، فنادوا على أنفسهم بالبوار والدمار، وكان عاقبة أمرهم خسراً!

إنَّها آيةٌ معجزة من معجزات الله في الخلق.. ألا له الخلق والأمر.. فتبارك الله ربُّ العالمين.

هذا وإنَّ أعظم ثمرة لتحقُّقِ الزوجين بهذه الآية الكريمة أن ينعما بالأمن النفسيِّ، وأن تمتدَّ ظلاله الوارفة لينعم بها الأولاد، فينشؤوا نشأة سويَّة، بعيدة عن أيَّة أزمة أو مشكلة.

والأمن النفسيُّ له ركنان لا يمكن أن تقوم العلاقة الزوجيَّة وتدوم بدونهما:

الركن الأوَّل: قدرة كلِّ طرف على تحمُّل المسؤوليَّة، والركن الثاني: قيام الثقة بين الزوجين.

وثمرة ذلك: الاحترام المتبادل، والشعور بالكرامة الإنسانيَّة، ولذلك حدُّه الأدنى، الذي ينبغي أن لا تنزل عنه الحياة الزوجيَّة، ولا ينبغي الوقوف عند هذا المستوى، إذ هو عرضة مع الأيَّام للفتور والتدنِّي، وللأمن النفسيِّ مستويات أسمى، من العلاقة المثاليَّة المتألِّقة، التي لا تزيدها الأيَّام إلا رسوخاً.. ولكنَّ هذه المستويات تحتاج إلى تعهُّد ورعاية، وتغذية دائبة..

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

العَلاقَةُ الزَّوْجِيَّةُ بَينَ التَّألُّقِ والتَّدَابُرِ..

التألُّقُ العاطفيُّ، الهمود العاطفيُّ، التدابر العاطفيُّ

ما أجملَ البداية! وما أسعدَ أيَّامها، وأحلى ذكرياتها! حياة الحبِّ العارم يبدآن.. أحلاماً ورديَّة ينسجان.. عهوداً صادقة موثَّقة يبرمان.. حُباً متألِّقاً، أعذب من العسل يتبادلان، ويرتشفان.. في صفاء لا يشوبه ملل أو كَدَر.. وأنس لا يعرف الوحشة والقَتَر..

حتَّى إذا خيَّم الخريف بسُحُبِه الثقيلة الواجفة، ورياحه العاصفة الرادفة..

وفاضت كؤوس الهموم من دخانه، وذوت ورود الحبِّ والشوق على شوك أغصانه..

وافتَقَدَ المُحبَّان كؤوسه المترعة، ونسيا عهوده المُولعة، وتلكما الروحين الممتزجتين في الجسد الواحد..

فأين هاتيك الليالي المرعة، والعهود الموثَّقة، والكؤوس المترعة؟!

وأين تلكما الروحان الودودان الممتزجان؟! كأنَّهما الجسد الواحد؟!

وأين الوفاء المنتظر، والصفاء الذي لم يشبه كدر؟!

وأين.. وأين.. لقد أصبح الأين إلى بين..

أيُّها الزوجان السعيدان اليوم، انظرا إلى الغد القريب: كيف يمكن للعلاقة بينكما أن تكون؟!

ليكن لكما في ربيع العمر وعَبَق عبيره ما يخيِّم على خريف العمر، ويزيِّن بستانه، وينضِّر أفنانه، ويَسحرُ وُجدانَه، ويُشجِي ألحانَه..

وليكن لكما من شذا الرحمة الوارفة ما يعوِّض عن ألق الحبِّ الذابل، والودِّ الغَابر..

وليكن لكما من ذكريات رحيق الحبِّ ما ينعش الودَّ في الفؤاد، ومن خليقة الوفاء زاد.. ونعم الزاد والعتاد.. وليكن لكما من خصال البرِّ ما ينمي المعروف، ويعظم الأجر..

وليكن لكما من عزاء المُحبِّين الصادقين أنَّ كلَّ ما في الدنيا إلى نُقْصَان وزوالٍ، وأنَّ في رضوان الجنَّة، ونعيمها الدائم خيرَ الذخرِ والمآل.. فلتلتقِ روحاكما على طلب الجِنان، والتزوُّد بما يرضي الرحمن.. فقد أزفت أوازف الرحيل، ولم يبق من العمر إلا القليل..

ولننظر إلى الأمور نظرة تحليليَّة دقيقة، فإذا اعتبرنا استمرار الحياة الزوجيَّة على الوجه الأغلب أربعين سنة: من سنِّ الخامسة والعشرين إلى سنِّ الخامسة والستِّين، وليكن سنُّ الزوجة يقلُّ في البداية عن سنِّ الزوج خمس سنين، فيمكننا أنْ نفصِّل العلاقة العاطفيَّة بين الزوجين في صورتها المثلى إلى الدرَجات أو المراحل التالية:

١ ـ من ١ السنة الأولى ـ إلى ٥ السنة الخامسة: الحبُّ في صعود (٣٠)

٢ ـ من ٥ ـ إلى ١٠ علاقة عاطفيَّة متألِّقة (٣٥)

٣ ـ من ١٠ ـ إلى ١٥ علاقة متألِّقة ونضجٌ عاطفيٌّ (٤٠)

٤ ـ من ١٥ ـ إلى ٢٠ الوقوف على القمَّة (٤٥)

٥ ـ من ٢٠ ـ إلى ٢٥ روعة الحياةِ على القمَّة (٥٠)

٦ ـ من ٢٥ ـ إلى ٣٠ خفوت أضواء الحبِّ وصعود مظاهر الرحمة (٥٥)

٧ ـ من ٣٠ ـ إلى ٣٥ تنامي الرحمة وضمور الحبِّ (٦٠)

٨ ـ من ٣٥ ـ إلى ٤٠ إنسانان يستعدَّان لتوديع الحياة (٦٥)

بعد عشرين سنة من الزواج تنتهي غالباً مُهمَّة الزوجين في إنجابِ الأولادِ، وتتوسَّع فيها مَسؤوليَّة رعايتهم، ويَستقبلُ فيها الزوجان مستوياتٍ أخرى من المسؤوليَّة والأعباء والتحدِّيات، ألا وهي هموم الدراسة، والبحث عن فُرَص مستقبل الأولادِ الوظيفيِّ والأسريِّ والاجتماعيِّ..

ويدخل الزوجان بذلك عوالمَ أخرى من الهموم بعيداً عنْ علاقتهم الخاصَّة، ممَّا يبعدها شيئاً فشيئاً عن مركز الأولويَّة والصدارة..

وبعد خمس سنوات من ذلك على الأكثر يصبح الزوجان/ الوالدان في مرحلة الأجداد والجدَّات.. وما تعنيه تلك المرحلة من طبيعة خاصَّة، وعلاقات جديدة مع الأصهار والأحفاد.. وتبتعد مرَّة أخرى علاقتهم الخاصَّة عنْ مركز الأولويَّة والصدارة..

ولكن هل لهذه المتغيِّرات أن تفرضَ على الزوجين الفتور في العلاقة، كأمر مسلَّم به ولا محيص عنه؟ وهل لهذه المتغيِّرات أن تكون ندّاً لعلاقتهم الخاصَّة، يفرض عليها التقهقر إلى مدى لا يستطيع أيٌّ منهما أن يتوقَّعه أو يوقفه؟

إنَّنا نريد لهذه المتغيِّرات بكلِّ وضوح أن تكون قوَّة دعم ومساندة، لأصل الشجرة وجذورها، ومصدر تجديد لحيويَّتها وعطائها..

وإنَّ التحدِّي الأكبر الذي يفرض نفسه على كلِّ زوجين: كيف يحفظ الزوجان لهذه العلاقة بريقها وتوهُّجها؟ وينأيان بها عن الهمود والتدابر؟!

إنَّ معرفة هذه الحقائق السابقة بحدِّ ذاتها والوعي بها يسهم في تجنُّب سلبيَّات هذه المتغيِّرات، وتركيز الجهود على إيجابيَّاتها.. ولا بدَّ لنا إضافة إلى ذلك من تسليط الضوء على النقاط التالية:

ـ على كلٍّ من الزوجين أن يعطي كلَّ مرحلة حقَّها على أحسن وجه وأتمِّه، لتكون رصيداً وذخراً لما بعدها، ولأنَّ في ذلك توثيقاً لعرى العلاقة وتقوية لها.

ـ إنَّ ذكريات الماضي الإيجابيَّة المتألِّقة خير ما يرطِّب جفاف أوراق الخريف ويبسها.. فالذكريات للإنسان عمر ثانٍ..

ـ ليس من العقل والحكمة، ولا يلتقي مع سنن الله في الخلق والحياة أن يتطلَّب الإنسان من شريك حياته، وهو في مرحلة الخمسين والستِّين ما يتطلَّبه عندما كان في مرحلة الثلاثين والأربعين..

ـ على كلٍّ من الزوجين أن يعيشا المرحلة الحاضرة بتكيُّف إيجابيٍّ، وحيويَّة تغلب السلبيَّات وتتجاوزها، ولا يتأتَّى لهما ذلك إلا بمعرفة حقيقة الدنيا، وأنَّها زائلة فانية، وأنَّ الآخرة هي دار القرار، وحسن الاستعداد لها بصالح الأعمال..

وبعد؛ فإنَّ كثيراً من الناس يمنى بصدمة عاطفيَّة شديدة عندما يتوقَّع لمراحل الزواج المتألِّقة أن تدوم كما هي.. وعندما يراها تميل في مراحلها التالية نحو الخبو والفتور، يذهب مذاهب شتَّى في اتِّهام شريك حياته أنَّه السبب في ضعف العلاقة وسلبيَّتها.. ويرمي الطرف الآخر التهمة على الطرف الأوَّل.. ويدور الطرفان في حَلْقةٍ مفرغة من الاتِّهامات، التي ليس وراءها إلا مزيد من ضعف العلاقة وفتورها.. والحقيقة دائماً وراء الأوهام..

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

المرأةُ بَينَ قَانُونِ الحُبِّ وقَانُونِ الزَّوَاج

أكثر النساء متزوِّجات وغير متزوِّجات يعشن هاجس الخوف من الزوجة الثانية.. حالاً أو مآلاً.. والتهمة بطبيعة الحال على الرجل.. والجريمة النكراء من الرجل.. واللؤم والخسَّة، وقلَّة الوفاء من الرجل.. وقل ما شئت على الرجال، فإنَّك لن تعدم أدلَّة وإثباتات..

ورُبَّما كان بعض هذا القول أو كثير منه له حظٌّ من الصواب.. ولكن هل هذه هي الحقيقة النهائيَّة، التي تعني أنَّه لا يرجى من ورائها حل المشكلة.. بإبعاد هذا الهاجس عن المرأة؟ وهل لهذه المشكلة من حلٍّ حقيقة؟ أم أنَّ جزءاً من طبيعة المرأة أن تعيش هذا الهاجس وتصبر عليه؟ فما عليها إلا أن تستسلم لواقعها، وترضى بما هو من فطرتها.. أو تفكِّر بحياة الوحدة والرهبانيَّة، بالبعد عن الرجل، والانتكاس عن الفطرة!

الحقيقة فيما أظنُّ خلاف ذلك.. والمرأة في أغلب الأحوال هي التي تصنع هذا الهاجس، أو تصطنعه باتِّخاذ أسبابه وتغذيتها.. فإذا كانت كذلك، فهي تستطيع أن تلغيه من قاموس حياتها، أو أن لا توجده أصلاً..

ولكن كيف يكون لها ذلك؟! هنا مربط الفرس كما يقولون..

يكون لها ذلك عندما تعي المرأة قانونين في حياتها وعلاقتها بزوجها، وتحسن التعامل بهما، هذان القانونان هما قانون الحبِّ وقانون الزواج.. وهما قانونان مترابطان متداخلان، في كثير من علاقاتهما ومعانيهما، ومتميِّزان في خصوصيَّة كلِّ واحد منهما، ومستواه وميدان عمله وتأثيره..

وبيان ذلك أنَّ حياة أكثر الأزواج تبدأ بقانون الحبِّ.. ثمَّ لا يزال ينزل سقفه ويتدنَّى مع الأيَّام، حتَّى يصل إلى سقف قانون الزواج، وعندها يضمر قانون الحبِّ أو يغيب..

فقانون الحبِّ أعلى من قانون الزواج وأسمى، وأدنى قانون الحبِّ متَّصل ومماسّ لأعلى قانون الزواج.. فإمَّا أن يقف الاختراق عند حدود قانون الزواج، ولا ينزل دونه، فبها ونعمت، وإمَّا أن يُخترَق قانون الزواج مرَّة بعد مرَّة، وعندئذٍ يكون الخطر على المرأة من الزوجة الثانية قريباً وحقيقياً..

قانون الحبِّ له شروطه ومتطلَّباته، ومعانيه وقيمه، وأخلاقياته وآدابه.. وقانون الزواج له شروطه وحدوده، وقيمه وآدابه.. وكلا القانونين يُسأل عنهما الزوجان، ويتحمَّلان مسؤوليَّة رعايتهما، والوفاء بحقوقهما، ولا يعفى أحدهما بتقصير الآخر في مسؤوليَّته، بل يتحمَّل عبئاً أكبر لسدِّ الخلل، وتدارك النقص..

وما أشبه قانون الزواج بالفريضة المكتوبة، وقانون الحبِّ بالنافلة المسنونة، التي تحيط بالفريضة كالسياج وتحميها..

وبدء الخلل في العلاقة أن يبرِّر أحد الزوجين تقصيره بتقصير صاحبه، وينتظر مبادرة صاحبه، ولا يبادر هو إلى إصلاح العلاقة، وتدارك الخلل من منطلق الحديث الشريف: (وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلاَمِ). متفق عليه.

إنَّ أكثر الأزواج يرون مثاليَّتهم في التعامل مع زوجاتهم أن يؤدُّوا ما عليهم من الحقوق المادِّيَّة من المطعم والمشرب والملبس، والحقوق العاطفيَّة في حدِّها الأدنى، ثمَّ يرون أنَّ التعامل مع قانون الحبِّ كما تتطلَّبه النساء، وتتطلَّع إليه نوع من الشطط، الذي لا ينسجم مع جدِّيَّة الرجل، وانشغاله بضغوط الحياة ومتطلَّباتها المتزايدة، والاستجابة لهذا الشطط في نظرهم يدعو المرأة إلى طلب المزيد، ممَّا هو مكلف نفسياً أو مادِّياً، فلا عجب أن يقفوا منه موقفاً سلبياً جافياً..

وفي مثل هذا الحال، وهو كثير غالب، لا بدَّ للمرأة العاقلة ـ بعد أن تتقن قانون الزواج بحدوده وحقوقه وآدابه ـ أن تفرض قانون الحبِّ والتعامل مع زوجها من خلال سلوكها العمليِّ، ومواقفها الرقيقة المؤثِّرة، لا أسلوبها الكيديِّ الفظِّ، الذي يزيد الرجل تباعداً ونفوراً..

قانون الحبِّ تعجز الكلمات عن التعبير عنه.. إنَّه يعني شفافيةَ العلاقة الزوجيَّة وسموَّها، ورقَّتها وحيويَّتها، والإيثار والتضحية بغير حدود، والبذل والعطاء بغير حساب..

ولا يقوم قانون الحبِّ في تصوُّرنا وثقافتنا ما لم يقم قانون الزواج على أصوله ومبادئه، وتُرعى حدوده وآدابه..

وقانون الزواج يقتضي أن يقوم البيت، وتسلِّم الزوجة بحقائق القوامة، وحقوق الزوج المقرَّرة شرعاً، من حقِّ الطاعة والبرِّ، والأدب والاحترام، والبعد عن النشوز، وأيِّ أنواع الأذى..

كما يسلِّم الزوج بحقوق الزوجة المادِّيَّة والمعنويَّة: من المعاشرة بالمعروف، والرفق وحسن الخلق، والبرِّ والإحسان..

وعند ذلك يقوم قانون الحبِّ على أرض صلبة من قانون الزواج.. وإلا.. فأيُّ قانون للحبِّ يرجى إذا كان قانون الزواج منتهكاً أو معطَّلاً؟! وكيف يبحث عن النافلة من ضيَّع الفريضة؟!

وأيُّ قانون للحبِّ يرجى إذا كان الرجل لا تُقَدَّر ظروفه، ولا يعان على متاعبه ومشكلاته؟! وأيُّ قانون للحبِّ يُرجَى إذا كان الزوج لا تُلَبَّى رغباته النفسيَّة والعاطفيَّة، ولا تُؤَدَّى حقوقه؟! وأيُّ قانون للحبِّ يبقى إذا كان الزوج لا يُعتَرَف له بحقِّ الطاعة والقوامة؟!

وأيُّ قانون للحبِّ يرجى إذا كانت المرأة تُسَبُّ وتهان؟! وأيُّ قانون للحبِّ يرجى إذا كانت الزوجة لا تُقَدَّر ظروفها النفسيَّة والصحِّيَّة، ولا تراعى مشاعرها ورغباتها؟!

موقف معبِّر له دلالته: كان عند صديق حميم، يتحاور معه حول موضوعات مهمَّة، واحتدم النقاش، واصطرعت الأفكار، وبينما هو في انفعال ظاهر تلقَّى مكالمة، فانفرجت أساريره، وهدأت أعصابه، وتلطَّفت كلماته وإجاباته، وتوالت وعوده، وختم حديثه بألطف ممَّا بدأ.. ثمَّ قال لصاحبه ممازحاً: إنَّها مكالمة من وليِّ الأمر، يعني زوجته.. ثمَّ لم يلبث إلا أن تلقَّى

مكالمة أخرى من أحد أبنائه، فكان حديثه معه بلغة عربيَّة غير متكلَّفة، وعبارات راقية، ولطف في القول ظاهر..

وبعد المكالمة التفت إليه صديقه، وقال له: أهكذا تخاطب أولادك؟ قال: نعم، وهل في الأمر غرابة؟ قال: نعم، كل الغرابة.. ألا ترى كيف يكلِّم كثير من الناس أولادهم؟

ثمَّ قال له: هنيئاً لزوجتك.. إنَّك لا تفكِّر بالزواج عليها، قال: وممَّ عرفت ذلك؟ قال: إنَّ من كان بمثل هذا اللطف والرقيِّ في العلاقة مع زوجته وأولاده، لا يمكن أن يتزوَّج بأخرى.. فقال له: الفضل لها عليَّ، هي ألطف منِّي وأرقى..

والسؤال المهمُّ هنا: أيُّ الطرفين أحقُّ برعاية قانون الحبِّ وأولى: الرجل أم المرأة؟!

إنَّ النظرة الموضوعيَّة المجرَّدة تقول لنا: إنَّ المرأة أحقُّ من الرجل برعاية قانون الحبِّ، وأحوج إليه منه باعتبارات عديدة:

ـ فهي أحقُّ من الرجل برعاية قانون الحبِّ نظراً لطبيعتها الفطريَّة واحتياجها..

ـ وهي أحقُّ من الرجل برعاية قانون الحبِّ نظراً لما هو مطلوب منها من اجتذاب الرجل إليها، وتحقيق سكنه النفسي..

ـ وهي أحوج من الرجل إلى رعاية قانون الحبِّ لتطوِّق به عنق الرجل، وتملك حواسَّه ومشاعره، فلا يلتفت إلى غيرها.. إذ هو بفطرته يميل إلى أكثر من واحدة، وما لم يتحقَّق له الإشباع العاطفيُّ والنفسيُّ بزوجته، وما لم تطوِّق مشاعره وأحاسيسه بقانون الحبِّ، الذي يستقي من طبيعتها الأنثويَّة الجذَّابة، فإنَّها لن تستطيع أن تطوِّقه بأيَّة رقابة صارمة، أو غيرة جامحة، أو نكد يخاف من المجهول، ويطارد الأشباح والأوهام..

ـ وهي أحوج من الرجل إلى رعاية قانون الحبِّ، لأنَّ البديل للرجل عن ذلك ليس حرمانها العاطفي فحسب، بل أن يتَّجه إلى غيرها بطريق الحلال، بالبحث عن الزوجة الثانية إن كان يتَّقي الله، أو سلوك طريق الفساد والحرام، إن لم يكن من أهل التقوى والاستقامة..

والبديل للمرأة عند ذلك أحد أمرين أو كلاهما، وأحلاهما مرٌّ: فإمَّا أن تصبر على الحرمان العاطفيِّ، أو تختار الفراق.. أفليس خيراً لها أن تتعهَّد قانون الحبِّ وترعاه، من أن تصل إلى هذه النتيجة التي لا ترضاها؟!

وبعد؛ فإنَّ قانون الحبِّ يحمي قانون الزواج ويصونه، وعندما ينهار يتعرَّض الزواج للانهيار، أو يعيش الزوجان بما يسمَّى الطلاق العاطفي.. كما يحمي قانون الحبِّ المرأة ممَّا تخشاه من هاجس الزوجة الثانية، الذي يقلق حياتها، وينغِّص هناءتها.. إلا إذا كان للأمر مبرِّراته الوجيهة، التي يعذر بها عقلاء الناس، ممَّا لا ينتقص قانون الحبِّ ولا يلغيه..

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

فَنُّ الحِوَارِ الرَّاقِي بَينَ الزَّوْجَيْن

كثيراً ما شهدنا حواراً بدأ بكلمات منفعلة، ثمّ تحوَّل إلى جدل محتدم، ثمَّ تحوَّل إلى سباب وشتائم، ثمَّ تحوَّل إلى عراك بالأيدي، ورُبَّما انتهى بالقتل وسفك الدماء.. وأقلُّ أحواله أن ينتهي بالقطيعة بين المتحاورين، فيقول لك أحدهما: فلان لا يُنَاقَش، ولا يُحَاور.. ورُبَّما تجنَّب لقاءه ومجالسته..

وقد يتسرَّع بعضنا فيقول: إنَّ ذلك شأن الجاهلين، الذين لم ينالوا حظاً من الثقافة رفيعاً.. ولكنَّنا نرى ونسمع عن عراك بالأيدي، وتضارب وسباب، في برلمانات أمم، يمثِّل فيها الشعوب طبقة من المفترض أن تكون راقية ثقافة وخلقاً.. ممَّا يؤكِّد لنا على أنَّ الحوار فنٌّ راقٍ، يحتاج إلى تربية وتدريب، ولا يتحقَّق للإنسان بمجرَّد العلم والثقافة..

وإنَّ أحقَّ الناس بالتربية والتدريب على فنِّ الحوار الراقي: مَنْ كانوا أوثق الناس علاقة ببعضهم، وأقربهم صلة، كالزوجين، والوالدين مع أولادهم، والمعلِّم مع طلابه..

ولعلَّ أخطر هذه العلاقة وأهمها: هي العلاقة بين الزوجين، لِـمَا أنَّ الخلل فيها يؤول إلى عواقب وخيمة، من فتور العلاقة، والقطيعة والتدابر، ورُبَّما أدَّى إلى خراب الأسرة، وشتات أمرها..

ومن هنا فإنَّ تدريب الزوجين على فنِّ الحوار الراقي يُعَدُّ من الواجبات العينيَّة، التي ينبغي على الإنسان أن يأخذ نفسه بها.

أهمِّيَّة الحوار الإيجابيِّ بين الزوجين:

الحوار الإيجابيُّ بين الزوجين أساس العلاقة السويَّة، والحياة السعيدة، وغيابه يجعل الأسرة عرضة لأعاصير الخلافات العاصفة على أتفه الأسباب، لأنَّ كل طرف لا يفهم الطرف الآخر.. وذلك ما يقود إلى الطلاق، وانفصام عرى الزوجيَّة..

وتذكر الكاتبة (سهير الغالي) إحصاءات مثيرة للاهتمام، بخصوص الحوارات الزوجيَّة فتقول: (لقد أصبح الحوار من أكثر المواضيع بحثاً؛ نظراً لأهمية الحوار في عملية الاتِّصال والتواصل الإنسانيِّ، ونجاح هذه العلاقات.. كما أنَّ انعدام الحوار بين الزوجين من الأسباب الأولى المباشرة المؤدية إلى الطلاق، وفقاً لما ورد في دراسات عديدة، منها:

١ـ الدراسة الإحصائية التي أعدَّتها (لجنة إصلاح ذات البين) في المحكمة الشرعيَّة السنيَّة في بيروت ـ لبنان عام ٢٠٠٣ م، وقد تبين فيها أن انعدام الحوار بين الزوجين هو السبب الرئيس الثالث المؤدي إلى الطلاق.

٢ـ وفي دراسة علمية أعدها الباحث الاجتماعي (علي محمد أبو داهش)، والذي عمل(١٨) سنة في مكاتب الاجتماع بالرياض، المتخصصة في حلِّ المشكلات الاجتماعية، وأهمُّها الطلاق، تحت إشراف مجموعة من الباحثين الاجتماعيِّين، أوضح أنَّ أهمَّ أسباب الطلاق المبكر هو عدم النضج، وعدم التفاهم، وصمت الزوج.

وأشار أبو داهش إلى أن مشكلة انطواء الأزواج وصمتهم في المنزل أصبحت من القضايا التي تُخصَّص لها نقاشات في الندوات العالميَّة، لما لها من تأثير سلبيٍّ على نفسيَّة الزوجة والحياة الزوجيَّة بصورة عامَّة.

٣ـ وفي دراسة ثالثة (نُشرت في إحدى صفحات المواقع الإلكترونية) أُقيمت على نحو مائة سيدة، اخترن كعينة عشوائية، بهدف الكشف عن أبرز المشكلات الزوجية التي تواجه أفراد العينة، تراوحت الإجابات بشكل عام ما بين الصور التالية:

١ـ بقاء الزوج فترة طويلة خارج المنزل.

٢ـ الاختلاف المستمرُّ في الآراء ووجهات النظر!

٣ ـ رغبة الزوج في الانعزال عن الآخرين، أو عدم الاختلاط في المجتمع المحيط.

٤ ـ انعدام الحوار.

وعندما طُرح في هذه الدراسة ما هو الأسلوب الأمثل لحلِّ هذه المشكلات الزوجية تبين أنَّ ما يزيد على (٨٧٪) من إجابات أفراد العينة يفضِّلن الحوار المباشر لحلِّ أيَّة مشكلات، وفسَّرن ذلك بأنَّه أقصر الطرق لحلِّ أيِّ خلاف ينشب.

كما أشارت نسبة (٤٪) منهنَّ أنهنَّ يلجأن لوسائل أخرى لحلِّ الخلافات الزوجيَّة، أبرزها كتابة الرسائل المتبادلة، التي توضح وجهة نظرهنَّ في المشكلة.

خطوات مهمَّة للتحقُّق بالحوار الإيجابيِّ بين الزوجين:

١ ـ حسن الاختيار للوقت المناسب للحوار، فما كلُّ وقت يناسب الحوار فيه، وهذه النقطة يخلُّ بها أكثر الأزواج.

٢ـ اختيار الأسلوب الهادئ المباشر؛ لأنَّ العلاقة بين الزوجين ينبغي أن تقوم على الوضوح والصراحة، فذلك أدعى إلى بناء الثقة، وتوثيق الروابط.

٣ـ حسن الاختيار للكلمات والأسلوب، فالكلمة تقرِّب أو تبعد، وتحبِّب أو تستفزُّ وتنفِّر.. وكثيراً ما كان الحوار نوعاً من الهجوم، الذي ينتظر الهجومَ المضادَّ، وكأنَّ المتكلِّم في ساحة معركة، لا في علاقة حوار..

٤ـ التحلِّي بالرفق والمرونة، والبعد عن رفع الصوت والانفعال: فمن كانت له حاجة عند أخيه فليتلطَّف، وإنَّ الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه، كما جاء في الحديث الصحيح.

٥ـ تحديد الأمور المتَّفق عليها، للوصول إلى نقطة الخلاف:

٦ـ تفهُّم وجهة نظر الطرف الآخر واحترامها.

٧ـ ترك الفرصة المناسبة للطرف الآخر، ليعبِّر عن وجهة نظره ويوضِّحها.

٨ـ التحلِّي بالموضوعية والاتِّزان، والاستعداد للتنازل عن الرأي، لمصلحة المحافظة على سموِّ العلاقة الزوجيَّة وتوثُّقها.

٩ـ ساحة المباح والعفو واسعة، فوسِّع نظرك للأمور، ولا تضيِّق على نفسك، ولا على شريك حياتك.

١٠ـ الحوار الراقي يزيد المتحاورين علماً وخبرة بالحياة، فلا تستهن بما عند الطرف الآخر من رأي ووجهة نظر.

الحوار النفسيُّ السلبيُّ: وينبغي التنبيه إلى أنَّ هناك نوعاً من الحوار النفسيِّ السلبيِّ عند كثير من الأزاوج؛ فالحوار عند الإنسان ينقسم إلى: حوار داخليٍّ، أي أفكارك التي تدور في بالك، وما تحدِّث به نفسك، وقد يكون حواراً إيجابياً أو سلبياً.

وحوار خارجي، وهو التعبير اللغويُّ، في موقف معيِّن بين الزوجين..

ويعبِّر بعض الناس عن هذا الحوار النفسيِّ السلبيِّ عندما يقول عن نفسه في التعبير عن شدَّة غضبه، أو تأثُّره بما نزل به من مصيبة: (لقد أصبحت أتكلَّم مع نفسي)!

فعندما يطلب الزوج أو الزوجة من الطرف الآخر أن يسهر معه وقتاً طويلاً، ويرفض ذلك، لأنَّه يشعر بالتعب نتيجة أعماله المرهقة في ذلك اليوم، ويستأذن لينام.

هذا الموقف تختلف فيه ردَّات فعل الأزواج أو الزوجات، وذلك وفقاً للحوار النفسيِّ الذي يفعله الرجل؛ فقد يحدِّث الرجل نفسه في هذا الموقف: (إنَّها لا تحترمني! إنَّها لا تقدِّر رغباتي.. لقد احتجَّت بالتعب لتتهرَّب مني! إنَّها تتعمد إغضابي.. إنها أنانية لا تحبني)!

وكذلك الحال لو كان المثال على الزوجة.. وهو أكثر في النساء بحكم طبيعتهنَّ العاطفيَّة، التي تحتاج إلى تقدير ورعاية خاصَّة..

هنا استخدم الرجل أو المرأة الحوارَ النفسيَّ السلبيَّ، ودخل في دائرة من الأفكار السلبيَّة، التي تسبِّب مشكلة مع الطرف الآخر، رُبَّما تتصعَّد وتتضخَّم، وتبنى عليها أمور وأمور، حتَّى تحطِّم العلاقة الحميمة بين الزوجين، ورُبَّما وصلت إلى طلب الطلاق..

وخير علاج لهذا الحوار النفسيِّ السلبيِّ المصارحة بين الزوجين، وأن يتحلَّى كلاهما بحسن الظنِّ، والغضِّ عن الهفوات، وتقدير الظروف النفسيَّة والاجتماعيَّة، التي يمرُّ بها الطرف الآخر.

وأخيراً؛ فإنَّ الحوار الراقي مهارة لا يتقنها أكثر الناس، ورُبَّما كان الصمتُ السلبيُّ خيراً من حوار يؤجِّج الخلاف، ويجرح القلوب، ويوهي الروابط.. فلندرِّب أنفسنا على مهارة الحوار الراقي، مع أزواجنا، وأبنائنا، وجميع الناس، فذلك خير لنا، وأسعد لحياتنا وعلاقاتنا.. والله وليُّ التوفيق والسداد.

إضاءاتٌ تربويَّة

مُجْتَمَعُ الشَّبَابِ أَمْ مُجْتَمَعُ الشَّيْخُوخَةِ المُبَكِّرَة؟!

شاع على ألسنة كثير من الكتّاب والمثقَّفين أنَّ مجتمعاتنا العربيَّة والإسلاميَّة مجتمعات شابَّة، تغلب فيها نسبة الفئة العمريَّة الشابَّة، فهل هي حقاً كذلك؟

إنَّ واقع التعامل مع الشباب يقول غير ذلك:

والقضيَّة تبدأ منذ الطفولة.. نفرض على الأطفالِ أن يخرجوا عن طبيعة طفولتهم واحتياجها، ويلتزموا سمت الكبار، وتلك هي: (البرمجة القسريَّة).. لا كلام.. لا حركة.. لا نشاط.. وتتبعها لاءات ولاءات.. وإملاءات وإملاءات.. ويستجيب الأطفالُ المساكين ويخضعون.. فتُشَلُّ فاعليَّتهم منذ تلك المرحلة المبكَّرة..

ثم نفرض على الشباب أن يتقمَّصوا شخصيَّة الكبار والشيوخ، ويكونوا على أمزجتهم، ووفق توجُّهاتهم، لينالوا ثقتهم، ويكونوا جديرين بالتعامل معهم.. ونمارس عليهم في سبيل ذلك أنواع الضغط الفكريِّ والنفسيِّ..

ويستجيب فريق من الشباب مداراة، ثمّ تتطبَّع شخصيَّتهم بذلك.. فتُشَلُّ طاقات الشباب، ويقتل إبداعهم، وتحبط طموحاتهم، وتخمد فاعليَّتهم، ولا نجد حولنا إلا نسخاً مكرورة من الشيوخ، الذين مضى زمانهم.. ويصبح المجتمع ضحيَّة الشخوخة المبكِّرة، الموروثة المزمنة..

فهل مجتمعاتنا مجتمعات شبابيَّة بعد ذلك؟ وهل يلام الشباب إذا فقدوا الفاعليَّة والقدرة على التجديد والإبداع؟! وبالأصحِّ: هل يعذرون؟

إنَّنا إذا أردنا حقاً أن نفعِّل الشباب، ونجعلهم في موقع العطاء وتحمُّل المسؤوليَّة، فعلينا أن نتيح لهم أكبر مساحة من حرِّيَّة العمل، ولا نجعل أمزجتنا وأسلوبنا في العمل هو الحكم على أعمالهم، والمقوِّم لها..

* * * * *

بَينَ الشَّبَابِ وَالشُّيُوخ!

الصراع بين الأجيال.. بين الآباء والأبناء.. بين الشباب والشيوخ.. أهو حقيقة أم مصطنع؟

وهل بين الآباء والأبناء حاجز حقيقيٌّ أم وهميٌّ؟ ولماذا كثير من الأبناء يتوارون عن مجالسة آبائهم ومحادثتهم وحوارهم، إلا بقدر الضرورة؟ كما يزهدون بلقاء الشيوخ والسعي إليهم؟!

ما أكثرَ الرجال الذين قيل فيهم: أنَّهم جمعوا بين همَّة الشباب وحكمة الشيوخ!! وما أقلَّ الشباب الذين ملكوا حكمة الشيوخ وعزم الشباب! ثمَّ يظهرون التمرُّد، ويطيلون ألسنتهم بالنقد!

وهذه بعض الأفكار والرؤى، التي تحاول المقاربة بين هذه الإشكالات ومعالجتها:

بَينَ عَجْزِ الشَّبَابِ وهِمَّةِ الشُّيُوخ:

من سنن الله تعالى في الخلق أنَّ الإنسان كلَّما كبرت سنُّه ضعفت عزيمته، ووهت إرادته، وازداد تعلُّقه بالدنيا وحرصه عليها، وبردت حماسته لكثير من الأمور التي كان في شبابه يهتمُّ بها، ويسارع إليها..

وعلى العكس من ذلك الشابُّ، فهو قويُّ الشكيمة، ماضي العزيمة، عالي الهمَّة متوقِّد الطموح لما يؤمن به أو يرغبه، ولا يتعلَّق كثيراً بالدنيا وأسبابها..

والعجب كل العجب أن ترى شيوخاً بهمَّة الشباب، وشباباً بعجز الشيوخ! فما السرُّ في ذلك يا ترى؟! يعود ذلك في نظري إلى عدَّة أسباب، أهمُّها:

١ـ ضعف التربية على تحمُّل المسؤوليَّة عند كثير من الشباب.

٢ـ وضوح الرسالة والهدف عند الشيوخ، الذين يتمتَّعون بمستوى عالٍ من الهمَّة والفاعليَّة، وقد علَّمتهم تجارب الحياة الإصرار على الأهداف مهما اعترضت العقبات..

٣ـ الحاجز النفسيُّ والفكريُّ والواقعيُّ بين الشباب والشيوخ، ومن أهمِّ أسبابه:

أنَّ حديث أكثر الشيوخ ماضويٌّ، مبتوت عن الواقع، يمجِّد الماضي، ويلقي باللائمات على الواقع، ولا يحسن تحليل الأحداث وتفسيرها، ويزيد من النفرة منه كثرة تكراره في المناسبات والمجالس..

آفَةُ الشَّبَابِ وآفَةُ الشُّيُوخ:

آفة الشباب في ثلاث: التسرُّع بلا رويَّة.. والإصرار على الرأي مع الانغلاق عن تجارب الكبار.. وضياع الجهد في تجارِبَ مكرورة، وما لا طائل فيه.

وآفة الشيوخ في ثلاث: الوقوف مع الماضي وتقديسه، وبخاصَّة مع تجاربهم الخاصَّة.. والاستهانة بالمستجدَّات والمتغيِّرات الماديَّة والمعنويَّة، والتقليل من شأنها.. واستصغار الشباب، وضعف التواصل معهم، وعدم الاستقبال منهم لحداثة سنِّهم، وإنَّما المرء بأصغريه قلبه ولسانه.

ورُبَّما كان علاج آفات الشباب أيسر وأسرع، لأنَّهم ألين عريكة، وأكثر مرونة، على أن يتحلَّى المعالج بالحكمة وحسن التعامل..

صِرَاعُ الأجيَالِ أم التَّوَاصُلُ والتَّكَامُل؟

يتَّهم الشيوخ الشباب بالغرور بالنفس، وعدم الخبرة بالحياة.. ويتَّهم الشباب الشيوخ بالعجب بالنفس، وصلابة الرأي والمواقف، والعيش في الماضي..

ويقول الشباب: الشيوخ يقفون في طريقنا.. يقتلون طموحنا.. لا يتزحزحون عن مواقعهم إلا بالموت..

ويقول الشيوخ: الشباب يريدون أن يعودوا بنا إلى أخطاء الماضي وعثراته.. فإذا كانوا على قدر المسؤوليَّة لم يقف أحد في طريق صدارتهم..

ويقول الشباب: الشيوخ يحكموننا بمنطق العادات والتقاليد، ويضعون في وجهنا حاجز الأدب والتقدير، ويقيمون للسنِّ وزناً أكبر من العقل والعلم، ونتيجة ذلك نمط من الحياة لا إصلاح فيه ولا تغيير..

والحقُّ أنَّ الأدب مع الشيوخ ينبغي أن لا يلغي الحوار ولا يعطِّله..

وإنَّ كثيراً من الشيوخ يحتاجون إلى خفض الجناح للشباب، والتقرُّب إليهم، كما يحتاج التاجر إلى ترويج بضاعته وتسويقها، والتفنُّن في الدعاية لها..

والحقُّ أنَّ الشيوخ يتحمَّلون المسؤوليَّة الأكبر عن هذه الإشكاليَّة بينهم وبين الشباب، لأنَّهم أكبر وأعقل وأحكم.. وهم أقدر على حلِّ المشكلات، ومعالجة الإشكالات..

ويقول الشباب: أيُّها الشيوخ! ما تقولونه اليومَ لنا قد قيل لكم مثله من قبل، فهل قبلتم ما قيل عنكم بالأمس، لنقبل ما تقولونه عنَّا اليومَ؟

أيُّها الشيوخ والآباء! في الشباب همم وعزائم تتطلع للمجد، وتأبى الذلَّ والهوان، وفيهم قوى وطاقات هي نواة للإبداع والاختراع، وفيهم قوَّة على العمل، وجلد على المثابرة، ومن المهمِّ أن يقوم الآباء والمربون بتشجيعهم، وحفز هممهم وتوجيهها، ولا يستهينوا بآرائهم وأفكارهم، وإنَّما يشجِّعونهم على طرحها، ويحاورونهم فيها.

عَلَّمَتنِي الحَيَاة:

أنَّ الشيوخ الذين ينقطعون عن الشباب يقطعون أنفسهم عن الحياة..

وأنَّ الشباب الذين يزهدون بالتعلُّم من الشيوخ، والاستفادة من خبراتهم يدخلون الحياة ببدائيَّة مفرطة في السذاجة..

وأنَّ ردم الهوَّة بين الشباب والشيوخ ليس عسيراً ولا مستحيلاً.. إنَّما يحتاج إلى إرادة الطرفين، وشعورهما بالحاجة إلى ذلك، وربَّما كانت المسافة الزمنيَّة بين الشباب والشيوخ لا تتجاوز عشر سنوات، ولكنَّ البُعْدَ النفسيَّ والفكريَّ، ونمط معالجة الأمور وتفسيرها يتجاوز الخمسين والستِّين..

وبخاصَّة إذا علمنا أنَّ بعض الشيوخ يستحضرون ليس الماضي القريب من حياتهم فحسب، وإنَّما الماضي الأبعد من البعيد، من مواقف بشريَّة، واجتهادات لها ملابساتها، وظروفها الخاصَّة، ويسدلون عليها هالة من التقديس، لا تقبل أيَّ نقد أو مراجعة.. ولا يزالون يُبدِئون ويعيدون فيها، وكأنَّها نصوص مقدَّسة منزَّلة..

لِـمَاذَا يَبتَعِدُ الشَّبَابُ عَنِ الشُّيُوخِ؟

لأنَّ كثيراً من الشباب لم يتربَّوا على احترام الكبير وتوقيره، ومعرفة قدره ومنزلته، وأنَّ على الصغير أن يستشيره، ويستنير برأيه، ويستفيد من خبرته في الحياة وتجاربه..

ولأنَّ كثيراً من الشيوخ يفتقدون لغة الحوار من حديثهم، ولا يحبُّون السماع للشباب، ولا يقتربون منهم، ولا يتركون لهم فرصة الحديث والتعبير عن أفكارهم وآرائهم..

فكيف للشباب أن يتقبَّلوا دور التلميذ الصغير مدى الحياة؟! بل إنَّ التلميذ الصغير، والطفل بين والديه ومربيه أحوج ما يكون إلى أن يتربَّى على لغة الحوار وفنِّه، فإذا افتقد ذلك في تربيته، فأخوف ما يخاف عليه أن نراه «دكتاتوراً» مستبداً في كِبَرِه..

وأخيراً: على الشيوخ أن يأخذوا بأيدي الشباب برفق، ويحسنوا جذبهم إليهم.. وعلى الشباب أن يمدُّوا أيديهم للشيوخ، ويحسنوا الاتِّصال بهم، فإن أبوا ذلك فعلى الشيوخ أن يمدُّوا أيديهم، ولا يستيئسوا.. فالإناء الكبير يتَّسع لما هو أصغر منه.

* * * * *

التَّربِيَةُ بِالحُبِّ

مضى زمن كان التعليم فيهِ بالشدَّة والضربِ، وتحطيم شخصيَّة الطفل، وإلغاء إرادته، وكبت مواهبه وإبداعِه، وعدم الإصغاء له بكلمة.. وأصبح الناس يذكرون ذلك منتقدين متندِّرين.. ولكنَّ مسالك أكثر المعلِّمين والآباء لم تختلف عن ذلك إلا قليلاً، ولم يأخذوا البديل المناسب في طرائق التربية والتعليم وأساليبها.. ولا يقتصر اللوم على المعلِّمين والآباء فهم جزء من منظُومة المجتمع الثقافيَّة والتربويَّة، الذي تقوم علاقاته كلها على هذا الأسلوب، وتدور في فلكه..

ومعَ غيبة التصوُّر الصحيح للتربية الإسلاميَّة المنهجيَّة المؤصَّلة أخذَ الناس يتَّبعون كلَّ صيحة في التربية تَأتي من هنا أو هناك، ويلتقطُون جزئيَّات متناثرة، رُبَّما كانت صحيحة بحجمها وحدِّ ذاتها، ولكنَّها ليست صحيحة إذا اتُّخذت عامَّةً شاملة، أو كانت منهجاً مستقلاً بنفسه..

فسمعنا عن التربية بالترفيه.. والتربية الاستقلاليَّة، التي يترك فيها للناشئ الحبل على الغارب.. وتوقَّع ما شئت في المستقبل القريب وما بعده.. ونبقى أحوج ما نكون إلى نوع من التربية التي تلاحظ كينونة الإنسان الفطريَّة، وطبيعته النفسيَّة، وعلاقاته الإنسانيَّة.. وليس شيء كذلك إلا التربية بالحبِّ! ودون إغفال لمطالب الجوانب الأخرى من كينونته..

فلماذَا التربية بالحبِّ؟

يحظى الحبُّ برصيد ضخم من الحضور والتأثير في كينونة الإنسان وسلوكه، فالإنسانُ مخلوقٌ عاطفيٌّ بالدرجة الأولى، تغلب عليه العاطفة، وتتحكَّم بسلوكه، ويقاد منها أكثر من أن يقاد بعقله، أو مطالب جسده..

وهناك جملة من الحقائق والمعاني تؤكِّد ذلك، ينبغي أن تكون حاضرة في تصوُّر المربِّي، وتعامله مع الطفل والناشئ.. وأذكر هذه الحقائق في النقاط التالية:

الحبُّ هو الأداة السحريَّة في التأثير والتغيير: يُعتَبرُ الحبُّ أرقى أساليب التواصل الإنسَانيِّ، الذي يحظى بالقبول العامِّ من جميع الناس، على اختلاف أجناسهم وثقافاتهم وقيمهم.. فلا يختلفُ على تقديره والاعتراف به اثنان، فهو من رصيد الفطرةِ، الذي يأبى التحريف والتشويه.. ففي داخل كلِّ إنسان سويٍّ وهاجسه طلبُ الحبِّ والتطلُّع إليه، فهو الأداة السحريَّة في التأثير والتغيير!

الحبُّ راحة للقلب من شتَّى المتاعب: إنَّ عاطفة الحبِّ بصورة عامَّة هي حالة منَ الانسجام النفسيِّ، والاطمئنان الداخليِّ، الذي يضفيه الإنسان على ما حوله، فيعينه على أداء عمله أيّاً كان نوعه بحيويَّة وإيجابيَّة.. ومَن كان الحبُّ هاديه وحاديَه في عمله فلن يشعر بشيء من التعب مهما بذل من جهد، وواجه من عقبات..

الحبُّ يجعلُ العملَ مُتعَة نفسيَّة وعقليَّة، لا محنة وبلاء: ويرقى الحبُّ بالإنسان درجة أخرى، فيستلذُّ التعب، ويستعذبُ البذل والنصب، فيصبر الإنسان ويجالد، ويستعذب الصبر، ولا يحسُّ بمعاناته، وهنا بؤرة الإبداع والتألُّق ومنطلقه.. ويكونُ لسانُ حال العامل المُستمتع بعمله، كحال ذلك المُحبِّ العاشق إذ يقولُ:

عذابُهُ فيكَ عَذْبُ ... وبُعْدُهُ فيكَ قُرْبُ

وأَنْتَ عِندي كرُوحي ... بل أَنْتَ مِنها أَحَبُّ

حَسْبِي مِنَ الحُبِّ أَنِّي ... لِـمَا تُحِبُّ أُحِبُّ

وشتَّان بين مَن يرى عمله محنة، لا يعرفُ كيفَ يتخلَّص منها، ومن يراه متعة نفسه، ولذَّة روحه.؟! فكيف يكون عطاؤه وإبداعه، ونجاحه وتأثيره؟

الحبُّ ثروةٌ لك لا تنضب، ورصيدٌ لا ينقُصُ: عندما تبذر الحبَّ أيُّها المربِّي تفتح لنفسك رصيداً لا يُسرق، ولا يُنتَقَصُ، بل يزيد مع الأيَّام وينمو، من حيث لا تحتسب ولا تدري.. فالقلوب التي أحبَّتك، وكان لك معها مواقف ومواقف.. لن تنساك، ولن تنسى معروفك معها وإحسانك، وإخلاصك وتضحيتك، ومواقفك التربويَّة المؤثِّرة..

الحبُّ يختصر الطريق، ويطوي لك المراحل: ومن منَّا من لا يريد إنجاز عمله في أقرب وقت، وأقلِّ جهد؟! ولكنَّ الطبيعة المتعجِّلة للإنسان تحسب أنَّ الحبَّ وما يتطلَّبه من الرفق والحلم عائق عن سرعة الإنجاز، وتحقيق الأهداف.. وتلك من خدع النفوس وتلبيساتها..

الحبُّ ضمانة قطعيَّة للنجاح بإذن الله.. والناجحون هم الذين يمنحون الحبَّ دائماً، وما لم يتحقَّق نجاحه بالحبِّ، فهو مستعصٍ على النجاح في أغلب الأحوال.. ولا يعني الحبُّ الخروجَ عن الحكمة في معالجة المواقف، وإعطاء كل مقام ما يقتضيه..

الحبُّ سبيل اكتشاف المبدعين، ورقيِّهم وإبداعهم، فالحبُّ يجعل الطفل أو الناشئ يقبل بكلِّيَّته على العلم، ويستجيب غاية الاستجابة لمعلِّمه، ويبذل قصارى جهده في التعلُّم، حُباً بالعلم، وإرضاءً لمعلِّمه، فتتفتَّح مواهبه، ويظهر إبداعه، وما كان ذلك ليكون لولا حبُّه لمعلِّمه..

الحبُّ يغيِّر تفكير المتعلِّم وأسلوبه ومواقفه.. فكثيراً ما يتَّخذ بعض المتعلِّمين موقفاً من التعلُّم عامَّة، أو من تعلُّم بعض العلوم، لسبب من الأسباب، ورُبَّما كان أهمها موقف بعض المعلِّمين منه أو سلوكه معه، وعندما يتهيَّأ له المعلِّم المحبُّ، يغيِّر له تفكير وأسلوبه وموقفه ؛ فيقبل على العلم بعد إدبار، ويحبُّ المادَّة التي كان يبغضها أشدَّ البغض، ويكيِّف حياته وسلوكه وفق ما يرضي معلِّمه المحبوب، ويقرِّبه إليه.. وقد رأيت على ذلك من النماذِج والأمثلة الكثيرَ..

الحبُّ دليل العقل وسعة الأفق.. عندما يسلك المعلِّم سبيل الحبِّ في علاقته بأحبَّائه الأطفال والناشئين، فهذا يعني أنَّه يعي أهمِّيَّة الحبِّ وثمراته وآثاره، وهذا دليل نضج عقله، وسعة أفقه، لأنَّه لا يقف في التعامل معهم عند اللحظة الراهنة..

مغانمُ الحبِّ تستحقُّ كلَّ نصب.. وعندما يطلق المعلِّم لخياله العنان في رؤية ما وراء الحبِّ من مغانم وآثار إيجابيَّة كثيرة، فإنَّه لا يستكثِرُ ما يتحمَّل في سبيله من عناء ونصب..

الحبُّ قفزة من الكمِّ إلى الكيف، ومن الصورة إلى الحقيقة.. فالأطفال الذين لا يتجاوبون مع معلِّميهم، ويتَّقون غضبهم وعقوبتهم بالأداء الظاهريِّ للأعمال المطلوبة منهم، فتكون أعمالاً شكليَّة غير مثمرة، ويتدنَّى مستوى تحصيلهم العلميِّ تبعاً لذلك.. هؤلاء الأطفال إذا أحبَّهم معلِّموهم، وأحبُّوا معلِّميهم يكون لهم مع التعليم شأن آخر، ولن يقف تعليمهم عند الصورة الظاهرة، والأداء الشكليِّ دون تفاعل واستجابة حقيقيَّة، وإنَّما سيكون أداء نوعياً متميِّزاً، وإتقاناً مبدعاً..

بالحبِّ نحلُّ المشكلات، ونستغني عن تدخُّل الآخرين: وإنِّي والله لأشفق من قلبي على أولئك المعلِّمين، الذين لا يزالون يستنجدون بإدارة المدرسة أو بأولياء الأمور لحلِّ مشكلاتهم مع طلابهم.! وكثير من هذه المشكلات تكون تافهة صغيرة، يعرضها المعلِّم وكأنَّها كبيرة من الكبائر المستعصية على الحلِّ.. والأنكى من ذلك أن يكون هذا الموقف من المرشد الطلابيِّ نفسه.. فلا عتب على المعلِّم بعد ذلك ولا جناح.. وخير لهؤلاء أن يستنجدوا بالحب، ليروا من النتائج العجب..

الحبُّ هو السبيل إلى تكوين الشخصيَّة السويَّة: الأطفال الذين يفتقدون حظَّهم من الحبِّ يفتقدون حظاً كبيراً من السواء النفسيِّ، ويسهم المعلِّمون والآباء، الذين يفتقدون للحبِّ في توريثهم عقداً وأزمات نفسيَّة هم بغنىً عنها.. فأيُّ تعليم هذا الذي يبني من جهة، ويخرِّب من جهة أخرى؟!

وأخيراً فالحبُّ من أهمِّ قواعد التربية المتوازنة: فالتقصير فيه، أو الخروج عنه خلل في التربية كبير يقود إلى الإخفاق، وعدم تحقيق الأهداف.. وتراكم ذلك في عملك يمنحك لقب: معلِّم فاشل.! فهل ترضى لنفسك ذلك.؟!

هذه المعاني ليست أحلاماً وخيالات، ولا فلسفة تعيش مع الورق، أو تحلِّق في السماء.. وإنّما هي ثمرات طيِّبة لسلوك عمليٍّ واقعيٍّ، لاحظته في علاقة ابنتي الصغيرة، عندما دخلت الروضة، وكانت شديدة التعلُّق بأبويها، وقد ظننت أوَّل الأمر أنَّها لن تألف الروضة مهما عملَت معها من أساليب تربويَّة جذَّابة للأطفال، إلا بعد عدَّة أسابيع.. ووطَّنتُ النفس على أن أستقبل منها كلَّ يوم أفانين من القول والفعل للتهرُّب من المدرسة..

ولكنَّني فوجئت بها حقاً وهي تحبُّ الروضة وتتعلَّق بها منذ الأيَّام الأولى.. وبحثت عن السبب.. فكان تلك المُعلِّمة الفاضلة المتميِّزة.. التي لم تكن تحمل شهادة علميَّة عليا، ولم تكن ذات ثقافة واسعة، ولكنَّها كانت تحبُّ الأطفال من قلبها، وذات روح عالية في التعامل الإنسانيِّ الراقي معهم.. عرفت ذلك عنها كلَّه من مرآة ابنتي الصافية، التي كانت تتحدَّث عنها كلَّ يوم على سجيَّتها، وبتلقائيَّة فطريَّة؛ تنقل كلماتها.. تذكر مواقفها.. تروي لنا معالجاتها للمشكلات.. تتحدَّث عن حبِّها للأطفال، وحبِّ الأطفال لها، حتَّى إنَّهم ببراءتهم الطفوليَّة حوَّلوا أنشودة للأطفال، ليضمِّنوا فيها اسمها، وتكون أنشودة يتغنَّون بها عندما تدخل عليهم.. ولا أذيع سراً إذا قلت: إنَّني أدعو لها بكلِّ خير كلَّما ذكرت مواقفها مع ابنتي.. وأنا لا أعرف عنها سوى اسمها الأوَّل..

فماذا فعلت هذه المُعلِّمة؟ إنَّها لم تفعل أشياء صعبة أو مستحيلة.. كلُّ ما فعلته أنَّها قالت لهم بصدق: إنِّي أحبُّكم.. وترجمت قولها ببعض الأفعال والمواقف المحبّبة.. كانت تفتتح يومها معهم بهذه الكلمة: إنِّي أحبُّكم.! فهل أنتم تحبُّونني؟ فيجيبونها بصوت واحد: نعم، نحن نحبُّك.. وتمسح على رؤوس الأطفال، وتقبِّلهم.. وتكرِّر هذه الكلمة على أسماعهم في اليوم عدَّة مرَّات، وتتَّكئ عليها فيما تريد منهم، فما يكون منهم إلا الاستجابة السريعة لما تطلب..

وعندما ترى طفلة أو طفلاً حزيناً، أو يبكي تحتضنه، وتقبِّله، وتمسح دموعه، ثمَّ تسأله عن سبب بكائه.. ورُبَّما أعطته شيئاً من الحلوى.. وأوَّل الأسبوع تحتفي بأطفالها احتفاء مميَّزاً، وتستقبلهم بالحلوى، والهدايا، والقبلات لكلِّ طفل وطفلة، وتعبِّر لهم عن شوقها الشديد لرؤيتهم.. فلا تسل عن أثر ذلك في قلوبهم.. فهنيئاً لهذه المُعلِّمة مثل هذه الروح العالية! وهل تعجز أخواتنا المعلِّمات أن يكنَّ مثلها؟

ومع هذه الحقائق والمعاني كلِّها.. فإنَّنا كثيراً ما نقصِّر وننسى.. ونخرجُ عن مقتضى الحبِّ ومطالبه، ونندفع وراء حظوظ النفس ورعوناتها، فنحتاج دائماً إلى استحضار هذه المعاني في علاقاتنا مع الأطفال، وتربية النفس وتدريبها عليها، وضبطها بها، وأن لا نسمح لأنفسنا بتجاوزها، لأنَّنا نريد أن يكون الحبُّ طبعاً لنا وخُلُقاً..

ويتبادر إلينا سؤال مهمٌّ: ما الطريق إلى التربية بالحبِّ:

مدخل أساس، وأصل لا معدل عنه: إصلاح العلاقة مع الله.. وأن يكون الله ورسوله أحبَّ إليك ممَّا سواهما: ﴿والذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُباً لله﴾ البقرة: ١٦٥، وهذا ما يغفل عنه أكثر الناس.. فالحبُّ الأوَّل والأكبر ينبغي أن يوجَّه إلى الله تعالى، ومَنْ صدق في توجيه قلبه لله ملأ الله قلبه بحبِّه والأنس به، ففاض حبُّه على علاقته بالناس..

فكِّر دائماً: لماذا تحبُّ؟ وما البديل عن الحبِّ؟ فالتفكير بذلك يجعلك تستحضر المعاني المذكورة آنفاً.. كما أنَّ التركيز على التفكير بالبديل عن الحبِّ يجعلك تعتقد أنَّ الحب ضرورة، وليس ترفاً..

الحبُّ روح تفيض من الداخل، وليس صورة متصنَّعةً، أو مظاهر شكليَّة، فالتصنُّع لا يثمر ولا يدوم، والمظاهر لا تغني عن الحقائق..

كُنْ واثقاً بنفسك، إيجابياً بعيد النظر، واحذر المتشائمين والمثبِّطين، وما أكثر المعلِّمين الذين يحملون روح التشاؤم، ويتقنون فنَّ التثبيط، وينشرون ذلك في مجالسهم، ولا يتركون فرصة تمرُّ دون ذلك!

انقطع عن دنياك وهمومك الخاصَّة، فكثيراً ما غلبت على المعلِّم همومه الخاصَّة وضغوطها، فانعكس ذلك على مواقفه وعلاقته مع طلابه..

الحبُّ كلمة وسلوك.. فاستحضر الحبَّ ومتطلَّباته في كلِّ موقف.. واتَّخذ للحبِّ وسائله وأساليبه، ونمِّ في نفسك ثقافته، وتفنَّن في تطوير نفسك في هذا المجال..

الحبُّ عطاء بسخاء، فلا تبخل، ولا تنتظر من الناس جزاءاً ولا شكوراً.. فيكفيك أجر الله وجزاؤه..

ابدأ علاقتَك التربويَّة بالتعبيرِ عن الحبِّ.. كما رأيت في خبر تلك المعلِّمة المتميِّزة، فهو استفتاح مبارك، ومقدِّمة لا بدَّ منها.. لأنَّها تحدِّد مسار سلوكك، وتقودك إلى متطلَّباتها..

الحبُّ المطلوب والمظاهر المرفوضة:

الحبُّ الذي نريده هو الحبُّ الحكيم المتَّزن، المقدَّرُ بقدره، القائم على المنهج بأصوله ومبادئه، لا على دغدغة العواطف الآنيَّة، أو المواقف المريبة..

إنَّه عاطفة إنسانيَّة سامية، وحبٌّ أبويٌّ، تمليه الرحمة والشفقة، بعيد عن أيِّ شبهة أو ريبة، ولا بدَّ من التنبيه عمَّا قد يلتبس به الحبُّ المطلوب من أمور تخرج به عن مساره، وتستغلُّ شرف مكانته، ونبل دوافعه، فيكون منفذاً لسلوك مريب، ومدخلاً للنفوس المريضة، لتقف مواقف الريبة والتهم، وإن لم تقارفها، ومن هنا فقد وجب التنبيه والتأكيد على ضرورة بُعد المعلِّم المربِّي غاية البعد عن أيِّ موقف أو تصرُّف من هذا القبيل، وقد جاء في الأثر: (من سلك مسلك التهم اتُّهم) و (من أقام نفسه مقام التهمة فلا يلومَنَّ من أساء الظنَّ به)، وفي لفظ: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم).

فليراقب المعلِّم المؤمن ربَّه، وليحاسب نفسه، وليعلم أنَّ الناقد بصير، وأنَّ الله تعالى مطَّلع خبير، لا تخفى عليه خافية، يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور، وليحذر مداخل الريب، ومزالق التهم، فهو مهمَّة الأنبياء، فلا يدنِّسنَّها بأفعال السوقة الأشقياء..

وبعد؛ فإنَّ الاحتياج للحب أهمُّ احتياجات الإنسان وأرقاها.. بل إنَّه محور احتياجات الإنسان وقطب رحاها، فكيف لا يوليه التربويُّون الاهتمام المناسب، في وضع البرامج والمناهج،

وإقامة الدورات التأهيليَّة والتطويريَّة؟! وكيف لا ينال ما يناسب أهمِّيَّته وقدره من المعلِّم الذي هو أهمُّ إنسان في حياة الطفل بعد والديه؟!

أيُّها المعلِّم المربِّي عندما تتعامل مع الطفل والناشئ بالحبِّ فأنت تزرع الحبَّ في مجتمعه وأسرته، وفي سلوكه ومستقبله.. وحريٌّ بطفل تربَّى بالحبِّ أن يكون له في المستقبل عطاء لأمَّته بلا حدود..

ويتمِّم رسالة التربية بالحبِّ معان فاضت بها المشاعر منذ مدَّة، يناسب أن ألحقها بهذه المقالة، راجياً من الله النفع والأجر..

قد رأيتُ الحبَّ نُوراً..

كُن مُحبّاً.. ألفَ مَرَّه..

ذاتَ صُبحٍ.. ذاتَ بُكرَه..

قد رأيتُ الحبَّ سِرَّه

يَملأُ الكونَ جمالاً.. وَنُضاراً ومَسَرَّه

قد رأيتُ الحبَّ نُوراً.. عبقريَّ الوِردِ ثَرَّه

شَعَّ ألواناً حِسَاناً كشَفَت عن قلبِي ضُرَّه

لَفَّني مَنه سَناءٌ.. يتدلّى مِن مجَرَّه..

ودنا منِّي يناجي.. وحباني منه فِكرَه

وجِبالُ الحبِّ تجري.. ثمَّ نادتني مُسِرَّه:

كُن مُحبّاً.. كُن مُحبّاً..

كُن مُحبّاً.. ألفَ مَرَّه..

كُن لهذا الكَونِ زَهرَه

كُن سُمُوّاً.. كُن علاءً..

يعرف الأشرافُ قَدرَه..

كُن كتاباً..

يَتبارَى الكونُ نَشرَه..

لا تُبالي مَن مَلا الأحقادَ صَدرَه

ربُّكَ الأعلى حَسِيبٌ يَكفِكَ الجبّارُ شَرَّه

لا تُخاصِم مَن تَباهى بالمَضرَّه

لا تقف بين الدنايا.. كُن كلَيثٍ شامَ هِرَّه

كُن كصَقرٍ يتسامى.. حَسبه الجوزاء فَخرَه

أنتَ أسمَى مِن حَسودٍ غِلُّه قد زادَ مَكرَه

أنتَ أزكى مِن لئيم يتوَلَّى أبا مُرَّه..

أنتَ أسمى من سفيه يقطع الأيَّام حَسرَه

أنتَ أثرى من شحيح يجمع الأوهامَ عُمرَه

ازرعِ الحبَّ ابتساماً واملأ الأرجاء عِطرَه

ازرعِ الحبَّ عطاءً دُونَ مَنٍّ وَاجنِ خَيرَه

ازرَعِ الحبَّ وفاءً وتنسَّم منه نَشرَه

ازرَعِ الحبَّ وحاذِر أن تَظُنَّ الحبَّ مَكرَه

فصَحَا قلبي سَعيداً..

مذ حباه الحبُّ زَورَه

زال عنِّي برؤاها..

غُمّةٌ تهتِكُ صَبرَه..

غَرَّدَ القلبُ سُرُوراً.. ومَضَى يكتُبُ شِعرَه.

* * * * *

رِسَالَةٌ إلى وَلَدِي المُرَاهِق!

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد؛ أي بني!

أكتب إليك هذه الرسالة، وهي أوَّل رسالة، ولعلَّها تكون آخر رسالة.. ولقد تردَّدت كثيراً في الكتابة إليك، ثمَّ ترجَّح ذلك لديَّ، آملاً أن تقع منك موقعاً حسناً، وتكون أداءً لحقٍّ لك على أبيك، ومعذرة إلى ربِّك، أنَّني بلَّغت ما أعتقد أنَّه الحقُّ والرشد، ووقفتك على مسؤوليَّتك الشرعيَّة، دون لبس أو تمويه..

لقد عشتَ هذه السنوات الماضية من عمرك المديد بإذن الله، والعلاقة بيني وبينك تقوم على الشفافيَّة، ولطف الصلة، وحسن الاستجابة للتوجيه باللحظ والإشارة، ممَّا أغناني في أكثر الأحيان عن التوجيه المباشر، أو العَتب واللوم، فضلاً عمَّا هو أكبر من ذلك.. وتلك منقبة لك أوَّلاً وآخراً.. تدلُّ على صفاء نفسك، ورقَّة طبعك، وسموِّ همَّتِك، وحسن استعدادك..

لقد كانت الإشارة تغنيني وإيَّاك عن العبارة، وتواصل روحينا يختصر طريقاً طويلاً، معبَّداً أو غير معبَّد.. وكنت أشعر من قرارة روحي أنَّك تسمو يوماً بعد يوم، بما لا يسمو إليه أقرانك في شهر أو أكثر من شهر.. وأستشفُّ لك من ذلك مستقبلاً مشرقاً، يرشِّحك لعملٍ متميِّز في حمل الأمانة، ونصرة الحقِّ، تسبق به من مشى قبلك، وفاق جهده جهدك.. ولست في ذلك واهماً أو حالمًا، ولكنَّني أستشرف سنَّة الله تعالى في عباده، ولن تجدَ لسنَّة الله تبديلاً، ولن تجد لسنَّة الله تحويلاً..

ـ أي بني! إنَّ العلاقة التي تربط بين الوالد وولده تسمو على كلِّ علاقة مع الخلق، يعجز الفكر عن تصوُّرها، واللسان عن التعبير عنها، إذ هي تحكم العقل ولا يحكمها، وتسمو بالوجدان وتوجِّهه، وترشده وتسعده، ويكفي أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قرَّب لنا هذه الصورة، وترك لنا وراءها مدىً بعيداً، من شفافيَّة التصوُّر، ورقيِّ العلاقة عندما قال: (لا يَجْزِي وَلَدٌ وَالِداً إلا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكاً فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ). رواه مسلم.

وأكثر الأبناء لا يعي هذه الحقيقة إلا عندما يصبح والداً، فيستطيع أن يقدِّر عظم حقيقة الوالديَّة وحقَّها، ورفعة مكانتها.. وبعض الأبناء رُبَّما لا يدرك ذلك إلا عندما يكون الأمر قد فات، والتدارك له غير مُوات، فيندم ولات ساعة مندم، ويتحسَّر إذ لا تنفع الحسرة!

ـ أي بنيّ! أتعدُّ نفسك من عوام الناس أم من خواصِّهم؟ أمَّا أنا فلو عددتك من عوامِّ الناس لما حدَّثتك إلا عن أدنى حقٍّ للوالد على ولده، الذي إن فرَّط به خرج إلى العقوق، الذي هو كبيرة من كبائر الإثم.. ولكنَّ حديثي معك عن البرِّ..

والبرُّ أمر أسمى من الحقِّ وأجلُّ، وأرفع وأمنع.. إنَّه سمت الأنبياء والأصفياء، وخلق ذوي الشفافيَّة الألبَّاء.. وسيأتيك يوم إن شاء الله تكون فيه والداً.. فتدرك حقيقة ما أحدِّثك عنه وتتذوَّقه.. وخير لك أن تدركه منذ اليوم، فرُبَّما فاتك التدارك في الغد، أو حيل بينك وبينه..

ـ فما بالك اليوم! قد تغيَّرت عمَّا كنت عليه؟! لقد أصبحتَ لا ترى إلا نفسك.. ولا تفكِّر إلا فيما تريد.. ولقد أصبحتُ أرى بيني وبينك حاجزاً كثيفاً!؟ ولقد تقول: وكيف رأيت ذلك؟!

فأقول لك: رأيتُه بقلب الوالد وبصيرته.. ولو شئتَ لرأيتَه بقلبك، وما أخطأه حدسك.. وإنَّ حديث نفس الآباء يا بنيّ لا يخطئ قلوب الأبناء.. وإنَّه يا بنيّ من معاني البرِّ، التي تستشفُّها القلوب، ولا تخضع لفلسفات العقول وحججها وبراهينها..

وإنِّي لألمح في البرِّ معاني ذوقيَّة عميقة، لا يدركها، ولا يعيها كثير من الناس، ولعلَّها كانت السبب وراء وصف بعض أنبياء الله تعالى في القرآن الكريم بالبرِّ، وتخصيصهم بهذا الوصف، وثناء الله عليهم بذلك، فمن المعاني التي ألمحها:

ـ أنَّ البرَّ دليلٌ على شفافيَّة الروح وتحليقِهَا، وصفاء النفس ورُقيِّهَا، واكتمال المروءة ونضجها..

ـ أنَّ البرَّ سرُّ جاذبيَّة القلوب، وأن ينال الإنسان القبول، فما رأيت بَراً بوالديه إلا موفَّقاً في عمله، محبوباً من الناس، يقبلون عليه بكلِّ قلوبهم، ويجتهدون في خدمته وتحقيق رغباته..

ـ عندما يتفكَّر الولد الموفَّق للبرِّ ببرِّ والديه إيَّاه قبل برِّه، فلن يسعه إلا أن يكون بَراً بهما حفياً، وهذا ما أسمِّيه: (تناغم البرِّ)، وأحمدُ الله تعالى يا بنيّ على نعمه وآلائه، أنِّي من أبرِّ الناس

بأولادهم، لم آلهم حُباً وإشفاقاً، ونصحاً ورشداً، يشهد بذلك كلُّ من عرفني، وعرف أسرتي وعلاقتي بها، وهذا من أعظم فضل الله عليَّ وعليهم ونعمه..

ـ وإنَّ حبِّي يا بنيّ وإشفاقي، ونصحي لك الصادق، يدعوني إلى أن أقدِّم إليك معالم ضروريَّة، على طريق بناء الشخصيَّة السويَّة، والبعد عن سلبيَّات المراهقة، التي قد تنحرف بصاحبها عن سواء السبيل:

ـ إنَّ أكثر الناس يعتدُّون بعقولهم إلى درجة العجب بالنفس والغرور، والاستهانة بعقول الآخرين وأفكارهم، والزهد في استشارتهم، وبخاصَّة في علاقتهم بوالديهم، فاحذر أن تكون منهم.

ـ اعلم أنَّك في مرحلة تستطيع فيها التغيير والبناء بكلِّ سهولة، وستصل إلى مرحلة تحتاج فيها أضعافاً مضاعفة من الجهد لتستطيع تغيير ما يؤسس لك من عادات، في المأكل والمشرب، والعلاقات مع الآخرين، وأسلوب التفكير، ومعالجة الأمور.

ـ إنَّ شخصيَّة الإنسان تكاد تكون مجموعة من العاداتِ، منها الحسن، ومنها غير ذلك، فانظر بِمَ تبنيها اليوم، قبل أن يأتيك يومٌ تستحكم فيكَ فتندم؟

ـ أترضى أن تتَّسم شخصيَّتُك بالتسرُّع والبعد عن الحلم والرويَّة؟ فإذا لم ترتضِ ذلك فدقِّق في مواقفك وردود فعلك، ولا يكن من خلقك التبرير والتماس الأعذار لمواقفك وأخطائك..

ـ كن واضحاً في علاقاتك، صريحاً في مواقفك، جريئاً في طلب حقِّك، فمن لم يتعوَّد على ذلك تقُده صفات ضعفه إلى الكذب وَالمُراوغة، ولا يخفى أمرُه على أكثر الناس، ممَّا يضع الحجب الكثيفة بينه وبينهم، ويسقط مكانته عندهم.

ـ لا يعكِّر صفو شخصيَّتك أن تستأذن والديك، فإنَّك لن تعدم منها خبرة في الحياة وحكمة، ونصحاً ودعاءً، ولا يعكِّر صفو شخصيَّتك أن تشاور.. وأن تسمع رأي والدك، ومن هو أكبر منك، وتتفهَّم وجهة نظره.. ولا يعكِّر صفو شخصيَّتك أن تستنير بآراء الآخرين، وخبرتهم في الحياة..

إنَّ العقلاء والحكماء يا بنيّ يجمعون على أنَّ المشورة دليل على عقل الإنسان ورزانته، وبصيرته وبعد نظره.. وأسأل الله تعالى أن لا أعدم فيك نجيباً لبيباً، وقرَّة عين أريباً.. والله يتولَّى توفيقك وإسعادك..

* * * * *

رُجُولةُ الأطفَالِ وَطُفُولةُ رِجَال!

نموُّ الإنسان آية من آيات إبداع الله تعالى، وجليل حكمته، ومرآة تجلِّيات أسمائه وصفاته.. لاحظ طفلك الصغير وهو ينمو ويترعرع، وأمعن النظر في تصرُّفاته، وفكِّر في بواعث حركاته ومواقفه تخرج بنتيجة واضحة: أنَّه أنانيٌّ مُفْرِط في الأنانيَّةِ وحبِّ الذات..

يرى أنَّه أهمُّ ما في الوجود، وكلُّ شيء حوله يجب أن يكون له، أو يدور في فلكه.. كلُّ مَا له من شعور وفكر، وعمل وسلوك، ورَغبات ومطالب فإنَّما هي موجَّهة نحو ذاته.. ولإشباع هذه: (الأنا) المُفرِطة.. وعلى هذا الشعور العميق تقوم فطرةُ حبِّ التملُّك، والرغبة في الاستئثار بكلِّ شيء..

ويخطئ كثير من الآباء والأمَّهات عندما لا يقبلون هذا الشعور من الطفل، وينكرونه عليه بشدَّة، ويريدون إلغاءه من حياته بكلِّ ما أوتوا من قوَّة، ممَّا يزيد الطفل تعلُّقاً بما هو عليه، ودفاعاً عن مواقفه وتصرُّفاته، بصورة لا شعوريَّة.

ولاحظه بعد ذلك في مرحلةٍ لاحقة، تجده يتحوَّل شيئاً فَشيئاً من هذه: (الأنا) المفرِطة التي لا يعرف غيرها، إلى الشعور بـ: (نحن)، مع الشعور (بالأنا)، ثمَّ الشعور بالآخرين، مع الشعور بـ: (الأنا) و (نحن)، ويبدأ يشعر أيضاً أنَّ إرادة الآخرين قد تتعارض مع إرادته، ومع إرادة: (نحن).. وهذا نموٌّ فطريٌّ سويٌّ..

فهو يشعر بأمِّه أوَّلاً ـ على سبيل المثال، إذ هي أقرب شيء من العالم إليه ـ يشعر بها على أنَّه جزء منها، ثمَّ يتحوَّل شعوره بها على أنَّها جزء منه، يتبع رغباته، ولا شغل له إلا تحقيقها، وربَّما يكُون من سلوك الأمِّ المفرط في التدليل وتلبية الرغبات ما يؤكِّد له ذلك، ويعمِّقه في نفسه، ثمَّ

يمتدُّ شعوره ليشمل من يحيط به ممَّن هو في دائرة الـ: (نحنُ)، ثمَّ تتَّسع دائرة شعوره وتمتدُّ، فيبدأ يشعر بأمِّه لا على أنَّها جزء منه، ولا من خلال الشعور بـ: (نحن)، وإنَّما هي جزء من العالم الذي يعيش فيه.. وهنا تراه يبتعد عنها، بينما كان لا يطيق فراقها..

وبينما كان لا يعرف إلا إرادته ورغباته فقد بدأ يشعر بإرادة الآخرين ورغباتهم، وأنَّها قد تختلف مع إرادته ورغباته وتصطَدِم..

وبينما كان لا يعرف إلا لغة الأخذِ والمطالبة، فقد بدأ يعرفُ لغةَ الأخذِ والعطاء..

ثمَّ يدخل طوراً آخر عندما يعرف أنَّ ما يُحبُّ ويرغب لا بدَّ له فيه من المعاناة وبذل الجهد، وأنَّ الحياة لا تقفُ عند لُغةِ ما يُحبُّ الإنسان ويرغب، وإنَّما هناك لغة الواجبِ، الذي يُسألُ عنه، ويطالَب بتأديته، ويجازى بفعله، أو يعاقب على تركه..

وإنَّ أهمَّ معيارٍ لنجابةِ الطفلِ أن تنضج في نفسه فكرةُ (نحنُ) و (الآخرين)، بصورة سويَّة متوازنة، ويحسِنَ التعامل معَها منذُ مرحلةٍ مبكِّرة، إذ إنَّها تنبني عليها أخلاق وقيم، تشكَّل شخصيَّة الطفلِ، وتبني كيانه المستقبليَّ المتميِّز..

وإذا ظهر هذا الوعي في الطفل منذ مرحلة مبكِّرة، وظهرت فيه هذه النجابة فأمِّل له المستقبلَ المشرقَ بإذن الله، وما أصدق هذه الكلمة: (إذا أشرقت البدايات أشرقت النهايات)، و (من لم تكن له بداية مُشرِقة لم تكن له نهاية مُغدِقة).

ولا يخفى أنَّ هذه الأطوار التي يمرُّ بها الطفل، ليست مُنفصلةً مُتمايزة، وإنَّما هي مُتَّصلة متداخلة، متمازجة متقاربة، وهي تختلف شدَّةً ونوعاً من طفل إلى آخر.. كما تختلف المدَّة التي تتطلَّبها من طفل إلى آخر..

وكلَّما نمى عقل الطفل، وازداد علمه ووعيه، وسمَت نفسه، وأرهفَت مشاعره، واتَّسعت آفاقه، ضمرت مشاعر (الأنا) المفرطة واعتدلت، وتهذَّبت أخلاقها وصفاتها، واحتلَّت مساحتها (نحن)، بأخلاقها وصفاتها.

فإذا اكتمل عقل الإنسان، وبلغ أشُدَّه تمايز الناس، ثلاثة أصناف: فكان منهم عظماء الرجال، ومنهم عامَّة الناسِ، ومنهم أشباه الرجال ولا رجال.. فعظماء الرجال هم المحسنون أهل الفضل، الذين يرون العطاء والبذل هو الذي يحقّق ذاتهم وطموحهم..

وعامَّة الناسِ هم أهل العدل، ورُبَّما غلبتهم (الأنا) المفرطة فجاروا، فاحتاجوا إلى من يردُّهم إلى العدل، وأشباه الرجال هم أهل الظلم والجور، ورُبَّما كان منهم العدل عندما يرون فيه مصلحتهم العاجلة..

ولاشكَّ أنَّ الأنا الفرديَّة نعمة في الأصل، عندما تكون دافعاً إيجابياً، لأنَّ فيها نفعاً للجنس البشريِّ كلِّه، على أن لا تخرج عن حدِّها إلى أثَرَة بغيضة مفرطة.. فهناك الأنا الفرديَّة المَرَضِيَّة، والأنا الفرديَّة السويَّة، التي تقوم على الاهتمام بالخصوصيَّة، وتحمُّل المسؤوليَّة، والسلوك الإيجابيِّ..

فأمَّا عظماء الرجال فهم الرجال بحقٍّ، والرجالُ قليلُ، وهم الذين ذابت من نفوسهم مشاعر (الأنا) وامَّحت، واكتملت مشاعر (نحن) بأخلاقها وصفاتها، فهم لا يرون لحياتهم قيمة إلا إذا ارتبطت بحياة الناس، والعمل على إسعادهم، قد وضعوا نصب أعينهم العمل لإصلاح الناس وترقيتهم، روحياً ونفسياً ومادِّياً..

ترى كلَّ واحدٍ منهم واسع النظر، عميق الفهم، رحب الصدر، متسامحاً لا يعرف العصبيَّة لرأي أو حزبٍ أو فئة، يُقَدِّم مصلحةَ الآخرين على مصلحته، وحقَّهم على حقِّه، فيضحِّي براحته ووقته في سبيل إسعادهم، ويرى أنَّ ما ينال من حظٍّ روحيٍّ بذلك يفوق أضعافاً مضاعفة ما يبذل من حقِّه، ويترك من حظِّه..

وعظماء الرجال رُبَّما كانوا أطفالاً من حيث الصورةُ الظاهرة، ولكنَّهم من حيث الحقائق التي يحملونها، والقيم التي يعونها قد سبقوا كثيراً ممَّن هم في صورة الرجال..

ولقد عرفت هذه الأمَّة نماذج فذَّة من رجولة الأطفال المبكِّرة، وأعني بالرجولة النضج، وما يقترن به من نبوغ علميٍّ أو عمليٍّ..

اقرأ من سير هؤلاء سيرة عبد الله بن الزبير، وسيرة عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز، وسيرة أمِّ المؤمنين الصدِّيقة بنت الصدِّيق السيِّدة عائشة، وغيرهم كثير..

ويتسامى عظماء الرجال ويتفاضلون، حتَّى يكون منهم المصلحون الكبار، الحكماء الراشدون، المهتدون بهدي الأنبياء والمرسلين.. وأعلى العظماء شأناً وشأواً: الأنبياء والمرسلون، فهم الأسوة العظمى للخلق كافَّة، لأنَّهم قد خرجوا عن حظوظ أنفسهم، ولم يتحرَّكوا في الحياة لأجلها، وعاشوا حياتهم للغاية الكبرى التي خلقوا لها، دعاة للخلق إلى ربِّهم، وهداة للعباد إلى ما يسعدهم في دنياهم، وينجيهم في آخرتهم، وكانوا منارات لمن بعدهم.. ولم يبالوا بما نالهم في الله من أذى الخلق واستهزائهم، وكيدهم وافترائهم..

وأعلى المرسلين شرفاً وقدراً سيِّدُنا محمّد صلَّى الله عليه وسلَّم، الذي أثنى الله عليه بالخلق العظيم، وجمع له كمالات الأوَّلين والآخرين، وجعل شريعته خاتمة الشرائع إلى يوم الدين.. فقد كان عليه الصلاة والسلام لا يغضب لنفسه، ولا ينتصر لها، وإذا انتهكت حرمات الله لم يقم لغضبه شيء.. ولم يصدّه عن نفع الناس، والحرص على هدايتهم شيء..

وأمَّا عامَّة الناسِ، فهم الذين تتقارب في نفوسهم وسلوكهم ومواقفِهم: (الأنا) مع (نحن)، فلا يتخلَّون عن (أنا) في سبيل الآخرين، كما لا يتنكَّرون للآخرين انسياقاً وراء ذواتهم، ورُبَّما مالت الكِفَّة بهم ذات اليمين أو ذات الشمال، ولكنَّهم عندما ينساقون وراء أنانيَّتهم في موقف من المواقف يشعرون بإسفاف نفوسهم، وتدنِّي مستواهم، ويحسُّون بعذاب ضميرهم، وتأنيبه لهم..

فهم بين شدٍّ وجذب، لا يزالون يغالبون نزعات الطفولة في أنفسهم، ويرون ضرورة التسامي عليها، ويتطلَّعون إلى حياة العظماء، ويرغبون في بلوغها.. وهؤلاء لعمر الحقِّ على خير عظيم..

وأمَّا أشباه الرجال ولا رجال، فهم الأطفال في صورة رجال، وليتهم كانوا ببراءة الأطفال، ولكنَّهم قد نمت أجسَامُهم، وامتدَّت سنواتُ حياتهم، وربَّما ملكوا الأموال الطائلة، وتمتَّعوا بالجاه العريض، وكانوا على علم من علوم الدنيا، ولكنَّهم لا يزالون يعيشون الطفولة

العقليَّة في نفوسهم ورغباتهم، يفرحون بما يفرح به الأطفال، ويحزنون لما يحزن له الأطفال، ويتعلَّقون بالحسِّيَّات ومتعها، ويقنعون بها، ويقيمون لها أكبر الوزن والاعتبار..

وما أكثر أشباه الرجال في حياتنا، الذين يتبوَّؤون مراكز القوَّة والتأثير! ويلتفُّ حولهم الغوغاء والدهماء، ومرضى القلوب من المتزلِّفين، ممَّا يزيدهم غياً وضلالاً..

وينبغي أن يعلم أنَّ الحياة ملأى باختبارات الطفولة والرجولة، ومن نجح في اختبار تأهَّل لاختبار آخر، ولا يزال الطفل يسمو برجولته المبكِّرة حتَّى يكون في مصافِّ العظماء، ولا يزال الرجل تسفُّ به طفولته حتَّى يكون من أموات الأحياء.. ولا سواء بين مراتب الأحياء، فالمرء حيث يضع نفسه..

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

لِـمَاذا نُحِبُّ الأطفالَ؟

سؤال طالما أثير.. ولم يجد عند كثير من الناس جواباً مقنعاً..

أنُحِبُّ الأطفالَ لأنَّنا نجد فيهم ذاتنا، وذكرَياتِ طفولتنا، التي فقدناها، ولا نزال نَحِنُّ إليها مع الأيَّام؟

أمْ لأنَّنا نجد فيهم براءةَ الفطرةِ وصفاءها، التي تميل النفوس إليها، وتسعد برؤيتِها، متجسِّدة بصورة من الحياة اللطيفة الجميلة؟

أمْ لأنَّنا نجد فيهم وعندَهم ما لا نجده عند الكبار، من العفويَّة الشفَّافة، وكريم الأخلاق، وجميل السجايا والخلال؟

أمْ لأنَّنا نجد فيهم القرب من أرواحنا، بصدْق العاطفة، وبَراءة السلوك، ولو شابه الشغب، وفرط النشاط والحركة؟

أمْ لأنَّنا نجد فيهم امتداداً لأنفسنا، وزيادة في أعمارنا إذا كانوا أطفالنا وأحفادنا، أو من يلوذُ بنا؟

أمْ أنَّنا نجد فيهم إقبال الحياة الغضَّة، ورُبَّما نجد في أنفسنا إدبارها وأفولها؟!

أمْ لأنَّنا نجد فيهم صفاتٍ نحبُّها من أعماق قلوبنا، كما نجد فيهم حاجة الإنسانيَّة إلى الحبِّ والرحمَة، والرفق والرأفة؟

أمْ لأنَّنا نجد فيهم بسمة الحياة الإنسانيَّة المزدهرة، التي لا تشوبها شوائب الزيف والخداع؟!

أمْ لأنَّنا نجد فيهم هذه الأسبابَ كلَّها، وغيرَها ممَّا قد لا يخطر لنا على بال، ورُبَّما قد تبدي لنا بعضه الأيَّام؟

والحقّ أنَّ البشر لا يكادون يجمعون على شيء، على اختلاف ألوانهم وأجناسهم، كما يجمعون على محبَّة الأطفال! وتلك ظاهرة إنسانيَّة عامَّة، لها دلالتها المعبِّرة.. ومن شذَّ عنها فإنَّما يدلِّل على فساد فطرته، وانتكاس إنسانيَّته..

ومهما يكن السبب فإنَّ الحبَّ نعمة إلهيَّة كبرى على الإنسان، تدعوه إلى الشفقة والرحمة، والرفق والخدمة، وبذل قصارى الجهد في الرعاية، إذ الإنسان أطول المخلوقات فترة حضانة ورعاية..

* * * * *

نَحنُ وَأطفَالُنا.. أيُّنا أحوَجُ إلى الآخَرِ؟

كثير منَّا عندما يتحدَّث عن الطفولة يستشعر ضعفها واحتياجها، أمام قوَّته واستغنائه فيما يقدِّم من الخدمة لها، وضعف الإنسان في مرحلة الطفولة أمر مُسلَّم به مشهود، نصَّ عليه القرآن الكريم في مناسبات متعدِّدة، ولكنَّ ذلك لا يعني الاستخفاف بشأن الطفولة، وأن نُغفِلَ مِننَ الله علينا بها، وأثرها الكبير في تحقيق إنسانيَّة الإنسان، وفي بناء المجتمع الإنسانيِّ ونموِّه وتطويره.

الطفولة هي الصفاء والبراءة، هي الفطرة والبهجة، هي المستقبل والأمل، هي واحة العطاء المتفتِّحة، في بيداء الحياة الكالحة..

ألسنا بحاجة إليهم لندخلَ مرحلة الأبوَّة وما بعدها؟

ألسنا بحاجة إليهم لتنْضُجَ عواطفنا الإنسانيَّة، وتسمو مشاعرنا، ونعرف أقدار أمَّهاتنا وآبائنا؟

ألسنا بحاجة إليهم ليكونَ لنا ذخر من الأجر عند ربِّنا، وذكر حسن بعد موتنا؟

ألسنا بحاجة إليهم لنحقِّقَ بهم من طموحنا، ما عجزنا عن تحقيقه بأنفسنا؟

ألسنا بحاجة إليهم لندخلَ البهجة إلى قلوبنا، وتتوثَّق روابطُنا بأزواجنا؟

ألسنا بحاجة إليهم! إنَّ حاجة الأبوَّة إلى الطفولة في هذه الأمور كلِّها وغيرها..

حينما فقد الأديب أحمد حسن الزيات ولده الوحيد (رجاء) ذي الأربع سنوات، بسبب مرض ألَـمَّ به ، فكتب والده قطعة نثرية باكية تذوب حروفها أنيناً ، فكان مما قال:

(هذا ولدي كما ترى، رُزِقته على حالٍ عابسةٍ كاليأس، وكهولة بائسة كالهرم، وحياة باردة كالموت، فأشرق في نفسي إشراق الأمل، وأورق في عودي إيراق الربيع، وولَّد في حياتي العقيمة معاني الجدَّة والاستمرار والخلود!

فهو صغيراً أنا، وأنا كبيراً هو؛ يأكل فأشبع، ويشرب فأرتوي، وينام فأستريح، ويحلم فتسبح روحي وروحه في إشراق سماوي من الغبطة لا يُوصَف ولا يُحَدُّ.

ذلك كلُّه انعكاس حياة على حياة، وتدفق روح في روح، وتأثير ولد في والد! ثم انقضت تلك السنون الأربع! فطوّحت الواحة وأوحش القفر، وانطفأت الومضة وأغطش الليل، وتبدد الحلم وتجهَّم الواقع، وأخفق الطب ومات "رجاء")!!

* * * * *

جَدِّدْ طُفُولَتَك!!

مَنْ منَّا يتمنَّى أن يعود إلى سنِّ الطفولة، لِيَبتدئَ الحياة من جديد؟ أظنُّ أنَّ المجتمعات الإنسانيَّة لا تخلو من نسبة كبيرة من الناس تتمنَّى ذلك بدوافع مختلفة: فمنهم من يتمنَّى ذلك حُباً في إطالة أمد الحياة، ومنهم من يتمنَّى ذلك نوعاً من حبِّ اللهو والعبث.. ومنهم من يتمنَّى ذلك استدراكاً لما فاته في طفولته، لأنَّه لم يَعِش طفولته كما يتصوَّر، ومنهم من يتمنَّى ذلك لما يحمِلُ في

نفسه مِنْ ذكريات عن الطفولة جميلةٍ.. ومنهم من يتمنَّى ذلك لدوافع أخرى.. ولكنَّ الجميع فيما أحسب لا يتمنَّون العودة إلى الطفولة، إن كان في تلك العودة ما ينتَقص أعمارَهم، أو يقرِّب آجالهم!!

ومن الناس من يتمنَّى العودة إلى الطفولة لما يرى فيها من براءة الفطرة، وطهرِ السيرَة، وصفاء السريرة.. وكلُّ ذلك أصبح يفتقده في عالم الكبار.. بل إنَّه ـ كما يقول ـ ودَّع من نفسه السعادة، منذ ودَّع قطار الطفولة وفارقه إلى غير رجعة.. وامتطى قطار الكبارِ، وانطلق به في لجَّة الحياة.

إنَّها أمنية تداعب مشاعر أكثرِ الناس، وتراود أحلامهم.. ويعبِّر عَنْ تلك الأمنية ما جاء في الجملة المأثورة من الحديث الصحيح: (لو استقبلتُ مِنْ أمري ما استدبرت). متفق عليه.

ولكنَّ هناك عودةً إلى الطفولة مُمكنةً، وتجديداً للطفولة مَطلوباً، أحسب أنَّ كثيراً منَ الناس لم يفكِّروا فيه، ولم يخطر لهم على بال.. إنَّه عودةٌ إلى الطفولة من وجْهة نظرٍ إيمانيَّةٍ، قد تحدَّثتْ عنها النصوص الشرعيَّة في مناسباتٍ مختلِفة فرغَّبت بها، وشدَّت القلوب إليها.

ففي مناسبات عديدة من الترغيب في العمل الصالح، يَعِدُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم من يَقوم بالعمل الصالح على وجهٍ أقربَ إلى السداد والكمال (أن يرجع من ذنوبه كيومَ ولدته أمُّه)..

ومثل هذا التعبير من حيث الأثر: (غفر له ما تقدَّم منْ ذنبه)، وما أشبه ذلك، وقد جاء ذلِك في الحجِّ، وفي صيام شهر رمضان إيماناً واحتساباً، وفي قيام رمضان إيماناً واحتساباً، وفي غَير ذلكَ من الأعمال الصالحة..

وهذا التعبير يعني العودة إلى الطفولة، والطفولة هي تلْكَ الصفحة النقيَّة، والفطرة السويَّة، التي خلقَ الإنسان عليها، وهي تعني البراءة من كلِّ سوءٍ، والسلامةَ من كلِّ إثم.. وصفاءَ النفسِ وحسنَ استعدادها.. وهذه العودة إلى الطفولة تجمع بين حسنات ما يكون عليه الإنسان في وقته الراهن، وبين حسنات الطفولة ومزاياها.

آثار العودة المعنويَّة إلى الطفولة:

للعودة المعنويَّة إلى الطفولة آثار وثمرات في حياة الإنسان بعيدة المدى:

أ ـ فمن هذه الآثار والثمرات تجديد حياة الإنسان وحيويَّته، وتجديد نشَاطه للعمل الصالح، وبعث همَّتِه الراقدة.

ب ـ ومن هذه الآثار والثمرات توجيه الإنسان نحو الفطرة السويَّة ومزاياها، وجعلها هدفاً يتطلَّع إليه الإنسان في حياته، فيحرِص على المحافظة عليها، والانتفاع بمَزاياها.

ج ـ ومن هذه الآثار والثمرات محبَّةُ الناس، وإقبالهم بقلوبهم عَلى مَن يَتمتَّع بالصفة الطفوليَّة، التي تحمل روح البراءة، وصفاء الفطرة، وذلك خيرُ مَدخلٍ للتأثير فيهم. ولعلَّ هذا ما يفسِّرُ لنا الانجذابَ الخاصَّ نحو بعض الناس دون أن نعرف سبباً ظاهراً لذلك.

وهناكَ عودة أخرى إلى الطفولة التي نتمنَّاها، عندما نصنعُ لأطفالنا، ما كنَّا نتمنَّاه من الكبار في طفولتنا.. لقد كان كثير منَّا في طفولته يتمنَّى أشياء كثيرة، وينتقد من مواقف الكبار معه وتصرُّفاتهم أشياء كثيرة أيضاً، ويقرُّ في نفسه ويعزم: أن لو أصبح كبيراً في يوم من الأيَّام لما وقع في تلك الأخطاء المسيئة للطفولة أيّما إساءة.. فما باله اليوم ينسى عزماته تلك؟! وينخرط في عالم الكبارِ، الذين لا يعرفون مشاعر الأطفال، ولا يقدرونها حقَّ قدرها؟!

وبعد؛ فإنَّنا حينَ نعود إلى الطفولةِ، ونحن نحمل خبرة الكبارِ وعلم الكبار، لا شكَّ أنَّنا نتعامل مع الطفولة بصورة مختلفة، أهمُّ ما فيها أنَّها تفهم الأطفال، وتقدِّر مشاعرهم واحتياجاتهم، وتحترمها أبلغ التقدير والاحترام.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

ارحَمُوا أطفَالَكُمْ!

لعلَّ من أهمِّ ما يحقِّق للمربِّي النجاح في تربيته: أن يستذكر طفولته دائماً، بحلوها ومُرِّها، وإيجابيَّاتها وسلبيَّاتها، وجدِّها وعبثها، فذلك أجدر به أن يحسن التعامل مع طفولة أولاده، ويقدر المرحلة والأطوار التي يمرُّون بها حقَّ قدرها..

ولكنَّ مَن يُلاحظ حال كثير من الآباء والمربِّين يرى أنَّهم يتعاملون مع الأطفال وكأنَّهم لا يعرفون الطفولة ولا تعرفهم.. يتعاملون مع الأطفال وكأنَّهم كبار عقلاء راشدون، قد خبرتهم

تجارب الحياة وخبروها.. فيتوقَّعون منهم أفعال الكبار ومواقفهم، ونضج الكبار ورشدهم، وكأنَّهم لم يكونوا في يوم من الأيَّام أطفالاً، يغلب عليهم عبث الطفولة وطيشها، ويخطؤون ويزلُّونَ.. ويتمنَّون أنْ يقدِّر الكبار طفولتهم، ويرحموا سنَّهم، فلا يرون ذلك من الكبار ولا يحسُّونه..

ومن ثمَّ تكثر شكوى هؤلاء الآباء والمربِّين من أطفالهم، ويكثر عتبهم وتذمُّرهم، وتأنيبهم وتوبيخهم، وتكون النتيجة أن تتَّسع الفجوة بينهم وبين أولادهم، ويفقدون التأثير فيهم، ويخفقون في تربيتهم.

أعرف طفلاً على درجة متميِّزة من الذكاء وسرعة البديهة، قد ابتلي بوالد كثير العتب والتأنيب والتوبيخ، وربَّما سارع إلى ضرب أطفاله لأتفه سبب، فاستدرج الطفل والده في الحديث عن ذكريات طفولته، ومواقفه مع والدته، واستعذب الوالد الحديث، وسرح مع ذكرياته، فذكر مواقف ممَّا كان عليه من عبثٍ وطيش، وكيف كانت والدته تعامله بالرفق وحسن التوجيه..

وسمع الطفل من والده بعض الأمثلة والمواقف فأسرَّها في نفسه، ولم يُبدِها لوالده.. وعندما كانَ في موقف مشابهٍ، وتوقَّع من والده أن يثور عليه ويغضب، سارع فقال له: ألم تذكر لنا يا أبي أنَّك فعلتَ مثلَ ذلك ولم تعاقِبك جدَّتي، بل دعت لكَ أن يصلحك الله ويهديك؟ فخجل الوالد، وهدأت سورة غضبه، وأخفى وجهه وهو يضحك.. وصدق الله العظيم: ﴿كَذلِكَ كُنتُم مِنْ قبلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيكُم﴾ النساء: ٩٤.

ولعلَّ أهمَّ مبدأ وأصل من أصول التربية: التدرُّج في التعليم والتوجيه، وهو يقتضي من الوالد والمربِّي أن يتحلَّى بالرفق والصبر، وبعد النظر، وطول النفَس، ومراعاة طاقة الطفل أو الناشئ وقدراته.. وما أشبه تدرُّج نموِّ الطفل النفسيِّ والفكريِّ بتدرُّج نموِّه الجسديِّ، فكما أنَّك أيُّها المربِّي لا تستطيع ولا ترضى أن تحمِّله عشرين كيلو غرام، وهو في سنِّ ثلاث سنين أو أربع، وتخشى أن تقع عليه فتقتله أو تؤذيه، وعندما يبلغ أَشُدَّه يحملها، ويحمل ما هو أثقل منها، فكيف ترضى لنفسك أن تحمِّله مثل ذلك نفسياً أو فكرياً، ثمَّ تشتدُّ في محاسبته ومؤاخذته؟!

ولنا على ذلك في هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم دليل وأي دليل! فقد قال رسول الله بمناسبة الأمر بالرفق بالأرقَّاء: (وَلا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ عَلَيْهِ) متفق عليه.

أهمُّ ما ينبغي على الوالد والمربِّي أن يراعيه ليكون راحماً للطفل أو الناشئ، ولا يكلِّفه من أمره رهقاً:

١ـ علِّمه الأسماء قبل أن تطلب منه الأشياء:

كثير من الآباء يظنُّ أنَّ ولده يعرف أسماء الأشياء بداهةً، فيطلب منه شيئاً، وعندَما لا يستجيب له الطفل، لأنَّه لم يفهم عنه ما طلب منه، يظنُّ بولده المعاندة وحب المشاكسة، والاستهتار بطاعة والده، وهو في الحقيقة قد سمع أسماء كثير من الأشياء من والديه وإخوته، وكثير ممَّن حوله، ولكنَّه لم يربط بين الأسماء ومسمَّياتها في حياته، ومن هنا جاء قولُ الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾البقرة:٣١. أي أنبئوني بأسماء الأشياء، وهو ما يشير إلى أهمِّيَّة الربط بين الأسماء ومسمَّياتها، ولو تأكَّد الوالد من معرفة ولده بأسماء الأشياء لانتفى تعجُّله وظنُّه، وما يجرُّه إليه من مَوقف غير تربويٍّ مع ولده.

وأذكر أنَّ بعض الأصدقاء شكى لي عناد طفله، وجموده في وجهه كلَّما طلب منه شيئاً، وقدَّر الله تعالى أن أحضر موقفاً مشابهاً بين الطفل وأبيه، فلاحظت أنَّ الطفل، وهو ابن أربع سنوات أو خمس، عندما طلب منه والده أن يحضر له صحناً وشوكة، وقف ساهياً في وجه والده، وكرَّر عليه والده الطلب بصورة غاضبة.. وتوقّعت أنَّه لم يفهم عن والده ما يريد، فسألته: هل ذقت طعم الصحن والشوكة؟ فسكت.. فأعدت القول عليه.. فقال: طعمه طيِّب!

فقلت لوالده: أرأيت؟ إنَّك تطلب منه شيئاً لا يعرف معناه، فكيف يستجيب لك ويحضره.. كان عليك أن تعرِّفه به قبل أن تطلبه منه.. وقلت للطفل: يا حبيبي! إذا طلب منك أحد شيئاً لا تعرفه، فلا تخجل، اسأله عنه، فلا عيب في ذلك: ما هو؟ وبماذا نستعمله؟ أو قلْ لوالدك: يا أبي! أنا لم أفهم عليك.

٢ـ ومن فهم المفردات إلى فهم الجمل والتراكيب:

فتأكَّد من فهم ولدك لما تقول له: فقد لا يفهم الطفل كلمة واحدة من الجملة، فيضيع عليه فهم الجملة كلِّها، ويتجلَّى هذا أكثر ما يتجلَّى في المعاني الذهنيَّة أو التجريديَّة، فليدقِّق الوالد والمربِّي في الجملة التي يطرحها على الطفل: كلماتها وتركيبها، وليتأكَّد أنَّها في مستوى نموِّه اللغويِّ والمعرفيِّ.

٣ـ لا تثقل على طفلك في المطالب:

فلكلِّ سنٍّ ما يناسبه من القدرات، والصبر على دأب العمَل، فلو زيد على الطفل فيها لرُبَّما أدَّت إلى عكس المقصود، فإنَّ المنبتَّ لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى، والطفل سريع الملل، وهو بحاجة دائمة إلى تجديد النشاط، ودفع السآمة عن نفسه. ويتَّصل بهذه النقطة النقطة التالية.

٤ـ أطلب منه ما يناسب سنه:

لا تطلب من طفلك مستوى من الجدِّيَّة والأداء لا يتناسب مع سنِّه ونموِّه، وتذكَّر ما كنت عليه في طفولتك، أعرف والداً كان كلَّما زاد الولد إنجازاً في عمله وإحساناً ازداد الوالد إشعاراً له بتقصيره، ومطالبته بالمزيد من الجدِّيَّة والأداء، ولم يسمعه شيئاً من الثناء عليه أو التشجيع.. وهذا ما يحبِّط نفس الطفل، أو يغريه بترك العمل أو الجنوح إلى التمرُّد والمعاندة.

* * * * *

طُوبَى لِكُلِّ أُمٍّ!

أهدي هذه الكلمات إلى كلِّ أُمٍّ تحمل بين جنبيها مأساتها، وتكتم أحزانها، وتصبر على جراحها، وتؤثر مسؤوليَّتها على رغباتها.. ورُبَّما لم يعلم معاناتها أقرب الناس لها..

طُوبَى لِكُلِّ أُمٍّ! تعيش داخل مشاعر أطفالها: تحبُّها أوَّلاً.. تقدِّرها.. تعرف دوافعها.. تعذرها.. تستلذُّ متاعبها.. تتحمَّل تمرُّدها.. تعالجها بحكمة وصبر.. تتمتَّع بها.. تذكر نفسها يوم كانت مثلها.. تمشي معها خطوة خطوة.. ترقى بها.. تحفُّها بدعواتها الضارعة.. وتحبُّها آخراً..

طُوبَى لِكُلِّ أمٍّ! تجد أسعد لحظات حياتها، وهي بجوار أطفالها، تغفل عنها كلُّ عين، وتهملها كلُّ عدسة مراقبة لاقطة، ولكنَّها لا تبالي تلك الأضواء الزائفة، لأنَّها تنظر إلى عين الله، التي لا تغفل عنها ولا تنام، ولا تنسى أيَّ حركة لها، وهي ترعى طفولتها، وتتقرَّب إلى الله بتربيتها..

طُوبَى لِكُلِّ أمٍّ! تهزُّ بيمينها سرير طفلها.. تحنو عليه.. تلاعبه.. تغنِّي له أعذب ألحانها بأمانيها الواعدة.. وتنظر بعينيها إلى مستقبل أيَّامه: شاباً يافعاً.. ورجلاً ناضجاً.. وفتاة تحمل بين جنبيها جمال الحياة.. وامرأة تكتب تاريخ الأمَّة بجهادها..

طُوبَى لِكُلِّ أمٍّ! وقفت نفسها على أطفالها، فلا تكل أطفالها في شيء من أمرهم إلى غيرها.. ولا تسمح لشيء من المنغِّصات أن تعكِّر صفو أطفالها.. بَلْهَ أن تغتال براءتهم، أو تزرع العقد والتشوُّهات في شخصيَّتهم..

طُوبَى لِكُلِّ أمٍّ! تضحِّي بصحَّتها وراحتها، لتحمي طفولة الإنسان، وترعى نشأته، وتصنع شخصيَّته، وتبني غده ومستقبله، لا تمنُّ على أحد، ولا تريد جزاءً ولا شكوراً من أحد.. إلا من خالقها وحده..

طُوبَى لِكُلِّ أمٍّ! أسعدت نفسها بأطفالها.. وأسعدت زوجها بأولاده.. وأسعدت أسرتها بلمساتها الحانية الودود.. في كلِّ جوانب حياتها: النفسيَّة، والروحيَّة، والجماليَّة.. وأسعدت مجتمعها بتلك اللبنات السويَّة القويَّة.. فأعطت للحياة جمالها.. وكانت مصدر أمن وسعادة، وانسجام ومودَّة..

طُوبَى وعزاء لِكُلِّ أمٍّ! لم تجد اليد المساندة، التي تعينها على أداء رسالتها، ولا التقدير المناسب ممَّن حولها، فمضت بعزمها تشقُّ طريقَها، ولم تتخلَّ عن مسؤوليَّتها ووظيفتها، ولم تنقلب على عقبيها.. لأنَّها تحتسب عند الله أجرها.. وترضى أن تكون عين الله وحده معها، تراها وترعاها..

طُوبَى لِكُلِّ أمٍّ! وسحقاً لكلّ طاغية مجرم، فجعها بطفلها وشبابها.. أعز ما تملك في حياتها، فسكبت دمعها في خلوتها، وصبرت، واحتسبت..

وسكت عن جرائمه الناس، فزاد في آلامها سكوتهم وجحودهم.. ثمَّ يزعمون لها أنَّهم يحبُّونها، ويعرفون قدرها..

طُوبَى لِكُلِّ أمٍّ! ولأمِّي التي لا أنساها.. لأنَّها وضعت بصماتها على حياتي، في كلِّ جوانبها.. ومضت إلى ربِّها قريرة العين، راجية عفوه ومغفرته، بعدما أدَّت رسالتها، وجاهدت قدر استطاعتها جهادها، مع أحد عشر هبة من هبات الله لها..

فاللهمَّ اغفر لها، ولوالدي، ولكلِّ أُمٍّ بحقٍّ، كفاء ما قدَّمن، ويقدِّمن من عطاء وجهاد، لهذه الطفولة التي تحبُّها..

* * * * *

وَاضْرِبْ لَـهُنَّ مَثَلاً! تِلْكَ المِسكِينَة العَامِلة!

امرأتان ورثت كلُّ واحدة منهما أرضاً كبيرة بكراً، لا زرع فيها ولا شجر، ولا ماء ولا ثمر، وفي كلِّ أرض ما فيها من نبات الفلاة وشوكها، وآثار البوار والإهمال..

فأمَّا الأولى فاهتمَّت بأرضها؛ فكانت كلَّ يوم تزرع ما استطاعت من الورد، وتغرس ما استطاعت من الشجر، وتسقي ذلك وترعاه.. وتقطع ما استطاعت من الشوك، وما لا خير فيه من النبات..

وأمَّا الأخرى فكانت أعلم من صاحبتها بما يصلح الأرض، وما يفسدها، ولكنَّها شغلت عن أرضها بالعمل خارجها، وخدمة أرض غيرها، وما تنال من وراء ذلك من أجر مادِّيٍّ..

فكانت كل يوم تقول: (الأمر ميسور عليَّ، غداً أتفرَّغ لأرضي، وأبذل فيها كلَّ جهدي، حتَّى تكون في مدَّة يسيرة حديقةً غنَّاء)..

ومضت الأشهر على ذلك بعد الأشهر، والسنون بعد السنين، والأولى دائبة في عملها مجتهدة، والأخرى مَشغولة مُسوِّفة، حتَّى مضى على ذلك عقدان من السنين أو يزيد..

فإذ بأرض الأولى حديقة غنَّاء.. فيها من الورود ما تعبق طيوبها، ويفوح شذاها، وفيها من الأشجار المثمرة كلُّ ما لذَّ وطاب، وفيها الظلال الوارفة، والشلالات الجارية، وفيها من كلِّ ما يبهج النفس، ويقرُّ العين..

وإذ بأرض الأخرى كما ورثتها أوَّل يوم، بل هي أسوأ من يوم ورثتها بكثير.. فنبات الشوك قد نما، واستشرى في الأرض، حتَّى أصبحت له الجذور الضاربة، والسوق الغليظة، وتجرَّأ الناس عليها فرموا فيها مخلَّفات أرضيهم، ومخلَّفات بيوتهم، حتَّى أصبحت مجمَّع قمامات، ومكان نفايات..

وأصبحت كلا الأختين في سنٍّ هما أحوج ما يكنَّ فيه إلى الراحة، بعد نصب الصبا والشباب، وأبعد ما يكنَّ فيه عن القدرة على العمل الدائب، والجهد الناصب..

فنظرت الأولى إلى ثمرة جهدها خلال هذين العقدين من السنين فقرَّت عينها، وابتهجت نفسها، ورأت ثمرة جهدها كثيرةً مُغدِقة، طيِّبةً يانعة..

ونظرت الأخرى إلى أرضها، فامتلأ قلبها بالغيظ والألم، والحسرة والندم، ولكن حيث لا ينفع الندم.. لقد أفنت زهرة شبابها في إسعاد الآخرين بأرضيهم، وحرمت نفسها من السعادة بأرضها..

فالأرض هي الأسرة، وزرعها وشجرها، وورودها وثمرها هم الأولاد والذرِّيَّة..

وهذا المثل واضح أشد الوضوح، فطوبى لمن فكَّر بعواقب الأمور وتدبَّر، وعرف سبيل سعادته، فلم تخدعه الأماني العذاب، وبهرج الأكاذيب، وبرق السراب..

والعاقل من اتَّعظ بغيره، والشقيُّ من كان لغيره عبرة وعظة: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا العَالِـمُونَ﴾ العنكبوت:٤٣.

* * * * *

كَيفَ نُؤَدِّي حَقَّ أولادِنَا؟

يقول الله تعالى: ﴿يَا أيُّها الذينَ آمنُوا قُوا أنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً، وَقُودُها النَّاسُ وَالحِجَارَةُ، عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ، لا يَعصُونَ اللهَ مَا أمَرَهُمْ، ويَفعَلُونَ ما يُؤمَرُونَ﴾ التحريم: ٦.

إن على الآباء والأمَّهات أن يعلموا أن قضيَّة تربية الأولاد مسؤوليَّة مشتركة بين الزوجين، مصداقاً للحديث عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالإِمَامُ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ، وَهِيَ مَسْؤولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) متفق عليه.

ولا شكَّ أن الزوج يضطلع بالعبء الأكبر من هذه المسؤوليَّة بحكم القوامة الشرعيَّة التي حمَّله الله تعالى إياها، ولكن تقصير بعض الأزواج في مسؤوليَّتهم لا يعفي الزوجات من التقدُّم إلى الميدان، وسدِّ الخلل، وتدارك النقص، إذ هما شريكان في بناء الأسرة وتكوينها.

والصورة المثلى أن يكون الزوجان متعاونين على البرِّ والتقوى في كلِّ شأن، حريصين على أداء هذه المسؤوليَّة الشرعيَّة على أحسن وجه، وأن يكونا كمثل الأخوين المتحابين في الله تعالى، اللذين مثلُهما كمثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى..

وعندما يكون الزوجان كذلك تثمر جهودهما التربويَّة أطيب الثمار، فلا تتبدَّد جهودهما، ولا تهدر طاقاتهما، وتظهر آثار تعاونهما على تربية أولادهما سلوكاً قويماً سوياً، ونجاحاً في الحياة متميِّزاً..

وعندما يكون أحد الزوجين بانياً مجتهداً، والآخر مهملاً مفرِّطاً، أو هادماً مخرِّباً، فأيُّ خير يرتجى؟ وأي نشأة سويَّة للجيل نؤمِّل؟!

متى يبلغُ البنيانُ يوماً تمَامَهُ ... إذا كنتَ تَبنيه وغيرك يَهدِمُ؟

أو كما قال القائل:

سارَتْ مُشرِّقةً وسِرتُ مُغرِّباً ... شتَّانَ بين مُشرِّقٍ ومُغرِّبِ

وإنَّ كثيراً من الآباء قد يخطؤون أسس التربية القويمة، ولا يراعونها في علاقاتهم، وفي سلوكهم مع أبنائهم، ثمَّ يعزون فساد أولادهم وانحرافهم إلى الأسباب والعوامل الخارجيَّة، العديدة الضاغطة، التي تخرج عن قدرتهم وسيطرتهم.. وهذا نوع من التهرُّب من المسؤوليَّة الشرعيَّة التي يتحمَّلونها، وسيسألون عنها يوم القيامة!

وقد يكون لهذا القول حظٌّ من الصحَّة والقبول، لو أنَّهم ساروا على منهج رشيد في تربية أبنائهم وبناتهم، وحرصوا على رعايتهم الرعاية التامَّة، ومتابعتهم في جميع مراحل نُمُوِّهم، واتَّخذوا ما يستطيعون من الأساليب والوسائل لإبعاد المؤثِّرات الضارة عنهم، فإذا شذَّ أحدهم بعد ذلك أو انحرف فلن يكون إلا بنسبة ضئيلة شاذَّة، لا تشكِّل قاعدة ذات خطر، أو ظاهرة تستعصي على المعالجة.

ومن ثَمَّ فقد كان لا بدَّ من بيان أسس التربية القويمة وتوضيحها، ليكون كلٌّ من الزوجين على بيِّنة من مسؤوليَّته وسلوكه، ويعرف جوانب التقصير أو التفريط في عمله، فيسعى إلى تدارك ذلك وتلافيه، قبل فوات الأوان، ثمَّ الندم حيث لا ينفع الندم.

ـ وهذه أهمُّ أسس التربية الإسلاميَّة القويمة:

١ـ تفاهم مع زوجتك على منهج التربية وأسلوبها، واحذر من الاختلاف والتناقض.

لا شكَّ أنَّ التفاهم بين الزوجين أساس التربية المثلى وقوامها: فلا يمكن أن تنهض تربية قويمة للأولاد، ما لم تقم على أساس راسخ من التفاهم بين الزوجين، على منهج التربية الإسلاميَّة القويمة، وأسسها ومبادئها، وأهدافها وغايتها، وأساليبها ووسائلها.

والتفاهم لا يمكن أن يكون على كلِّ شيء، وإنما يكون على الخطوط العريضة، والمبادئ العامَّة، ولا بدَّ من مساحة بعد ذلك لحرِّيَّة التصرُّف من قبل كلٍّ من الوالدين بما لا يخرج عن تلك الخطوط، وبما لا يتعارض مع توجيه الطرف الآخر ورأيه، بل واحترام رأيه وتقديره أمام الأولاد.

ولا يخفى أن التفاهم بين الزوجين إنما يقودنا إلى التركيز على حسن الاختيار قبل الزواج، مِنْ قِبَل كلٍّ من الزوجين للطرف الآخر..

فإذا لم يتمَّ حسن الاختيار أوَّلاً، فلا بدَّ من المعاناة والاجتهاد لتوحيد التصوُّرات والمفاهيم، وإقناع الطرف الآخر بالتوجُّه الإسلاميِّ الواعي، لتبدأ خطوات التربية على منهج واضح، وأسس بيِّنة سليمة..

٢ـ تحقَّق بالهمِّ التربويِّ، فإنَّ الهمَّ التربويَّ سبيل التطوير لنفسك، والإبداع في تربيتك.

والهمُّ فيما يرضي الله تعالى من أعظم أسباب الفتح والتوفيق للعبد؛ ألم يكرم الله عبد الله بن أبي حدرد، وغيره من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، برؤية الأذان في النوم عندما باتوا مهمومين لهمِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! فكان من بركات همِّهم بما اهتمَّ به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أكرمهم الله تعالى برؤيا صادقة، توافقت مع الوحي واعتضدت به.

وأمَّا الهمُّ في أمر الدنيا فقد يكون دليل ضعف الإيمان، وشدَّة التعلُّق بها، والغفلة عن الآخرة والاستعداد لها..

فما المقصود بالهمِّ التربويِّ؟

إنَّنا عندما نهتمُّ بأيِّ أمر تتوجَّه طاقاتنا الفكريَّة والنفسيَّة والجسديَّة كلُّها إلى هذا الأمر، وما يتطلَّبه منَّا من استعدادات وجهود..

فإذا كان الأمر يتطلَّب جهداً فكرياً أعملنا فكرنا، واتَّخذنا من وسائل ذلك ما يحقِّق لنا ما نرغب..

وإذا كان الأمر يتطلَّب جهداً جسدياً عضلياً، تحفَّزت له عضلاتنا، وأخذت الوضع المناسب للتغلُّب عليه وتحقيقه..

وإذا كان الأمر يتطلَّب طاقة نفسيَّة، شُحنت له عواطفنا بصورة ملائمة، وتوجَّهت إليه، وغلبت في ذلك الموقف قوى النفس الأخرى..

فإذا وجدنا أنفسنا في أيِّ شيء من ذلك لا نملك الأسباب الملائمة، فإنَّ الأمر الطبيعيَّ في حياتنا أن لا نستسلم ونلقي أسلحتنا إلا أن يحاط بنا، ونجد أنفسنا لا نملك أمام هذا الأمر حولاً ولا قوَّة..

فمن أسرار النجاح في التربية لأبنائنا إذن أن نحمل في قلوبنا همّاً لتربيتهم، ومعالجة مشكلاتهم، وتحقيق أرفع ما نصبو إليه في تكوينهم وبنائهم.. مما يدفعنا إلى أن نبدع من الوسائل والأساليب ما يحقِّق لنا ذلك على أحسن صورة، وأن نطوِّر علاقتنا بهم بما يتلاءم مع نموِّهم الجسميِّ والعقليِّ ونضجهم النفسيِّ، والمراحل التي يدرجون بها..

ومن هنا فقد قال المثل: (الحاجةُ تفتقُ الحيلةَ)، وأضيفُ هنا إلى هذا المثل ما يتَّصل بأمر التربية: (والصدق في الرغبة يصنع الأعاجيب)، والحاجة لا تعدُّ كذلك ما لم تكن همّاً، يشغل على الإنسان فكره، ويجعله يقلِّب الرأي على وجوهه، ويدرس ما أمامه من احتمالات، ويتَّخذ أحسن ما يحقِّق له أهدافه..

والصورة المقابلة للهمِّ التربويِّ: حالة التسيُّب واللامبالاة، واعتبار التربية أمراً نافلاً متروكاً لتقلُّبات الزمن، في نظر كثير من الآباء والأمَّهات، والتواكليَّة في التربية، والتنصُّل من التبعات، وإلقاء المسؤوليَّة على الآخرين، أو التسويف في أمر التربية في الصغر، ثمَّ إعلان العجز عند الكبر، وغلبة العواطف في مواطن ينبغي أن يحكّم فيها العقل والجدّ..

إنَّ تلك الصور قد شاعت وذاعت في مجتمعاتنا، وأصبحت هي الأصل في حياة الأسر وعلاقاتها، وكلُّ ذلك ممَّا يتنافى مع استشعار مسؤوليَّة التربية، والاهتمام بأمرها..

٣ـ وضِّح أهدافك في الحياة في نفسك أوّلاً، واحرص على تطابق سلوكك مع أهدافك.

فإن أهدافك العليا تؤثِّر في أولادك بصورة أو بأخرى..

وإنَّ أهداف الإنسان وتوجُّهاته تحدِّد مساره في الحياة، وترسم سلوكه، ويؤكِّد لنا ذلك أنَّ الله تعالى عندما عالج في القرآن الكريم أسباب هزيمة المسلمين في غزوة أحد، نصَّ على هذه الحقيقة فقال سبحانه: ﴿مِنكُم مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا، ومِنْكُم مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ آل عمران: ١٥٢.

فبيَّن الله سبحانه أنَّ إرادة الدنيا، والتوجُّه إليها ينعكس على سلوك الإنسان بالخلل بالهدف الأعلى من الحياة الذي حدَّده الله لعباده.. وهو بلوغ مرضاة الله تعالى.. وهذا الهدف يتفرَّع إلى أهداف أدنى منه وأصغر.. وهذه الأهداف لا يربطها بالإسلام إلا أن تكون مشتقَّة من الهدف الأكبر، معزِّزة له..

فعندما تكون مشتقَّة من قيم الإسلام ومبادئه، فإنَّها تترجم ولا بدَّ في حياة الإنسان، وفي سلوكه العمليِّ، كما تتجلَّى في أخلاقه ومواقفه..

وعندما تغيب هذه الأهداف العليا السامية عن تصوُّرات الإنسان وسلوكه فإنَّه تضطرب شخصيَّته ولا تستقرُّ، ويتخبَّط في حياته، ولا يهنأ، ولا يدري أين يتوجَّه أو يسير، وكذلك الإنسان عندما يَرِينُ على قلبه غشاء الأهواء والسيِّئات، ويتكثَّف فيه ركام الشهوات والشبهات، وتستغرق حياته فيها؛ فيتوجَّه قلبه إلى الأهداف الصغيرة، ويتعلَّق بها، فقد تكون أهدافه جمع الأموال، أو التطلُّع إلى كثرة النساء، أو الحرص على الجاه بين الناس، أو المنصب، أو الرئاسة..

ومثل هذا الإنسان رجلاً كان أو امرأة أنَّى له أن يغرس في نفس أولاده قيم الإسلام وآدابه، أو يحملهم على سلوك سبيله، أو الالتزام بهديه؟! إذ إنَّ فاقد الشيء لا يعطيه، وكلُّ إناء لا ينضح إلا بما فيه..

٤ـ تدرَّج في تربية الأبناء ورعايتهم وتكليفهم، واحذر من الإهمال أو التسويف.

التدرُّج في التربية: التربية عمليَّة تنشئة مستمرَّة، وأهمُّ مقوِّمات نجاحها وإثمارها: أن تكون متدرِّجة متمهِّلة، لا تنطلق من ردود الأفعال، ولا تأخذها فورة حماسة آنيَّة، ثمَّ يعقبها همود وتراخي، أو تترجَّح وتتذبذب بين الاهتمام البعيد عن الواقع أو الإهمال والتسويف..

وإنما التدرُّج في التربية كما أنَّه أصل راسخ في التشريع الربَّانيِّ، فهو أصل راسخ في التربية والبناء والالتزام..

وإن من معاني الربّ سبحانه: أنَّه يربِّي عباده بما يصلحهم، من السرَّاء والضرَّاء، والشدَّة والرخاء، والمنع والعطاء، والابتلاء بالخير والشرِّ، ويتدرَّج بهم في ذلك كما تدرَّج بعباده رحمة بهم في مجال التشريع، ولم يكلِّفهم ما لا طاقة لهم به..

وإن من مقتضى هذه الحقيقة في تربية الناشئين أن لا يحمَّل الناشئ المسؤوليَّة الكبيرة قبل أن ينجح في تحمُّل المسؤوليَّة الأدنى، ويتدرَّج في ذلك بصورة طبيعيَّة معقولة، وأن لا يمنح العطاء الكبير قبل أن يختبر عقله وحكمته، وسيرته وعمله مع العطاء اليسير، ويظهر حسن تصرُّفه فيه، وأن يتدرَّج معه المربِّي في كلِّ شأن من شؤونه تدرُّجاً طبيعياً، يتلاءم مع نموِّه الجسميِّ والعقليِّ

والنفسيِّ، لا يزيد عن ذلك فيفسد نموُّه واتِّجاهه، ولا ينقص عنه فيكبت طاقاته، ويقتل طموحه وإبداعه!

ويمكن أن يستدلَّ لذلك بقول الله تعالى: ﴿وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً، وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ، وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً. وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ النساء: ٥ـ٦.

ـ فالسفيه هو الذي لا يحسن التصرُّف بأمواله، لا يعطى له ماله الخاص، بل يحجز عنه حتَّى يثبت رشده، وقد وصف الله أمواله: بأنَّها أموال الأمَّة، وإنَّ من مسؤوليَّة الأمَّة أن ترعى أبناءها وتحسن توجيههم بما يعود عليهم بالخير والرشد.

كما أمر الله الأوصياء باختبار اليتامى الذين يكونون تحت رعايتهم أن يختبروا رشدهم في التصرُّف بأموالهم، وذلك لا يكون إلا بالتدرُّج في التصرُّف بها، فإن ظهر رشدهم تدفع إليهم أموالهم عندئذ، وإلا فإنها يجب أن تبقى تحت وصاية الأمَّة ممثّلة بمن ينصبه القاضي للقيام بهذه المهمَّة.

ويشبه هذا ما قاله الحكماء قديماً: (طعام الكبار سمٌّ للصغار)، فكما أنَّ اللحم طعام للكبار شهيٌّ، ولكنَّه قد يكون سمّاً قاتلاً للطفل الرضيع، الذي لا تتحمَّل معدته أكثر من حليب أمِّه!

وأمَّا الإهمال والتسويف في أمر التربية: فهو الداء الوبيل، والشرُّ المستطير، الذي ضيَّع الحقوق، وأفسد الحياة، وقد ابتلي به المسلمون على اختلاف فئاتهم: على مستوى الأفراد في أنفسهم، وعلى مستوى علاقات الأفراد مع الآخرين والمسؤوليَّات المنوطة بهم.

٥ـ احرص على تربية أولادك منذ الطفولة الأولى:

التربية منذ الطفولة الأولى: هي الأصل الذي يجب على المؤمن أن يوليه كل اهتمامه، وإنَّ التأمُّل في هدي النبيِّ صلى الله عليه وسلم وسيرته ليعلِّمنا أنَّ التربية العمليَّة للناشئ تبدأ منذ الطفولة الأولى، والأمثلة والنماذج، والأحداث والمواقف في سيرة النبيِّ صلى الله عليه وسلم كثيرة مستفيضة، في كلِّ باب من أبواب الخير، وفي كلِّ جانب من جوانب الحياة..

ويخطئ كثير من الآباء والأمَّهات عندما يظنُّون أنَّ التربية تبدأ عند سنِّ الرشد، أو قريباً منه، أو في مرحلة الطفولة المتأخِّرة، بل إنَّ مرحلة التربية تبدأ منذ الطفولة الأولى.. والعلماء الربَّانيُّون المدقِّقون يعلِّموننا أنَّ التربية تبدأ قبل ذلك بكثير:

ـ تبدأ من حسن الاختيار بين الزوجين..

ـ ثمَّ من عقد النيَّة الصالحة على طلب الولد الصالح، عند إتيان الرجل أهله، وسؤال الله تعالى ذلك، وصدق اللجوء إليه، والإلحاح في الطلب، وتحديث المرأة نفسها بذلك في حملها..

ـ ثمَّ الحرص على طاعة الله تعالى وذكره، والتحرِّي في طلب الحلال، والبعد عن لقمة الحرام والشبهات..

٦ـ كن قدوة حسنة لأولادك في قولك وفعلك وسلوكك وأخلاقك.

ينبغي أن نعلم أنَّ حبَّ الكمال مغروس في كلِّ نفس، وعلينا أن ننمِّيه في نفوس أبنائنا بتوجيهنا الدائب، وسلوكنا العمليِّ، وذلك بأن نكون قدوة لهم، وعلينا أن نرفع هممهم وعزائمهم للجدِّ والنشاط، ونحبِّبهم به، ليرتقوا درجاته يوماً بعد يوم، ويسيروا في مدارجه ولا يتوقَّفوا، ما دام فيهم عرق ينبض، ونفس يصعَد ويهبِط..

كما أنَّ علينا أن نحبِّب إليهم معالي الأمور، ونُكرِّههم بسفسافها، ليكونوا من أهل الجدِّ والاجتهاد، والعزم والثبات، فعلوُّ الهمَّة من الإيمان، ولن يشبع مؤمن من خير حتَّى يكون منتهاه الجنَّة..

وإنَّ أحوج ما يحتاجه الناشئ: أن يرى القدوة الحسنة فيمن حوله، في والديه على وجه الخصوص، وإخوته وأخواته ممَّن هم أكبر منه سنّاً، ففي فطرة الإنسان نزعة التقليد والمحاكاة للآخرين، وهذه النزعة لا تميِّز في مرحلة الطفولة بخاصَّة بين التقليد في الخير، أو التقليد في الشرِّ، بل إنَّنا نجد أن الكبار لا يميِّزون أيضاً عندما يقعون تحت تأثير الانبهار والإعجاب بالآخرين، فيصبح التقليد أعمى، والاتِّباع بغير وعيٍ ولا تمييز.. فمن ثمَّ فإن خير ما يقدَّم للناشئ: القدوة الحسنة، في الأقوال والأفعال، والأخلاق والسلوك..

وهذه القدوة الحسنة هي خير ما يدعم المبدأ والفكرة التي نريد بثَّها في نفس الناشئ، وتربيته عليها..

ـ فإذا أردنا أن نغرس الصدق، فإنَّ علينا أن نكون أوّلاً صادقين..

ـ وإذا أردنا أن نغرس الأمانة في نفوس أبنائنا، فعلينا أن نكون أمناء في أنفسنا وسلوكنا..

ـ وإذا أردنا أن نغرس في نفوس أبنائنا حسن الخلق، فعلينا أن نري أبناءنا في كلامنا ومواقفنا، وغضبنا ورضانا: حسن الخلق، وضبط اللسان، وعفَّة القول، والبعد عن البذاءة أو الفحش..

إنَّ كثيراً من الأبناء يرون التناقض البيِّن بين سلوك آبائهم وأمَّهاتهم وبين ما يأمرونهم به، ويحثُّونهم عليه..

ويخطئ كثير من الآباء والأمَّهات عندما يظنُّون أنَّ أبناءهم لا يتنبهون لسلوكهم، ولا يلاحظون تصرُّفاتهم، ولا يحاكمون أفعالهم ولا يقوِّمونها..

إن الأبناء يَزِنُون آباءهم وأمَّهاتهم ومربِّيهم بميزان فطريٍّ دقيق، ويقيمون لهم في أنفسهم التقدير والاحترام على حسب رجحانهم في ذلك الميزان، أو خسرانهم..

أيُّها الآباء والأمَّهات! لنكن صرحاء مع أنفسنا، إنَّنا قبل أن نربِّي نحتاج أن نتربَّى، وقبل أن نتطلَّب المثاليَّة من أولادنا، ونكلِّفهم ما نريد من كمال، ينبغي أن نكون قدوة حسنة لهم، ونموذجاً صالحاً.. نبدأ بأنفسنا، ونقوِّم اعوجاجنا، ثمَّ نأمر بما التزمنا به، فلن نرى بعد ذلك من يتلكَّأ عن طاعتنا، أو يعاند في الاستجابة لنا..

٧ـ اقترب من أولادك، وادخل إلى تفكيرهم، وتفهَّم جيِّداً اهتماماتهم:

إن كثيراً من الآباء والأمَّهات بعيدون عن عالم الأطفال غاية البعد، لقد ودَّعوا حياة الطفولة، وعلى الرغم من أنَّهم يحتفظون منها بذكريات جميلة، يذكرونها في كلِّ مناسبة، ويعذرون أنفسهم فيما كانوا عليه من اهتمامات وتوجُّهات، ولكنَّهم يتنكَّرون لطفولة أبنائهم، ولا يحاولون أن يتفهَّموا اهتماماتهم، بل يستقرُّ في قرارة شعورهم موقف ردَّة الفعل من كلِّ اهتمامات أبنائهم وتوجُّهاتهم..

ومن هذه النقطة تبدأ الفجوة بين كثير من الآباء والأمَّهات وبين أولادهم، وهذه الفجوة لها مظاهر كثيرة، فهي في البدء تحول نفسياً بين الوالدين وبين توجيه أبنائهم، ثمَّ تصدُّ الولد عن أن يستجيب لتوجيه والديه، أو يتجاوب مع نصحهم وتقويمهم، ثمَّ تحمل تلك الفجوة بعض الأبناء، ولو كانوا في سنٍّ مبكِّر على التمرُّد على والديهم، فلا يستجيبون لهم فيما يطلبون منهم.. كما يشعر الآباء أن أولادهم لا ينظرون إليهم نظرة التقدير والاحترام اللائقة بهم على حسب مكانتهم الفطريَّة والاجتماعيَّة، وفهمهم للحياة، وخبرتهم بها..

وأخيراً ينحصر أثر الآباء في حياة أولادهم بتقديم متطلَّباتهم المادِّيَّة دون القيام بأيِّ دور تربويٍّ أو تأثير فكريٍّ أو سلوكيٍّ، وربما قدَّم الآباء لأولادهم في هذه الحالة مادِّياً ما لا يرون في تقديمه جدوى أو أيَّة فائدة..

لقد انحصر أثرهم في ذلك، ولم يعد لهم أيُّ أثر آخر!

وسبب ذلك كله أنَّ الآباء والأمَّهات لم يقتربوا من أولادهم، ولم يتفهَّموا اهتماماتهم جيِّداً، كما لم يتنزَّلوا إلى متطلَّبات السنِّ التي هم فيها، فكانت ردَّة فعل الأولاد من ضارَّة بهم بالذات، كما كانت ضارَّة بوالديهم.. وكانت النتائج ضارَّة على كلِّ مستوى!

وقد ورد في الأثر عن بعض السلف: (مَن كان له صبيٌّ فليتصابَ له)، ومعنى ذلك أن يتنزَّل إلى مستواه، فيداعبه ويلاعبه، ويتفهَّم اهتماماته ومتطلَّبات السنِّ التي هو فيها، ليستطيع رعايته وسياسته، والدخول إلى قلبه، والتأثير فيه على أحسن وجه.

٨ـ كن واقعياً ومنطقياً في أوامرك وتكليفاتك.

إنَّ على الوالدين أن يحدِّدا بدقَّة: ماذا يريدان من أولادهم؟ ثمَّ أن يعرفا مدى استعداد الولد في كلِّ مرحلة من مراحل نشأته وتكوينه، ومدى قدرته الحقيقيَّة على الاستجابة لما يطلب منه؟ فليس النجاح التربويُّ هو القدرة الفائقة على إلقاء سيل من الأوامر والتكليفات، التي قد تكون في كثير من الأحيان لا تتلاءم مع قدرة الناشئ، ولا تتناسب مع نموِّه واستعداده..

ولنتذكَّر أنفسنا دائماً أيُّها الآباء والأمَّهات والمربُّون عندما كنَّا صغاراً في مثل سنِّ أطفالنا، وكيف كنا نضيق ذرعاً عندما كنَّا نكلَّف فوق طاقتنا، وكيف نلوم في أنفسنا الكبار على عدم تقديرهم لاستعدادنا، ونجد لأنفسنا الأعذار عندما لا نستجيب لما يُطلَب منَّا!

ويحضرني دائماً في مثل هذه المناسبة، عندما أرى تكليف بعض الناشئين ما ليس في وسعهم الاستشهادُ بقول الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا﴾ النساء: ٩٤..

إنَّ علينا أن نعلم أنَّ كلَّ مرحلة يمرُّ بها الناشئ لها متطلَّباتها واحتياجاتها، كما أنَّ للناشئ فيها قدرته التي لا يستطيع أن يتجاوزها، وليس من الحكمة ولا من المنطق أن نكلِّفه ما لا يطيق، وقد أرشدنا النبيُّ صلى الله عليه وسلم في أمر الخدم، وهم قد يكونون رجالاً أقوياء أشدَّاء أن لا نكلِّفهم ما لا يقدرون عليه جسمياً، فقال: (وَلا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ عَلَيْهِ) متفق عليه.

وإذا كان أكثر الآباء والأمّهات لا يكلِّفون أولادهم جسمياً ما لا يقدرون عليه، لأنَّ الإرهاق الجسميَّ يظهر للعيان، وقد يؤدِّي إلى ضرر جسميٍّ ماديٍّ، هم أرحم بأولادهم من أن يقعوا فيه، فإنَّ كثيراً من الآباء والأمَّهات يكلِّفون أولادهم ما لا يقدرون عليه، ولا يتلاءم معهم نفسياً، ثمَّ يلومونهم إذا لم يستجيبوا لهم، ويتَّهمونهم بالتمرُّد عليهم، والخروج عن طاعتهم..

٩ـ املأ فراغ أولادك بما ينفع وقدِّم لهم البديل النافع الهادف.

الفراغ مفسدة للإنسان كبيراً كان أو صغيراً وأي مفسدة، وهو على الناشئ أضرُّ وأخطر، لِـمَا أنَّ الفراغ يعوِّده على حبِّ اللهو والبطالة، وإنفاق العمر فيما يضرُّ ولا ينفع، ومن هنا فإنَّ مما يتأكَّد على الوالدين أن يفكِّرا دائماً في فراغ أولادهم: كيف يملأ؟ وأن يملكا في ذلك المبادرة الإيجابيَّة، ولا ينتظرا ما يقوم به ولدهم، ثمَّ تكون مبادرتهم بعد ذلك إلى المنع والإنكار، وكان خيراً لهما وله قبل أن يتعلَّق قلبه بما يضرُّ ولا ينفع: أن يقدِّما له البديل المناسب، ويرغِّباه به، وينبغي أن يكون في ذلك البديل ما يناسب سنَّ الناشئ واهتمامه، وأن يجذبه ويستهوي نفسه..

وينبغي أن يراعي الوالدان في البديل الذي يملأ فراغ الناشئ ما يلي:

ـ أن تعرف ميول الناشئ، ويحرص المربِّي على توجيهها وتعديلها بطريقة إقناعيَّة، تجعله يتبنَّى المواقف الصحية ويتحمَّس لها.

ـ أن يُعرَّف الناشئ والناشئة بالهوايات الفكريَّة والعمليَّة النافعة، ويوجَّه إلى الأخذ بما يرغب منها، ويشجَّع على ذلك، فإن الاكتشاف المبكِّر للهوايات الفكريَّة أو العمليَّة النافعة، والتوجُّه إليها هو سبيل الإبداع في حياة المبدعين، وقد أثبتت الدراسات التربويَّة المعاصرة: أن لا علاقة بين الإبداع وعلو درجة الذكاء في المبدعين، وإنما الدرجة العالية من الذكاء أمر ثانويٌّ مكمِّل، والعلاقة الأكبر لتوجُّهات النفس وميولها، وما تحمله من استعداد لذلك.

ـ أن لا يكون البديل جدّاً صارماً، يجري على وتيرة واحدة، فينفر منه الناشئ، ويعاند والديه في اختياره وإنَّما يلوَّن له في أنواع ذلك ونماذجه.

ـ ينبغي أن يجمع البديل بين الترفيه المشروع، وبين الهدف التعليميِّ أو التربويِّ الهادف، ولا يجوز أن يقتصر على اللعب الذي ينهى الشرع عنه، أو اللعب غير الهادف.

ـ أن تعرف رغبة الناشئ، وتلبَّى ما أمكن، وتوجَّه برفق إلى الأفضل والأكمل، وتبيَّن له وجوه المنافع والمضار، فيما يهوى من الألعاب، وأسباب تحريم ما حرِّم منها أو نهي عنه..

ـ وينبغي أن يعوَّد الناشئ على الاعتدال في اللعب، وأن يعطي لكلِّ وقت حقَّه، فلا يشغله الترفيه أو اللعب عن أيِّ واجب مطلوب منه، وأن لا يدفعه اللعب إلى تأخير الصلاة عن أوَّل وقتها.

١٠ـ كن صديقاً لأولادك، واختر لهم الأصدقاء الذين تطمئن إلى دينهم أخلاقهم وسلوكهم.

وهذه النصيحة مما يتَّصل بمشكلة الفراغ على نحو كبير، إذ إنَّ الفراغ الأخطر في حياة الإنسان هو: فراغ النفس، وهذا الفراغ لا تملؤه إلا صحبة الأقران في مثل سنِّه، والعلاقات الاجتماعيَّة التي تلائم الناشئ وتملأ نفسه، وهي جزء من فطرته لا يستطيع أن ينفكَّ عنها، أو يتجاهلها ويمضي في حياته..

وعندما تُختار الصحبة الصالحة للناشئ بعناية، فإنَّها قد تؤدِّي دوراً تربوياً يعجز الوالدان عن أدائه، وهذا ظاهر ملموس، لِـمَا أنَّ تأثير الأقران في بعضهم تأثير نفسيٌّ غير مباشر، إنَّه يكون بالمخالطة والمعايشة، والملاطفة والمؤانسة، والتقارب النفسيِّ الذي يجعل الإنسان يتأثَّر بجليسه ومخالطه بغير قصد منه أو شعور، فيتمكَّن الصاحب من الدخول إلى قلب صاحبه، والتأثير في ميوله واتِّجاهاته، بغير أمر ولا نهي، ولا عناء ولا كلفة، ومن هنا جاء في المثل: (الصاحب ساحب)، و: (قل لي من تصاحب، أقل لك من أنت)، وجاء المثل النبويُّ الرائع الذي ضربه النبيُّ صلى الله عليه وسلم للجليس الصالح والجليس السوء: (إِنَّمَا مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالجَلِيسِ السُّوءِ، كَحَامِلِ المِسْكِ، وَنَافِخِ الكِيرِ، فَحَامِلُ المِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحاً طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحاً خَبِيثَةً). متفق عليه.

وقد نوَّه الله تعالى بأثر الصحبة الصالحة في سعادة الإنسان في الآخرة، فقال سبحانه: ﴿الأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ. يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾الزخرف:٦٧ـ٦٨.

كما بيَّن سبحانه عاقبة صحبة الظالمين، والانسياق وراء مجالستهم ومودَّتهم، والاستجابة إلى سلوكهم، وكيف أنَّها تجرُّ على الإنسان الشقاء في الآخرة وسوء المصير، فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً. يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً. لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولاً﴾ الفرقان: ٢٧ـ٢٩.

فليحرص الآباء والأمّهات على أن يغرسوا في نفوس أولادهم منذ الصغر والطفولة أن لا يصاحبوا إلا أرفع الأولاد خلقاً، وأحسنهم تربية وسلوكاً، وأن يأنفوا من صحبة الأشرار والفاسدين، أو مجالستهم، فإن ذلك حصانة لهم في مستقبل أيَّامهم.

وعندما يشبُّ الأبناء ويصلون مرحلة النضج والوعي فعلى الآباء والأمَّهات أن يكونوا أصدقاء لأولادهم، فيعاملوهم بتقدير واحترام، وأن يستمعوا لآرائهم، ويشجِّعوهم على إبداء وجهات نظرهم، ويناقشوهم فيها بموضوعيَّة وتجرُّد، ولا ينبغي أن يعاملوهم، وهم شباب

متفتِّحون على الحياة، متوقِّدو الطموح والرغبات وكأنَّهم أطفال صغار لا رأي لهم، ولا وزن لأفكارهم.. إنَّها المشكلة التي تقطع الروابط بين الآباء والأبناء، وتهدم صلات التقدير والاحترام.

وعندما يختار الأولاد أصدقاءهم ينبغي على الوالدين أن يكون لهم رأي في ذلك، فليتعرَّفوا عليهم، وليعرفوا مستوى تربيتهم، ومدى التزامهم واستقامة سلوكهم، ليطمئنُّوا على سلوك أبنائهم وسلامة اتِّجاههم..

وممَّا يتَّصل بهذه الوصيَّة، وهو على درجة كبيرة من الأهمِّيَّة أنَّ على الوالدين أن يحرصا على صحبة أولادهم معهم إلى مجالس أهل العلم والخير والفضل، وزيارتهم في بيوتهم بين الحين والآخر، وأن يعلِّموهم الأدب معهم، والتواضع لهم، والحرص على خدمتهم، والتماس دعواتهم الصالحة، فلذلك بركة عظيمة على الناشئ تظهر آثارها في خلقه وسلوكه ومستقبل أيَّامه..

فهذا موسى عليه السلام رسول من أولي العزم يحرص على صحبة الخضر عليه السلام ليتعلَّم منه، وينتفع بصحبته كما أخبرنا الله تعالى في كتابه..

١١ـ أكثر من الدعاء لأولادك بالخير والهداية، فإنَّ الدعاء يذلِّل الصعاب.

لقد تركَّز الحديث في الفقرات السابقة على الأسباب الظاهرة، التي ينبغي على الوالدين أن يأخذوا بها في تربية أولادهم، ولكن لا يخفى على كلِّ مؤمن أنَّ هذه الأسباب لا تكفي وحدها، ولا ينبغي أن نحصر أنفسنا بها لتحقيق ما نصبو إليه من آمال وأهداف، فلا بدَّ لنا أن نعلم: أنَّ الهداية بيد الله تعالى أوَّلاً وآخراً، وإنَّها منحة إلهيَّة لا تدرك حكمتها، ولا تدخل تحت شيء من جهد العبد وحيلته، وبخاصَّة بعدما علمنا خبر حرص النبيِّ صلى الله عليه وسلم على هداية عمِّه أبي طالب، وبذله كلَّ ما يستطيع في دعوته والتلطُّف معه، ثمَّ لم يشأ الله له الهداية، ومات على الكفر، ونزل فيه قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ، وَلَكِنَّ اللهَ يَهدِي مَنْ يَشَاءُ، وهُوَ أعلَمُ بِالْمُهتَدِينَ﴾ القصص: ٥٦.

وإنَّ من البداهة بمكان أن نعلم أنَّ ذلك لا ينبغي أن يصدَّنا عن بذل الأسباب والوسائل، واتِّخاذ ما نستطيع من الأساليب فإن لم يكتب الله الهداية لإنسان فقد قامت عليه الحجَّة بذلك، إذ

إنَّ أمر الهداية غيبيٌّ، لا يستطيع أن يتكهَّن به الناس، وأدب العبد أن يفعل ما كلِّف به، ولا يتجاوز حدود عبوديَّتِه..

ولعلَّ من حكمة ذلك أن تتعلَّق القلوب بالله تعالى رغباً ورهباً، وأن يتوكَّل العبد على ربِّه، ويبرأ من حوله وقوَّته، ولا ينسب إلى نفسه تأثيراً ولا تدبيراً..

وقد أثنى الله على عباد الرحمن إذ يقولون: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ، واجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾ الفرقان: ٧٤.

والدعاء بصدق وإخلاص، وتجرُّد لله تعالى وتذلُّل: سلاح قاطع، ودواء مجرَّب، نتعلَّمه من هدي النبيِّ صلى الله عليه وسلم وسنَّته، وسيرته العطرة ومواقفه، ألم يقل له بعض الصحابة بعد حصار ثقيف في الطائف: ادع الله يا رسول الله على ثقيف، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: (اللهمَّ اهدِ ثقيفاً) رواه الترمذي وأحمد، فلم يكد النبيُّ صلى الله عليه وسلم يصل إلى المدينة المنوَّرة حتَّى جاءه وفد ثقيف ليبايع على الإسلام.

وقال له أبو هريرة رضي الله عنه: (ادع الله يا رسول الله أن يهدي أمِّي إلى الإسلام)، فدعا لها النبيُّ صلى الله عليه وسلم: (اللهمَّ اهدِ أمَّ أبي هريرة إلى الإسلام)، فلم يكد يصل أبو هريرة إلى بيته حتَّى سمع صوت الماء من خارج البيت، لقد كانت أمُّه تغتسل لتعلن دخولها في الإسلام..
(قصة إسلام أم أبي هريرة رواها مسلم في كتاب الفضائل، باب من فضائل أبي هريرة).

وكم رأينا في حياتنا الخاصَّة والعامَّة، وسمعنا من أخبار ذلك ما يزيد المؤمن إيماناً ويقيناً بالله تعالى، وتسليماً لله تعالى وتوكُّلاً عليه.

وبعد؛ فهذه أهمُّ النصائح والوصايا التي فتح الله بها على عبده لتكون عوناً للوالدين على تربية أولادهم ورعايتهم، ويبقى على رأس ذلك كلِّه عون الله تعالى وتوفيقه، وهدايته ورعايته، وذلك حليف من توكَّل عليه سبحانه ولجأ إليه، وأكثر من الضراعة والتذلُّل بين يديه.

* * * * *

مَعَالِـمُ التَّربِيَةِ الإسلامِيَّةِ فِي حَيَاةِ السَّلَف

إنَّ الظاهرة المتميِّزة التي نجدها في حياة سيِّدنا محمد صلى الله عليه وسلم: أنَّه عليه الصلاة والسلام بدأ بتشكيل أمَّة جديدة، كانت لها كلُّ مقوماتها الفكريَّة والسلوكيَّة، والأخلاقيَّة والتشريعيَّة، والدستوريَّة واللسانيَّة، فكان الفرد فيها ينبتُّ عن صلته بأيِّ عالم غير عالم هذه الأمَّة ومكوِّناتها، بعدما ينصهر انصهاراً تاماً في بوتقة الإسلام، وتتَّضح له غايته ومصيره، ثمَّ ينطلق في اتجاه واضح بيِّن، لا يزيغ عنه ولا يحيد.

لقد وضَّح النبيُّ صلى الله عليه وسلم لكلِّ فرد مهمَّته، وربَّاه على أدائها، ووضَّح للجميع المهمَّة الكبرى لهم في حياتهم، ورسم لهم الطريق لبلوغها، وعرَّفهم بكلِّ شيء في كلِّ جانب من جوانب الحياة، كي لا تلتبس عليهم السبل، ولا تزلَّ بهم قدم، وقادهم في هذا الطريق بنفسه ورعايته ما شاء الله له أن يقودهم، ثمَّ تركهم على المحجَّة البيضاء ليلها كنَهارها، ومضى إلى ربِّه، فانطلقوا بعده على سبيلٍ بيِّنٍ، لم يغيِّروا، ولم يبدِّلوا، ونشروا نور الله في الأرض، وكان من آثارهم ما كان، مما لا يخفى على كلِّ عاقل منصف..

وكان أعظم مهمّات البعثة النبوية التي قام بها النبي صلى الله عليه وسلم خير قيام، تلك المهمَّة التي حُدِّدت أصولها المنهجيَّة، وميادينها التربويَّة بقول الله تعالى: ﴿هُو الَّذي بَعثَ في الأُمِّيِّينَ رسُولاً مِنهُم، يَتْلُو عَليْهِم آياتِهِ ويُزكِّيهِم، ويُعلِّمُهُمُ الكِتابَ والحِكْمَةَ، وإِن كانُوا مِن قَبْلُ لَفي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ الجمعة:٢.

لقد حدَّدت هذه الآية الكريمة ثلاث مُهمَّات كبرى للرسول صلى الله عليه وسلم:

١ـ مهمة التبليغ والبيان، وتعريف الإنسان بمصدر التلقي ومنهجه، وربطه به، وتوضيح علاقته بهذا المنهج، ومسؤوليَّته عن السعي ضمن حدوده وإطاره، وهي المهمة التي يشير إليها قوله تعالى: ﴿يَتْلو عَلَيْهِمْ آيـاتِه﴾.

٢ـ مهمة التربية والتعليم والتزكية، ويشير إليها قوله تعالى: ﴿ويُزكِّيهِم، ويُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ والحِكْمَةَ﴾، وتشمل التزكية: جميع الدراسات النظريَّة التي تحتاجها التزكية، وتتَّصل بها، والتطبيقات العمليَّة لها، كما تتنوَّع إلى تزكية النفس، وتزكية العقل، وتزكية الجسم.

ـ وحقيقة التزكية تتلخَّص في: تعزيز المرغوب فيه في السلوك الإنسانيِّ، وانتزاع غير المرغوب فيه، وقد لخَّصها علماء التربية الربَّانيِّين بكلمتي: (التخلية والتحلية)، فهي عمليَّة تقويم وتعديل للسـلوك الإنسانيِّ في كلِّ جانب من جوانبه.

٣ـ والمهمَّة النبويَّة الثالثة هي مهمة العمل والتطبيق والتنفيذ، ويشير إليها قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ والحِكْمَةَ﴾.

(والحكمة لا يمكن خروجها عن معنيين هما: العلم، وفعل الصواب، فهي من ثمَّ تنقسم إلى حكمة نظرية، وحكمة عملية، ولا بدَّ من اجتماعها في السلوك الكامل).

ومن أحسن وأجمع ما جاء في تعريف الحكمة قول الإمام النووي رحمه الله تعالى:

(إنَّها العلم المتَّصف بالإحكام، المشتمل على المعرفة بالله تعالى، المصحوب بنفاذ البصيرة، وتهذيب النفس والأخلاق، وتحقيق الحقِّ والعمل به، والصد عن اتِّباع الهوى الباطل، والحكيم من له ذلك).

ونظراً لحاجة جيلنا المعاصر إلى التعرُّف على منهج سلف هذه الأمَّة الصالح في تربيتهم لأبنائهم، وحسن رعايتهم، فإنَّني أحبُّ أن أقدِّم أهمَّ معالم التربية الإسلاميَّة في حياة السلف، ولا أزعم أنَّني استقصيت لها أو أحطتّ بها، ولكنَّها لا تبعد أن تكون أهمها:

١ـ اتِّصال التربية بالإسلام، وانطلاقها منه استمداداً وإخلاصاً، وفهماً وسلوكاً: وتلك حقيقة بدهيَّة لا تحتاج إلى دليل أو برهان؛ فالإسلام هو الذي صنع هذه الأمَّة وأخرجها خير أمَّة للناس، فمن البدهيِّ أن تكون الأمَّة في مرحلة قوَّتها لا تعرف غير الإسلام مصدراً لها، ومنطلقاً لمسيرتها، وموجِّهاً لنهضتها.

ولقد كان أبرز تجلِّيات هذه الحقيقة أن كان المسلم يطالب من أوَّل خطوة يخطوها في حياته بإخلاص العمل لوجه الله تعالى، لينال توفيق الله تعالى ورعايته، ومثوبته وفضله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ﴾البينة:٥.

وقال تعالى: ﴿قُلْ: إنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمحْيَايَ وَممَاتِي لله رَبِّ العَالَمِينَ. لا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ، وَأَنَا أَوَّلُ المُسْلِمِينَ﴾ الأنعام: ١٦٢ـ١٦٣.

وقد أثر عن عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه أنَّه قال: (نحن قوم أعزَّنا الله بالإسلام، مهما ابتغينا العزَّة بغيره أذلَّنا الله).

٢ـ التربية الشاملة المتوازنة بأبعادها المختلفة: لقد عرفَ سلف هذه الأمَّة الإسلام كُلّاً لا يتجزَّأ، وربَّاهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم تربية شاملة متوازنةً في العلم والعمل، والفهم والسلوك، ليكونوا نبراساً للأمَّة من بعده، وذلك لأنَّ الإسلام دين شامل للحياة الإنسانيَّة بمختلف جوانبها..

فالخروج عن التربية الشاملة المتوازنة يعني بكلِّ بساطة الجنوح إلى الأخذ بجانب من الإسلام، وإهمال جوانب أخرى، وذلك أوَّلُ خطٍّ للانحراف ينزلق إليه الفرد أو الجماعة.. وهذا ما نعاه الله تعالى على اليهود، وحذَّر منه هذه الأمَّة، فقال سبحانه: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ! فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إلَّا خِزْيٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَيَوْمَ القِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ العَذَابِ، وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ البقرة: ٨٥.

٣ـ التربية المستمرَّة حتَّى المات: انطلاقاً من قول الله تعالى: ﴿وَاعبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأتِيَكَ اليَقِينُ﴾ الحجر: ٩٩، وقوله سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ، وَلا تَمُوتُنَّ إلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ آل عمران: ١٠٢، وهذا يقتضي أن يزداد المؤمن إيماناً وتقوى كلَّما امتدَّ به العمر، وهو لا يتأتَّى إلا بالتربية المستمرَّة.

ومفهوم التربية المستمرَّة الذي لم يعرف إلا حديثاً، كان في سلف هذه الأمَّة بدهيَّة من بدهيَّات التربية، وعلاقات الأفراد في المجتمع، وهو يشمل فئات الأمَّة كلِّها، كما يشمل مختلف الأعمار، ومتنوع الثقافات ومتفاوتها، والمحضن الطبيعيُّ لذلك هو المسجد، بما يحمل من رسالة متعدِّدة الجوانب والمسؤوليَّات.. إذ طلب العلم فريضة على كلِّ مسلم، وتبليغ العلم فريضة بعد الفريضة: (بلِّغوا عَنِّي وَلَوْ آيَة) رواه البخاري، وهذا ما حمله سلف هذه الأمَّة الصالح بكلِّ جدارة وأمانة.

٤ـ التربية الجادَّة: وهي التربية التي يتَّضح فيها هدف الإنسان في الحياة، فيجدُّ إليه، ويجتهد فيه بإحسان، ويوظِّف طاقاته لتحقيقه باعتدال، مع البعد عن الغلوِّ في الفهم والسلوك.

والتربية الإسلاميَّة تربية جادَّة، لأنَّ للحياةِ هدفاً سامياً، وغاية نبيلة، خلق الإنسان لأجلها، وعليه أن يسعى بكلِّ طاقاته لتحقيقها..

ولا بأس بأخذ الطفل والناشئ حظَّهم المناسب من الترفيه واللهو الهادف، ولكنَّ التربية الإسلاميَّة ليست مع التربية القائمة على اللهو واللعب، وإشغال الإنسان بتفاهات الفكر والسلوك، وتحويل الحياة إلى ملهاة لا تعرف الجدَّ في شيء.. ولا يخفى أنَّ البون بين التوجُّهين بعيد، والفرق بين المنهجين ظاهر..

إنَّ التربية الجادَّة تخرِّج رجالاً، هم أمل الأمَّة الواعد، يحملون الحقَّ، ويذودونَ عنه، ويجاهدون الباطل، ويقفون في وجهه..

وهم الذين وصفهم الله تعالى في كتابه: ﴿لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ، وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾ النور: ٣٧.

والتربية الجادَّة تشمل: تربية الجسد والروح، والعقل والقلب، والفكر والسلوك، تأخذ من الدنيا، وتتَّصل بالآخرة، وهي تربية إيجابيَّة بنَّاءة، تقوم على التفاؤل وحسن الظنِّ، تأبى التقوقع والانغلاق، إذ إنَّ ديننا عامٌّ للبشريَّة كلِّها، وهو يريد لنا أن نربِّي الإنسان الصالح، الذي من أهمِّ سماته أنَّه عالَـمِيُّ النظر والفكر، والتوجُّه والعمل، يتحقَّق فيه قول الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ آل عمران: ١١٠..

ومصداق ذلك في قول ربعي بن عامرٍ رحمه الله: (الله ابتعثنا لنخرجَ الناسَ من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام)، ولن يتأتَّى لنا ذلك إلا بالتربية الشاملة الجادَّة.

إنَّها باختصار: إعداد الرجال لشدائد الأهوال، كما جاء عن أبي بكر رضي الله عنه أنَّه قال: (لأنسينَّ الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد رضي الله عنه).

وممَّا يدلُّ على قوَّة عزيمته، وعلوِّ همَّته قوله: (أينقُصُ الدينُ، وأنا حيٌّ)!

وتتجلَّى أهمِّيَّة التربية الجادَّة:

ـ أنَّها سبيل الاتِّباع لكتاب الله وسنَّة نبيِّه صلى الله عليه وسلم وهديه، وهدي السلف الصالح، الذين أعزَّهم الله بالإسلام، وأعزَّ الإسلام بهم.

ـ أنَّها سبيل بناء شخصيَّة الأمَّة الكريمة العزيزة، واستعادة ريادتها وسيادتها.

ـ أنَّها تحفظ طاقات الأمَّة ومواهب شبابها، وتوجِّهها إلى ما فيه الخير والفلاح، فلا تُهدر في اللهو والعبث، ومستنقع الرذائل والموبقات.

٥ـ العناية المبكِّرة بالطفل، وبذر بذور الإيمان واليقين: وفي ذلك يقول الإمام الغزاليُّ رحمه الله تعالى: (إن الصبيَّ أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة، خالية من كلِّ نقش وصورة، وهو قابل لكلِّ ما ينقش فيه، ومائل إلى كل ما يمال إليه، فإن عُوِّد الخير وعُلِّمه، نشأ عليه، وسعد في الدنيا والآخرة، وشاركه في ثوابه أبواه وكلُّ معلِّم له ومؤدِّب، وإن عُوِّد الشر، وأهمل إهمال البهائم شقي وهلك، وكان الوزر في رقبة مُربِّيه والقيِّم عليه).

وانظر أيضاً إلى هذه الصورة من التربية الإيمانيَّة الراقية، التي كان عليها سلفُ هذه الأمَّة الصالح: قال سهل بن عبد الله رحمه الله: (كنت ابن ثلاث سنين، وكنت أقوم بالليل أنظر إلى صلاة خالي محمد بن سوار، وكان يقوم بالليل، فربما كان يقول لي: يا سهل.. اذهب فنم فقد شغلت قلبي.. وقال لي يوماً: ألا تذكر الله الذي خلقك؟ فقلت له: كيف أذكره؟ فقال: قل بقلبك عند تقلبك في ثيابك ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك: الله معي، الله ناظر إلي، الله شاهد علي، فقلت ذلك ليالاً ثم أعلمته.

فقال: قل ذلك في كل ليلة سبع مرات. فقلت ثم أعلمته، فقال: قل في كل ليلة إحدى عشر مرة، فقلت ثم أعلمته، وقلت له: إنه قد وقع في قلبي له حلاوة، فلما كان بعد سنة قال لي خالي: احفظ ما علمتك ودم عليه إلى أن تدخل القبر، فإنها تنفعك في الدنيا والآخرة إن شاء الله تعالى، فلم أزل على ذلك سنين، ثم وجدت لها حلاوة في سري.

ثم قال لي خالي يوماً: يا سهل من كان الله معه، وناظراً إليه وشاهده.. فلا يعصيه، فإياك والمعصية، فكنت بعد ذلك إذا بعثوني إلى الكُتَّاب أخشى أن يتفرَّق علي همِّي، ويضيع زماني فقلت لهم: شارطوا المعلِّم أني أذهب إليه ساعة، فأتعلم ثم أرجع.

فحفظت القرآن وأنا ابن ست سنين أو سبع، وكنت أصوم الدهر وقوتي خبز الشعير إلى أن بلغت اثني عشر سنة، فوقع لي مسألة، فسألتهم أن يبعثوا بي إلى البصرة لأسأل عنها، فجئت البصرة فسألت علماءها، فلم يشف أحد عني شيئاً، فخرجت إلى عبدان إلى رجل يعرف بأبي حبيب حمزة بن عبد الله العبداني، فسألته عنها فأجابني، فأقمت عنده مدة أنتفع بكلامه، وأتأدب بآدابه، ثم رجعت إلى تستر، فجعلت قوتي أن أشتري بدرهم شعيراً فيطحن ويخبز لي، وأفطر عند السحر كل ليلة على أوقية واحدة، بحتاً بغير ملح ولا إدام، فكان يكفيني ذلك الدرهم سنة، ثم عزمت على أن أطوي ثلاثة أيام، ثم أفطر ليلة، ثم خمسة، ثم سبعة، ثم خمسة وعشرين، وكنت عليها عشرين سنة، ثم خرجت أسيح في الأرض سنين، ثم رجعت إلى تستر، وكنت أقوم الليل كله).

ولما مات سهل بن عبد الله رحمه الله، أكب الناس على جنازته، وكان في البلد يهوديٌّ قد أناف على سبعين سنة، فسمع الضجَّة، فخرج ينظر ما كان، فلما نظر إلى الجنازة صاح وقال: أترون ما أرى؟ فقالوا: لا، أي شيء ترى؟

فقال: أرى أقواماً ينزلون من السماء يتمسَّحون بالجنازة، ثمَّ إنَّه أسلم في الحال، وصار من الصالحين.

ويقول الشيخ سعيد النورسي رحمه الله: (أقسم بالله إنَّ أعظم درسٍ أخذته، وكأنَّه يتجدَّد عليَّ: إنَّما هو تلقينات والدتي رحمها الله، ودروسها المعنويَّة، حتَّى استقرَّت في أعماق فطرتي، وأصبحت كالبذور في جسدي، في غضون عمري الذي يُنَاهز الثمانين، رغم أنِّي قد أخذت دروساً من ثمانين ألف شخص، أرى يقيناً أنَّ سائر الدروس إنَّما تبنى على تلك البذور! بمعنى أنِّي أشاهد درس والدتي رحمها الله وتلقيناتها لفطرتي وروحي، وأنا في السنة الأولى من عمري، وهي البذور الأساس ضمن الحقائق العظيمة، التي أراها الآن، وأنا في الثمانين من عمري).

٦ـ اقتران العلم بالأدب، بل تغليب الأدب على العلم: قال أبو زيد الأنصاري: (الأدب يقع على كلِّ رياضة محمودة، يتخرَّج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل).

وقال بعض العلماء: (الأدب كلمة تجمع خصال الخير كلها). أو: (هو اجتماع خصال الخير في العبد).

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: (الأدب استعمال ما يحمد قولاً وفعلاً، وعبَّر بعضهم بأنَّه الأخذ بمكارم الأخلاق).

وقيل: (هو تعظيم من فوقك، والرفق بمن دونك).

وقال إبراهيم بن حبيب بن الشهيد: قال لي أبي: (يا بنيّ! ائت الفقهاء والعلماء، وتعلَّم منهم، وخذ من أدبهم وأخلاقهم وهديهم، فإنَّ ذاك أحبُّ إليَّ لك من كثير من الحديث).

وروى أبو نعيم في ترجمة الإمام مالك أنَّه قال لفتىً من قريش: (يا ابن أخي تعلَّم الأدب قبل أن تتعلَّم العلم).

وحكى الإمامُ مالك صنيعَ أمِّه معه فقال: كانت أمِّي تعمِّمني، وتقول لي: (اذهب إلى ربيعة، فتعلَّم من أدبه قبل علمه).

وقال الإمام ابن المبارك رحمه الله: (نحن إلى قليل من الأدب أحوج منَّا إلى كثير من العلم).

وقال أيضاً: (من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السنن، ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض، ومن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة).

ومن كلام علماء التربية: (ما فاز من فاز إلا بالأدب، وما سقط من سقط إلا بسوء الأدب).

إنَّ الأدبَ في الإسلام شعارُ المسلم ودثارُه، وتاجُه وفخارُه، في كلِّ شأن من شؤون حياته، وحقيقته استعمال الخلق الجميل كما يقول الإمام ابن القيِّم رحمه الله.

وقال الإمام ابن المبارك رحمه الله تعالى عن الأدب قولاً جامعاً: (معرفة النفس ورعوناتها، وتجنُّب تلك الرعونات).

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً، وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ﴾ التحريم:٦، قال: أدِّبوهم وعلِّموهم.

والأدب ثلاثة أنواع: أدب مع الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وشرعه، وأدب مع خلقه، وأدب مع النفس.

وسُئل الحسن البصريُّ رحمه الله تعالى عن أنفع الأدب؟ فقال: التفقُّه في الدين، والزهد في الدنيا، والمعرفة بما لله عليك.

وقال الجنيد رحمه الله تعالى: (حسن الأدب في الظاهر عنوانُ حُسن الأدب في الباطن).

وكلَّما علا مقام العبد عند ربِّه ازداد أدبه.

ولا يذهبنَّ وهم واهم إلى أنَّ تربية سلف هذه الأمَّة، وحرصهم على حسن تأديبهم لأولادهم، كانت تقوم على الشدَّة والقهر، والمسارعة إلى إنزال العقوبة البدنيَّة عند أدنى سبب..

فهذا من مخلَّفات قرون التخلُّف التي اتَّصلت بعصرنا الحاضر، ورسمت صورة مشوّهة عن عصر السلف..

ويؤيِّد ذلك ما اتَّفقت عليه كلمة كبار علماء التربية من السلف، ومن اتَّصل عهده بعهدهم: أنَّ التربية المثلى لا تكون بضرب الناشئ وقهره، والشدَّة عليه وإذلاله، يقول الإمام ابن خلدون رحمه الله: (من كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلِّمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر، وضيَّق عن النفس في انبساطها، ودعاه إلى الكسل، وحمله على الكذب والخبث، وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفاً من انبساط الأيدي بالقهر عليه).

ـ وبعد: فلقد أخذ سلفنا أبناءهم بالأدب في كل شأن من شؤون الحياة: في العلاقة مع الله تعالى، وفي تهذيب النفوس وتزكيتها، وفي العلاقة مع الناس، بدءاً بالوالدين والقرابة، وكلِّ ذي رحمٍ، إلى الجيران والأصحاب، وانتهاءً بالعلاقة مع الناس كل الناس، ولو كانوا أعداءً محاربين فقانون الحرب معهم له آدابه التي تحكمه، وأخلاقه التي تلجمه..

فمن ثمَّ فقد كانت مجتمعات سلف هذه الأمَّة متماسكة البنيان، وطيدة الأركان، تقوم العلاقة بين أفرادها على أوثق العرى، وأزكى الروابط، وكانت صورة مجتمعاتهم وطبيعة علاقاتهم

دعوةً إلى الإسلام حيَّة مؤثِّرة في أبناء كلِّ الملل، والأديان، الذين اختلطوا بهم، أو تعاملوا معهم.. ولا بدَّ لنا من إحياء هذه الروح في تربيتنا وتعليمنا، لتزدهر مجتمعاتنا، وتترسخ دعائم نهضتنا، ولا يخفى أنَّ متعلِّمي اليوم، هم معلِّمو الغد، وأنَّ مستقبل مجتمعاتنا إنَّما تصنعه النخبة المعلِّمة في يومنا..

٧ـ ومن معالم التربية الإسلاميَّة في حياةِ السلف: تنوُّع المحاضن التربويَّة وشمولها لمختلف فئات الأمَّة: فلقد عرفت الأمَّة في عهود رقيِّها وازدهارها تنوُّعاً خصباً في محاضن التربية؛ فالبيت كان المحضن الأوَّل، الذي ينشأ الطفل في رحابه أوَّل ما ينشأ، ويتفتَّح عقله وفكره، ووجدانه وعواطفه على ما يرى فيه ويسمع، من ذكر الله تعالى، ومعرفة دينه، والتأدُّب بآدابه، والانطلاق من رقابة الله وخشيته في كلِّ شيء.. ويرى في سلوك والديه أوَّلاً وقبل كلِّ شيء: القدوة الحسنة له في كلِّ ما يؤمر به أو ينهى عنه..

وكان المسجد هو المحضن التالي الذي يتعرَّف عليه الناشئ، وهو يصحب والده لأداء الصلوات الخمس كل يوم.. فتتَّسع دائرة معرفته وعلاقاته، إذ يرى أتراباً له من الناشئة، ينشؤون مثل ما ينشأ، ويتلقَّون من التربية مثل ما يتلقَّى، فتنعقد صلاته بهم، يألفهم ويألفونه، ويحبُّهم ويحبُّونه.. ويرى في رجال كثيرين حوله، نماذج أخرى من القدوة الحسنة، ممَّا يكون عضداً لجهود الوالدين ورديفاً..

وعندما يكبر الناشئ أكثر وينضج، ويتَّصل بالمجتمع، وتتَّسع دائرة علاقاته أكثر يجد الانسجام بين كلِّ حلقة من الحلقات التي مرَّ بها في مراحل نموِّه ونشأته، ولا يجد شيئاً من الاختلاف ذا بالٍ في ذلك كلِّه، فتتعمَّق في نفسه القيم والمبادئ التي تلقَّاها منذ نشأته الأولى وتترسَّخ..

وباختصار: لقد كان المربِّي يجد أعواناً له على إقامة المنهج الحقِّ، وغرس مبادئ التربية المثلى أنَّى ذهب، وحيثما نظر.. وكان الطفل والناشئ لا يرى شيئاً من التناقض والتضارب بين دوائر المجتمع التي تحتضنه منذ نشأته الأولى، ويدرج في بحبوحتها.. وكان للعلماء الربَّانيِّين، والدعاة المهديِّين حضورهم المتميِّز، وهيمنتهم المستمدَّة من كتاب الله تعالى، وسنَّة نبيِّه صلى الله عليه

وسلم.. وكان حضورهم في ضمير الأمَّة ووجدانها، وهيمنتهم على حياتها العلميَّة والفكريَّة، والتربويَّة والسياسيَّة لا يعكِّر عليه انحراف الساسة والكبراء عن منهج الحقِّ، أو تقصيرهم في إقامته ونصرته..

٨ـ ومن معالم التربية الإسلاميَّة في حياةِ السلف: سلامةُ الاتِّجاهِ العامِّ للأمَّة، وتوحُّدُ مرجعيَّتِه العليا ومصدره: والنقطة السابقة تقود إلى هذه النقطة، وتسلم إليها، وهذه النقطة بمثابة تفسير لتلك وبرهان.. فالاتِّجاه العامُّ للأمَّة، لم يكن كذلك إلا لتوحُّد مرجعيَّته ومصدره، التي تتمثَّل في كتاب الله تعالى، وسنَّة نبيِّه صلى الله عليه وسلم.. تلك المرجعيَّة التي كانت بدهيَّة لا تحتاج إلى جدل أو اشتباه.. وكان التلقِّي عنها يقترن بالسلوك العمليِّ القدوة، الذي يتجلَّى في حياة الأئمَّة الربَّانيِّين، والدعاة المهديِّين، الذين يترجمون المقال إلى مثال، والمبادئ والقيم إلى حياة عمليَّة رشيدة، يراها الناس، ويتفاعلون بها، تحقيقاً لقول الإمام مالك رحمه الله: (إنَّ هذا العلم دين، فانظروا عمَّن تأخذون دينكم).

واليوم تشكو أمَّتُنا على كلِّ صعيد تضارب المبادئ والاتِّجاهَات، وتدفُّق التيَّارات العقديَّة والفكريَّة الغازية من الشرق والغرب، بصورة بلبلت عقول المربِّين وأفكارهم، وزلزلت عقيدتهم، إن لم يكونوا فريستها، ويقعوا ضحيَّتها.. وأصبحت صلة الناشئة بدين الله تعالى، الذين تربَّوا تحت أيديهم صلة واهية باهتة، أشبه بموروث لا تزيده الأيَّام إلا ضعفاً ووهناً.. وأصبح كثير ممَّن يدَّعي الاحترام للإسلام والتقدير له! لا يرى له شأناً إلا بعلاقة محدودة بين المخلوق والخالق، تنحصر في حدود المسجد، وبأمور معدودة.. وما سوى ذلك فالحياة تحكم بأنظمة وقوانين ما أنزل الله بها من سلطان؟!

وكان لحملات الاستخراب الصليبيِّ التي اجتاحت أكثر بلاد المسلمين أثر خطير في تنفيذ هذا المخطَّط الماكر، وتهيئة جيل من المستغربين الضائعين التائهين، الذين قاموا بالمهمَّة من بعدهم بتبعيَّة عمياء حمقاء.. فما أشقَّ مهمَّة التربية الإسلاميَّة في عصرنا بعد ذلك على الوالد والمربِّي؟! وما أعظم تبعاتها!

٩ـ ومن معالم التربية الإسلاميَّة في حياةِ السلف: التربية على تحمُّل المسؤوليَّة: إنَّ من يتتبَّع سير السلف الصالح بدءاً من حياة أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم يجد بينهم قدراً مشتركاً في التربية يقوم على تحمُّل المسؤوليَّة منذ مرحلة مبكِّرة، هذه المسؤوليَّة التي تشمل كلَّ إنسان بالغ، ولا يعفى منها أحد، وهي تقوم على أمانة التكليف الشرعيِّ، الذي خلق الإنسان لأجله، وتبتدئ من مسؤوليَّة الإنسَان عن نَفسه أوَّلاً، ثمَّ تتَّسع لتشمل علاقاته الأقربَ فالأقربَ منهَا.

والتربية على تحمُّل المسؤوليَّة من زَاوية أخرى لها أثر كبير في تفتُّح مواهب الإنسان، وتحفيز طاقاته للجدِّ والعمل منذ مرحلةٍ مبكِّرة من حياته، فتراه فتىً يافعاً ينجز من العمل ما لا ينجزه إلا الرجال..

وكان منْ مظاهر تربية السلف على تحمُّل المسؤوليَّة ما كان أصلاً شائعاً، لا يخرج عنه إلا شاذٌّ لا حكم له، وهو الزواج المبكِّر، فهو خير ما يربِّي على تحمُّل المسؤوليَّة، ويعين عليها.

وإنَّ أكثرَ ما نعانيه منْ فشلٍ أسريٍّ واجتماعيٍّ إنَّما يعود إلى خللٍ في التربية على تحمُّل المسؤوليَّة، فينشأ الناشئ رخو الشخصيَّة، ضعيف التكوين، يبلغ مبلغَ الرجال، ولكنَّه بعقل الأطفال، وبمثل اهتماماتهم..

١٠ـ ومن معالم التربية الإسلاميَّة في حياةِ السلف: توفُّر القدوة الحسنة، والتعلُّق بالمثل الأعلى: كثيراً ما نتحدَّث عن القدوة الحسنة، وأثرها في حياة الإنسان، وبالأخصِّ في حياة الطفل والناشئ، ولكنَّ الكلام يبقى نظرياً يجنح إلى التجريد، وتقديم المفاهيم العقليَّة، ما لم تكن القدوة الحَسَنَة سلوكاً يراه الناشئ أمامه، فيتأثَّر به، وتنطبع أخلاقه في نفسه..

ومن الملاحظات المهمَّة في هذا الباب أنَّ القدوة الحسنة لا تضيع، إنَّها تؤثِّر في الطفل والناشئ ولو بعد حين، فعلى المربِّي أن يجتهد، ولا يستعجل النتائج والثمرات، ولكنَّ القدوة السيِّئة تؤثِّر ولو بمَرَّة واحدة، فليحذر المربِّي من الاستنامة على الغفلة، وادِّعاء تدارك حال الناشئ، والقدرة على إصلاحه ولو بعد مدَّة.

والوالد أو المعلِّم لا يكون مربِّياً إلا إذا تأسَّى بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم، وكان قدوة حسنةً لطلابه، وذلك هو المحور الذي تدور حوله آداب العالم والمتعلِّم، أن يكون المربُّون قدوة

حسنة، وأسوة صالحة لمن يُعلّمونهم، يرون من أخلاقهم وسلوكهم، وسمتهم وأدبهم، وكلامهم ومواقفهم، ما يطبع في نفوسهم أزكى الصفات، ويحبِّب إليهم الحق، ويزيِّنه في قلوبهم، فلا تزال نبتته تنمو وتزهر، وتُؤتي أُكلها كلَّ حين بإذن ربها، فلا تستطيع شوائب الفساد والانحراف، أن تدخل القلوب، أو تعشِّش حولها: ﴿كذلِكَ يَضرِبُ اللهُ الحقَّ والبَاطِلَ، فأمّا الزبَدُ فيَذهَبُ جُفَاءً، وأمَّا ما يَنفَعُ الناسَ فَيَمْكُثُ في الأرضِ، كذلِكَ يَضرِبُ اللهُ الأمثالَ﴾ الرعد: ١٧.

وإن المعلِّم الذي يهدم بفعله ما يبني بقوله، فإنَّ أوَّل ما يهدم من قلوب أبنائه ثقتهم به، فلا ينظرون إليه أنَّه الأسوة الحسنة لهم، والقدوة المحببة، وهذا ما يحدث الانفصام في حياتهم بين العلم والعمل، والقول والسلوك، وينبت خلائق التصنع والنفاق، والتفنُّن في المداهنة والكذب الاجتماعيِّ، وتلك من أهمِّ أسباب بوار الأمم وهلاكها.. وممَّا يترك أيضاً المجال واسعاً، والمرتع خصباً، لشياطين الإنس والجنِّ: أن تستولي على القلوب، وتستهويها، وتصدَّ الناس عن سبيل الله، وصراطه المستقيم..

وختاماً؛ ففي تراثنا التربويِّ ذخيرة فكريَّة عظيمة، وتفصيل دقيق من أئمَّة الإسلام لما ينبغي أن يكون عليه طالب العلم من أدب جمٍّ، وسمت حسن، وخلق طيِّب، وعلاقة متميِّزة، مع أستاذه ومع طلابه، تضاهي علاقة الأبناء بآبائهم، والآباء بأبنائهم، بل تفوقها في كثير من الأحيان.

يقول الجاحظ وهو يوصي طالب العلم المعلِّم في بعض أقواله الجامعة: (وهب الله لك حسن الاستماع، وأشعر قلبك حبَّ التثبُّت، وجعل أحسن الأمور في عينيك وأحلاها في صدرك، وأبقاها أثراً عليك في دينِك ودنياك: علماً تفيدُه، وضالاً ترشدُه، وباباً مِن الخير تفتحُه.

وأعاذك من التكلُّفِ، وعصمك مِن التلوُّنِ، وبغَّض إليك اللجاجَ، وكرَّه إليك الاستبدادَ، ونزَّهكَ عن الفُضولِ، وعرَّفك سوءَ عاقبةِ المراء، ولا أعلم الموصوف بالاستبداد إلا مجهَّلاً مذموماً).

(فاجعل محاسبة نفسِك صناعةً تعتقدُها، وتفقَّد حالاتِك عقدةً ترجعُ إليها، حتَّى تخرجَ أفعالُك مقسومةً محصَّلةً، وألفاظُك موزونةً معدَّلةً، ومعانيك مصفَّاةً مهذَّبةً، ومخارِج أمورِك

مقبولةً محبَّبةً، فمتى كنتَ كذلكَ، كانت رقَّتُك على الجاهلِ الغبيِّ، بقدرِ غلظتِك على المعانِدِ الذكيِّ، وتحبُّ الجماعةَ بقدرِ بُغضِك للفرقةِ، وترغَبُ في الاستخارةِ والاستشارةِ بقدرِ زهدِكَ في الاستبدادِ واللجاجةِ، وتبدأُ مِن العلمِ بما لا يَسَعُ جهله قبلَ التطوُّعِ بما يسعُ جهله.. ولا تلتمسِ الفُروعَ إلا بعدَ إحكامِ الأُصُولِ، ولا تنظُر في الطُّرَفِ والغرائِبِ، وتؤثِر روايةَ المَلَحِ والنوادِرِ، وكلَّ ما خفَّ على قُلوب الفُرَّاغ، وراقَ أسماعَ الأغمارِ إلا بعد إقامة العمود، والبصر بما يلتم من ذلك العمود). من كتاب الجاحظ: البرصان والعرجان.

وينصح الإمامُ ابنُ الجوزيِّ رحمه الله ولده بمعان نفيسة ممَّا أفاض الله على قلبه من الحكمة فيقول: (واعلم يا بنيّ أنَّ الأيام تبسط ساعات، والساعات تبسط أنفاساً، وكل نفسٍ خزانة، فاحذر أن تذهب نفساً في غير شيءٍ، فترى يوم القيامة خزانة فارغةً فتندم)..

(فانتبه يا بنيّ لنفسك، واندم على ما مضى من تفريطك، واجتهد في لحاق الكاملين ما دام في الوقت سعة، واسقِ غصنك ما دامت فيه رطوبةٌ، واذكر ساعاتك التي ضاعت، فكفى بها عظةٌ، ذهبت لذَّة الكسل فيها، وفاتت مراتب الفضائل، وقد كان السلف رحمهم الله يحبُّون جمعَ كلِّ فضيلة، ويبكون على فوات واحدة منها).

ويقول رحمه الله: (ولا تشتغل بعلمٍ حتى تُحكِم ما قبله، وتلمَّح سِيَرَ الكاملين في العلم والعمل، ولا تقنع بالدون، فقد قَالَ الشاعر في ذلك:

ولم أرَ في عيوب الناس شيئاً ... كنقص القادرين على التمامِ

واعلم أن العلم يرفع الأراذل، فقد كان خلقٌ كثير من العلماء لا نسب لهم يُذكر، ولا صورةٌ تُستَحسَن، وكان عطاءُ بن أبي رباح أسودَ اللون ومستوحَشَ الخِلقة، وجاء إليه سليمان بن عبد الملك وهو خليفة ومعه ولداه، فجعلوا يسألونه عن المناسك، فحدَّثهم وهو معرضٌ عنهم بوجهه، فقال سليمان الخليفة لولديه: (قوما ولا تَنيَا ولا تكاسلا في طلب العلم، فما أنسى ذلَّنا بين يدَي هذا العبد الأسود).

وكان الحسن البصريُّ مولى -أي مملوكاً- وابن سيرين ومكحولٌ وخلق كثير، وإنما شرفوا بالعلم والتقوى). من رسالة الإمام ابن الجوزي: لفتة الكبد في رسالة الوالد.

وبعد؛ فهذا غيض من فيض، وقطرة من بحر تربية السلف المتميزة، أسأل الله تعالى أن ينفعنا بها، ويرزقنا حبَّهم واتِّباعهم.. اللهمَّ علِّمنا ما ينفعُنا، وانفَعنا بما علَّمتَنا، وزِدنا عِلماً وعمَلاً وفِقهاً في الدينِ، وسلامٌ على المرسلينَ، والحمدُ لله ربِّ العالمينَ.

* * * * *

الأسرَةُ المُسلِمَةُ.. والمستقبَل المأمُول!

تتفاقم الشكوى يوماً بعد يوم، من كثرة المشكلات والأزمات التي تعاني منها الأسرة المسلمة، وتقود في كثير من الأحيان إلى انفصامِ عرى الزوجيَّة، وما ينجم عنه من آثار وسلبيَّات، وإن لم يصل الأمر إلى هذا الحدِّ، فإنَّ الأسرة تدخل تحت رحى، تدور حول مطالب الدنيا، وتكدح وراءها، وتصبح لا همَّ لها فيما سوى ذلك، ولا هدف أسمى يشغلها، ويوجِّه طاقاتها!

فأين يكمن الخلل يا ترى؟! ومن المسؤول عن هذا الانتكاس الذي يبدِّد آمالاً عريضة سامية، ويهدر جهود عقود من التربية، في سنة أو بضعة أشهر، كانت شغلاً وأملاً، ثمَّ أصبحت غبشاً وسراباً مضمحلاً، عدا عمَّا ينجم عن ذلك من آثار نفسيَّة أسريَّة واجتماعيَّة بعيدة المدى؟! تتراكم يوماً بعد يوم، لتكون رصيداً رديئاً لما بعدها، وما هو أسوأ منها..

أهو نوع من الصراع بين الأجيال كما يقولون، يجعل الجيل الجديد يصطرع مع سلفه، ولا يتقبَّل توجيهه ونصحه، بل يسعى فيما يظنُّ، ليزيحه عن سدَّة السيطرة والتحكُّم، ويملك زمام الأمور دونه؟

أم هو اختلاف الأمزجة، وتناكر الأرواح؟ أم هو الخلل في التربية، وتباين الأخلاق، يحمل صاحبه على سوء الخلق، وضعف القدرة على التكيُّف والتعايش، والتحقُّق بالحكمة وبعد النظر؟

أم الخلل في التربية أنَّها كانت تجنح إلى مثاليَّة حالمة، فعندما اصطدمت بالواقع غلبها، وهزم رؤاها؟!

وأيّاً ما كان الأمر، فالمشكلة واقع تئنُّ منه حياتنا الأسريَّة والاجتماعيَّة، وهي ذات أوجه مختلفة، ومظاهر متعدِّدة، ولعلَّ من أبرز أوجهها: رفض التعايش بين الحماة وكنَّتها، ومظاهر

القطيعة والتدابر، التي تنكب بها كثير من الأسر الموسومة بالتمسُّك بالدين، والحرص على إقامة أحكامه..

لقد أصبحت فكرة التعايش بين الحماة وكنَّتها، وبخاصَّة في بيت واحد، أو في بيت فيه نوع من الاشتراك مرفوضةً مستهجنة، بصورة لا تقبل أي مراجعة أو حوار.. ولماذا؟ التعليلات متعدِّدة، والنتيجة واحدة.. والثمرة المرَّة هي القطيعة، أو ما يشبهها..

والعجب كل العجب أنَّ العلاقة بين الأسرتين في مرحلة الخطوبة تكون وديَّة مشرقة، وثيقة متألِّقة، فإذا تمَّت الأمور على أحسن ما يكون في ظاهر الأمر، بدأت المشكلات التافهة تُحكِم خناقها على العلاقة بين الأطراف، حتَّى تؤول الأمور إلى أسوأ مآلاتها.. وصدق الشاعر:

لَعَمْرُكَ مَا ضَاقَتْ بلاَدٌ بأهْلِهَا ... وَلكِنَّ أخْلاقَ الرجَالِ تَضِيقُ

وأهمُّ أسباب هذه الظاهرة:

١ـ أنَّ أكثر الأزواج شباباً وفتيات يدخلون الحياة الزوجيَّة، مستخفِّين بأعبائها ومسؤوليَّاتها، ودون أن يقدَّم لهم التأهيل المناسب، فيُزَجُّ الزوج في معمعة المسؤوليَّة دون زاد من الوعي، أو رصيد من الخبرة والحكمة، أو سلاح من العلم وعتاد، أو فنٍّ من حسن العلاقة.. ثمَّ هو لا يسعى إلى ذلك بنفسه، ولا يبحث عنه..

وتُزَجُّ الزوجة في الحياة الزوجيَّة، وهي لم تتأهَّل لها أدنى التأهيل، ولعلَّها تكون قد عاشت حياتها في بيت أهلها، ولها الكلمة الأولى والأخيرة؛ لا يُرَدُّ لها طلب، ولم تدرَّب على حمل شيء من المسؤوليَّة.

وكما أنَّ الإنسان عندَما يدخل الحياة العسكريَّة يخضع لدورة تدريبيَّة شديدة، تسمَّى: (دورة الأغرار)، يراد منها نقله من لين الحياة المدنيَّة ونعومتها إلى شدَّة الحياة العسكريَّة وبأسها، كذلك عندما ينتقل إلى الحياة الزوجيَّة يحتاج إلى دورة تأهيليَّة لدخول هذه الحياة الجديدة، وإتقان فنِّ التعامل مع متطلَّباتها، وحلِّ مشكلاتها، وقد أصبحت الدورات التدريبيَّة، والتأهيليَّة والتطويريَّة في كلِّ علم وفنٍّ سمة هذا العصر، وأسلوب التعامل بين أهله، فأين فينا تلك المؤسَّسة الإنسانيَّة، التي تقوم بهذه المهمَّة الجليلة، والأمنية الغالية؟!

٢ـ ما ترسَّخ في أعماق الوعي الاجتماعيِّ من موروث ظالم عن طبيعة العلاقة بين المرأة وحماتها وكنَّتها، وكأنَّ هذه العلاقة تستعصي على التربية، ولا تقبل شيئاً من التقويم والتهذيب، ويتبع ذلك رفض التعايش والمساكنة، فتغيب حكمة الرجال بعدما غابت التربية المثلى، وتبدأ الحياة الزوجيَّة مشحونةً بالتوتُّر مع أسرة الطرف الآخر، والحساسيَّة المفرطة من كلِّ موقف.

٣ ـ الخلل في التربية على حمل رسالة الحق، والغيرة على قيمه وحرماته، ووضوح الأهداف الإسلاميَّة في الحياة، ولا شكَّ أن من لم يتربَّ هذه التربية، رجلاً كان أو امرأة، فستنزع به نفسه نحو الاهتمامات الصغيرة التافهة من التعلُّق بالدنيا، والتفاخر بها، والتنافس فيها، واقتصار التفكير والهمَّة عليها، وضيق النظر، والتعصُّب لتوافه الأمور.

٤ـ نزوع حياتنا الاجتماعيَّة نحو ثقافةِ الاستهلاك، والتوسُّعِ في الكماليَّات، وحصر الهمَّة بها، وعدِّها من ضرورات الحياة المعاصرة، التي لا يمكن الاستغناء والتخلِّي عنها.. وقد غطَّى ذلك على الحقائق الجوهريَّة التي هي لبُّ حياة المسلم وعنوانها.

وفي مقابل ذلك غيبة الأخلاق والمفاهيم الإسلاميَّة، من البرِّ والتراحم، والإحسان والتعاون، وقد كانت تحكم حياة الناس وعلاقاتهم إلى عهد قريب.. فأصبح كلُّ إنسان يواجه بنفسه مشكلات الحياة المتكاثرة، وأعباءها المادِّيَّة المتزايدة، ويتحمَّل ضغوطها وحده، ويطالب بتقديم كلِّ ما تقذف به عبقريَّة التقنية إلى عالم الاستهلاك، فلا يرقُّ له أقرب الناس إليه ولا يرحمه، ولا يجد حوله من يقف معه، ولا يعذره أحد إن قصَّر في تلبية شيء من ذلك، ولم يسعفه الطول والسعة.

٥ـ لقد أصبح الناس في مجتمعات اليوم محاطين بنماذج من السلوك (المنمَّط) لا يستطيعون الفكاك منها، وهو ما أسمِّيه: (البرمجة الفرديَّة والاجتماعيَّة الصمَّاء)، وأعني بها الرضوخ بصورة آليَّة عمياء إلى تيَّار التقلُّبات المتسارعة، ووهم العادات والتقاليد، التي تكبِّل حياة الإنسان وفكره وسلوكه، وكثير منها تجافي شرع الله وهديه، ومع ذلك فهي مسلَّمات في نظر أكثر الناس، لا تقبل التجاهل أو المقاومة، فضلاً عن شيء من التمرُّد، أو محاولة التغيير والتعديل، واختيار الصالح النافع..

فما المخرج للأسرة المسلمة من هذه المآزق؟

١ـ لا بدَّ من التخلِّي عن النظرة الموروثة للأسرة، وهي أنَّها شأن خاصٌّ، لا يعني إلا أفرَادَها ومن يلوذ بها، بصورة قريبة مباشرة، بل ينبغي أن ينظر إليها على أنَّها مؤسَّسة اجتماعيَّة تربويَّة، يهمُّ أمرها كل عضو من أعضاء المجتمع، وبخاصَّة في هذا العصر الذي غلبت فيه المادِّيَّة، وتكالبت قوى الشرِّ على الأسرة المسلمة لزعزعة بنيانها، وتقويض أركانها، ولا يكسر شوكة هذه الهجمة إلا وقوف المؤمنين صفّاً واحداً، وشعورهم بالمسؤوليَّة وتناصحهم، وتعاونهم على البرِّ والتقوى..

وهذا يعني أنَّ كلَّ فرد في المجتمع يتحمَّل ـ بحسب استطاعته ـ جزءاً من مسؤوليَّة نجاح كلِّ أسرة فيه، وذلك انطلاقاً من مفهوم قول النبيِّ عليه الصلاة والسلام: (مثلُ المؤمنين في توادِّهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسدِ بالحمَّى والسَّهَر)، وما أشبه ذلك من النصوص الشرعيَّة!

والمسؤوليَّة عن الأسرة التي يتحمَّلها كلُّ فرد في المجتمع مسؤوليَّة مادِّيَّة وأدبيَّة على حدٍّ سواء.. لا يمكن تجاهل إحداهما، ولا قيام للأسرة إلا بهما..

٢ـ ثمَّ على الشابِّ المقبل على الزواج، وكذلك على الفتاة أن يجعلوا جزءاً من برنامج حياتهم الجديدة: أن يتعرَّفوا على الناجحين والناجحات في بناء الأسرة، وتربية الأبناء، وحبَّذا لو أنَّهم أعدُّوا أسئلة شاملة لمختلف جوانب الحياة الزوجيَّة والأسريَّة، وتعرَّفُوا بدقَّة على تجارِب هؤلاء الناجحين وخبراتهم وتوجيهاتهم.

وأوَّلُ الناجحين الذينَ ينبغي على الزوجين أن يطلبا خبرَتَهَا، ويتطلَّعا إلى تجاربهما في الحياة هما أسرة الطرفَينِ: فينبغي أن يتطلَّع الزوج بهذا المنظار إلى أسرة زوجته، ويتعامل معهم كذلك، وأن تتطلَّع الزوجة بهذا المنظار إلى أسرة زوجها، وتتعامل معهم كذلك، ويطلب كلُّ واحدٍ منهما خبرة الطرف الآخر، وتجربته في الحياة بصدق.. وإنَّ قلَّة من الناس الذين لا تحجبهم شدَّة القرب عن رؤية الإيجابيَّات والانتفاع بها، والتغافل عن السلبيَّات وتجاوزها، ولكنَّ حرص المؤمن الصَّادق على الخير يجعله يركِّز نظره على الإيجابيَّات دائماً، ويحرص على الأخذ بها.

وغنيٌّ عن البيان أنَّ ذلك لا يعني مصادرة رأي أيٍّ من الزوجين، ورغباته واجتهاده، ولكنَّها استنارةٌ فكريَّة، وتقدير واحترام، واعتراف عمليٌّ بفضل ذي الفضل ومنزلته وسبقه..

ولماذا نعدُّ أسرة الطرفين أوَّل الناجحين في التربية؟ لأنَّ كلا الأسرتين قد رضيت بتربية الطرف الآخر، ولو بأدنى حدٍّ، ودفعها ذلك إلى الخطوبة أو الرضا بالخطوبة، فكان حقّاً على كلٍّ من الطرفين أن ينظر كما يقولون إلى الشطر المليء من الكأس، فيرى الإيجابيَّات التي يقتنص منها جوانب التألُّق والنجاح.

ولعلَّ من أهمِّ الأسئلة التي يمكن أن تطرح على أولئك الناجحين:

ما عوامل نجاحه في نظره؟ وما العقبات التي يحذِّر منها؟ وبم كانت علاقته متميِّزة على مستوى العلاقة الزوجيَّة أو الأسريَّة؟ وماذا يتمنَّى أن يستدرك في حياته لو استقبل من أمره ما استدبر؟ وكيف تعامل مع الأزمات الماليَّة؟ وكيف استطاع تجاوزها؟ وكيف ينظِّم حياته؟ وما أولويَّاته؟ وهل يتدخَّل أهل زوجته في حياتهم؟ وكيف يتعامل معهم؟ إلى غير ذلك من الأسئلة..

٣ـ ولاشكَّ أنَّ المثاليَّة في العلاقات الزوجيَّة والأسريَّة مطلب عسير المنال، ولكنَّ الطموح إلى الكمالِ مطلبٌ مهمٌّ، وديدن ذوي الهمم، وهو كفيل أن يرفعَ مستوى تلك العلاقات إلى نوع من المثاليَّة الواقعيَّة، التي تتعامل مع الواقع بإيجابيَّة، وهي تتطلَّع إلى الكمال وتنشده، ولا تستبعد الخطأ والضعف والقصور، ولكنَّها لا تيأس من إصلاحه، ولا تقف عنده، وتتقاصر دونه..

٤ـ وأخيراً على الشابِّ والفتاة أيضاً أن لا يظنُّوا الحياة ساعات ورديَّة من شهر العسل، تحلو بلا كدر، وتصفو بلا نكد، وينال المرء فيها كلَّ ما يطلب ويتمنَّى، فذاك ظنٌّ مجانبٌ لطبيعة هذه الحياة، وهو سرعان ما تتبدَّد أوهامه، وتنقشع سحب أحلامه، ويصطدم الواقفون معه بالحقائق، التي لا تقبل إلا الجدَّ، ولا تغني عنها الأوهام، ولا تجدي.. فليوطِّنوا أنفسهم على استقبال المشكلات بروح إيجابيَّة، وعلى قدرها، وليقفوا معها وقفة واقعيَّة، ليروا بعد ذلك أن ليس من مشكلة تستعصي على الحلِّ وتتأبَّى..

* * * * *

بَيْنَ مَوَازِينِ الحَقِّ وإِرَادَةِ الإصلاح!

الغفلة عن موازين الحقِّ والعقل وغيبة إرادة الإصلاح سبب كلِّ المشكلات:

تأمَّلت حال أكثر الناس فيما يشتكون في علاقاتهم من مشكلات وخلافات، حتَّى بين أهل الدين والالتزام، فوجدت أنَّ تصعُّد المشكلات وتأزُّمها سببه الأكبر الغفلة عن تفعيل مُعادل الإيمان بحقيقته ومقتضاه، ومَنطق العقل بحكمته ورشده..

وبين الإيمان والعقل حبلٌ متين، واتِّصال وثيق، كما هو بين الإيمان والفطرة.. وأحدهما أو كلاهما يضع الأمور في نصابها الموزون، ويعطيها حجمها الصحيح، ولا شكَّ في رجحان تأثير الأوَّل على الثاني.. فمن لم يكن على دين يردعه، فليكن على عقل يرشده ويمنعه..

فعندما ينظر إلى أيَّة مشكلة بمنظار الإيمان بمفهومه الشامل الكامل، وتوزن بميزان الشرع أو العقل، بعيداً عن الهيجان العاطفيِّ، الذي تُهدَر به أحكام الشرع وآدابه، ويُعَطَّل به منطق العقل وحكمته فلا بدَّ أن يعتدل موقف الإنسان ويتغيَّر، وأن يكون عليه من نفسه بصيرة ناقدة، تكبح جماح نفسه عن الغلوِّ في تنزيه مواقفه والاعتداد بها إلى درجة المئة.. واتِّهام الآخرين إلى درجة ما تحت الصفر..

فإذا أضيف إلى ذلك بُعْدُ الاحتساب لله تعالى، وما يمليه على الإنسان من السموِّ الإيمانيِّ والأخلاقيِّ، نزل مستوى المشكلة في تقويم الإنسان واستعداده النفسيِّ إلى الحدِّ الذي يخفِّف من غلوائه، ويجعل حلَّها في متناول يديه، وينأى بها عن التصعيد، الذي يجعلها تستعصي على حكمة الحكماء، وحلول المُحكَّمين..

وهذا ما يزرع في نفس الطرفين في أيَّة مشكلة: إرادة الإصلاح والاستعداد النفسي للتنازل عن كثير من المطالب، أو التعنُّت في المواقف..

ولكنَّ الواقع يقول: إنَّ أكثر الناس غير مؤهَّلين علمياً، ولا نفسياً وتربوياً للوقوف هذا الموقف.. فكان لا بدَّ لهم من الرجوع إلى من يثقون بدينه وعلمه وحكمته، كما يرجع المريض إلى الطبيب لكشف علَّته، وتقديم العلاج الناجع له.. ومن هنا جاء الحلُّ القرآنيُّ: ﴿فَابْعَثُوا حَكَمَاً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمَاً مِنْ أَهْلِهَا﴾ النساء: ٣٥.

ثمَّ جاء قولُ الله تعالى: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا﴾ النساء: ٣٥.. وهذه الإرادة تشمل الحَكَمَيْن، كما تشمل المُتنازِعَين المُختلِفَين..

وإخفاق الحكمين في مهمَّة الإصلاح سببه في أكثر الأحوال أنَّ أحد الطرفين لا يريد الإصلاح، أو هو يائس منه، ومصرٌّ على الفراق.. أو أنَّ الحكمين لم يزرعا إرادة الإصلاح في نفوس المختلفين، ولم ينتزعا منهما الرغبة فيها، والحرص عليها، وما يتطلَّبه ذلك من القول، ومن التهيئة النفسيَّة، التي تُفعِّلُ مَوازينَ الحقِّ والإيمان، وترجِّح منطق العقل والحكمة..

إضاءة: غفلتك عن ربِّك وتعطيلك لعقلك وحكمتك يضاعف مشكلاتك، ويجعلك تهرب من مشكلة إلى ما هو أكبر منها..

* * * * *

مِزَاجِيَّةُ الأبنَاءِ أم مِزَاجِيَّةُ الآبَاء؟

لقد أصبحت كلمة المِزَاجِ والمزاجيَّة على كلِّ لسان، وفي كلِّ مناسبة.. إنَّها ـ كما هو شائع من معناها ـ داء متأصِّل في حياة أكثر الناس وعلاقاتهم.. ولا تقتصر على علاقات الأبناء بالآباء، ولكنَّ الحديث عنها في علاقة الأبناء بالآباء له نكهة تربويَّة متميِّزة، ويكتسب أهمِّيَّة خاصَّة، لما يقوم بين الطرفين من علاقة التربية وخصوصيَّة القرابة..

أصل الكلمة ومعناها: جاء في كتب اللغة: المِزَاجُ ما يمزج به الشراب ونحوه، وكلُّ نوعين امتزجا فكلُّ واحد منهما مزاج، وفي التنزيل العزيز: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً﴾ الإنسان:٥، ﴿وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ المطففين: ٢٧، والمِزَاجُ استعداد جسميٌّ عقليٌّ خاصٌّ.

وتأتي المزاجيَّة بمعنى الطبيعة الخاصَّة الباطنة، التي يتميَّز بها الفرد عن غيره من الناس..

وتأتي بمعنى الطبيعة المتقلِّبة، التي قد تكون طارئة عارضة، نظراً لظروف الإنسان، وقد تكون ثابتة كجزء من طبيعته.

وقد تأتي المزاجيَّة بمعنى الطبيعة الخاصَّة الظاهرة، التي يتميَّز بها الفرد، وهي بهذا المعنى أقرب إلى مفهوم الشخصيَّة.

ولو تأمَّلنا في أنفسنا بتجرُّد لرأينا أنَّنا كلّنا مزاجيُّون بنسب متفاوتة.. ولكنَّنا نتحدَّث هنا عن مزاجيَّة تؤدِّي إلى اضطراب العلاقات، واختلال الموازين..

ويتحدَّث كثير من الآباء عن مزاجيَّة أبنائهم، في الأكل والنوم، والدراسة واللعب، والعلاقة مع الآخرين.. وغير ذلك. ويبدون كثيراً من القلق على نموِّهم السويِّ ومستقبلهم، ويخشون أن يستمرَّ ذلك في سلوكهم..

ولعلَّ الأبناء لو تحدَّثوا عن آبائهم لأبدوا مثل هذا القلق من سلوك آبائهم، ولكنَّنا نؤثر في أكثر الأحيان أن نميل مع طرح الآباء والإصغاء لشكواهم..

والحقّ أنَّ مزاجيّةَ الأبناء أمْرٌ مفهومٌ مُتوقَّع، لأنَّ الأطفالَ تغلِبُ عليهم العاطفة المتوقِّدة، وبين المزاجيَّة والعاطفة المتوقِّدة حبل وثيق، ونسب قِريب، ولكنَّ الغريب المستنكر أنْ تغلبَ المزاجيَّة على الآباء والمربِّين، فتختلَّ موازينهم، وتجور أحكامهم..

ـ سمات الشخصيَّة المزاجيَّة: يستطيع كلُّ واحد منَّا بالملاحظة القريبة أن يكتشف سمات الشخصيَّة المزاجيَّة، وأهمُّها ما يلي:

ـ ضعف التوازن أو اختلاله.

ـ الأحكام المختلَّة في الفهم والسلوك.

ـ الرغبة الشديدة في شيء، ثمَّ الرغبة الشديدة عنه.

ـ التسرُّع في بعض الأمور، والتردُّد في أخرى.

ـ العاطفة الجامحة إقبالاً وإدباراً.

ـ التناقض في المواقف.

ـ شدَّة التأثُّر بالوهم النفسيِّ.

ـ مزاجيَّة المربِّي: ومزاجيَّة المربِّي تعكس خللاً في شخصيَّته، وفقداً للمنهج التربويِّ مِنْ حياته، ولها آثار عديدة على المتلقِّي، أهمُّها:

ـ جنوح المتلقِّي إلى التمرُّد، لأنَّه يشعر أنَّ أوامر المربِّي بعيدة عن المنطق، لا هدف لها إلا التحكُّم.

ـ ومنها: اضطراب شخصيَّة المتلقِّي، لما يواجه من مواقف متعارضة بين الرفض والموافقة، والإقرار والإنكار، ممَّا يجعله يشعر بالقلق والتوجُّس أمام كلِّ موقف، إذ لا يعرف بم يواجه؟ وكيف يواجه؟

ـ ومنها: شعور المتلقِّي بالجفوة النفسيَّة بينه وبين المربِّي، وابتعاده عنه.

* * * * *

مُتعَةُ النُّضْجِ التَّربَوِيِّ

لا أذيع سراً عندما أعترف أنَّ منهجي في التربية وأسلوبي قد اختلفا اختلافاً بيِّناً، باتِّجاه إيجابيٍّ بفضل الله، عنهما عندما كنت أوَّل عهدي بالتربية وممارستي لها.. ولا أجد في نفسي غضاضة أن أعترف أنَّ فهمي للتربية كان ضبابياً قاصراً، مغرقاً في الضبابيَّة بما فيه الكفاية..

وعزائي بهذا الاعتراف أنَّ أمثالي على هذه الصورة من الآباء والمربِّين كثير.. اعترف من اعترف، أو أنكر من أنكر.. وأنَّ صلاح النيَّة وحسن القصد يشفعان لنا إلى حدٍّ بعيد.. كما أنَّهما يخفِّفان من وطأة الأخطاء التي ارتكبناها، أو وقعنا بها، وما كان لها من نتائج وآثار، ولا أدلَّ على ما أقول من أنَّنا نشهد مثل ذلك في أنفسنا تجاه أخطاء آبائنا ومعلِّمينا.. ومن حقِّنا أنْ نُحسنَ الظنَّ بأبنائنا أن نُعَامَل منهم كما كنَّا نُعَامِل آباءنا ومربِّينا..

هذا الشعور بالفرق الإيجابيِّ هو ما أسمِّيه (النضج التربوي)، الذي يحسُّ المربِّي له بمتعة خاصَّة، ما كان ليشعر بها لولا ترقِّيه في الفهم، واتِّساع مداركه وآفاقه..

ويقابل ذلك: بؤس التخبُّط التربويِّ الذي يجعل الإنسان يصرُّ على مواقفه مهما بدا له عوارها، ويتعصَّب لأسلوبه، ويستخفُّ بآراء الآخرين وأساليبهم، ويعاني أصحاب هذا الواقع من الشعورِ بالعبء التربويِّ، المثقل الفادح، والقصور التربويِّ، وما ينجم عنه من التهرُّب من المسؤوليَّة، وإلقاء اللوم على الآخرين، أو التعجُّل، ومحاولة حرق المراحل، والقفز فوق السنن، وإغفال سنَّة التدرُّج، وتكليف الطفل والناشئ ما لا يطيق.. وما أشبه ذلك ممَّا يلحظ في سلوك كثير من الآباء والمربِّين..

ـ ولماذا كان النضج التربويُّ ممتعاً؟ لأنَّه يحوِّل المسؤوليَّة التربويَّة والهمَّ التربويَّ من عبء نفسيٍّ مُثقِل، إلى هوىً يجد الإنسان نفسه مسارعاً إليه كما يسارع إلى رغائبه وأهوائه، ويجد فيه متعته المحبَّبة فلا يتخلَّى عنه، ولا يهمله..

وكما أنَّ الثمرةَ الناضجةَ لذيذةُ الطعم، ممتعةُ المذاق، فإنَّ النضج التربويَّ ممتعٌ، لأنَّه منسجمٌ مع منهج الله، متناغم مع سننه وهديه، وهو يدلُّ على تمكُّن المربِّي من مهمَّته، وثقته بمنهجه، وما يترتَّب عليه من نتائج إيجابيَّة بإذن الله..

ويستطيع الإنسان أن يعجِّل هذا النضج أو يؤخِّره على حسب ما يبذل من نشاط فكريٍّ، واهتمام عمليٍّ لرفع مستواه، وتعميق وعيه، وترقية مؤهِّلاته..

ـ علاقة النضج التربويِّ بالمنهج، وبالنضج المبكِّر: والنضج التربويُّ هو التمثُّل الصحيح للمنهج التربويِّ بخصائصه وسماته في كلا جانبيه النظريِّ والعمليِّ، وإذا كان مثله كمثل نضج الثمرة، فإنَّ الإنسان لا يملك أن يعجِّل به ويسرِّع من مراحله، ولكنه يستطيع أن يهيِّئ لها العوامل الذاتيَّة والموضوعيَّة، والظروف المحيطة، وأن يمنع عنها العوامل المضادَّة لنضجها، وكلُّ ذلك مما يسهم بشكل أو بآخر في تحقيق ما أسمِّيه: (النضج المبكِّر) ولو بشكل غير مباشر..

ولعلَّ من أهمِّ عوامل تحقيق النضج المبكِّر: أنْ يتناغمَ سلوكُ المتلقِّي مع المربِّي، فيجد المتلقِّي في المربِّي قدوة حسنة، وصورة محبَّبة تدفعه إلى التأسِّي به وترسُّمِ خطاه، وسرعة الاستجابة لِـمَا يدعى إليه.

ـ من مظاهر النضج التربويِّ: هذا وللنضج التربويِّ مظاهر عديدة في سلوك المربِّي وعلاقته بالطفل، أهمُّها:

ـ تحلِّي المربِّي بالنظرة الشموليَّة الواقعيَّة.

ـ حسن التقدير لواقع الطفل ودوافعه، وطبيعة المرحلة العمريَّة التي يمرُّ بها ومتطلَّباتها.

ـ سعة نظر المربِّي، ورحابة أفقه في اختيار الأساليب وتجديدها.

ـ تحلِّي المربِّي بطول النفس في التربية والمتابعة، وأن لا يستيئس من التأثير والتغيير.

ـ البعد عن ردود الفعل، والارتجاليَّة في المواقف.

ـ تحقُّق المربِّي بفنِّ التربية، الذي من أهمِّ مظاهره: رفع كفاءته، وتطوير أساليبه وتجديدها، واتِّخاذ الأساليب التي تدفع المتلقِّي إلى الاستجابة بصورة عفويَّة سلسة..

ـ ومن أهمِّ ثمرات النضج التربويِّ:

ـ نجاح المربِّي، وتحقُّق أهدافه بإذن الله.

ـ استجابة المتلقِّي للمربِّي وتفاعله معه.

ـ قلَّة أخطاء المربِّي، وبخاصَّة تلك الأخطاء الفاحشة، التي تُعَدُّ انتكاساً في التربية.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

رُؤيَتِي فِي التَّربيَةِ.. رُؤيَةُ خبرةٍ ومُعَانَاة..

لا بدَّ من القول أوَّلاً: إنَّ هذه الرؤية لم تكن لي من أوَّل يوم، وليست وليدة علم ومعرفة، بمقدار ما هي ثمرة خبرة في الحياة متراكمة، ومعاناة يوميَّة، ومعايشة لأسرتي قريبة، تجاوز عمرها ثلاثة عقود من عمري.. فمن حقِّها على الناظر أن يعترف بجدِّيَّتها ووزنها، لينتفع بها، وأن يرى أنَّها واقع كان.. لا توصيف نظريٌّ لما ينبغي أن يكون.. وعرضها بهذه الصورة يعين روَّاد الخير على أن لا يبدؤوا من نقطة الصفر..

من المهمِّ دائماً ونحن نتعَامل مع أطفالنا أن تكونَ أعيننا مشدودة إلى الأمامِ.. إلى المستقبل.. فما نريد لهم أن يكونوا عليه من القيم والمعَاني فلنطبعْه في أنفسهم منذ الصغر، وما لم نرضه له فلنبتعِد عنه.. وقد روي في الأثر: (صغار قوم كبار قوم آخرين).

وأنا أعلم أنَّ الحديث عن النفس ثقيل ممجوج، ولكنَّ طبيعة هذه المقالة تفرض ذلك، فليعذرني القارئ الكريم، وليتحمَّل من ثقل حديثي لما يرجو من نفع مأمول، وإلا فليحتسب أجره على الله.. وها أنا ذا أوجز رؤيتي في التربية في النقاط التالية:

ـ لا بدَّ أوَّلاً وآخراً من التوكُّل على الله تعالى وحده، واستمداد العون والتوفيق منه سبحانه، والتبرُّؤ من الحول والقوَّة..

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ الطلاق:٣، ولقد لمست في حياتي بما لا يدع مجالاً للشكِّ أنَّني في كلِّ موقف أغفل فيه عن هذه الحقيقة المطلقة أوكل إلى نفسي، ويحالفني الإخفاق، وأمنى بالخسارة، وكنت أظنُّ أنَّ النجاح مؤكَّد إلى درجة البداهة.. فلا بدَّ لنا من عون الله وتوفيقه:

إذا لم يكُن عون من الله للفتَى ... فَأوّلُ مَا يقضي عليه اجتهاده

أولادنا إن صحَّ التعبير حقل تجاربنا التربويَّة: فما ينفع مع طفل ويجدي قد يكون مفعوله عكسياً مع طفل آخر، وما يستجيب له طفل من أوَّل مرَّة، قد لا يستجيب له طفل آخر إلا بعد مرَّات ومرَّات.. ورُبَّما عجَّلت الطبيعة النفسيَّة لبعض الأطفال باستعمال آخر الدواء، ولم يحتج إليه طفل آخر على مدى مراحل حياته التربويَّة..

ورُبَّما مرَّ طفل بمرحلة المراهقة مرور الكرام، وأحدثت في طفل آخر هزَّات عنيفة، زلزلت كيانه، وأقلقت من حوله، وتركت آثارها في شخصيَّته مدَّة طويلة..

فليس الأولاد إذن في مختبر التربية سواء.. ذلك لأنّهم مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ الفِضَّةِ وَالذَّهَبِ، كما جاء في الحَدِيثِ الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: (النَّاسُ مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ الفِضَّةِ وَالذَّهَبِ، خِيَارُهُمْ في الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ في الإِسْلاَمِ إِذَا فَقِهُوا، وَالأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ) رواه مسلم.

ـ لا إكراه على ما أريد.. ولكنَّني أحاول التدليل على فكرتي بالحوار، والإقناع بها ما استطعت، فإن لم أقدر على الإقناع بما أريد.. فلا خير في الإكراه عليه، ولا جدوى من فرضه..

وليس لي أن أتحمَّس له بهذه الصورة.. ونحن نستطيع أنَّ نعوِّد أطفالنا على فنِّ الحوار الراقي، وحسن الاستقبال للآراء ومناقشتها، والإقناع بما نريد منذ نعومة أظفارهم.. فالطفل بفطرته طُلَعة، يحبُّ تعليل الأمور وتفسيرها، ومعرفة خفاياها وأسرارها، ولا يحقُّ لنا أن ننتقص هذه الفطرة ونهملها، أو نكبتها ونعطِّلها..

ـ لا هوادة في الثوابت، ولا مساومة عليها.. إذ إنَّ ثوابت الدين والحياة لا يختلف فيها اثنان من العقلاء، وعندما يحاول الناشئ الخروج عليها وتجاوزها فهذا يعني بداية انحراف خطير،

لا يقف به الأمر عند حدٍّ، فخير لنا وله أن نقطع عليه خطَّ الانحراف من أوَّله، من أن نتساهل معه، ونحن نعلم أنَّ العاقبة غير حميدة..

ـ لكلِّ سنٍّ متطلَّباته، وميوله ورغباته.. فعلينا أن نتفهَّمها جيِّداً، ونحسن التعامل معها، بتلبية ما ينبغي تلبيته، وتهذيب ما ينبغي تهذيبه، وتوجيه ما ينبغي توجيهه.. وكثير من الآباء يقيس ميول أطفاله ورغباتهم بميوله ورغباته، ويحاكمهم بمنطقه ونضجه، وينسى يوم كان مثلهم، له اهتماماته الطفوليَّة، التي لها في نفسه الأولويَّة..

والحقُّ أنَّ الإنسان لا يستطيع أن ينفكَّ كثيراً عن شخصيَّته ونظرته للأمور في تعامله مع الآخرين، ولذا فهو يحتاج إلى مراقبة دقيقة لنفسه في تعامله مع أطفاله، وحبَّذا لو جعل من شريك حياته عيناً له على مواقفه، ليناقش مواقفه، وينصحه ويسدِّده.. وأحمد الله تعالى أن هيَّأ لي زوجة عاقلة ناصحة، قامت في حياتي بهذا الدور خير قيام..

ـ القراءة الصحيحة للاتِّجاهات والميول، والأفكار والمؤثِّرات، وتقدير المشاعر والرغبات.. فكثير منها متطلَّبات فطريَّة، ترتبط بالمرحلة العمريَّة التي يمرُّ بها الطفل، وتنقضي بانقضائها، فلا ينبغي أن ينظر إليها بشيء من الريبة والاتِّهام، أو التهويل والتضخيم.. فما يثير الطفل ويدفعه غير ما يثير الناشئ ويرغِّبه، وما يثير المراهق ويقلقه غير ما يثير الشابَّ ويحمِّسه، ومشاعر الفتيات واهتماماتهنَّ تختلف، قليلاً أو كثيراً عن مشاعر الفتيان.. وكلُّ ذلك ممَّا يحتاج إلى تقدير واهتمام..

ـ تقدير الواقع، والتحفيز على النهوض.. فالفروق الفرديَّة بين الأطفال حقيقة لا مرية فيها، وإمكاناتُ الأطفال متفاوتةٌ، وقد تتفتَّحُ مواهب الإنسان في سنٍّ، ولا تتفتَّحُ قبله، ومن حكمة المربِّي أن يحسن التعامل مع ذلك، ولا يتجاهله، ويتحلَّ بالصبر وطول النفَس، ولا يُكلِّف ما لا يُستطاع.. والتحفيز على النهوض يثير الهمم الكامنة، والعزائم الخاملة، ويفجِّر في الإنسان طاقات الإبداع والعطاء..

ـ الاحتكام إلى العقل، وإيقاظ الضمير.. فمن أهمِّ ما ينبغي على المربِّي أن يعتني به في تربيته أن يدفع الطفل والناشئ إلى إعمال عقله في كلِّ شأن، وأن لا يتَّكل على عقل غيره، فيكون

خاملاً كَلّاً.. فإعمال العقل والاحتكام إليه، وإيقاظ الضمير، ونباهته وقوَّة إحساسه، خيرُ ما يعين المربِّي على غرس ما يريد غرسَه من القيم والفضائل، وينمِّي في نفسه حاسَّة نقد الذَات، ومحاسبة النفس، وتقويم الأعمال، وأن لا ينساق مع أهوائه في تبرير مواقفه ورغباته..

ـ شاور.. ولا تستأثر.. من خلال اطِّلاعي على حياة كثير من الآباء والأسر فقد رأيت أكثر الآباء لا تعرف الشورى مع أبنائهم إلى حياتهم سبيلاً، فضلاً عن أطفالهم.. ويبقى الطفل في نظرهم طفلاً، ولو أصبح شاباً ورجلاً.. وقد أخذت بحمد الله تعالى بالشورى في علاقتي بأولادي في كلِّ ما تسعه الشورى، وتحسن به الشورى.. وقد رأيت من بركاتها ما لا يحصى..

ويكفي أنَّها تهيِّئ الطفل أو الناشئ إلى أن يسمع الرأي الآخر، كما سُمع رأيه، وأن يتقبَّل الاستجابة له، وأن يتربَّى على أن يشاور، ولا ينفرد برأيه.. كما أنَّ من بركاتها أنَّها تكشف اتِّجاه الطفل ورغباته وميوله، بعيداً عن التكهُّن أو اللبس..

ـ البدائل أمام المربِّي كثيرة، والخيارات في الأساليب والوسائل مفتوحة.. ومن أكبر مظاهر الإخفاق والعجز أن يقف المربِّي مكتوف الأيدي في معالجة بعض السلبيَّات والمواقف، وما ذلك إلا لقصوره التربويِّ وضعف وعيه وثقافته.. وعلى المربِّي أن يبدع في أساليبه ويجدِّد، ليشعر الطفل أو الناشئ بالتجدُّد في حياته، ولا يحس بالسأم والملل..

ـ دعه يجرِّب.. دعه يكتشف.. امنحه الثقة والحرِّيَّة ليبدع.. إنّه مبدأٌ مهمٌّ للغاية، قلَّ مِنَ الآباء مَنْ يجازف بنظره في الأخذ به.. لأنَّه يظنُّ أنَّ الأمور بذلك تفلت من يده، ويفقده سلطته..

والأمر في الحقيقة على خلاف ذلك تماماً.. فما يتعلَّمه الطفل أو الناشئ بمعاناته وتجربته وأخطائه يمنحه خبرة في الحياة لا تقدَّر بثمن، وتجعله يقدِّر خبرة من هو أكبر منه، فيرجع إليه حُباً وطوعاً.. ولا يمكنُ إعداد أبنائنا لتحمُّل مسؤوليَّات الحياة ما لم نمنحهم حرِّيَّة العمل بملاحظتنا وإشرافنا..

ـ التفاهمُ مع الشريك حول منهج التربية وأسلوبها، وتوزُّع المواقف فيها ضرورة لا بدَّ منها.. وإلَّا.. فالإخفاق وسوء النتائج حظُّ الجميع.. وأكثر ما نرى من نماذج الإخفاق التربويِّ

مردُّه إلى تناقض الوالدين في أساليبهما، فكان الأولاد هم الضحيَّةَ الظاهرة.. عدا عمَّا يورِّث هذا التناقض من ضعف الاحترام للوالدين كليهما، والتمرُّد عليهما..

ـ عاطفة الأبوَّة والأمومة سلاح فعَّال قلَّما ينتبه إليه الآباء والأمَّهات.. ومن انتبه إليه قد لا يحسن استعماله.. فأكثر الأمَّهات خاصَّة يمنحن العواطف لأولادهنَّ بغير حساب، ممَّا يجنح بهم نحو الشطط وعدم البرِّ، كما أنَّ كثيراً من الآباء من تضمر عاطفة الأبوَّة في علاقته بأولاده، وكأنَّها مفقودة من شخصيَّتِهِ واعتباره، ممَّا يورث الجفاء والقطيعة النفسيَّة بينهم وبين أولادهم..

مع أنَّ العاطفة السويَّة المتَّزنة للأبوَّة والأمومة نعمة من الله، ليتمكَّن الوالدان من القيام بمسؤوليَّة الرعاية على خير وجه، وهذا ما يتطلب أن تكون بأحسن أحوالها، وتوضع مواضعها سلباً أو إيجاباً..

ـ التربية سلوك تفاعليٌّ، يقوم على التلقِّي والاستجابة، أو ردَّة الفعل التي تحتاج إلى الملاحظة و التقويم.. فما نتَّخذه من الأساليب اجتهاد قد يجانبه الصواب، وقد يأتي بعكس ما نتوقَّع ونريد، فكان لا بدَّ من ملاحظة ردَّة فعل المتلقِّي، وقياس مدى تفاعله واستجابته..

ـ الشفافيَّة في العلاقة، واتِّخاذ الرسائل غير المباشرة.. وخيرها (السلوك القدوة).. والشفافيَّة في العلاقة تفرض شفافيَّة الطرف الآخر، فهي لا تثمر إلا في مثل هذا المناخ، ومن منَّا لا يريد أن يُعامَل بشفافيَّة؟ والسلوك القدوة يختصر كثيراً من المراحل، ويغني عن كثير من الكلام.. ولكنَّه يحتاج إلى الصبر وطول النفس..

ـ ألوِّح بالحزم وأتقن رسائله.. ولا ألجأ إليه إلا لضرورة.. فلا بدَّ للنفس من الترغيب والترهيب، والحزم واللين، ووضع كل أمر موضعه، ومن أمن العقوبة أساء الأدب، ولا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ الحزم النفسيَّ المعنويَّ أهمُّ وأجدى من الحزم الحسِّيِّ..

ـ التقويم المستمرُّ، والمراجعة الدائمة للمنهج والأساليب، وتلك من المرونة التي ينبغي أن يتحلَّى بها المربِّي.. والتقويم المستمرُّ للمنهج والأساليب يكفل للمربِّي الإيجابيَّةَ والفاعليَّة، وأن يطوِّر نفسه، ويبدعَ في عمله، ولا يبقى مرتهناً لما اعتاد عليه من أساليب قد تكون فقدت مفعولها، وتجاوزها الزمن..

ـ إذا أردنا النجاحَ والتميُّزَ، فعلينا أن نرتقي بأنفسنا وأساليبنا، علماً وفكراً، وسلوكاً وعملاً.. فلا يكفي التقويم المستمرُّ، وتطوير النفس، بل لا بدَّ من الرقيِّ النفسيِّ والسلوكيِّ، وأن يكون المُربِّي قادراً على العطاء المتجدِّد، ولا يقف عطاؤه عند مرحلة لا يتجاوزها..

ـ المرونة في التعامل مع المتغيِّرات، والتكيُّف معها بما لا يخلُّ بالثوابت، ويتجاوز الحدود..

والناس بين الثوابت والمتغيِّرات على مواقف شتَّى؛ من الإفراط أو التفريط، والجمود أو التسيُّب، والاعتدال أو الجموح، وقلَّ مَنْ أوتي فقهاً أصيلاً، ووقف موقفاً عدلاً متَّزناً، بعيداً عن الأهواء الجامحة، والأوهام الخادعة..

وأخيراً: لا بدَّ من فهم عواصف المتغيِّرات التي نعيشها، والتي لم تكد تهدأ منها عاتية حتَّى تأتيَ أخواتها، ونُبتلى بما هو أشدُّ منها.. ولكلِّ عاتية صرعى وقتلى، وانتهاك لثغور وحرمات، ودوَّامة من المآسي والأزمات.. والله المستعان، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله، ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم..

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

الطِّفْلُ الأوَّلُ وأغرَارُ التَّربيَةِ

للطفل الأوَّل في جميع الأسر منزلة خاصَّة، ومكانة متميِّزة، وتبعاً لذلك فمن المفروض أن يتلقَّى تربيةً متميِّزة، ولكنَّ الواقع أنَّه يتلقَّى تربية ليست على المستوى المطلوب، لأنَّه يكون حقل تجارب الوالدين المبتدئين..

ومن ثَمَّ فإنَّه يتلقَّى تربية قاصرة، تعاني من تشوُّهات كثيرة، فقد تجنح ذات اليمين، فتكون مفرطةً في الشطط، وترك حبل الطفل على الغارب، وقد تجنح ذات الشمال فتكون موغلةً في الشدَّة والضغط، والمحاصرة للطفل من كلِّ جانب، فتكون شخصيَّته ضعيفة مضطربة..

وفي كلتا الحالتين، فإنَّ الطفل الأوَّل الذي يتمتَّع بتلك المنزلة الخاصَّة عند كلا الوالدين يكون ضحيَّة هذا السلوك المتطرِّف نحو أحد هذين الاتِّجاهين، ويكون مَيدانَ تجارِب، لمختلف الأفكار، والاتِّجاهات، والنظريَّات..

وهذه الملاحظة تكاد تكون عامَّة أو غالبة، وكثير من الآباء يشعر بالتقصير عندما يتقدَّم به العمر، وتنضج تجربته التربويَّة، ويتذكَّر ما كان عليه من مواقف، فيتمنَّى لو تهيَّأ له من يأخذ بيده، ويرشده إلى منهج الحقِّ في التربية، بما يكفل لأولاده حسن النشأة وسلامتها.. وربَّما استغرب مواقفه حتَّى لم يكد يصدِّقها، وقد كان قبلاً شديد الحماسة لها، والتمسُّك بها..

فالزوجان يصبحان مع إطلالة الطفل الأوَّل أباً وأُماً، وهما في هذا الباب أغرار مستجدُّون، مهما قرَؤوا مِن الكتب، وتعلَّمُوا ودرسوا، فالخبرةُ العَمَليَّة قلَّما يعيها الإنسانُ، ويقدِّر أبعادها إلا من خلال التجربة الذاتيَّة..

وكثير مِنَ الأفكار البرَّاقة التي نَطربُ لسماعها تكون خفيفةَ الوزنِ، ضعيفة الأثر عندَما تُوضَع على محك التجرِبة والواقع.. وربَّما زادت الهُوَّة اتِّساعاً بينَ الطرَفين عندما يحملُ أحدُهما أو كلاهمَا أفكاراً نظريَّة برَّاقَة، يظنُّها مسلَّمات قطعيَّة، يَتحمَّس لها، ويخاصم عليها صاحبه، ولا يتقبَّل أيَّ حوار حولها..

وهذه الملاحظات بما يتَّصل بها من نتائج وآثار تدلُّ على أنَّ أكثر المُقدِمين على تحمُّل مسؤوليَّة التربية ينقصهم العلمُ الضروريُّ، والتجربة المُرشِدة، كما ينقصهم التأهيل بدورات توعية تربويَّة، تضعهم على الطريق الصحيح في التربية، وهم بحاجةٍ ماسَّة إلى ذلك كي لا يكرِّروا أخطاء من قبلهم، ولا يبدؤوا من نقطة الصفر دائماً..

وإنَّ ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ من أهمِّ ميِّزات الحياة الاجتماعيَّة أنَّ الأبناء يتعلَّمون من تجارِب الآباء، وأنَّ التواصل بين الأجيال يعني نموَّ الخبرات، وتطوُّرَ الوسائل، وتجدُّدَ الأساليب، وما لَمْ يَعِ الجيل الناشئ تلك الحقيقة فإنَّه سيظلُّ يرى في نفسه الاستغناء بعلمه وذكائه وقدراته، عن الاستعانة بعلم الآخرين، وخبرتهم في الحياة وتجاربهم، وسيظلُّ يقفُ عندَ بعض معلوماتِه التربويَّةِ المتواضعةِ وقفة الإصرار، التي تقفُ سدّاً مَنيعاً دونَ تقبُّلِ أيِّ فكرةٍ أخرى أو حوارٍ وهنا مكمن الخطر والداء..

وهنا أجدُني بحاجة إلى أنْ أقدِّمَ لأغرار التربيةِ ثلاث نصائحَ مهمَّة:

الأولى: لا بدَّ لَهم مِن البحث عنِ الخبرة التربويَّة والسعي إليها، إذ الخبرة التربويَّة الموثَّقة تمنحهم سنوات من العمر، وتختصر لهم مراحل من التربية.

والثانية: لا بدَّ لَهم مِن القراءة التربويَّة الهادفة، التي تبنِي شخصيَّتهم، وتصحِّحُ معلوماتهم.

وَأخيراً: لا بدَّ لَهم مِن الحوارِ البنَّاء فيما بينهم، وليختلفوا في الرأي مَا شاؤوا، ولْيَتَحمَّسوا لمواقفهم كما أرادُوا، ولكنْ دونَ تعصُّب وانغلاق، وستعلِّمهم مدرسة الحوار البنَّاء دروساً مُمتعة، لا تُنسَى مدى الحياة.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

كَلِمَةٌ عَاجِلَةٌ مهمَّة إلى الأُسرَةِ المُلتَزِمَة

هذه الكلمة أوجِّهها بالدرجة الأولى إلى الأسرة الملتزمة، التي تحمل هذا العنوان الكبير بين الناس، وتفاخر به.. أهي كذلك حقيقة؟! أم غرَّتها اللافتة العريضة عن الحقيقة المطلوبة، فأصبحت تتغنَّى بما ليس فيها، وتتباهى بغير خلالها، كلابس ثوبي زور.. تسوِّق نفسها بين الناس بتلك اللافتة، التي تجرُّ لها كثيراً من المغانم، وتدفع عنها المغارم، ولكنَّها توقعها في المآثم، من حيث تدري أو لا تدري..

من الملاحظات العامَّة في هذا الباب أنَّ الشابَّ الملتزم عندما يعقد عزمه على الزواج، يبحث عن الأسرة الملتزمة، والفتاة الملتزمة، وعندما يتحقَّق له ما يريد تراه مع الأيَّام تبهت هذه علاقة الالتزام بينه وبين زوجته، فلا يكاد يحسُّ بها، ولا تكاد هي تحسُّ بها، وتغلب عليها العلاقة الدنيويَّة وتطغى.. فرُبَّما عاتبها زوجها ووبَّخها على تقصيرها في شيء من أمر بيتها، وفار وغضب لذلك، ولم يتسامح معها أو يعذرها، ورآها على أيِّ تقصير في أمر دينها، فلم يتوجَّه إليها بسؤال، أو نصيحة أو عتاب، ورُبَّما رأى هذا الأمر يتكرَّر مرَّة بعد مرَّة، فلم يعره انتباهه، ولم يثر شيئاً من اهتمامه.. فأين التزام هذا الزوج؟! وأين التزام هذه الزوجة؟!

عندما ترتفع همم الزوجين فتتعلَّق بالآخرة، وتهتمُّ بها، فهل يبقى فيها موضع للاشتغال بتوافه الأمور، والاختلاف على صغائر أشبه باختلاف الأطفال، لا تقدِّم ولا تؤخِّر؟!

ينبغي أن يعلم الزوجان الملتزمان أن لا بدَّ لرقائق الأخبار أن يكون لها مقام مميَّز في حياتهم، كيف لا؟! وقد كان لها ذلك في كلِّ شأن من حياة السلف العلميَّة والعمليَّة؛ ففي كتب السنَّة والحديث الشريف باب واسع للرقائق، وفي كتب الآداب الشرعيَّة، وفي كتب التصوُّف والتزكية، وهناك كتب مفردة في ذلك..

ولا يخفى ما للوعَّاظ ومجالسهم المشهورة من أثر اجتماعيٍّ كبير، وإقبال جماهيريٍّ منقطع النظير.. ثمَّ يتراءى لكثير منَّا اليوم أنَّ الوعظ خاصٌّ بالعامَّة! وهو نوع من ملء الفراغ، وترف الحديث! أو أنَّه خاصٌّ بأولئك المنحرفين عن صراط الله المستقيم، المسرفين على أنفسهم بالمعاصي والآثام..

إنَّ الغفلة عن الله والآخرة، والموت والحساب داء الإنسان الأكبر، وهي بداية الإدبار وفساد السلوك، ودواؤها ذكر الله، وسماع المواعظ المرقِّقة، واستعراض حياة السلف وأحوالهم، ومواقفهم وأخبارهم، في كلِّ شأن من شؤون الحياة..

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

مَأسَاةُ قَلْبٍ!

عشرون سنة أو يزيد.. وأنا أبني هذا الكيان بالبسمة الغالية، والضمَّة الحانية، والكلمة الرقيقة، والنظرة المعبِّرة، واللحظ والإشارة، والتوجيه اللطيف، والسلوك القدوة، والوقت والجهد، وأرق الليل وتعب الفكر، ألحظ هذا البناء من جميع جوانبه ونواحيه، وأرقب كلَّ ما يؤثِّر فيه، لا أدَّخر مالي، ولا أضنُّ بجهدي، ولا أحسب أدنى حساب لحظِّ نفسي، وراحة بالي.. ولست أمنُّ بذلك اليوم، وإنَّما أتحدَّث بنعمة ربِّي.. شاكراً فضله وتوفيقه..

عشرون سنة كنت ألحظ فيها المواقف، وأرقب العوادي والعواصف، وأقف في وجه القواصف، أحرس الحصون، وأقطع الظنون، وأرفع الأكفَّ بالليل والنهار، والسرِّ والجهار:

﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ الفرقان: ٧٤، ألحُّ في الدعاء وأضرع، وأبكي في بعض المواطن وأخشع، وأنا أرقب الغيب المجهول، والغد المأمول، أخشى ما يحمله الحدثان، وما يأتي به الجديدان..

عشرون سنة كنت أملأ القلب فيها بالأماني الكبار، وأحدِّث النفس بأطيب الآثار، وأشهى الثمار، وأسترسل مع الأماني والخيال، وأستحضر من صفحات التاريخ ما يحيي الآمال، ويجدِّد المثال..

عشرون سنة.. كنت ألحظ خلالها بوادر ما لا أرتضي من رعونات النفس وأهوائها، والشوائب التي تقف في وجه جهدي وبنائي، فأصدُّها بقوَّة تارة، وأحيد عنها متغافلاً تارة أخرى.. وأرقبها في جميع الأحوال، حذراً من تماديها، وقلقاً من مآلاتها وعواقبها.. فأضرع إلى الله أن تكون كسحابة صيف عابرة، لا كالريح المدبرة المدمِّرة..

واليوم وقد علا البنيان وتمَّ، واستوى زرعه على سوقه، وأبهجت ناظريه ثماره.. أو كأنَّي أحسبها كذلك، وتطلَّعت إليه الآمال مشرقة، والأماني متبرِّجة، ألمح معولاً خفياً، يحمل الويل، ويهدم بليل، ويضرب البناء في أُسِّه وقواعده، وجدرانه وأركانه، لا يبالي ما أنفق في تشييده، وما بذل في تكوينه، وما نال من جهد في تجميله وتحصينه..

فيا أيُّها المفسد المخرِّب في الخفاء ما بنيته لله تعالى، ثمَّ لك في عقدين من السنين، بما فيها من الشهور والأيَّام، والساعات والدقائق، والأماني والأحلام.. قل لي بربِّك: ما غرضك من هذا التهديم والتخريب؟! إن كنت تدري بأنَّك تهدم وتخرِّب، فتلك مصيبة كبرى، وبليَّة عظمى، وإن كنت لا تدري فتلك مصيبة المصائب، وإحدى الطوامِّ العجائب، ولا أدري والله ما الذي سلَّطك على بنائي لتنقضه، وعملي لتفسده، فحسبي الله عليك أوَّلاً وآخراً، وأحتسب مصيبتي بك عند الله، وهو حسبي، ونعم الوكيل، ولا حول، ولا قوَّة إلا بالله العليِّ العظيم.

هذا والله تعالى أعلم

وصلّى الله وسلّم وبارك على عبده ونبيّه سيّدنا محمّد

وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين.

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
الإهداء..	٣
المقدمة..	٤
في الإيمَانِ والرَّقَائِق..	**٦**
كَلِمَةُ (الله) هِيَ سِرُّ الوُجُودِ كُلِّه....................................	٦
مَا أجمَلَ هَذِهِ اللذات..	٦
مَقَامُ العُبُودِيَّة أو النِدِّيَّة..	٧
عَيْنُ البَصِيرَةِ تَتَجَاوَزُ الحُجُبَ الكَثِيفَةَ..................................	٧
السُّقُوطُ فِي العَلانِيَةِ لا يَكُونُ إلا بَعدَ السُّقُوطِ سِرّاً........................	٨
المسَافَةُ الأخرويَّة تُقطَعُ بِالقُلُوب......................................	٨
النِيَّـةُ هِيَ الرُّوحُ لِكُلِّ عَمَلٍ..	٨
التَّأثِيرُ العَظِيمُ للنيَّة..	٩
بِنَاءُ الإنسَانِ...	٩
الإنسَانُ حَيثُ يَجعَلُ نَفْسَهُ..	٩

جِئتُكَ مُعَزِّياً!.. ١٠

الغيبةُ عَلامَةٌ عَلَى ضعفِ الشَّخصِيَّة................................ ١٠

فَضْلاً أعِد النَّظَر! ولو كُنتَ نَاجحاً متميِّزاً.......................... ١١

ضَعِ المَوْتَ نُصْبَ عَينَيْك، واعمَلْ مَا شِئتَ فِي دُنيَاك.............. ١١

مَا أكرَمَ الحياةَ عِنْدَمَا تَسمُو الغَايَةُ................................... ١٢

هِجرَةُ القُلُوب.. ١٢

الهِجرَةُ هِيَ انعتَاقٌ مِنَ البَاطِلِ والظُّلْم................................ ١٣

أنتَ مَدَارُ العِزِّ أو الهَوَان لِنَفْسِك..................................... ١٣

اختَرْ لِنَفْسِكَ.. ١٤

العَوْنُ والتَّوْفِيقُ عَلَى قَدْرِ الهِمَّةِ والإرَادَة............................ ١٤

النَّاجِحُونَ مُتَفَائِلُونَ.. ١٤

مَا أعجَبَ النَّفْسَ... ١٥

وَقَفَاتٌ وأشْجَان مَعَ انقِضَاءِ الأعوَام ورَحِيلِ الأحبَاب............ ١٥

مَا أعجَبَ الزَّمَن.. ١٧

ذِكْرَى المِيلاد.. ١٨

وقفةٌ مَعَ النَّفْس!.. ١٩

هَكَذَا هِيَ الدُّنيَا! فاحزِمْ أمرَكَ للرحِيل.................. ٢٠

غَيِّرْ نفسَكَ تُسعِدْ حَياتَكَ!................................ ٢٤

غَيِّرْ نفسَك أغيِّرْ لكَ العالَـم!.............................. ٢٩

الشَّبَابُ والمَشِيبُ.. ٢٩

سَبِيلُ الهِدَايَة... ٣١

بُورِكْتَ أيُّهَا القَدَر!.. ٣١

مَا أعظَمَ هذه الصَّفقَة: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى﴾.................... ٣٢

رُوحُ المَبَادِئِ وحَيَاتها.. ٣٢

مِنْ عَظَمَةِ النَّبِيِّ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ........................ ٣٣

عَظَمَةُ النَّبِيِّ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ مِنْ عَظَمَةِ الرِّسَالَة............ ٣٤

الدَّعْوَةُ إلى اللهِ سُلُوكٌ أخلاقِيٌّ.................................. ٣٤

فِي رِحَابِ التَّنَاصُح.. ٣٤

مَا أسعَدَ الكَوْنَ بالإسلام..................................... ٣٥

حِينَ تَلْتَقِي الدُّمُوعُ بِلَذَّةِ المُنَاجَاة............................ ٣٦

لا تَأخُذِ النَّاسَ بِمَظَاهِرِهِمْ.. ٣٧

استَحضِرْ صُورَةَ الشَّيطَانِ.. ٣٧

وقْفَةٌ أمَامَ حُجُراتِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم.................... ٣٨

نَظْرَةٌ تَحليلِيَّة فِي الأمرَاضِ النَّفْسِيَّةِ والاجتِمَاعِيَّة وَأسبَابها............ ٤٠

تأمُّلاتٌ ولَطَائِف ونَفحات مِنْ وَحيِ سُورَة الحُجُرَات............ ٤٢

هَذَا لِغَيْرِي، فَمَاذَا لِي؟!.. ٥٠

صُورَةٌ مِنْ أدَبِ العِلْمِ مَنْسِيَّةٌ.. ٥٢

الحُبُّ أعظَمُ قُوَّة دَافِعَة.. ٥٣

نشوةُ الطَّاعَة.. ٥٥

كلُّ عَمَلٍ يَخرُجُ وَعَلَيهِ رَايَةُ إرَادَتِهِ.. ٥٦

مِنْ علامَاتِ إرادةِ الآخرة.. ٥٧

نحو نَظْرَة أعمق إلى حَقِيقَةِ الإخلاصِ وآثَارِهِ.......................... ٥٧

الإنسَانُ اليَتِيمُ.. ٦٣

بَشَائِرُ بَعْثَةِ الأمِين بِالحقِّ المُبِين.. ٦٥

هَمُّ المُستَقبَلِ.. ٦٩

(لا أُقَاتِلُ حَتَّى..) ٧٠

التَمِسِ الصَّوابَ قَبلَ أنْ تَبحَثَ عَنِ الأخطَاءِ ٧٠

لا بُدَّ أنْ نُقَدِّمَ بِسُلُوكِنَا صُورَةً مُشْرِقَة ٧٠

الصَّبْرُ وطُولُ النَّفَسِ طَرِيقٌ إلى القِمَّة ٧١

جُحْرُ الضَّبِّ ٧١

في الأخلاقِ والسُّلُوك ٧٤

﴿وَهُدُوا إلى الطَّيِّبِ مِنَ القَوْلِ﴾ ٧٤

حِينَ تَجِدُ رُوحَكَ فِي أجسَادٍ أخرى ٧٤

بَينَ التَّسَامُحِ والانتِصَارِ على مَنْ بَغَى ٧٥

هَل العِتَابُ صَابُونُ القُلُوبِ؟ ٧٦

مِنْ أبوَابِ السَّعَادَةِ ٧٦

لِماذَا غَابَتِ الأُخُوَّةُ الصَّادِقَةُ؟ ٧٧

هَكَذَا فَلْتَكُنِ الأُخُوَّةُ في الله ٧٧

الحَقُّ والأخلاق الحَسَنَة لا يفتَرِقَانِ ٨١

فَنُّ التَّعَايُشِ مَعَ النَّاس ٨١

النِّتُّ مِرآةٌ للفَرْدِ والأُمَّة ٨٢

﴿وجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ ٨٣

عَظَمَةُ الإسلامِ وَجَمَالُهُ **٨٤**

الإنسَانُ بَينَ الحُرِّيَّةِ والعُبُودِيَّة ٨٤

تَبتَعِدُ الرَّحمَةُ عِندَ الإنسَانِ عَلَى قَدْرِ ابتِعَادِهِ عَنْ هَدْيِ النُّبُـوَّة ٨٤

عِنْدَمَا أُقْصِيَ الإسلامُ أُقْصِيَت الرَّحمَة ٨٥

أيُّها المُتَخَوِّفُونَ مِنَ الإسلام! ٨٥

الإسلامُ جاءَ لِتَحرِيرِ الإنسَان ٨٦

حَضَارَةُ الحُبِّ! ٨٦

رِسَالَةُ الإسلامِ الربَّانيَّةِ العَالمِيَّة ٨٨

الإسلامُ أوسَعُ مِنْ كُلِّ المَذَاهِبِ التي تَنتَمِي إلَيهِ ٩٠

المُطَالَبَةُ بالحُرِّيَّةِ جُزءٌ مِنْ عُبُودِيَّتِنَا لله تَعَالى ٩٠

أيُّها الإسلاميُّون! أتدرون لماذا اختاركم الناس؟! ٩١

كُلُّ مَا ثَبَتَ فِي الدِّين فَهُوَ مَوصُولٌ بِالحَقِّ المَتِين ٩٢

بينَ الحَقِّ والبَاطِلِ.. مُفَارَقَاتٌ ومُقَارَبَات! **٩٣**

كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلطَانٍ جَائِرٍ........................ ٩٣

لِـمَاذَا كَانَتْ كَلِمَةُ الحَقِّ أفضَلَ الجِهَاد؟........................ ٩٣

لا مَوْضِعَ للحِيَادِ بَينَ الحَقِّ والبَاطِل........................ ٩٤

هَلْ يَجتَمِعُ الحَقُّ والبَاطِلُ في قَلْبٍ وَاحِدٍ؟........................ ٩٤

هَلْ زَمَانُنَا هُوَ زَمَانُ الانكساراتِ لأهلِ الحَقِّ؟........................ ٩٥

كَيفَ نَيأَسُ ورَبُّنا يَقُولُ: ﴿وَلا تَيأَسُوا﴾!........................ ٩٦

أحبُّكُم في الله!........................ ٩٦

دَمُ الأَضَاحِي يَقَعُ مِنَ الله بِمَكَان، فكَيفَ بِدَمِ المَظلُومِينَ؟.......... ٩٨

الحَقِيقَةُ والوَهْمُ........................ ٩٨

متِّعْنَا بِنَفْسِكَ يَا أَبَا بَكر!........................ ٩٩

سَدَنَةُ البَاطِلِ لا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ وَلا يَقْضُونَ بشيء............ ١٠٠

عِزَّتُنَا بَعدَ الثَّورة على الطُّغيَان، تُنْسِينَا ما وَجَدْنَا مِنْ آلام.......... ١٠٠

رَايَةُ الحَقِّ لا تُنَكَّس........................ ١٠٠

كَيفَ يُحِقُّ اللهُ الحَقَّ بِكَلِمَاتِه؟........................ ١٠١

الدُّنْيَا تَارِيخَانِ مُتَبَايِنَانِ........................ ١٠٢

حَبْلُ اللهِ هُوَ الحَقُّ.................................... ١٠٢

الحَقِيقَةُ والسَّرَاب.. ١٠٣

تَلْبِيسُ الحقِّ بِالبَاطِلِ.. ١٠٤

وَيْلٌ لِلظالِـمِ مِنْ مَظلُومِهِ!.................................... ١٠٥

شَحْذُ الهِمَّة إلى غَايَةِ الوُجُود................................. ١٠٥

نَحنُ بِحَاجَةٍ إلى ثَقَافَةِ الحُرِّيَّةِ والثَّورَة عَلَى الثَّقَافَة الفَاسِدَة........... ١٠٦

الطُّغَاةُ جَاهِلُونَ مُتَخَلِّفُونَ.................................... ١٠٧

سُبْحَانَ مَنْ أذَلَّ الجَبَابِرَةَ بِأضعَفِ الأسبَابِ........................ ١٠٨

مَصلَحَةُ النَّاسِ أنْ يَردَعُوا الطَّاغِيَة............................... ١٠٩

لَوْ كَانُوا يَعقِلُونَ!.. ١٠٩

مَهْمَا.. وَمَهْمَا.. وَمَهْمَا... ١١٠

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.................................. ١١١

﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾.......................... ١١٢

(لَنْ نَركَعَ إلَّا للهِ)... ١١٣

بَيْنَ قِيَادَةِ أهْلِ الحقِّ وقِيَادَةِ أهْلِ البَاطِلِ........................ ١١٣

مِنْ صِفَاتِ أَهْلِ البَاطِلِ.................................... ١١٣

كَيفَ نُمَيِّزُ بَينَ ابتِلاءِ أَهْلِ الحقِّ وابتِلاءِ أَهْلِ البَاطِلِ؟............. ١١٤

عِنْدَمَا يستَنِيرُ المؤمِنُ يَرَى البَاطِلَ على حَقِيقَتِه.................... ١١٤

مِنْ عَنَاوِينِ البَاطِلِ: المُرَاوَغَةُ والخِدَاعُ............................ ١١٥

﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾............... ١١٥

الألَمُ عِنْدَمَا يَمْتَزِجُ بِالإيمانِ....................................... ١١٥

ذِكْرُ الله تعالى عِنْدَ لِقَاءِ العَدُوِّ.................................... ١١٦

مَا أعظَمَ الأَهْوَالَ التي تَنتَظِرُ البَاطِلِ!................................ ١١٧

الحَقُّ يَحْتَاجُ إلى قُلُوبٍ طَاهِرَةٍ وعُقُولٍ نَيِّرَةٍ.......................... ١١٧

بُنْيَانُ الحقِّ وبُنْيَانُ البَاطِلِ....................................... ١١٧

الحقُّ يَهْزِمُ أَضْعَافَهُ مِنَ البَاطِلِ.................................... ١١٨

التَّمَسُّكُ بِالحقِّ لا يَعنِي الاستِخْفَافَ بِحَجْمِ البَاطِلِ................... ١١٨

أنوارُ الحقِّ وظُلُمَاتُ البَاطِلِ.. ١١٨

يا طلاب الحقِّ في كُلِّ مَكَانٍ!....................................... ١١٩

عَجِبتُ، وحُقَّ لكَ أنْ تَعجبَ!....................................... ١١٩

الرِّضَا بِالأمْنِ المَوْهُومِ مِنَ الطُّغَاة................................ ١٢١

هَنِيئاً لأهْلِ الحَقِّ.. ١٢١

حُزْنٌ فِي الأرضِ وأفراحٌ فِي السَّمَاءِ................................ ١٢٢

ارتِقَاءُ الشُّهَدَاءِ، وسُقُوطُ المُجرِمِين................................ ١٢٢

بَينَ المُدَارَاةِ وَالمُدَاهَنَة!.. ١٢٣

الحُبُّ للحَقِّ.. ١٢٤

الحَقُّ يُخَاطِبُ العَقْلَ والبُرهَانَ، والبَاطِلُ يُدَغْدِغُ الشَّهَوَاتِ......... ١٢٥

خِدَاعُ البَاطِلِ.. ١٢٦

عِنْدَمَا يُعْرِضُ الإنسَانُ عَنِ الحَقِّ، يَتَجَرَّدُ عَنْ إنسَانِيَّتِه.............. ١٢٦

عِزُّ العُلَمَاءِ الصَّادِقِينَ وذُلُّ الخَائِنين................................ ١٢٧

العَاصِفَةُ حِينَ تَكُونُ قَدَراً مِنْ أقْدَارِ الحَقِّ........................ ١٢٨

أعظَمُ كَلِمَةٍ فِي نُصْرَةِ الحَقِّ................................ ١٢٨

أسَالِيبُ البَاطِلِ وأسَالِيبُ الحَقِّ................................ ١٢٩

كَيفَ تَرضَى لِنَفْسِكَ السُّكُوتَ عَنِ الحَقِّ!........................ ١٢٩

العُلَمَاءُ الصَّادِقُونَ يَقِفُونَ فِي صَفِّ الأُمَّة........................ ١٣٠

مَنْطِقُ المَعْدِنِ النَّفِيسِ ومَنْطِقُ المَعْدِنِ الخَسِيسِ........................ ١٣٠

مَاذَا يَعنِي انحِيَازُكَ لِلحقِّ؟............................ ١٣١

﴿فكَأَنَّمَا قتَلَ الناسَ جَميعاً﴾.................................. ١٣٢

سِلاحُ الكَلِمَة.. ١٣٣

كَلِمَاتُ الصِّدْقِ سِلاحٌ قَوِيٌّ، فَكَيفَ بِأفعَالِهِ!....................... ١٣٤

الجِهَادُ بِالكَلِمَةِ الطَّيِّبَـةِ.................................. ١٣٤

مَرْحَباً بِكَ أَيُّها الحرُّ المُنتَصِرُ عَلَى الأَوْهَام.......................... ١٣٤

سُبْحَانَ مَنْ سَخَّرَ البَاطِلَ لخدمَةِ الحقِّ............................ ١٣٥

القُوَّةُ الذَّاتِيَّةُ هِيَ الحَلُّ.................................... ١٣٦

آيَةٌ تَجمَعُ مَنْهَجَ الحَقِّ....................................... ١٣٦

مِنْ أَلوَانِ الصِّرَاعِ بَينَ الحقِّ والبَاطِلِ.............................. ١٣٧

قَتْلُ الأعدَاءِ للدعَاةِ يُقَوِّي دَعْوَةَ الحَقِّ.............................. ١٣٨

اجتِمَاعُ الكَلِمَةِ وخُطُورَةُ التَّفَرُّقِ................................ ١٣٩

التَّمْكِينُ لِغَيرِ المُؤَهَّلِينَ يُشَوِّهُ صُورَةَ الحَقِّ.......................... ١٤٠

اللهُ قَدْ يُرَبِّي الأُمَّةَ بِالهَزِيمَة.................................. ١٤٠

قُوَّةُ الحَقِّ قَدْ تَتَمَثَّلُ في أحدِ حَمَلَتِهِ.................................. ١٤٠
عَجَباً! لا يَنتَهِي مِنْهُ العَجَب!!................................. ١٤١
﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلمُجْرِمِين﴾................................. ١٤١
نَعَمْ.. سَنفرَحُ ونُغِيظُ عَدُوَّنَا!................................. ١٤١
حَتَّى الأطفَالُ لَـمْ يَسْلَمُوا مِنْ بَغْيِ الطُّغَاةِ!........................ ١٤٣
يَطُولُ التَّمْحِيصُ عَلَى قَدْرِ المَرَض................................. ١٤٤
لَنْ تَسْعَدَ الرَّعِيَّةُ إلا بِالعَدْلِ والرَّحمَة................................. ١٤٤
﴿وَالعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾... ١٤٥
مِنْ دَرْءِ الفِتْنَةِ: قَوْلُ الحَقِّ والجِهَادُ................................. ١٤٥
الصَّبْرُ هُوَ في الثَّبَاتِ عَلَى الحَقِّ ولَيسَ في البَقَاء على الذُّلِّ............ ١٤٦
ضَرِيبَةُ الاستِكَانَةِ لِلبَاطِلِ أكبرُ مِنْ ضَرِيبَةِ الحَقِّ...................... ١٤٦
مَا سَبَبُ هَذَا الانتِكَاسِ؟... ١٤٧
أَيُّهَا العَالَـمُ المُتَحَضِّرُ!!... ١٤٧
تَحِيَّةٌ إِلَيْكَ أيُّهَا الوَطَنُ!... ١٤٩
مَعَالِمُ في المَنهَجِ العِلمِي وأدَب الخِلاف......................... ١٥٢

الجَمَالُ النفسيُّ والفكريُّ يَقُومُ على التَّوَازُنِ بَينَ الحَقَائِقِ والمَعَانِي....... ١٥٢

مَا هِيَ أسبَابُ الاختلافِ المذمُومِ.................................. ١٥٢

مَعَالم تَربَوِيَّة ومَنهَجِيَّة لِضَبْطِ المَسِيرَةِ الدَّعوِيَّة............................ ١٥٣

لقَد حَجَّرتَ واسِعاً!.. ١٦١

أهْلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَة فَضَاءٌ وَاسِعٌ لِلمُسلِمِينَ.................................. ١٦٤

حَتَّى تَكونَ كِتَابَتُكُم سَلِيمَةً ومُنْصِفَةً................................ ١٦٥

الحَقُّ كَالنَّهر.. ١٦٥

العَقْلُ مَنَاطُ التَّكْلِيفِ... ١٦٦

امتِحَانُ المَبَادِئ!.. ١٦٦

الخِطَابُ الدَّعوِيُّ بَينَ الجُمُودِ والتَّجدِيد................................ ١٦٩

(مَن سَنَّ فِي الإِسلامِ سُنَّة حَسَنَة)................................... ١٧١

التَّقِيُّ لا يَجِدُ حَرَجاً فِي الاعتِرَافِ بِخَطَئِه................................. ١٧١

لِمَاذَا يُسِيئونَ إلى نَبِيِّنَا صلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسلَّمَ؟! ومَاذَا يَجِبُ عَلَينَا؟!..... ١٧٢

نَمَاذِج مِنَ الفِعلِ الإيجَابِيِّ المطلُوب تجاه هذه الإسَاءات................ ١٧٤

قِمَمٌ لا نحسَدُ عليها!.. ١٧٥

النَّبِيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يُعَلِّمُنَا: المَوْضُوعِيَّة........................ ١٧٦

بَيْنَ اجتهَادِ الفَقِيهِ واجتهادِ السِّيَاسِيِّ.................................. ١٧٧

اضطِرَابُ المَوَازِين.. ١٧٨

ضَاعَتِ الأُمَّةُ بَيْنَ التَّمَرُّدِ والتَّبَعِيَّة..................................... ١٧٩

مَا لَـمْ نَرتَقِ بِأخلاقِنا فَلَنْ نَنتَفِعَ بِعِلمِنا................................ ١٧٩

طَالِبُ العِلْمِ وقول: (لا أدرِي).. ١٧٩

كُلُّ فَرْدٍ مَسؤُولٌ عَمَّا يَستَطِيعُهُ... ١٨١

الوَاقِعُ بَيْنَ أصحَابِ الهِمَمِ والقَاعِدِين.................................... ١٨٢

منطقُ التَّفْكِيكِ.. وضَحَايَاه البَائِسُون!..................................... ١٨٢

قَالُوا: يوم اللغَةِ العَرَبيَّة!.. ١٨٣

العَرَبِيَّةُ هِيَ نَبِيُّ اللغَات... ١٨٤

بمناسبة اليومِ العالميِّ لِلُّغَةِ العَرَبيَّةِ.. ماذا قدَّمْنَا لِلُغَتِنَا؟.................. ١٨٤

لماذا لَـمْ يُحدِث الفِكْرُ الإسلاميُّ التأثيرَ المطلوب؟.......................... ١٨٦

نَصَائح ذَهَبِيَّـة في الحيَـاةِ الزَّوجِيَّـة....................................... **١٨٨**

الزَّوَاجُ قَائِمٌ عَلَى الأخلاقِ الحَسَنَة....................................... ١٨٨

طَاعَةُ الزَّوْجَةِ لَيسَت استعبَاداً مِنَ الزَّوْج................ ١٨٨

الزَّوَاجُ بَينَ النَّظْرَةِ الإسلامِيَّةِ والنَّظْرَةِ المَادِّيَـةِ................ ١٨٩

الطَّلاقُ قَدْ يَكُونُ رَحمَةً................ ١٨٩

ومِنَ الحُبِّ ما خَرَّبَ البُيُوتَ ومَزَّقَ القُلُوبَ!................ ١٨٩

لا يَزَالُ بَعضُهُمْ مُتَخَلِّفاً فِي نَظرَتِهِ للمَرأة................ ١٩٢

وَاقِعُ الغَربِ فِي نَظْرَتِهِ لِلمَرأةِ وتَعَامُلِهِ مَعَهَا................ ١٩٢

البَيتُ المُسلِمُ الذِي نَطمَحُ إلى تكوِينِهِ................ ١٩٣

أورَاقٌ خَرِيفيَّة مِنْ رَبِيعِ العُمر.. مِنْ أيِّ الصَّحَارَى أنت؟!................ ١٩٥

كَيْ لا تَخْبُو جَذْوَةُ الحُبِّ.. عشرة أسباب طوع اليد والإرادة................ ١٩٧

القَولُ الأمتع في حَدِيث: (تُنْكَحُ المَرْأَةُ لأَرْبَعٍ)................ ٢٠٢

بَينَ جَمَالِ الظَّاهِرِ وجَمَالِ القِيَم................ ٢٠٧

تَأمُّلات ووقفَات مَعَ آيَةِ السَّكِينَةِ والمَوَدَّةِ والرَّحمَة................ ٢٠٨

العَلاقَةُ الزَّوْجِيَّةُ بَينَ التَّألُّقِ والتَّدَابُر................ ٢١٣

المَرأةُ بَينَ قَانُونِ الحُبِّ وقَانُونِ الزَّوَاج................ ٢١٦

فَنُّ الحِوَارِ الرَّاقِي بَينَ الزَّوْجَيْن................ ٢٢٠

إضَـاءَاتٌ تَـرْبَـوِيَّـة.. ٢٢٥

مُجتَمَعُ الشَّبَابِ أَمْ مُجْتَمَعُ الشَّيْخُوخَةِ المُبَكِّرَة؟!........................ ٢٢٥

بَيْنَ الشَّبَابِ وَالشُّيُوخ!.. ٢٢٦

بَيْنَ عَجْزِ الشَّبَابِ وَهِمَّةِ الشُّيُوخ!.................................... ٢٢٦

آفَةُ الشَّبَابِ وآفَةُ الشُّيُوخ.. ٢٢٧

لِـمَاذَا يَبْتَعِدُ الشَّبَابُ عَنِ الشُّيُوخ.................................. ٢٢٩

التَّرْبِيَةُ بِالحُبِّ.. ٢٢٩

رِسَالَةٌ إلى وَلَدِي المُرَاهِق!.. ٢٣٨

رُجُولةُ الأطفَالِ وَطُفُولةُ رِجَال!..................................... ٢٤١

لِـمَاذا نُحِبُّ الأطفالَ؟.. ٢٤٥

نَحنُ وَأطفَالُنا.. أيُّنا أحوَجُ إلى الآخَرِ؟............................ ٢٤٦

جَدِّدْ طُفُولَتَك!!... ٢٤٧

ارحَمُوا أطفَالَكُمْ!.. ٢٤٩

طُوبَى لِكُلِّ أُمٍّ!.. ٢٥٢

وَاضْرِبْ لَـهُنَّ مَثَلاً! تِلْكَ المِسكِينَة العَامِلة!.......................... ٢٥٤

كَيفَ نُؤَدِّي حَقَّ أولادِنَا؟.. ٢٥٦

مَعَالِـمُ التَّربِيَةِ الإسلامِيَّةِ فِي حَيَاةِ السَّلَف........................ ٢٧٠

الأسرَةُ الُمسلِمَةُ.. والمستَقبَل المأمُول!................................ ٢٨٣

بَينَ مَوَازِينِ الحَقِّ وإِرَادَةِ الإصلاح!................................. ٢٨٨

مِزَاجِيَّةُ الأبنَاءِ أم مِزَاجِيَّةُ الآبَاء؟...................................... ٢٨٩

مُتعَةُ النُّضجِ التَّربَوِيِّ.. ٢٩١

رُؤيَتِي فِي التَّربِيَةِ.. رُؤيَةُ خبرةٍ ومُعَانَاة................................ ٢٩٣

الطِّفْلُ الأوَّلُ وأغرَارُ التَّربِيَةِ.. ٢٩٨

كَلِمَةٌ عَاجِلَةٌ مهمَّة إلى الأسرَةِ الُملتَزِمَة................................ ٣٠٠

مَأسَاةُ قَلْبٍ!... ٣٠١

روائع
من كتابات
الشيخ العلامة
عبد المجيد البيانوني
جمع وإعداد
عمر بن عبد المجيد البيانوني
من كتابات الشيخ العلامة عبد المجيد البيانوني
جمع وإعداد
عمر بن عبد المجيد البيانوني